Université Sétif2

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة فرحات عباس-سطيف-

الجزائر

مذكرة

مقدمة بكلية الآداب والعلوم الإجتماعية

قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا

لنيل شهادة

الماجستير

في علم النفس العيادي

من طرف الطالبة

بلحاج أمينة

الموضوع

مساهمة في دراسة الصورة اللاّشعورية للجسم لدى طفل ضحية الإستغلال الجنسي من طرف مراهق أو راشد.

دراسة سيكودينامية

بتاريخ .../.../...

أمام اللجنة المكونة من:...

الأستاذ الدكتور جابر نصر الدين	جامعة بسكرة	رئيسا
الأستاذ الدكتور شرفي محمد الصغير	جامعة سطيف	مشرفا ومقررا
الدكتور جبالي نور الدين	جامعة باتنة	مناقشا

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وامتنان

نراد هو العلم نخبئه للأيام، نرتوي به إذا ما خانتنا ما قد نخالها آمال، لكنها في الحقيقة قد تكون أوهاما لا ينجينا منها إلاّ من له العلم والعالم بفكر تُضنيه الآلام.

حبا وخشوعا للمولى عز وجل، وعلم نتقرب به إليه، روح هائمة تناجي الخلاص في صدق كلمات نحاول من خلالها تخفيف آلام لا يدركها غير صمت أصحابها.

كلمات أوقع من طلقات الرصاص، نتعلم على وقعها يوما بعد يوم كيف يجب أن يكون وجود الإنسان لذا أنحني شاكرة لمن يدفعني لاحتراف نطقها، لكم مني الأستاذ الدكتور شريف محمد الصغير كل التقدير والاحترام . . . . لكم مني الامتنان على ما أنا عليه.

شكر وعرفان للأستاذ الدكتور جابر نصر الدين والدكتور جبالي نور الدين على قبول دعوة مناقشة مذكرتي، لإثرائها بملاحظاتهم البنّاءة.

شكر وامتنان أحمله كل لحظة لكل من علّمني حرفا حفِظتُ به نفسي وأفدت به غيري في جميع الأطوار، جزاهم الله كل خير.

شكر وامتنان للدكتور خوالد ربيع، رئيس مصلحة الطب الشرعي بالمؤسسة العمومية الاستشفائية بعين آزال على حسن تعاونه، وكرم صنيعه في تأطير وتوجيه الدراسة ضمن جانبها التطبيقي وبادي حمزة على مساندته لنا.

كل الامتنان أحمله لك قَنيش ياسين على خير صنيعك، ولكم ماجور حسان، عماري حسان، ديلمي حسان وزوجته قبل تسمية، بودوخة ليمين، مصباح رفيق وكعبش صالح على دعمكم ودوام حضوركم إلى جانبنا، لأعضاء جمعية التضامن الخيرية بصالح باي وعلى رأسهم بليلطة عصام، للمحامي هدنة رابح ولكل من سندوا كلمتنا.

أشكر أساتذة الأدب العربي بصالح باي على منحنا بعضا من وقتهم الثمين من أجل تنقيح لغة المذكرة.

شكر خاص لبن مخلوف سليم وسلامة حورية اللذين لولاطول بالسا لما أبصر هذا الجهد النور.

وأنحني شاكرة لكل من ساهم من قريب أو من بعيد في إثمار هذه الدراسة

وإليهم أهدي خلاصة جهدي.

الإهـــداء

□

إليك أمي ترياق الحياة. . . أهدي نجاحي.

إليك أبي منير دربي وحارس أحلامي. . . أقدم اعتزازي.

إليكـــم إخوتي حصن الأمان، محمد أنيس. . . محمد عدلان.

إليك توأم الروح ورفيقة الدرب، عزيزة النفس وما أعزها على قلبي . . عزيزة.

إليكـــم أحمل عبق الرحيق ومعكـــم أشق كل طريق

إلى من كانت ولا تزال رفيقة عمري . . من تسكنني ضحكاتها البريئة، الحالمة بيوم تقاسمني فيه طعـم هذا النجاح. . إلى من تربع بين البطينين، تستحوذ على أنفاسي التي تحييني . . إلى من بلّل وجعي على فقدانها بالأسى طعـم فرحي بإتمام هذا العمل . . إلى من فطرت قلبي برحيلها. . . أختي وابنة خالتي هاجر سعود.

لكـــم نصفي الآخر الذي معه تزهو النفس ويطمئن القلب

إلى من أحفظهـــم في مضغة الحياة

أهدي نجاحي

أمينـــة

كُلَيْمَاتٌ على لِسَانِ البَرَاءَة

الإحساسُ بالرفض

مِنَ السَّهْلِ جِدًا أنْ يَتَسَرَّبَ الإحساسُ بالرفض إلى دَاخِلي

أنْ أُحِسَ بِاحْجَامِ الغَيرِ عَنْ مَحَبَّتِي

وكأنَّ بي عَيْبٌ، لَيسَ لَهم مَقْدِرَة وأنا أَحمِلُه على مَعَاشَرَتِي

وكأنَّني مَسَخٌ أُطْلِقَ في هذه الحياة فَقَط لِيُسْقِط عليه الآخرون عُقَدَهُم

من المؤلِم حقًا أنْ تَلْتَمِس في أَعْيُنِ الآخرين انعِكَاسًا لِذَاتِك

وكأنَّك لا تَعْرِف نَفْسَك إلاَّ مِنْ خِلالِ مِرْآةِ أعيُنِهم القَاسِية

لَيتَنِي لم أُولَدْ، لَيتَنِي لم أُوجَدْ على وَجْهِ هذه الأرض

هي الكَلِمَاتُ الوَحِيدَة التي تُشْفِي ظَمَأَ حَيْرَتِي

لأنَّها وَلَمْحِ البَصَرِ تُعِيدُنِي إلى العَدَمِ . وما أقساهُ عَالَماً

بُرودَتُه تَسْكُنُ عِظَامَك، تُجَمِّدُ الدَمَ في عُرُوقِك

تَسْلُبُ رُوحَكَ . تَجعَلُكَ بَلِيدًا . وَحِيدًا

يَائِسًا مِنْ نَفْسِكَ قبل أنْ تَيْأَسَ مِمَا حَولك

بلحـــاج أمينـة

فهرس الجداول

الرقم	عنوان الجدول	الصفحة
01	جدول يوضح النمو الغريزي – العاطفي عند الأطفال	79
02	جدول يوضح مجموعة من العناصر التي يمكن أن تُخضع للملاحظة بأشكالها – الحالة الأولى	185-182
03	ورقة التنقيط 1 للحالة الأولى	200-197
04	ورقة التنقيط2 للحالة الأولى	205-202
05	جدول يوضح مجموعة من العناصر التي يمكن أن تُخضع للملاحظة بأشكالها – الحالة الثانية	215-211
06	ورقة التنقيط 1 للحالة الثانية	231-228
07	ورقة التنقيط 2 للحالة الثانية	235 -232

فهرس الأشكال

الرقم	عنوان الشكل	الصفحة
01	رسم توضيحي يبيِّن سيرورة اكتساح الصدمة للحويصلة الحية	30
02	شكل يوضح آلية الاستناد L'étayage حسب Freud	86
03	مخطط يوضـــح ســـــــيرورة الإرتباط	88
04	مخطط يـــوضـــح نمـــــوذج الجسدنـــــة	151
05	رسم بياني يوضح نسبة الاعتداءات الجنسية مقارنة بنسبة الفحوصات	155
06	رسم بياني يوضح نسبة الاعتداءات الجنسية لدى الذكور ولدى الإناث	156
07	رسم بياني يوضح نسبة الاعتداءات الجنسية لدى القصّر ولدى الراشدين	156
08	رسم بياني يوضح نسبة الاعتداءات الجنسية لدى الذكور والإناث من القصّر	157
09	رسم بياني يوضح نسبة توزع الاعتداءات الجنسية في المناطق التابعة لمصلحة الطب الشرعي –عـــــين آزال–	157

فهرس المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة
الفصل التمهيدي	
المقدمـــة / الإشكالية.....	02
الفرضيات.....	07
دوافع الدراسة.....	07
أهمية الدراسة	08
الهدف من الدراسة	09
الجانب النظري	
الفصل الأول: الصدمـــة النفسية_الجنسية	
1- لمحة تاريخية حول تناول مفهوم الصدمة.....	11
2- مفهوم الصدمة النفسية وحالة الشدة ما بعد الصدمي في الجزائر.....	12
3- مفهوم الصدمة النفسية	14
3-1- الحدث الصدمي	15
4- الخوف، القلق والهلع	15
5- محددات الصدمة النفسية	16
5-1- طبيعة وشدة الحدث الصدمي	16
5-2- عوامل الاستعداد	16
5-3- عامل المفاجأة	17
6- التناول النظري لمفهوم الصدمة	17
6-1- Freud والصدمة النفسية	17
6-2- Sandor Ferenczi والصدمة النفسية	21
6-3- D.W. Winnicott والصدمة النفسية	24
7- تناذر التكرار	26
8- البعدي l'Après - Coup وإرصان الصدمة	27
9- حالة الشدة ما بعد الصدمي PTSD	28
9-1- حالة الشدة ما بعد الصدمي PTSD والضغط Le Stress	29
9-2- المعايير التشخيصية لاضطراب حالة الشدة ما بعد الصدمي حسب DSM IV	31
9-2-1- اضطراب حالة الشدة ما بعد الصدمي لدى الأطفال	32
الفصل الثـــاني: الإستغـــلال الجنســـــــــي	
1- العنف	35
2- تعريف الاستغلال الجنسي	35
2-1- الإطار القانوني	35

2-2- التعريف اللغوي 36
2-3- التعريف الاصطلاحي 36
2-4- تعريف منظمة الصحة العالميةL'OMS 37
3- الموافقة Le consentement 37
4- بين اللعب الجنسي والاستغلال الجنسي 38
5- اشتهاء الأطفال La Pédophilie 39
5-1- مفاهيـــــم 39
5-2- أصناف مشتهيي الأطفال 39
5-3- أشكال الاستغلال الجنسي للأطفال 40
5-4- المشتهي الجنسي للأطفال Le Pédophile 41
5-5- رغبة الراشد نحو الطفل 44
5-6- سمات الأسرة التي يقع أطفالها ضحايا للاستغلال الجنسي 45
5-7- الرابط بين الطفل والمعتدي 46
6- سيرورة الاستغلال الجنسي للأطفال 47
7- الخزي 50
7-1- مفهوم الخزي 50
7-2- مراحل الخزي 50
7-3- الخزي يحطم حاجز التمييز بين الفضاء الحميمي والفضاء الخاص بالآخر 51
7-4- الخزي يُكسر الحوار المستدخل ذات مع ذات/ التجريد من جميع الروابط إلا الرابط مع المعتدي..... 52
7-5- الحياء 52
7-6- الإحساس بالذنب 53
7-7- التكفل النفسي بالخزي 54
8- تناذر التكيف للطفل ضحية الاستغلال الجنسي 55
8-1- السر 55
8-2- الإحساس بالعجز 56
8-3- الطفل يتكيف مع هذه الوضعية 56
8-4- الإفشاء (الكشف) المتأخر وغير المقنع 57
8-5- الانقباض (الانكماش) 58
9- الأسرة والمجتمع وسيرورة إخضاع الطفل 58
10- الجنس والمحرَّم في المجتمع الجزائري 61
11- كلمة الطفل أمام تخاذل الأسرة والمجتمع 63
12- بعض المعالم من أجل التدخل في حالة الاستغلال الجنسي 64
12-1- بالنسبة للطفل ضحية الاستغلال الجنسي 65
12-2- بالنسبة للمتدخلين (الأخصائيين)..... 65

13- الجنسية والحوار 66
14- تقنية تحليل متكيفة مع الأطفال 67

الفصل الثالث: النمو النفسي الجنسي للطفل

1- الجنسية الإنسانية 71
1-1- التناسلية 71
1-2- الجنسية 71
2- مراحل النمو النفسي الجنسي حسب S. Freud 73
2-1- المرحلة الفمية 73
2-2- المرحلة الشرجية 74
2-3- المرحلة الإحليلية "القضيبية" 75
2-4- مرحلة الكمون 77
2-5- البلوغ والمراهقة 78
3- الاستمناء ومراحله 80
4- الغواية أثناء العنايات الجسدية وأثرها الصدمي 80
5- نظرية الارتباط 82
5-1- مفهوم القاعدة الأكيدة حسب J. Bowlby وبناء النرجسية 82
5-2- نموذج الارتباط لبولبي J. Bowlby 83
5-3- الميكانيزمات الأولية للارتباط 85
5-4- الارتباط والجنسية 85
6- كفاءة الوظيفة الوالدية 89
6-1- الوظيفة الوالدية كصاد للاثارات 90
7- آليات الدفاع النفسي 90
7-1- الآليات الموظفة من طرف الأنا الطفلي 92

الفصل الرابع: الصورة اللاّشعورية للجسم

1- التصور الجسدي وصورة الجسم، لمحة تاريخية 110
2- مفهوم التصور الجسدي 114
3- مفهوم الصورة اللاّشعورية للجسم 114
3-1- صورة القاعدة 115
3-2- الصورة الوظيفية 117
3-3- الصورة المولدة للغلمة 117
3-4- الصورة الدينامية 118
4- الأنا الجسدي 119
4-1- الأنا البشرة Le Moi- Peau ووظائفه 120

5- تطور صور الجسم حسب Françoise Dolto 123
5-1- ثالوث حاجة- رغبة – طلب 123
5-2- الثنائية والثلاثية 123
5-3- الأنا المساعد 124
5-4- الموضوع الانتقالي حسب F. Dolto 124
5-5- Les Objets Mamaisés 125
5-6- فضاء الأمان 125
5-7- قلق الشهر الثامن بين Réné Spitz و Françoise Dolto 125
5-8- ابتسامة الشهر الثالث بين Réné Spitz و Françoise Dolto 126
5-9- المناطق المولدة للغلمة 126
5-10- صورة الجسم والهو 127
5-11- صورة الجسم ونزوات الموت 128
5-12- صورة الجسم وخصوصية الاسم 129
6- الوظيفة الرمزية 130
6-1- الخصاء المنشئ للرمز 130
6-2- أنواع الترميـــز 130
6-3- الشروط الضرورية من أجل ضمان البعد المنشئ للرمز لسيرورة الخصاء 131
6-4- ملاءمة الخصاءات للتصور الجسدي 132
7- الخصاءات 132
7-1- الخصاء السري 132
7-2- الخصاء الفمي 133
7-3- الخصاء الشرجي 134
7-4- مرحلة المرآة 136
7-5- الخصاء الأولي :خصاء تناسلي غير أوديبي 138
7-6- الخصاء التناسلي الأوديبي: تحريم زنا المحارم 139
7-7- مرحلة الكمون 140
8- ثمار الخصاءات 141
9- الرابط النرجسي، الأركان النفسية وتحرير الليبيدو بفضل الخصاء 141
10- أمراض صورة الجسم 143
10-1- أخطار تشوه صورة الجسم أثناء الحمل 143
10-2- الصدمات المبكرة أثناء الولادة 144
10-3- الفطـــام وإخفاقاته 145
10-4- العمر الفمي، الشرجي والمراحل اللاحقة حتى الخصاء الأولي 146
10-5- المرحلة التي تلي الخصاء الأولي- المرحلة الأوديبية ومرحلة الكمون 149

11- العلاقة نفس /جسد : بين الهستيريا والجسدنة 149

الفصل الخامس: الإطار المنهجي للدراسة

1- المنهـــج المتبـــع 154
1-1- مفهـــوم المنهـــج العيـــادي..... 154
1-2- دراســة الحالـــة كمنهـــج وأداة 154
1-3- مسلمات المنهج العيـــــادي 154
1-4- ركائز المنهج العيـــــادي 155
2- عينـــة الدراســـة 155
2-1- إحصائيات حالات الاستغلال الجنسي على مستوى مصلحة الطب الشرعي بعين آزال -سطيف- 155
2-2- شروط اختيار العينة 158
2-3- الإطار المكاني والزمني للدراسة 158
3- أدوات الدراسة 159
3-1- الملاحظـــة 159
3-2- المقابلـــة 162
3-3- الرسم لدى الأطفال ومراحل تطوره 168
3-4- اللعـــــــب 173
3-5- الاختبار التعبيري الإسقاطي 174

الجانب التطبيـــــقي

الفصـــــل السادس: عرض وتحليل الحالات

1- الحالـــة الأولـــــى 179
1-1- تقديم العميل وعائلته 179
1-2- كشف سر الاستغلال الجنسي حسب أقوال الأم 180
1-3- واقعة الاعتداء الجنسي حسب أقوال الأم 181
1-4- التغيرات التي طرأت على العميل بعد الاعتداء الجنسي حسب أقوال الوالدين 181
1-5- المعتـــــدي. 182
1-6- شبكة الملاحظة الخاصة بالحالة الأولى 182
1-7- مقابلة01 مارس 2010 186
1-8- تحليل الرسومات 197
1-9- تحليل المحتوى في ضوء الملاحظة والمقابلة ونتائج الاختبار الاسقاطي 207
2- الحالـــة الثانيـــة 209
2-1- تقديم العميل وعائلته 209
2-2- كشف سر الاستغلال الجنسي حسب أقوال الأم..... 209
2-3- واقعة الاعتداء الجنسي حسب أقوال العميل 210

2-4 - التغيرات التي طرأت على العميل بعد الاعتداء الجنسي حسب أقوال الوالدين..... 210
2-5- المعتـــــــدي..... 211
2-6- شبكة الملاحظة الخاصة بالحالة الثانية..... 211
2-7- مقابلة 11 أفريل2010 216
2-8- تحليل الرسومات 228
2-9- تحليل المحتوى في ضوء الملاحظة والمقابلة ونتائج الاختبار الإسقاطي..... 237
3- التحقق من الفرضيات..... 239
خلاصة 240
قائمة المصادر والمراجع .....
الملاحق .....

الملخـــص

تساهم دراستنا في تقديم رؤية سيكودينا مية تحليلية لظاهرة الاستغلال الجنسي ضمن ترابطية النفسي والجسدي، من خلال محاولة إسقاط مفهوم الصورة اللاّ شعورية للجسم كما أعدَّ ته طبيبة الأطفال والمحللة النفسية Françoise Dolto، على أطفال لم يتجاوزوا العشر سنوات من عمرهم، وقعوا ضحايا للاستغلال الجنسي من قِبل مراهق أو راشد، **متسائلين عن التأثيرات التي تحدثها صدمة الاستغلال الجنسي على الصورة اللاشعورية للجسم لدى هؤلاء الأطفال** ، من خلال رؤية علائقية قائمة على مفهومي الرابط والمعنى، لذلك أخذنا على عاتقنا تقديم تطور جنسية الطفل ضمن نموه العلائقي دون اختزال لشخصه، وفي ضوء الخصوصية الثقافية للعائلة الجزائرية.

وما ارتأينا إلى وضعه من فرضيات عامة وجزئية مُ ضَمَّنة، قد تحققت تبعا لمنهج F. Dolto التحليلي وضمن إنبنائها وما خَلُصَت إليه من نتائج، فتحت هذه الدراسة أبوابا وتساؤلات بحثية عديدة تترقب طرحها ضمن مشاريع علمية بحثية مستقبلية.

الكلمات المفتاحية : الاستغلال الجنسي للأطفال- الصورة اللاشعورية للجسم - النمو العاطفي الجنسي للطفل - الرابط- المعنى- التصورات الثقافية الجزائرية عن الجنسية.

Résumé

La présente étude est une contribution à la présentation d'une vision psycho-dynamique analytique au phénomène de l'exploitation sexuelle dans le cadre de l'interrelation entre le psychique et le physique, à travers l'application du concept de l'image inconsciente du corps tel que proposé par la pédiatre et psychanalyste Françoise Dolto, sur des enfants de moins de 10 ans d'âge, victimes d'abus sexuel de la part d'adolescent ou d'adulte. Nous soulèverons la question des effets qu'aura le choc de l'abus sexuel sur l'image inconsciente du corps chez ces enfants, à travers une vision fondée sur les deux concepts du lien et du sens. C'est à cette fin que nous avons entrepris de présenter l'évolution de la sexualité de l'enfant au sein de développement relationnel sans réduire sa personnalité, et à la lumière de la spécificité culturelle de la famille algérienne.

Les hypothèses générales et spécifiques que nous avons émises ont été confirmées selon la méthode d'analyse de F. Dolto, et d'après les résultats obtenus, cette étude a donné lieu à de nombreuses nouvelles problématiques qui méritent d'être soulevées dans de futures recherches.

Mots-clef : Abus sexuel des enfants - Image inconsciente du corps- Développement affectif et sexuel de l'enfant- Lien - Sens - Perceptions culturelles algériennes de la sexualité

SYNOPSIS

This study pertains to provide a psychodynamic analytic vision of the sexual abuse phenomenon within corporal and psychological correlation, and this through trying to project the notion of unconscious image of the body as the one engaged by the pediatrician and psychologist Françoise Dolto on children under 10 years of age who were victims of sexual abuse by a teenager or an adult; trying to investigate about the effects that are caused by the sexual abuse trauma on the unconscious image of the body to these children through an interrelational vision standing on link and significance principles. Wherefore we tried to provide the evolution of the sexuality of the child within his interrelational growth without reducing his personality in light of the cultural specificity of the Algerian family.

The general and specific hypotheses that were posed came to fruition according to F. Dolto's analytic procedure, within its reconstruction and what it ended up with as results; this study opened a myriad of research questions that can be investigated through prospect future research projects.

Key Words: Sexual abuse on children - Body unconscious image - Emotional sexual growth of a child – Bond - Meaning - Algerian cultural conception about sexuality.

الفصل التمهيدي

المقدمة/الإشكالية

شَكَّلَ مفهوم سوء المعاملة La maltraitance بظهوره توسعا ضمن مضمونه، بالانتقال من مفهوم وتعبير الطفل المضروب L'enfant battu، أين التركيز على التكامل الجسدي، إلى الطفل المساءَة معاملته L'enfant maltraité أين تضاف المعاناة النفسية والمعنوية إلى المعاناة الجسدية.

ومفهوم سوء المعاملة ينطبق على كل ما يُسَام في استلاب ومعاناة شخص بسبب شخص آخر والاستغلال الجنسي يمكنه بدءا من تعريفه، أن يتموضع ضمن أكثر أشكال سوء المعاملة عنفا خاصة عندما يكون ضحيته طفل، إذ يستند على الاستعمال المفرط للسلطة التي يم تلكها الراشد على الطفل، ومن جهة أخرى، لأنه يتضمن جنسية الراشد مثل جنسية الطفل، ويُحَمَّل الطفل جرَّاء هذا ذنبا ثقيلا، وبذلك فالاستغلال الجنسي للأطفال هو واحد من أشكال سوء المعاملة الأكثر تسترا، الطفل يخاف أن يتكلم، وعندما يفعل، يخاف الر اشد من الإصغاء إليه.(Gabel, 1998, p.07)

الطفل الذي هو مُمثّل اجتماعي ، فهو إذًا مواطن، مُهيّأ أصلا بقدرات مماثلة لكل كائن إنساني، ولكنه يبقى مُطفَّلا (تُلحق به سمة الطفولية) لأسباب اجتماعية وظرفية، يُمْنع من ممارسة ملئ إنسانيته الكاملة ويُحْمَل على الخضوع لمجتمع الراشدين.(Quentel, 2008, p.27)

وتؤكد Françoise Petito في"De l'enfant-roi à l'enfant victime : l'enfant oublié" بأن نظرتنا للطفل متغيِّرة حسب الزمن، وصلت اليوم إلى التفكير فيه كليا كضحية، ترى بأننا فقدنا نظرتنا "للطفل الفرويدي" المسكون بالجنسية الطفلية، الذي يعطي مع نى لإدراكاته الحسية والعاطفية، فقدنا كذلك النظر إلى الطفل كشخص Un sujet بالمعنى الذي قصدته Françoise Dolto، بأنَّ له تأويله الشخصي واللاّ شعوري لما يسرده، فالطفولة هي هذه الفئة الضحية بسبب ضعفها. (Lebrun, 2002, p.08)

Françoise Dolto جذبت النظر إلى ذكاء الطفل، هذا الوعي الذي يجب أن يدفع الراشدين إلى أن يكونوا أكثر استقبالا لإشارات الأطفال، لوضعها تحت التساؤل، استثمار بيداغوجي لإمكانيا ت المولود نحو مساعي تقويم نرجسي، للراشدين الذين نسوا أن الطفل شخص له لاشعور، له رغبة، والذي- على الفور- مَعْنِيٌ بروابط المعنى، مسجَّل ضمن نسل وقصة وحياة، ولهذا فالشخص ليس له عمر، حتى وإن كان للطفل في حد ذاته عمر، فالطفل هو كائن، شخص كامل العضوية "L'enfant est un être, un sujet à part entière". (Hassoun, Spielmann, 1995, p.85)

لذلك فالجنسية الإنسانية التي هي تنظيمة نفسية جسدية مشتركة بين جميع الكائنات الإنسانية، تدفع الطفل منذ ولادته إلى إقامة رابط مع الآخر، وإلى اكتشاف الاهتمام ولذّة أن يكون مع الآخر حتى يصل فيما بعد إلى جنسية راشدة، وهذا الاكتشاف يتم تبعا للإمكانيات الفزيولو جية والنفسية التي يمتلكها الطفل، وطبيعة الاحتياجات الجنسية للطفل يُحدِّدها عدم نضجه على جميع المستويات، وهي جد مختلفة عن تلك الاحتياجات الجنسية للراشد. (B. Robert-Ouvray, 2003, p.188)

وارتباط الطفل بالجنسية يعكس دائما الواقع، خصوصا وأنها تُزعج النظرة التي نحملها عن نظام الطفل، عن نظام عائلته والمدرسة أو المؤس سة التي يُعتنَى به داخلها، فالطفل في المجال الجنسي شفاف جدا، متأثر بمحيطه الاجتماعي المباشر، وبالطريقة التي أُسِّست بها المساحات الحميمية داخل العائلة، فجنسيته لا تعكس نظامه النفسي بالقدر الذي تَكشِف فيه عن قابليته لود الفعل، وعن خلل الأوساط التي هو في تفاعل معها.
(Ansermet, 2002, p.73)

وقد أكد Tobie Nathan من خلال دراسة اثنوتحليل ونفسية Ethno psychanalytique للعائلات المهاجرة، بأنه في أغلبية المجتمعات التقليدية، الأطفال يمارسون جنسيتهم الكاملة (الجِماع) ابتداء من سن الست سنوات (06) أو السبع سنوات (07)، مرحلة تعَوَدنا تسميتها "فترة الكمون""Période de latence"، نسينا تماما بأن هذه الفترة هي كذلك فترة التمدرس المكثّف، وفي القرى، في غياب المدرسة أو تَعذُّرها، الأطفال يمارسون قدراتهم الفكرية وعُرَّافهُم الطبيعي في التعمق وفي تجريب معارفهم الجنسية، فإذا قصدنا بفترة الكمون ركود الرغبة الجنسية، فإن ملاحظة الأطفال ضمن مجتمع تقليدي، سوف تقودنا إلى التفكير بأن فترة الكمون هي اختلاق خالص. (Gabel, 1998, pp.24, 25)

وكثيرون هم مِن المراهقين مَن يُ خضعون الأطفال الأقل سنا أو المراهقين ا لأكثر ضعفا إلى متطلباتهم الجنسية، خالقين على الفور وضعية صدمية بالنسبة للضحية، فكل شيء يحدث وكأن الموضو ع قد وُظّف -فقط- تحت شكل جزئي، كمكان مُحَتَّم لتفريغ نزوات المعتدي. (Ansermet, 2002, p.78)

الذي يأتي كشخص جيد، مع وعد ملئ كل الفراغ العاطفي للطفل، فيفتح حاجاته، ويُضعِفه بشكل ما حتّى يغتنم هذا الاطمئنان العلائقي ليخون وليسلب الطفل الذي يجد نفسه أمام العنف، عنف هو -حسب Igor Reitzman- كل تصرف بغرض إكراه شخص على التفكير والسلوك بطريقة معينة، على تحمُّل خبرة لم يقم باختيارها، هو تصرف من أجل تَشْيِيء الآخر، وجعله أداة بإنكاره كشخص، ليس كالحنان، شكل علائقي يخلق روابط ويحرِّر الأجساد، هو عنف الذي يأتي ليفجِّ ر أنظمة الطفل الدفاعية الهشَّة، ومثلما يَحدث أثناء الزلزال، يَرُجّ ويزعزع القاعدة النرجسية، ليعيد إحياء صدمات سابقة تُضَاعِف وضعيته كضحية.

والاستغلال الجنسي هو هذا العنف الغير معقول، الذ ي يجتاح المسرح النفسي للطفل بإحساس من الرعب لتستقر الصدمة كجسم غريب داخل النفسية، إنها حَدَث معقد وعاطفة بدون تصور ممكن، تعطيل نفسي مع كَفٍ للوظائف العقلية، والأثر المنشِئ للمرض جرّاء الاستغلال الجنسي، يُسَجَّل ضمن عدم الاستعداد الفزيولوجي والعقلي للطفل، الذي يتواجد أمام شيء لا وجود لديه لِمدلول عنه، وبهذا لا وجود لأي ترميز ممكن، لأن الصدمة لدى الطفل هي إثارة مفرطة تستعمل العلاقة مع الآخر، تستعمل الرا بط الإنساني الذي يسمح له بالانبناء، فعندما يفقد الطفل فجأة الراشد الذي معه بدأ قصةً تسمح له بالنمو، يصبح القلق صدميا، والقلق الصدمي لدى الطفل هو عاطفة المستحيل L'affect de l'impossible، ليس فقط استحالة إعطاء معنى لمثير مهما يَكُن، وإنما استحالة إعطاء معنى لعلاقة، هذا الألم الذي حسب Annie Gauvain-Piquard (1993) في "La douleur de l'enfant" يختص بغرابته غير المتصَوَّرة، دون تاريخية، ومُحدِثة تَوَقُّفًا في الزمن، وكل مرة

المصير الأكثر تواترا للخبرة المؤلمة في النفسية يبقى طَمْرُ ها، وإذا نسينا أو كبتنا الأحاسيس المؤلمة، فلن يبقي منها سوى الإسناد النفسوجسدي، ليترك لنا آثارا للعواطف والتصورات التي تُكْمل عملها في تسميم المتعضي.

(B. Robert- Ouvray, 2003, p.137, pp. 172-179)

هي المعاناة التي تكسِّر اتصالية علاقة حية، فالشخص لا يملك الكلمات من أجل الحديث عنها، والجسم كأنه مبتور في مكان خاص بقصة رابط حب مقطوع، مُكسَّر ويدل – بإخمادِ نوعًا ما جزءًا منه – على التعبير المستحيل عن المعاناة القاسية المتكبَّدَة.

وهناك في حياة الطفل حسب Françoise Dolto ثلاث اتصاليات، اتصالية للجسد Le continuum du corps، اتصالية الانفعالية Le continuum de l'affectivité واتصالية اجتماعية Le continuum social والاتصالية لدى الطفل هي جسده وانفعاليته، جسده المؤسَّس ضمن حيز معيَّن مع الراشد الحامي، فإذا لم يبق هذا الحيز نفسه، الطفل لن يجد نفسهَ مطلقا داخل جسده، بمعنى ضمن معالمه الحيزية والزمانية.

(Dolto, 1988, p.17)

فالجسد هو حامل لخطاب متضَمِّن لقصة الشخص ولحقيقة رغبته، بمقدار الخطاب المنطوق عن طريق الكلمات، وقد عبَرَ ت F. Dolto ضمن إعدادها لصور الجسم، من الصورة اللاّشعوري ة للجسم إلى ذاكرته اللاّشعورية، بمعنى أن كل شيء يُخزَّن يترك أثرا، فجسدنا ه و في الواقع دعامة ذاكرتنا، قد سجل الأحداث البارزة من قصتنا، وكل ما ترك أثرا، مداعبة أو جرح، أين الأصل كان مباشرة فزيولوجي أو لفظي، والأغلب ذلك والآخر، تسجيلات مرتبطة بعواطف ممتعة ومستحَبة أو مؤلمة.

(Hassoun, Spielmann, 1995, pp.51, 52, p.85)

فصورة الجسم هي أين تتسجل الخبرات العلائقية للحاجة، والرغبة المقيِّمة Valorisante أو غير المقيِّمة Dévalorisante، بمعنى المعزِّزة للنرجسية Narcissisante، أو السالبة لها Dénarcissisante، هذه الإحساسات تتمظهر من خلال ترميز العديد من إدراكات التصور الجسدي، وعلى وجه الخصوص ت لك التي تحثُّ على اللقاءات الإنسانية، والتي من بينها التواصل مع الأم.

وبما أن صورة الجسم ليست معطى تشريحي طبيعي مثلما هو التصور الجسدي، لكنها على العكس تُعدُّ ضمن قصة الشخص، يجب التأكيد على أنها تتشكل وتتفتَّح على مر نمو الطفل، وهذا ما يأخذنا إلى تمييز ثلا ثة أشكال لنفس صورة الجسم، صورة القاعدة L'image de base، صورة وظيفية L'image fonctionnelle وصورة لمنطقة مولّدة للغلمة L'image de zone érogène، التي جميعها تُشكّل وتَضْمَن صورة الجسم الحي ونرجسية الشخص في كل مرحلة من تطوره.

ترتبط فيما بينها في كل لحظة، مصانَة ومتماسكة من خلال ما نسميه ركيزة أو صورة دينامية L'image dynamique، الحاملة لتروات الحياة النابعة من الكائن البيولوجي، التي تمتد باستمرار من خلال رغبة الشخص في التواصل مع الشخص الآخر.

وبالنسبة لتطور صوَر الجسم، فإن الصعوبات التي تواجهها ترجع دائما إلى نفس السيناريو، الرغبة المؤثّرة في الصورة الدينامية تسعى إلى أن تَكتَمِل بفضل الصورة الوظيفية والصورة المولّدة للغلمة، أين ترتكز للبلوغ إلى هذه الرغبة على أَسْر موضوعها (الحصول عليه)، لكن الرغبة قد تلاقي خلال بحثها عقبات أمام تحقيقها، كذلك قد لا يمتلك الشخص رغبة كافية، أو قد يكون الموضوع غائبا أو محرَّما.

صورة جسم الطفل الموحَّدَة بفضل العلاقة الرمزية المستمرة، تتحمل إدراكات التي – إذا كانت هذه العلاقة غير موجودة أو سيُحرَم منها– سوف تكون مجزّئة، بحيث تبقى الصورة الدينامية بعد محاولتها للتنشيط بدون جدوى في نفس المنطقة المولّدة للغلمة، فتنتقل إلى منطقة مولّدة للغلمة تتوافق مع صورة جسم مولّدة للغلمة أو وظيفية سابقة.

في حالة أين هذه المنطقة الناكصة La zone régressive، هي كذلك فقدت كل علاقة مُطَمْئِنة ومرمَّزة مع موضوعها القديم، أو كان هناك صورة وظيفية لا تُحْدِث أي لذّة (غير مرمَّزة)، فسوف تضغط الصورة الدينامية على الصورة القاعدية، التي عن تعريف هي مجرَّدة من المنطقة المولّدة للغلمة، فيضيع الشخص بسبب انعدام موضوع لرغبته (تقطُّع الرابط)، وانعدام تصور في جسمه لضغط سابق خلّفه غياب الموضوع (غياب المعنى والتصور).

وعليه فللغياب الصدمي للآخر الذي يمنح معنى لرابط العلاقة مع الطفل، يقود إلى النكوص الصدمي La régression traumatique جرّاء تفوُّق نزوات الموت على نزوات الحياة، لذا نتساءل إذا كان انقطاع الرابط العاطفي المَوَظَّف من طرف الطفل ضحية الاستغلال الجنسي ضمن علاقة عاطفية وجنسية مع الراشد، بعد الكشف عن السر، يؤدي إلى مثل هذا النكوص الصدمي.

كما أن تماسك والتحام المركبات الثلاث لصورة الجسم، والمرتبطة فيما بينها من خلال الصورة الدينامية هو مرادف للأمن، أما تفككها، فيسمح لنزوات الموت بالتفوُّق على نزوات الحياة، مهدِّدا التكامل النرجسي للأنا Moi والأنا القبلي Pré-moi (الأنا القبلي قبل الخصاء الأولي)، من خلال خطر الإصابة بأمراض عضوية حسب صورة الجسم المصابة، وهذا عندما يَحدُث التفكك في ظلّ غياب مرجعية في قصة الشخص، ومن هنا نتساءل إذا كان الاستغلال الجنسي مُستَنِدا على عدم نضج الطفل وغياب المرجعية الجنسية لديه، يؤدي إلى انفصال صور الجسم عن بعضها، المتجَسّم من خلال أمراض واضطرابات حسب صورة الجسم الموظَّفة من طرف الطفل حينها.

مع العلم بأن صورة القاعدة L'image de base لا تتفكك عن الصورتين الوظيفية والمولّدة للغلمة إلا بعد ولوْ بعض الهلع، وهنا أيضا نتساءل إذا كان الاستغلال الجنسي بجميع درجاته، من الملامسات حتى الاعتداء العنيف، قادرا على التفكيك الصدمي لصُوَر الجسم عن بعضها، وبالتحديد للصورة الوظيفية والمولّدة للغلمة عن صورة القاعدة.

كذلك الإحساس بالخزي المميِّز لضحايا الاستغلال الجنسي، والذي هو فسخٌ للإنتماء الإنساني وحَلٌ لجميع الروابط، خالقا تصدعا في الإحساس بالوجود، ما يجعل الطفل يرغب في التلاشي وفي أن يُحذَف من العالم، هل يعني هذا أن تهديده يمسُّ بالنرجسية الجوهرية للطفل، هل يمس فعلا بهذا اليقين في الوجود؟

ولقد ارتكزت Françoise Dolto على مفهوم الخصاء المنشِئ للرمز، فالنمو من خصاء إلى خصاء هو الوسيلة لترك سلوك العجز الصبياني من أجل بلوغ جميع الحقوق، التي يُدْفَعُ ثمنها من خلال تقَبلُّ القوانين التي تَحْكُم الراشد عموما، فهناك داخل الطفل –طبيعيا– هذه الرغبة في الكِبَر، مشروع مُنظَمَّن داخل متعضية في طور النمو، إنَّه الأمل بألاّ يبقى صغيرا ما يُسْنِد شجاعته أمام خيبات الأمل الراجعة إلى عجزه في الواقع، ومن هنا فالخصاء والمنع الجذري بمقابل الإشباع المرغوب والذي قبَلاً عُرِف، يؤكد أن صور الجسم تُبنى بفضل الانفعالات المؤلمة المربطة بالرغبة الغلمية، رغبة ممنوعة بعد أن المتعة واللّذة قد عرفتها وتكراريا تُذُوقَت.

كذلك يَستَحضِر الطفل إحساسا بالقلق أمام الراشدين الذين تم إخصاء نزواتهم القديمة بشكل سيء، إذًا سيئة التسامي، والذين هم لهذا السبب مُ نجذَبون من طرف الأطفال، لأنهم لم ينتهوا بعد من طفولتهم الخاصة فاللّذات التي يترقبونها من اللقاء مع الأطفال الذين يقعون في الفخ، تجعلهم، ليس فقط لا يُ قدِّمون لهم الخصاء وإنما يُغرون الأطفال تحت معنى تقييد مُ تكَرِّر للّذة النرجسية، هذا من جهة، من جهة أخرى، ركزت F.Dolto على الارتباط في كل لحظة لصورة الجسم مع التصور الجسدي، فالجسم كوسيط بين الشخص والعالم، حتى وإن كان في حالة جيدة وخال من الأضرار، فإن استعماله الوظيفي الموافِق لشعور الشخص قد يُعاق، أي تصور جسدي مُثقَلٌ بصور مرضية للجسم، فالاستعمال الملائم للتصور الجسدي قد أُلغِي، وأُعيق وقُيِّد من خلال ليبيدو مرتبط بصورة جسم غير موافقة، قديمة، أو مُرتكِبة للمحارم.

وعليه نتساءل إذا كان المستَغِلُ جنسيا (راشد محبوب) باعتباره كان ممثّلا لرابط الحنان والحماية بالنسبة للطفل، الذي لم يقدِّم الخصاء للرغبات الجنسية للطفل بل أزاح كل مَعْلَم للمحرَّم، قد قيّ د حركية رغبة الطفل –التي في الأصل تبحث عن التجديد– ضمن صورة جسم غير موافقة للتصور الجسدي، سواء بتثبيت الليبيدو في المرحلة التي تم فيها تقديم الإثارة، ما لن يسمح له بمواكبة نمو التصور الجسدي، أو بدفعه إلى النكوص جرَّ اء عنف الاعتداء، إلى صورة جسم قديمة ومطمْئِنة أكثر ليُثبّت فيها.

ومن هنا حاولنا القيام بمقاربة عيادية لمفهوم الصورة اللاّشعورية للجسم كما أعدَّته Françoise Dolto مع التغيرات التي يُحدِثها الإستغلال الجنسي على إنبناء الصورة اللاّ شعورية لجسم طفل وقع ضحية له، من خلال رؤية علائقية قائمة على مفهوم ي الرابط والمعنى ضمن الخصوصية الثقافية للعائلة الجزائرية، لذلك كان التساؤل الرئيسي هو:

ماهي التأثيرات التي تحدثها صدمة الاستغلال الجنسي على الصورة اللاّ شعورية لجسم طفل وقع ضحية له؟

الفرضيات

ولبلوغ الإجابة على هذا التساؤل، ارتأينا إلى وضع فرضيات عامة وبنائية في فحوى الدراسة، تَتَخَلَّلُها أخرى إجرائية في البحث ومبسِّطة في تحليل المحتوى.

الفرضية العامة الأولى– هلع الصدمة الجنسية يفكّك الروابط بين المركّبات الثلاث لصورة الجسم .

الفرضية الإجرائية:

ظهور اضطرابات وأمراض نفسوجسدية موافقة لصورة الجسم المصابة.

الفرضية العامة الثانية – هلع الصدمة الجنسية يمسُّ بالنرجسية الجوهرية لصوُر الجسم.

الفرضية الإجرائية:

حضور الإحساس بالخزي الذي يهدِّد الإحساس بالوجود يدل على تصدع النرجسية الجوهرية.

الفرضية العامة الثالثة – انقطاع الرابط العاطفي الموظَّف جنسيا مع المعتدي يؤد ي إلى النكوص الصدمي نحو صورة جسم قديمة.

الفرضية الإجرائية:

ظهور أشكال بدائية للتواصل غير موافقة للتصور الجسدي الحالي.

دوافع الدراسة

يعود اهتمامنا بموضوع الدراسة إلى أسباب تراكمية جد جلية، كنّا قد عايشنا فترة من التردد فيما يخص اختيار موضوع الدراسة، لكننا ارتأينا آخر الأمر إلى اعتماد الفضول العلمي – الذي تدفعه الرغبة بالتأكيد– كمعيار أول في الاختيار، والذي وقع على مجال الانحرافات الجنسية بشكل عام ، وعلى وجه التحديد على الاستغلال الجنسي للأطفال، وربما عن طَبْعٍ فينا، نُسرع نحو ما تثقّل خطوات الآخر إليه.

قد لا يكون دافع هذا الاختيار التلقائي المباشر محضُ معناه، هي تأملات في حال المجتم ع وما صار عليه سلوك البشر، هي تساؤلات لا تنتهي كل يوم عن كل سلوك و دافعه ومآله، عن بَعِدِي نتوقعه بناءً على قَبْلِي مُتاح، نسعى لاستبصار أغوار النفس إذا أردنا فعلا الإنتماء إلى علم النفس، هو ربما ما نستقرئه في يوميات الأُسَر البسيطة في معيشها الذي يُحيِيها أو يَغبِرها، ما جعلنا نُ بصرٍ حقا مواطن الوجع، نَنقاد دون تردد للإصغاء لمن يعايشونه، علَّنا نُحدث ولو بعض التغيير، ربما هي كل هذه العناصر متضامِنة ما جعلنا نختار موضوع الا ستغلال الجنسي للأطفال الذي أصبح كالعدوى يهدِّد كل عائلة جزائرية مهما كانت مكانتها.

وتفضيلنا للعمل مع الأطفال قد لا يكون سببه خانة الخطر التي يتبوؤها الاستغلال الجنسي لهم حاليا على مستوى الساحة العلمية العالمية، بقدر ما هو رغبة منا في استكشاف طبيعة العمل مع الأطفال

أما بالنسبة لمتغير الدراسة، فالحق أنه أُختير انطلاقا من الملاحظات الأولى للحالات، في إطار الدراسة الاستطلاعية والمقابلات الأولية التي كانت مُشبعَّة بالملاحظات، لكن الاختيار وقع على متغيِّر صورة الجسم لسببين هما:

- رغبة منا في تعميق معرفتنا بهذه النقطة؛
- الاختيار تحكمت فيه نوعا ما التلقائية، لأننا كنا في ذات الفترة قد اطلعنا على مقالين، الأول لصاحبته Françoise Dolto حول الصورة اللاشعورية للجسم، والثاني لصاحبه Didier Anzieu حول الأنا البشرة Le Moi- Peau، وكانت هذه أول قراءة لنا للمفهومين والتي زادتنا فضولا لمعرفة المزيد الذي أُتيح لنا بمناسبة الدراسة.

أهمية الدراسة

تكمن الأهمية الجوهرية للدراسة في كَوْنِها تطرق أحد الأبواب الموصدة في المجتمع الجزائري ألا وهو محرَّم الجنس، ضمن رؤية تحليلية تشريحة لأحد الإنعكاسات السلبية لهذا التعتيم المجحِف وهو الإستغلال الجنسي متناولة للكلمة نيابة عن ضحايا هذا الإستغلال ألا وهم الأطفال.

كما أن أهمية وحساسية موضوع الاستغلال الجنسي للأطفال يعكسها الكم الهائل من المراجع والدراسات المتخصصة –الأجنبية على وجه التحديد– والتي تناولناها أو صادفناها على مرِّ مسيرتنا البحثية، ولكن في ذات الوقت ضئيلة هي وغير معمَّقة الدراسات العربية والجزائرية مقارنة بدرجة اكتساح الظاهرة لبنُيان المجتمع، كذلك كثيرة هي الدراسات التي تناولت المعتدي ضمن الحالات المعلَنَة لسهولة التحصل عليها ضمن مراكز إعادة التربية والتأهيل، في حين هي محتشمة تلك التي تناولت الضحايا، ربما لما يصبغ الأحداث من تستر أو لصلابة الإجراءات القانونية.

وضمن حدود إطلاعنا منذ بداية البحث، فلم نصادف أي دراسة أو حتى مقال تناول مفهوم صورة الجسم لدى الأطفال ضحايا الاستغلال الجنسي إلاَّ كعنصر وارد ضمن الآثار المترتبَّة عنه لا غير، ونظرا لكون مفهوم الصورة اللاّشعورية للجسم هو مفهوم خاص بدولتو F.Dolto، فقد حُصِر تناوله ضمن مؤلفاتها، وحتى مَن تناولوه بعدها، لم يخرجوا عن حدود تنظيرها له أين لم تترك صغيرة أو كبيرة إلا وأدرجتها، لذلك تتأتىَّ أهمية وأصالة الدراسة في كونها تتناول موضوعا جديدا، لم يُطْرق– على حدِّ علمنا– قبلا.

كما أن الدراسة ضمن نسق طرحها وتحليلها للظاهرة، أُشبِعت ببعض التوصيات والإقتراحات التي عَمِدنا إلى ادماجها– والتي عادة تُرجؤ لنهاية الدراسة– مؤكِّدين على تشابك الظاهرة وعمق انبنائها.

الهدف من الدراسة

وتهدف الدراسة إلى تقديم رؤية سيكوديناميةتحليلية لظاهرة الإستغلال الجنسي من خلال ترابطية النفسي والجسدي، لذلك أخذنا على عاتقنا تقديم تطور جنسية الطفل ضمن نموه العلائقي دون اختزال لشخصه، وفي ضوء الخصوصية الثقافية لمجتمعنا الجزائري.

الفصل الأول

الصدمة

النفسية_الجنسية

« Il ne suffit pas fuir, il faut fuir dans le bon sens »

C.F Ramuz - Taille de l'homme

1- لمحة تاريخية حول تناول مفهوم الصدمة

كان ابن سينا أول من درس العصاب الصدمي وآثاره النفسية والجسدية في تاريخ الطب، من خلال التجربة التي قام بها عندما ربط حمل وذئب في غرفة واحدة، دون أن يستطيع أحد منهما مطاولة الآخر، فكانت النتيجة هزول الحمل وضموره ومن ثم موته، وذلك رغم إعطائه نفس كم يات الغذاء التي كان يستهلكها حمل آخر يعيش في ظروف طبيعية. (**محمد أحمد النابلسي، 1991، ص ص.16، 17**)

أمّا Herman Oppenhaim (1888) فكان أول من وصف العصاب الصدمي، انطلاقا من إثنتين وأربعين حالة من الأعصبة ناتجة عن حوادث السكك الحديدية، فتحدّ ث عن الهلع الذي يُحدث التحول الدائم مع ذكريات صدمية، حتى أنه خلق مصطلحا من أجل تسمية هذه الحالة هو Sidérodromophobie بمعنى التعطُّل المفاجئ للوظائف الحيوية تحت تأثير صدمة عنيفة. (Chorfi, Mezhoud, 2005-2006, p.22)

عدة سنوات فيما بعد، وصف E. Kraeplin "عصاب الهلع" "Névrose d'effroi" والذي يتشابه كثيرا مع العصاب الصدمي، إلا أنه وضع في المقدمة الحالة النفسية للفرد أثناء الحدث، و شدّد على أن الشخص يمكنه أن يعاني لمجرد كونه من المشاهدين.

في "دروس الثلاثاء " " Leçons du Mardi"، Charcot J.M (1888-1889) قدّم العديد من الملاحظات حول الهستيريا الصدمية L'hystérie traumatique مثلما سلّمها، وأكد أن الهستيريا الذكورية هي دائما ذات أصل صدمي.(Lebigot, 2006, p.05)

Pierre Janet (1889) قدم عشرين حالة من العصاب راجعة في معظمها إلى أحداث صدمية، ووضع العديد من المصطلحات من أجل إعطاء شرح لهذه الاضطر ابات منها "انحلال الوعي والأفكار الثابتة "" La désagrégation de La conscience et idées fixes" وقد قام بإعداد استنتاجاته من خلال استعمال التنويم المغناطيسي. (Chorfi, Mezhoud, 2005-2006, p.23)

إلا أنه ومع اندلا ع الحرب العالمية الأولى، ثم فيما بعد الثانية، أين قدّم التحليل النفسي إسهاماته الذهبية فيما يخص مفهوم الصدمة النفسية ، ففي الملتقى الدولي الخامس للتحليل النفسي (28-29سبتمبر 1918)، تمّت الإجابة على الأسئلة التي طُ رحت في المستشفيات العسكرية انطلاقا من الأوصاف العرَ ضية التي قدّمها كل من S. Freud، E. Simmel، S. Ferenczi و K. Abraham.

منذ 1916 إنكب S. Freud على تهيئة نظرياته حول أعصبة الحرب، التي قدّ مها خلال المؤتمر (1918) مؤكدا أن:" الأعصبة الصدمية هي كلها مثل الأعصبة التلقائية مثبّتة في لحظة الحدث الصدمي، وكأن المرضى لم ينتهوا بعدُ من الوضعية الصدمية، و كأنها تنتصب أمامهم، ونحن نأخذ هذا المفهوم بمعنى اقتصادي للسيرورات النفسية"، وبما أن جميع الأعصبة تتأتى من الصراع بين الأنا Moi والنزوات الجنسية المكبوتة، فإن أعصبة الحرب تعتبر كأعصبة صدمية، الصراع فيها بين الأنا المسالم والأنا الجديد المقاتل.

وفي كتاب "فرويد على جبهة أعصبة الحرب" "Freud sur le front des névroses de guerre"، أكد Eissler أن أخصائيي الطب العقلي الألمان تحدثوا عن إرادة المرض لدى الجنود الذين اُ عتبروا كمتمارضين رغبة في الاختباء من خطر الإصابة أو الموت.

وقد قام Kaufmann بعلاج المرضى عن طريق العلاج الكهربائي بعد تحضيرهم إيحائيا لعدة أيام، أما طبيب الأعصاب الألماني Nonne المتكون على يد Charcot، فقد استعمل التنويم الإيحائي L'hypnose suggestive وكان يقول لمريضه :" غدا، على الساعة الحادية عشر سوف أشفيك "، وكذلك عالج Ernest Simmel نفس المرضى بالتنويم المغناطيسي، فكان يحمل المريض المنوَّ م مغناطيسيا إلى إعادة إحياء الوضعية الصدمية حتى يتمكن من إقامة صلات ترابطية مع الماضي.

F. Ferenczi (1916) أكد على الإصابة النرجسية قائلا :" هناك ضرر في الأنا، جرح في الحب الخاص به، في النرجسية أين النتائج الطبيعية هي سحب توظيفات موضوعية لليبيدو"، فالصدمة تحُدث القلق الذي ليس سوى الإحساس بعدم القدرة على التكيف أوعلى الهرب أوالرد بالقوة على القوة المهاجمة.

أمّا Karl Abraham (1918) فقد بحث عن علامات اللاّ شعور والجنس واقتصادية سير أعصبة الحرب مؤكدا أن داخلها قيمة نكوصية عالية، مجتمع رجالي أين الميل الجنسي المثلي ظاهر، فوضعية الحرب تقابل الجنود بمتطلبات غير عادية، لأنهم مطالبون بالتضحية لصالح هذا المجتمع وفي نفس الوقت التخلي عن امتيازهم النرجسي. (Godard, 2003, pp.27- 34)

وفي السنوات التابعة للحرب تابع الأطباء المتخصصون في ا لطب العقلي اهتمامهم بالعصاب الصدمي منهم P. Juillet و P. Moutin (1969)، L. Crocq (1974) في مؤلفه"Stress et névrose de guerre" C. Barrois (1998) في مؤلفه" Les névroses Traumatiques " وغيرهم كثيرون ممن اهتموا بتناول مفهوم الصدمة. (Lebigot, 2006, p.06)

2- مفهوم الصدمة النفسية وحالة الشدة ما بعد الصدمي في الجزائر

عانى المجتمع الجزائري كثيرا من ويلات حرب الاستقلال، وواجه مشاكل عويصة صاحبت إعادة بناء الوطن، Ridouh (1969) أكد أن الهجرة الريفية داخل البلاد وخارجها، زيادة عدد السكان وآثار التصنيع على تغير البنى الاجتماعية، ذهنية السكان وعمل المرأة في المناطق الريفية، وأثر ذلك على دور العائلة،كل هذه التغيرات هي مصدر لعدم التوازن والانحراف.(**مانع علي، 1996، ص.117، ص.175**)

وكل هذا ساهم في ترسيخ الشرخ ضمن بنى الروابط الاجتماعية القاعدية والأسُ س النفسية لهوية المواطن الجزائري، لتتأصل الصدمة وعُشِّش عميقا، مستبعدَة ومعها معالم الهوية كضريبة للبقاء.

وقد مرَّت الجزائر بمرحلة صعبة تزيد عن العشر سنوات، ميَّ زها العنف الدموي الذي طال فئات المجتمع كافة، ومن خلال تحطيم البنية التحتية للبلاد، أدت إلى اختلال قاعدي طال البنى الاجت ماعية، الاقتصادية والسياسية للمجتمع الجزائري، نتج عنه ثقافة خاصة يميزها الخوف والشك واليأس دفعت بأبناء المجتمع الجزائري

إلى الانعزال عنه والهرب منه، من مجتمع لم يَعِ يميِّز علاقاته غير العنف المتبادل، لكن مفهوم الصدمة النفسية وحالة الشدة ما بعد الصدمي لم يدخلا القاموس الطبي في الجزائر إلا بعد المذابح التي لحقت ببن طلحة ورايس بالجزائر العاصمة في وسط التسعينات.

وقد قامت الجمعية الجزائرية للبحث في علم النفس La société Algérienne de Recherche en Psychologie (SARP) (1999) بالمشاركة مع المنظمة النفسية الاجتماعية عبر الثقافات Transculturel psychosocial Organization (TPO) بتنفيذ بحث إبيديميولوجي حول الصحة النفسية في المجتمع الجزائري على عينة تضمنت 652 جزائري من الجنسين، سُحِبت من منطقتي سيدي موسى ، والتي تعرضت للكثير من أعمال العنف والإرهاب خلال الأزمة الأمنية التي عرفتها الجزائر، ومنطقة دالي إبراهيم التي لم تتعرض لدرجة عالية من تلك الأحداث، وقد استخلصت الدراسة فيما يتعلق بالصدمات الطفولية، بأن الأحداث التي تتدخل قبل سن الثانية عشر سنة هي إما انفصالات مبكرة أو أحداث عنيفة أو خسارة بشرية.
(Bouatta, 2001, p.26, p.49)

وقد سبق أن قدَّم الدكتور كربوش عبد الحميد (1988–1989) بحثا تضمن دراسة 451 ملفا، اشتملت على مختلف أشكال الإعتداءات، مستخرجا 69 حالة فقط لأطفال كانوا موضوع إعتداء (خاصة جسدي) مسلط من طرف راشد هو أحد الوالدين أو شخص على اتصال مباشر مع الطفل، ومما أُستخلِص من البحث أن نسبة الإعتداء لدى الذكور (51حالة) تفوق نسبته لدى الإناث (18حالة)، متوزِّعا على نَحْو تنازلي، من13سنة فما فوق (33حالة)، ثم من 6سنوات حتى 13سنة (27حالة)، ليخف العدد إلى 09حالات أقل من 6 سنوات.(Kerbouche, 2001, pp.32, 33)

بحث علمي آخر ممول من طرف L'UNICEF، ومقدّم من طرف مجموعة من الباحثين تحت إشراف Tchirine Mekideche، حول سوء معاملة الأطفال في الجزائر، تضمّ ن إستقصاءين، الأول اشتمل على سوء المعاملة المرئية، المكتشفة، المشخصةً والمسجَّلة في مختلف المؤسسات المتكفلة بها في الجزائر العاصمة، والثاني اشتمل على الصدمات الخفية (1290عائلة)، غير المعلنة وغير المسجَّ لة، التي تلازم يوميات العائلة الجزائرية والأقسام المدرسية، ومما استخلصته الدراسة أن 80% من الأطفال يتكبدون عنفا جسديا مرافقا بسوء معاملة نفسية؛ 10%منهم كانوا ضحايا لسوء المعاملة الجنسية التي يحتل الذكور فيها النصيب الأكبر؛ وغالبا ما يكون المعتدي من المحيط العائلي.(Mekideche, 2003, p.15, p.17, p.22)

ثم الكوارث الطبيعية من فيضانات (الجزائر في أكتوبر 2001)، كذلك الزلازل (زلزال ماي 2003 ببومرداس) وغيرها، كلها جاءت لتزيد من هشاشة شعب غاية في الوهن.

الأطباء المتخصصون والأخصائيون النفسانيون لم يتلقوا التكوين الضروري والخاص بمثل هذه الظروف والحالات، فكانوا مجبرين على التواجد – بعد هجمات الإرهاب والعنف خاصة– ضمن ميدان يجهلونه، أين أستدعوا من أجل التكفل بضحايا ال صدمات خاصة الأطفال (Hafed Hamou, 2000, p.19). ومنه بدأ

الأخصائيون في التساؤل كذلك عن طبيعة الاضطرابات الحاضرة خاصة لدى المقاومين القدامى بُعَيد الثورة التحريرية الوطنية.

لقد حملت هذه الصدمات – العنف الإرهابي خاصة– انعكاسات على صحة الأفراد الذين كانوا ضحية لها ولكنها كذلك رسخت ولزمن طويل في مجتمع روابطه زُعزِعت بعنف، ومستقبل جماعة الاستقرار فيها على وجه التحديد مهدَّد، فهذه الوضعيات غير المنتظرة، مثلما طرحت مشكلا للمستقبل النفسي للأفراد، طرحته كذلك على القائمين بالتكفل الطبي والنفسي بهم، ومن بعض المساهمات فيما يخص الاهتمام بالتكوين في هذا المجال نجد لقاءا دوليا حول الصدمة النفسية وحالة الشدة ما بعد الصدمي، نُظّم في الجزائر العاصمة في نوفمبر 2000م. (Boudarene, 2005, p.125)

ومؤخرا نظم الملتقي الدولي الأول بولاية سطيف حول الصدمة النفسية واستراتيجيات التكفل والوقاية يومي 13–14 أفريل 2009م، برئاسة الأستاذ الدكتور شرفي محمد الصغير، حيث ضمَّ الملتقى نخبة الباحثين في علم النفس وفي مجال الصدمة النفسية، وأُثرِيت محاوره من خلال المداخلات المتنوِّعة للمشاركين من داخل وخارج الوطن.

3– مفهوم الصدمة النفسية Traumatisme Psychique

يونانيا، الصدمة Trauma تعني جُرْح مع كَسر، مصطلح أُستعمل في الطب والجراحة وأُستعير في التحليل النفسي للدلالة على الجراح النفسية Les blessures psychiques.(Lebigot, 2006, p.05)

Laplanche وPontalis عرَّفا الصدمة Trauma على أنها:" حدث في حياة الشخص الذي يتحدد من خلال شدته، العجز الذي يتواجد فيه الشخص للرد بطريقة ملائمة، والاضطراب والآثار المنشئة للمرض التي تثيرها في التنظيمة النفسية". (B. Robert – Ouvray, 2003, p.174)

وبهذا تتضمَّن الصدمة ثلاث دلالات ضمنية هي : عنف الصدمة والكسر و اضطراب التنظيمة النفسية الجسدية، وهذه العناصر تجعل الصدمة فاعلة ومؤثرة بطريقة تدميرية، نظرا لقوة الإثارة المحدَثة من طرف العنصر الخارجي الذي لديه قوة تتجاوز قدرات المقاومة لدى الشخص، الوضعية تمنع كل عملية نفسية لتصريف فيض الطاقة المحدَثة من طرف الحدث وكل إرصان نفسي ممكن، لذلك تُحدِث اضطرابات كبيرة على إمكانية توفر الطاقة التي يحتاجها الجهاز النفسي. (Chorfi, Mezhoud, 2005-2006, p.10)

لتستقر الصدمة كجسم غريب داخلي يُخِل بنظام النفس ويشوشها من خلال العجز عن احتوائه وتمثيله . (Puyluelo, 2002, p.58).

Claude Nachin (2007) ألحق مفهوم الصدمة النفسية بكل واقع نفسي يتضمن وضعية السر، حيث أنا Moi وشعور الشخص الذي أصيب ينشطران على الأقل إلى جزئين، جزء أين يتابع نشاطا نفسيا طبيعيا وجزء أين يستمر السر مدفونا.(Nachin, 2007, p.27)

3-1-الحدث الصدمي Evénement Traumatique

يتميز الحدث الصدمي في كونه وضعية غير اعتيادية تتجاوز الخبرات المعتادة الم عاشة من طرف الفرد مثل المرض أو وفاة أحد الأقارب، وعلى خلاف هذه الأحداث، فالحدث الصدمي يعاش برعب كبير متضمنا لمعنى لقاء مخلف مع الموت، هو خبرة أصيلة غير معتادة وغير منتظرة، معاشة بخوف كبير، ما يفسح المجال لخبرة تجزئة أولى، وتبقى أصالته في كونه لقاء وجها لوج ه مع الموت، وقد يكون الحدث الصدمي فرديا كما يمكن أن يكون جماعيا، لكن الحدث النفسي عموما والصدمي على الأخص يتضمن دائما معيشا فرديا.

3-1-1-صنفي الأحداث الصدمية

يمكن التمييز بين مجموعتين من الأحداث الصدمية هي:

3-1-1-1- الأحداث الصدمية ذات الأصل الطبيعي : كل م ا يخضع لسببية طبيعية مثل : الزلازل البراكين، الهزات الأرضية والفيضانات.

3-1-1-2- الأحداث الصدمية ذات الأصل الإنساني : كل ما يخضع لسببية الإنسان مثل : الحروب الإبادات الأهلية، حوادث الطرقات، الخطف، الإرهاب، العنف، الاغتصاب والاعتداءات الجنسية.

(Chorfi, Mezhoud, 2005-2006, p.09)

4-الخوف، القلق والهلع

يرى S.Freud أن حالة الخطر تتكون من تقدير الشخص لقوته بالنسبة إلى مقدار الخطر، ومن اعتراف ه بعجزه أمامه عجزا بدنيا ونفسيا (**فرويد سيجمند، 1989، ص.27**). وفقط ضمن العلاقة مع الخطر أين يمكن أن نميز بين الخوف، القلق والهلع.

4-1-الخوف La peur

يمثّل الخوف حسب Jöelle Proust جزءا من الانفعالات القاعدية، هو دائما خوف من شيء ما، من موضوع أو حدث حاضر أو متوقع يُحدث استجابة انفعالية جد سريعة، التي تتَبع الكشف الادراكي للموضوع المهدِّد ولكن يمكن أن تسبق التصنيف الواعي لهذا الموضوع.(Vincent, 2004, p.601)

4-2- القلق L'angoisse

في حالة الصدمة التي يكون فيها الشخص عاجزا، تتلاقى الأخطار الخارجية مع الداخلية والأخطار الواقعية مع المطالب الغريزية، فالحالة الاقتصادية يميِّزها عجز الأنا من الناحية الح ركية الذي يظهر في صورة عجز نفسي لذا فالقلق هو الاس تجابة الأصلية في حالة الصدمة، و يتكرر فيما بعد في حالة الخطر كإشارة لطلب النجدة . (**فرويد سيجمند، 1989، ص ص.148-150**)

4-3- الهلع L'effroi

هو التظاهرة الخاصة بالكسر الصدمي، و تمارس فعلها على مستويين:

- مستوى التصورات: كل فكرة وكلمة تختفي من شعور الش خص المصدوم، يستشعر للحظة أن رأسه فارغ، يصف احساسا بالعَطَب، بالتعتيم والفراغ، وكأنه هُجر من طرف كل تصور مَلكه قبلا.

- مستوى العواطف: يستشعر خواء من كل عاطفة لحظة الكسر الصدمي، وغالبا ما يصف المصدومون حالتهم قائلين:" لم يكن لديا حتى الوقت لنخاف"(Lebigot, 2006, p.08). فالهلع يشتمل اذا على الوقوع في خطر دون الاستعداد له.

5- محددات الصدمة النفسية

يرى S. Freud أن علاقتنا مع الموت تفتقر للصراحة، صحيح أننا طبيعيا مستعدون لمساندة فكرة أن الموت هو المخرج الضروري لكل الحياة، لكننا نُظهر في الحقيقة ميلا لوضع الموت جا نبا، لإقصائه من الحياة، وعندما نحاول تصوره، فإننا لن نزيد عن كوننا في تلك اللحظة نستمر كمتفرجين، فنحن نعرف جميعا بأننا سنموت لكننا لا نعتقد بالموت مطلقا، ولا يوجد تصور للموت في اللاشعور، فكيف يمكن تصور العدم(Freud,2001,p.31). لذلك تتحدد الصدمة النفسية كمواجهة مع واقع الموت من خلال:

5-1- طبيعة وشدة الحدث الصدمي:

من خلال طبيعته وشدته، الحدث الصدمي يعاش كاعتداء عنيف يكتسح كليا الحياة النفسية للفرد، أي أن السيرورات العاطفية والمعرفية التي تسمح بإدماج الخبرة الجديدة تكون متجاوزَة تماما، كل شيء يحدث وكأن الحدث لا يتمكن من أخذ مكان بين الخبرات الداخلية , علّه يُرصن بينها , ميكانيزمات التحكم تفشل والفرد لا يستطيع تجرع الحدث الصدمي الذي يبقى معلقا في ذاكرته.

5-2- عوامل الاستعداد:

إن طبيعة وشدة الحدث الصدمي غير كافية من أجل تفسير حجم التغير والعجز النفسي، فالمعنى والم دلول الذي يأخذه في الحياة العاطفية للشخص، يمنحه الصدى الخاص الذي سوف يصبح محدِّ دا حاسما للتوازن النفسي المستقبلي. (Boudarene, 2005, p.21, p.130)

S. Freud أكد كذلك على أن كل حدث قادر على توليد انفعالات نفسية مؤلمة (خوف، قلق، خجل) يمكن أن يؤثّرعلى طريقة الصدمة النفسية، لكن نتيجة الانفعال الجرحي متعلقة بحساسية الشخص المَعْني.

(**برويز جوزيف، فريد سيغمند، 1986، ص.84**)

وبهذا نؤكد أن صحة نفسية وفزيولوجية جيدة، مع نسيج علائقي ذو روابط متينة ومستقرة هي عوامل الحماية وضمان المقاومة والبقاء أمام أي حدث صدمي.

5-3-عامل المفاجأة: يتحدد عنصر المفاجأة من خلال نقطتين هما:

- اللحظة القصيرة للهلع.
- عدم تحضرٌ واستعداد المتعضي لاستقبال الإثارة لحظتها.

وهذا ما يُحدث عنف المجابهة، فأثناء الاصطدام (الصدمة) الانفعالي Le choc émotionnel، يصف ضحايا الاعتداء الجنسي أن الألم والقلق يمتزجان، إنه إحساس بكسر عنيف، انصعاق، فيض من الاثارات يحمل إلى الانهيار ولا يترك مجالا للفرار. (Hirigoyen, 1998, p.191)

ومن خلال طبيعته أين يمس الاستغلال الجنسي بأكثر جوانب الشخصية حميمية، وشدته إذ أنه أكثر أشكال الالتحام بدائية وسادية، موظّفا كامل الليبيدو في صورته الخام وبدون ضبط، مسلّطا على بنية نفسية مفتوحة، غير مكتملة، ضعيفة وغير ناضجة في أحسن الحالات، أو حتى هشةٌ مليئة بالتصدعات، وفجائيته لأنه غالبا ما يصدر عن شخص محبوب غير متوقَع، ضمن مكان وزمان كانا قبلا حيز أمن يوحي بالاطمئنان، وبتخطيط ل ئيم مسبق من طرف المعتدي، ما لا يترك فرصة على الإطلاق للإفلات، كل هذا يجعل من الاستغلال الجنسي للأطفال أكثر الأحداث الصدمية تدميرية، وفي أبسط أشكاله (ملامسات مثلا) هو لقاء مع واقع الموت، مع اللاّمعنى واللاّمحتمل، مع العدم، مع الخواء ربما، لأن الطفل لم يملك قبلا تصورا عن الفعل الجنسي.

6-التناول النظري لمفهوم الصدمة

6-1-فرويد Freud والصدمة النفسية

تحت ضوء ملتقى حول الصدمة، كل من N. Amar, G. Bayle, I. Salem لاحظوا بأن Freud اهتم بمفهوم الصدمة بناء على ثلاثة محاور رئيسية هي: الغواية، كسر صاد الإثارات وغياب الأم.
(Golse, 2001, p.99)

6-1-1-الغواية La séduction

مشاهد الغواية هي مشاهد واقعية أو هوامية، أين الشخص (عموما طفل) يتحمَّل سلبيا من طرف آخر (على الأغلب راشد) مبادرات أو معاملات جنسية "، وقول بأن مشهد الغواية يعاش سلبيا، لا يعني فقط بأن الطفل لديه سلوك سلبي (خاضع)، ولكن كونه تحمَّله دون أن تستطيع الغواية أن تثير لديه استجابة، دو ن أن تحاكي تصورات جنسية لديه". (Gabel, 1998, p.57)

وكان Freud قد وصف الصدمة منذ بداية أعماله كتصعيد في الإثارة غير القابلة للإدماج من طرف تنظيمة نفسية غير قادرة على إعطائها أي معنى. (Ansermet, 2002, p.143)

كما أنه في البداية ربط الصدمة مع واقع خارجي متمثل في الغواية La séduction، ثم ترك فيما بعد هذه النظرية ليعوِّضها بتلك المتمثلة في الهوام Le fantasme، ويرى أن الصدمة تتعلق بالطفولة وبما هو جنسي ويعتبر

أن الشخص في مرحلة الرشد مسؤول عما يلحق به، وإذا وُجد في وضعيات ألم فذلك جرّاء مازوشية صافية من طرفه. (Hirigoyen, 2001, p.203)

6-1-1-1- الغواية كواقع خارجي (حدث واقعي)

يرى Freud: "أن الطفولة ليست خالية من الإثارة الجنسية الحقيقية التي تؤثر بشكل قاطع على الحياة الجنسية اللاحقة"، فمختلف التغيرات المرضية الوظيفية تعترف بسبب واحد مشترك هو الحياة الجنسية للفرد، إم ا اضطراب في الحياة الجنسية الحالية وإما حوادث مهمة في الحياة السابقة، تعمل كذكرى لاواعية لتجربة مبكرة لعلاقات جنسية، مع تهيج جنسي حقيقي للأماكن الجنسية عقب إساءة جنسية قام بها شخص آخر، وترجع هذه الحوادث إلى مرحلة الطفولة. (**سلمان قعفراني ،2001، ص ص.60 -62**)

وأكد Freud (02 نوفمبر1895) من خلال حالة هستيريا ذكرية Une hystérie masculine أن الصدمة الجنسية تتشكّل ضمن غواية طفلية.

وفي مقال له بالفرنسية (30 مارس 1896) نُشر في مجلة La revue neurologique تحت عنوان "وراثة وسببية الأعصبة L'hérédité et l'étiologie des névroses"، ذكر Freud ثلاثة عشر (13) حالة هستيريا وست (06) حالات من العصاب الوسواسي قد تعرضوا لصدمات جنسية خلال الطفولة ، وأكد بأن هناك محاولات للغواية الجنسية من طرف الراشدين حتى أقرب الأهل اتجاه الأطفال وهي السبب الأول في الهستيريا (Anzieu, 1959, p.85, p.87). وبهذا يدافع Freud على واقع الصدمة الجنسية المتحمَّلة أثناء مرحلة الطفولة.

6-1-1-2- الغواية كهوام (واقع نفسي)

بعد سنة 1897 وعدول Freud عن Neurotica، كانت خطوة فاصلة في الأ همية التي أخذها مفاهيم الهوام اللاّشعوري Le fantasme inconscient، الواقع النفسي La réalité psychique والجنسية الطفلية La sexualité infantile. (Gabel, 1998, p.57)

في رسالة 22ديسمبر1897، طرح Freud مطولا الصحة الذاتية الأصلية للصدمة الطفلية المتحمَّ لة من طرف عميلة له والتي- حسبها- فُضّت بكارتها وأُ دمِيت من طرف والدها وهي في عمر السنتين، ثم شاهدت وهي في سن الثلاث سنوات مشهدا، أين أمها تحمّ لت في المترل معاشرة جنسية سادية فرضت عليها من طرف الأب الذي قام بجرحها بالسكين، نزع عنها ملابسها، حاول تثبيتها من الأمام وفرض عليها أخيرا علاقة شرجية (اختراق شرجي Une pénétration anale). (Anzieu, 1959, p.216)

بمعنى هل العملية هي من تعرضت فعلا للغواية أم شخص آخر؟

ومن هنا رأى Freud أن الطفل هو المغوي، هو الذي يكشف عن دوافع جنسية منحرفة اتجاه الأب أو الأم أو الأخت أو الأخ أو المربية، ولكنه قمع هذه الدوافع ثم ظهرت بعد ذلك في التخيلات والأحلام والأعراض العصابية بوجه عام. (**مصطفى غالب ،1983، ص.115**)

كتب Freud (1914) في مؤلَّفه "اسهام في تاريخ حركة التحليل النفسي " قائلا: "إذا كان صحيحا بأن الهستيريات يُرجِعن أعراضهن إلى صدمات مُختلَقة، الأمر الجديد أنه بالرغم من كونهن يتوهمن هذه المشاهد، فإنه من الضروري إذًا الأخذ بعين الاعتبار إلى جانب الواقع الفعلي، الواقع النفسي، وقد اكتشفنا بأن هذه الهوامات اللاّشعورية تؤدي إلى إخفاء النشاط الغلمي الذاتي في السنوات الأولى من الطفولة، إلى تج ميلهن وحمله ن إلى مستوى أكثر رقيا، إذًا خلف هذه الهوامات تتجلى الحياة الجنسية للطفل على اتساعها ".

ورغم أن Freud ترك نظرية الغواية كمركز في الأعصبة النفسية، لكنه لم ينفك إلى آخر لحظة عن سند وجود، تواتر وواقع مشاهد الغواية المعاشة من طرف الأطفال.

6-1-1-3- الصدمة ضمن منظور الغواية

يرى J-B Pontalis و J- Laplanche (1984) أن الصدمة تستوجب زمنين منفصلين:

6-1-1-3-1- الزمن الأول: وهو ذلك المتمثل في الغواية بالمعنى الخالص للكلمة، إنه الحدث الجنسي من وجهة نظر الراشدين ولكن قبل الجنسي pré-sexuel بالنسبة للطفل، ولا وجود في هذه اللحظة هنا للكبت في اللاشعور بالنسبة للطفل.(Gabel, 1998, pp. 57, 58)

كتب Freud (08أكتوبر 1895) قائلا: "أشك في كون الهستيريا بدقة محددة من خلال خبرة جنسية أولية تحدث فجأة قبل البلوغ والتي تكون مرافقة بالاشمئزاز والهلع، بالنسبة للعصاب الوسواسي نف س الخبرة تكون مرافقة باللّذة". (Anzieu, 1959, p.85)

والفكرة التابعة للصدمة تبقى في داخل النفس كالطفيليات، لتمرَّ بمرحلة من الانتظار والتخمر أو الحضانة قبل أن تبرز إلى العلن بشكل عنيف وصاخب. (**سلمان قعفراني ،2001، ص.44**)

6-1-1-3-2- الزمن الثاني: هو حدث ج ديد ليس بالضرورة ذو طبيعة جنسية، الذي يؤدي إلى انبثاق من جديد، عن ترابط، ذكرى مشهد الغواية السابق، هذه الذكرى تحرِّك فيضا من الإثارة ولهذا تُكبت، إنه هذا الكبت نفسه والذي حسب Freud أصل الأعصبة النفسية. (Gabel, 1998, p.57)

إذا حسب Freud، الحدث الجنسي المفاجئ أثناء الطفولة لا يصبح صدميا بالنسبة للشخص إلا في البعدي L'après coup، عندما في البلوغ يطرأ حادث جديد يُؤجِّج لاشعوريا ذكرى الأول، والدفعة الجنسية التي تطلقها هذه الذكرى تتحول إلى قلق. (Anzieu, 1959, p.81)

6-1-2- كسر أو تحطيم صاد الاثارات L'effraction du Pare- Excitation

باستعمال الاستعارة الاقتصادية المقترحة من طرف Freud (1920) للجهاز النفسي، والذي صوَّره على شكل حجم كروي، مغلَّف داخل غشاء مغلق يسمى صاد الإثارات ، وداخل هذه الكرة توجد شبكة التصورات التي عليها تسيل كميات قليلة من الطاقة، وتمثِّل –أي الشبكة- نظام الجهاز النفسي.

وصاد الاثارات هو من أجل تصفية الطاقات المتأتية من الخارج وإيقا ف تلك التي تتجاوز استطاعة معينة ويمكنها أن تؤدي إلى اضطراب جريان الكميات الصغيرة من الطاقة داخل الكرة ، وحتى يضمن صاد الاثارات هذا الدور يجب أن يكون مشحونا بطاقة إيجابية.

ممثلين الحويصلة الحية بالكرة ، الصدمة تمارس فعلها كتهديد لتكامل الوحدة الفزيولوجية والنفسية للفرد بحيث تخَترِق الصورة الصدمية صاد الاثارات ، وعموما عندما يكون الجهاز النفسي في حالة راحة، بمعنى عندما تكون الشحنة الدفاعية من الطاقة الايجابية ضعيفة، وهذا ما يؤدي حسب Freud إلى كسر في صاد الاثارات لتستقر الصدمة داخل الجهاز النفسي كجسم غريب ذو طبيعة مختلفة عن التصورات الموجودة، وُجِ د مشحونا بالطاقة مما سوف يُخل بانتظام الجهاز النفسي .(Lebigot, 2006, pp.10-12)

وفي مؤلفه La pathologie de la violence، أشار R. HellBrum (1982) إلى أن ما يتبقى من الصدمة يحتفظ به كشيء -نفسيا- بلا شكل، غير منبوذ ولا مكبوت بسبب عدم تسجيله في الرمزي . (Ansermet, 2002, p.119)

ولكن من يقول كسر و تحطيم صاد الاثارات لا يستوجب بالضرورة صدمة كبيرة، قد تكون عدة دوافع مجتمعة، عدد من الصدمات الجرحية الجزئية التي لا تصبح فعّالة إلا في حال جمعها.

6-1-3-الصدمة والغياب Le traumatisme et l'absence

نشر Freud (1926)كتابه"الكف، العرض والقلق " الذي كان في الأصل ردا على كتاب "صدمة الميلاد" لصاحبه Otto Rank الذي نُشِر قبله بسنتين، في هذا الكتاب نقّح Freud نظريته حول القلق وكذلك إعداده للصدمة.(Golse, 2001, p.102)

في بادئ الأمر رأى Freud (1920) أن القلق هو نتيجة مباشرة للكبت الذي أفلتت منه كمية ولو ضئيلة من العواطف التروية Les affects pulsionnels التي تتحول مباشرة إلى قلق حيث قال :" القلق العصابي هو نتاج الليبيدو مثلما الخل نتاج النبيذ" " L'angoisse névrotique est un produit de la libido comme le vinaigre est un produit du vin".

لكنه في الكف، العرض والقلق (1926) أكد أنه عندما تصور نزوي يظهر خطير ا، مهدِّدا أو مؤديا إلى إحساس بالذنب، هو في أصل القلق على مستوى الأنا وهذا ما يحرِّك الكبت. (Golse, 2002, p.30)

ويرى Didier Houzel بأن رفض Freud كرد على Otto Rank لإلحاق أي محتوى هوامي بصدمة الميلاد في حد ذاتها هو ماجعله يميِّز بين نمطين من القلق:

6-1-3-1- القلق الآلي L'angoisse automatique

ويعود إلى الاجتياح الصدمي للجهاز النفسي ويُنتج آليا زيادة الضغط الذي يرافق الميلاد، والقلق الآلي، قلق الانفصال لكل طفل صغير ؛ لأن غياب التصور الأمومي يتركه في مقابل طاقة نفسية التي لن يعرف أبدا كيف يوظّفها ولا كيف يفرغها، ومن هذا المنظور يبيِّ ن Freud أن قلق الانفصال يتواجد في عمق أشكال القلق

الموجود بالنسبة للكائن الإنساني ، من قلق الولادة، قلق الفطام، قلق الخصاء وقلق الموت، هو فقط مستوى النمو ما سوف يعالج قلق الانفصال ويمنح له مدلولا خاصا في كل مرحلة . (Golse, 2002, pp.30, 31)

وبهذا فالنموذج الصدمي الأولي لا يعود إلى صد مة الميلاد وإنما إلى حالة العجز L'état de détresse التي يتواجد فيها المولود. (**بونتاليس ج.ب، لابلانش جان، 1985، ص ص.322،321**)

والشخص في حالة الصدمة النفسية يجد نفسه ضمن هذا النموذج الصدمي الأولي، مغلوبا على أمره مكتسحًا بفيض من الاثارات التي يعجز عن السيطرة عليها.

6–1–3–2– قلق الإشارة L'angoisse –signal

هو استعمال عاطفة القلق كإشارة للخطر، بهدف وضع الشخص في حالة تأهب بمقابل الأخطار الكامنة والمرتبطة بالانفصال المحتمَل، ولا يترجم أبدا مجرد رد فعل قلق آني وآلي بمقابل وضعيات الفقدان أو الانفصا ل العاطفي، لذلك قلق الإشارة يدل على تطور تكيفي وناضج جد مهم للطفل.(Golse, 2002, pp.30, 31)

إذا انطلاقا من هذه المفاهيم للقلق الآلي وقلق الإشارة،كذلك إشكالية عدم نضج الطفل التي وُجدت مطروحة انطلاقا من حالة العجز هذه، التي تمثل الوضعية الصدمية النموذجية المنشَّطة من خلال غي اب أو اختفاء الأم (وهذا ما قُصد بالغياب) وبالتالي يُستوجب على الطفل شيئا فشيئا إرصان سلسلة كاملة من الاستراتيجيات الدفاعية التي تمكِّنه من التخلص من الخضوع والتبعية الكاملة، والبحث عن تحكم أكبر واستقلالي ة نسبية غير مطلقة، مثلما يحدث فيما بعد في اللعب بالبكرة، إنه عمل ترميز تدريجي الذي يضمن من هذا المنظور توظيفا مضادا للصدمة.(Golse, 2001, pp.102, 103)

6–2– Sandor Ferenczi والصدمة النفسية

سنحاول طرح رؤية Sandor Ferenczi للصدمة النفسية الجنسية من خلال أشهر نصين له:

6–2–1– نظرية Thalassa

يرى S. Ferenczi (1924) مقترحا عناصر نظريته حول الجنسية الإنسانية، أن ما يكرِّ ره الكائن أثناء النمو الجسمي داخل الرحم وأثناء الولادة هو مكبوت داخل النفس، بمعنى أن نفس كل فرد تحتوي على آثار النسيان لقصة النوع، وهذه الآثار هي عبارة عن رموز.

Thalassa، نظرية الكوارث المؤسِسَة للجنسية الإنسانية، أقامها Ferenczi كجزء من إشكالية الجِماع le coit، فما هو الجِماع؟ كذلك لماذا تراكم وتفريغ الطاقة الجنسية يأخذان بالتحديد هذا الشكل ؟ وأيضا، من أين تتأتّى أهميته القصوى عن الثدييات، وبالأخص لدى الإنسان ؟.

فارتأى أول الأمر إلى أن الجِماع هو ميل بيولوجي عام يدفع الكائنات الحية إلى العودة إلى حالة الهدوء أين كانت منتفعة قبل الولادة. (Hassoun, Spielmann, 1995, p.92)

وبهذا انطلق من وعاد إلى فكرة الفردوس المفقود الذي يشترك فيه معه بعض المحللين مثل Otto Rank (1884–1939) الذي أكد بدوره أن حياة ا لرحم هي بمثابة الجنة التي ينعم فيها الطفل بالسعادة ، وأن الميلاد عبارة عن طرد من هذه الجنة. (**فيصل عباس،1994، ص.151**)

هذا عن الميل إلى العودة إلى ما قبل الميلاد، ماذا عن الميل البيولوجي الآسر ؟

كثيرون هم من طرحوا هذه النقطة بدءا بالعلماء والفلاسفة القدامى، فأفلاطون Platon شبَّه الرحم بحيوان غير ناطق فقال: "لدى الإناث رحِم ما هو بمثابة كائن حي تستحوذه رغبة الإنجاب، فإذا بقي عاقرا لفترة طويلة غضِب غضبا شديدا، فيتحرك داخل الجسم ويولّد أمراضا من شتى الأنواع "، كذلك قال إيبوقراط Hippocrate بالنشاف الذي يصيب الرحم ويدفعه للتحرك بحثا عن الرطوبة.(**سلمان قعفراني،2001، ص.14،ص.19**)

S. Ferenczi يرى أن الجِماع مثل النوم، هو نكوص، فإدخال القضيب Le pénis يرمز إلى محاولة العودة داخل جسم الأم،كذلك المرأة تتطلع هي الأخرى لهذه العودة، ومن خلال التماهي بالرجل تحققها خياليا. (Hassoun, Spielmann, 1995, p.92)

وبالوصول إلى هذه النقطة، أثار Ferenczi القضية التي يطرحها تناسق المتع ة مع وظيفة حفظ النوع في التزاوج، وبعض الباحثين فيما بعد طرحوا فكرة المتعة الجنسية ضمن عملية الجماع من خلال نفس المنظور الجنسي القاعدي، وأبرزهم Wilhelm Reich (1897–1957) الذي قدَّم كتابه حول وظيفة الإنتعاظ La fonction de l'orgasme (1926) ومن خلاله ذهب إلى أن التقدير البخس للوظيفة الجنسية أكثر إشكالا وصعوبة من التقدير العالي لها، كما قام W. Reich بتقديم وصف مفصَّل عما أسماه القدرة الانتعاضية La puissance orgastique التي هي استعداد لبلوغ الانتعاظ ، ومن هنا قدَّم نموذجا ينقسم إلى أربعة مراحل نمطية للجِماع :

1- مرحلة المراقبة الإدارية للاستثارة؛

2- مرحلة التشنجات العضلية اللاإرادية والاشتداد الآلي للإثارة؛

3- مرحلة التصاعد المفاجئ والشديد نحو الذروة مع قمة تتصل بالإنتعاظ؛

4- مرحلة الاسترخاء. (Favord–Charles, 1975, pp.100, 101)

إذًا هكذا يتم تراكم ثم تفريغ الطاقة الجنسية وبلوغ المتعة الكاملة أو ما يُعرَف بالانتعاظ كنمط مشترك بين كل كائن إنساني، وما يضفي التفرّد والاختلاف يعود للقصة الشخصية لكل إنسان.

لكن Ferenczi ليس بعد الآن في تطور الفرد أين سيبحث عن الإجا بة لتساؤلاته ولكن في تطور النسل ومن هنا تبدأ المغامرة الفكرية لهذا النص، فالولادة حسب Ferenczi هي الخلاصة الفردية لكارثة كبيرة أرغمت العديد من الأنواع أثناء جفاف البحار على التكيف مع حياة ج ديدة والتخلي عن التنفس الغلصومي فالسمك المرمِي على الأرض اليابسة مجبر على أن يرضى ببرك مياه ومستنقعات مؤقتة، أن يستمر في العيش خاملا الوقت اللازم حتى ينجح في التحول إلى برمائي Amphibie.

السائل السابيائي Le liquide amniotique يشكّل المحيط (البحر) داخل جسم الأم، وفي كل فعل جنسي (جماع) يُختزَل كل التطور الجنسي للنوع، بمعنى الإحياء الجزئي للوحدة الجنينية مع الأم يتجسد من خلال إدخال القضيب أثناء الجِماع، ويحقق في ذات الوقت المبتغى في العودة إلى الحياة داخل البحر للحيوانات السالفة التي عاشت كارثة الجفاف. (Hassoun, Spielmann, 1995, p.92)

إذًا مثل المولود الجديد الذي يترك وسطه المائي الدافئ لينتقل إلى آخر هوائي جاف، مجبرا على التنفس حتى يتكيف ويبقى، ويمتلك الذّكرُ قدرة العودة إلى هذا الوسط من خلال إمكانية القذف (قذف المنِيّ) لدى القضيب لكن ماذا عن الأنثى؟

تحمِلُنا الأفكار إلى الفسيو لوجي وعالم التشريح جالينوس Gallien (131–210م) الذي اهتم بالنظرية المنوية، مُرتئيا إلى أن منِيّ المرأة يشبه منِيّ الرجل ، كما أن أعضاءها الجنسية لا تختلف عن أعضائه إلا بكونها موجودة في الداخل , لذا فهي بحاجة لإخراج المنِيّ كالرجل وإن كان منِيّها أكثر قوة ووفر ة ورطوبة (**سلمان قعفراني ،2001 ،ص.19**). ويرى Ferenczi أن امتلاك الأعضاء الانتصابية، النمو داخل الجسم الأمومي وتجربة الجفاف تملكّ جزءا من نفس المجموعة، فما حثّ البرمائيات والزواحف على خلق قضيب، هو الجهد الرامي وراء تجديد شكل الحياة المائي المفقود.

Thalassa هي كذلك نظرية الرمز، الأم هي رمز للمحيط وليس الكون، الأرض البارزة من المحيط (بعد جفافه) هي تمثيل رمزي للولادة، السمك سابحا في الماء يمثل كذلك التزاو ج مثلما يمثل الوضعية داخل الرحم وقد اعتمد Ferenczi على الهوامات والأحلام والأساطير من أجل إسناد نظرية الارتداد إلى الأم.
(Hassoun, Spielmann, 1995, p.92)

وقد طرح Otto Rank ضمن نفس السياق نظريته حول صدمة الميلاد , والذي يرى في الولادة خزّان كل قلق لاحق، وقد افترض أن هناك آثارا ذكروية بصرية لا شعورية مخزنة من طرف الطفل عن مروره في هذه المرحلة التناسلية الأمومية، ذكرى مفسرِّة للاشمئزاز اللاحق من الأعضاء التناسلية الخارجي ة الأنثوية والرغبة في العودة إلى رحم الأم مرمّزة من خلال الجِماع التناسلي Le coït génital. (Golse, 2002, p.17)

ظننا أن اكتشاف الموروث النفسي المتنقّل عبر الأجيال، كان أكثر إنتا جات التحليل النفسي تألقا وثراءا وكيف أن هذه الثغرات والنقاط الصدمية السوداء تنتقل عبر اللاشعور، ممارِ سرّة عمل الشبح أو الطيف، آثار النسيان لما لم يُتقبل، لم يُحتوى و لم يُرصن، تعبر من جيل إلى آخر، لكن Ferenczi لخص شكل الجنسية الإنسانية ضمن التطور الصدمي لها والذي تحمله آثار النسيان للنسل.

6-2-2- عودة نظرية الغواية

"Confusion de Langue entre les adultes et l’enfant : Le Langage de la tendresse et de la passion " في Ferenczi (1933) "إختلاط اللغة بين الراشدين والطفل: كلام الحنان والشهوة" أكد أن هناك دائما خطر إختلاط في اللغة بين الراشد والطفل، حيث قال: "هناك طفْل مُكبَّر للحب الشهوي، ممتلئ بأحاسيس

الذنب لدى كائن غير ناضج وكذلك لا يزال بريئا "، وأكد: "الإعتراض، هذا إذا كان هناك هوامات للطفل في حد ذاته، بمعنى أكاذيب هستيرية، يفقد قوَّ ته جرَّاء عدد معتبر من العملاء في التحليل، الذي ن أقروا بأنفسهم بتسليط العنف على الأطفال." (Gabel, 1998, p.13, pp.58, 59)

فالراشد أمام الطفل قد يحس نفسه مشوشا ومضطربا بسبب مواقف الطفل، طريقته في البحث عن الاتصال وعن الحنان، مشوَّشا كذلك بسبب فضوله المترجَم بطريقة جد ملموسة من خلال الحركات والكلمات، لكن Ferenczi يؤكد بأنه ليس كلام الطفل ما هو في اختلاط مع ذلك المتعلق بالراشد، فترقبَّات الحنان للأول ليس لها علاقة مع الرغبات الجنسية للثاني، حتى وإن كانت كلتاهما تتعلق بالجسد.(Gayda, 2007, pp.25, 26)

لكن الفخ الشيطاني يكمُ ن في كون الطفل غير قادر على تحمل فِعله، ولا على موْتِ وإحتقار ذلك الذي كان السبب، فيمر من إحساسه بالذنب إلى حب من أغواه، والأثر المولّد للمرض لأفعال الغواية يتأتى من كون الطفل يجد نفسه بدون دفا ع أمام قوة وتأثير الراشد، خضوعه وسلبيته تجعله بريئا وفي نفس الوقت مخطئا، كما أن تحليل الحدث وإرصا ن يصبح فيما بعد أكثر صعوبة من التماهي مع ذلك الذي اقتاده إلى هنا، أين لم يرغب في البدء بالذهاب والذي –أي الطفل– سوف يحب المعتدي حبا مستعبِدا، الذي سوف يكبله ما تبقى من حياته حتى فيما بعد موت المغوي. (Hassoun, Spielmann, 1995, p.93)

فيتساءل الطفل بمنطقه ا لبسيط:" بما أنني أنا المذنب، إذ ا هو غير مذنب وبالتالي يمكنني أن أحبه ، يمكنني الاحتفاظ بكل ماقد قدَّمه لي إذَا ظللت على حبه"، منطقه البسيط الساذج هو مايحرك أكثر ميكانيزماته الدفاعية بدائية بدءا بالإنشطار.

6–3– D.W. Winnicott والصدمة النفسية

الكاتب الإنجليز ي D.W Winnicott (1896–1971) برع في وصف وتحليل التفاعلات العلائقية المبكِّرة بين الأم ورضيعها، مانحا أهمية قاعدية للوظيفة الأمومية في تهيئة التنظيمة اللاحقة لشخصية الطفل، والتقى في الكثير من النقاط مع F.Dolto بدءا بمفهوم الحيز الانتقالي أو حيز الأمن، لذلك ارتأينا إلى توضيح منظوره عن الصدمات والتصدعات المبكرة، انطلاقا من رؤيته لخصوصية العلاقة المبكِّرة بين الرضيع وأمه، التي تعتبر نموذجا أوليا لبناء صاد الإثارات.

D.W Winnicott درس العلاقة الأولى أم /طفل واستخلص ما أسماه "الانشغال الأمومي الأولي "، أين تستجيب الأم للحاجة الحيوية التي لدى طفلها، من خلال حالة نفسية جد خاصة في الأيام الأولى التي تلي الولادة، تتميز بالاعتناء بالطفل والانغلاق على الذات، شكلٌ من النسيان للعالم الخارجي، لكنه من أجل ضمان انطلاق النمو النفسي والجسدي للمولود الجديد.

Winnicott أكد أن بعض ا لنساء ينجحن مع طفل ويفشلن مع آخر، أ خريات لا يتفرغن كليا لأطفالهن وهناك اللاّتي لا يرِ دن أو لا يستطعن الاستسلام لهذا الإحساس، أخريات كذلك يكن غير قادرات على ترك أنفسهن لهذه الحالة من الانغماس الجد مميز للأنوثة، لذلك لا يميز Winnicott هنا بين أمهات جيدات وأم هات

سيئات، بل يتحدث عن "الأم الجيدة بكفاية" " La mère suffisamment bonne " والتي في أغلب الحالات تكون أم الرضيع، لكن كل شخص قادر على أن يكون "مريضا بالاهتمام أو الاعتناء الأمومي " من أجل هذا الطفل، يمكن أن يخلق المحيط الضروري لنموه.

وقد أكد Winnicott بأنه لا يمكن الجزم بأن الطفل الذي لا تتوصل الأم معه إلى هذه الحالة من الانغماس سيكون بالضرورة مضطربا، لكن هذه الحالة من الاعتناء الأمومي تهيئ تيقظ الطفل ومقاومته النفسية بما تنقله وتحوّله من إحساس بالأمن والسلام الداخلي للطفل، وبهذا تتقلّد الأم حسبه وظيفة صاد الاثارات، فأمام الخبرات المكدِّرة التي يختبرها كل مولود والتي تعاش من طرفه كلحظات إلغاء و تلاشي، كفترات خاوية، كل أم يقظة بجميع حركات الحنان تساعد في شفاء الطفل من تهديدات التلاشي هذه، إنها استمرارية واتصالية هذه المعالجات والشفاءات، ما تسمح للطفل بتشكيل إح ساس مستمر بالوجود، الذي يولّد الوعي بالذات "Soi " ما أسماه Winnicott " Le Self ".

ولكن الحرمان العاطفي أثناء العنايات الأمومية، لا يضمن هذه الحماية أمام الصدمات والهزات ال تي تجزئ حياة الطفل، هذه الانقطاعات تكون خطيرة إذا كانت متكررة، لأنها تمنع الطفل من الاستقرار على "إحساس مستمر بالوجود " الضروري من أجل الوعي بنفسه وبوجوده (بصورة جسمه القاعدية)، وبهذا تعاش هذه الانقطاعات "كتهديدات بالإبطال" " Des menaces d'annulation "، التي تُظهر حسب Winnicott قلقا بدائيا جد واقعي.

أما في حالة الحرمان الأمومي الممتد أو أكثر في وضعية حامية مرضية، إنه الطفل لوحده الذي يجب عليه ضمان المرور من تبعيته الكاملة إلى استقلالية تدريجية، ومن أجل ستر هذا العجز الذي هذا الجهد المتفاوت مُحْدِثُ الطفل ينعزل ويتوحد ضد الخبرات العفوية التي يجب أن تُشكِّل وعيه بالوجود ضمن انسجام مع تقديره للعالم، فيختلق نوعا ما شخصية زائفة يسميها Winnicott الذات الزائفة Le False Self، يعيش ظاهريا مثل جميع الأطفال، وفي الواقع يكتفي ويرضى بالتقليد، بنسخ -تقريبا- آليا كل محيطه، م انعا ومحرِّما لا شعوريا كل رد فعل أو إحساس عفوي، فلا يتوصل إلى الإحساس بجسده كمك ان الانطباع بأنه موجود، لأنه لا يعيش في الواقع. (Voizot, 1977, pp.53-61)

وبهذا ترجع نشأة المعيش الصدمي الطفلي إلى انقطاع وظيفة الحفاظ على العنايات الأمومية (السند Holding والمعالجة باليد Handling لجسم الطفل) ضمن جو وتواصلات عاطفية واقية، والتي تمسُّ بإحساس "استمرارية الوجود La continuité d'existence"، حيث يُخلّف دائما تصدعا قاعديا في نمو النرجسية البدائية، حرمان في تقدير الذات الذي يؤدي إلى البحث المتكرِّ ر عن الإصلاح من خلال المحيط، وعجز عن التحكم في الإثارات التي تفجرها الوضعيات الجديدة.

ويرى Winnicott أن الخلل يكمن في المحيط، فقال أن: "الوالدين، الاثرين، هما على كل حال عاجزين عن القيام بوظيفتهما كصاد للاثارات، هذا الأخير الضروري حتى لا يجابه الطفل على الدوام الصدمة النفسية، بمعنى

الهزّات التي لا يملك الوسيلة لإرصالها "، فتحدث مستعملا عبارة "العجز المطلق La détresse absolue" و"الإحتضار البدائي Une agonie primitive" عن الصدمة التي لا يمكن تمثيلها ومع ذلك تبقى مسجلة في حالة أثر في الجهاز النفسي، محدِثة قهرية التكرار التي تمثل عودة لإثارة غير محتملة تتطلب التفريغ.
(Ansermet, 2002, p.118, p.143)

ولا تكفي الكلمات لترجمة شيء قد وصل، قد حدث ولكن لا يمكن ا ختباره، لا يمكن تصوره أو إدماجه فالمعيش النفسي الصدمي يناظر القلق الخالص، القلق المعجِّز والقلق الآلي، إحساس بالتفكك وخوف من الجنون من الموت، من العدم والتلاشي، لأن البنيات المشكِّلة للتنظيمة النفسية ككل قد انهارت، عجز مفاجئ عطَّل كل سيرورة فاعلة، أحدث خللا في تنظيم الروابط، مزَّ قها وأوقف كل قدرة على التفكير، مما أفق د السيطرة ووضع جميع ا لميكانيزمات الدفاعية لحظة الصدمة خارج الحيز، أبطلها مثلما أبطل آلية الترابط التي عَ رَهْا تنتقل نزوات الحياة.

عمق هذا الانهيار ومخلفات، على الرغم من نوعية الصدمة، وإمكانية توظيف الجلَد، يحدده مدى تماسك وصلابة الإحساس بالوجود القائم على نوعية وكفاءة الوظيفة الأمومية ضمن العلاقات المبكرة.

7- تناذر التكرار Le Syndrome de Répétition

مبدأ قهرية التكرار هو الصياغة المجرّ دة لتحقيق ا لميول الطبيعية لتكرار التصرفات والخبرا ت مهما كانت الأحداث، الملائمة أو غير الملائمة، على عكس مبدأ اللذة. (Tusques, 1976, p.102)

تحدث Freud في"ما فوق مبدأ اللذة" "Au delà du principe de plaisir"(1920) عن قهرية التكرار التي تحتّم على الشخص العودة إلى الخبر ة الصدمية الأولى رغم الألم الذي اختبره . (Ansermet, 2002, p.143)، فيحدث الأمر وكأن الجسم قد احتفظ رغما عن الشخص بذاكرة الصدمة، وأ ن هذه الأخيرة تعُاد أبديا وفي كل لحظة.(Hirigoyen, 2001, p.205)

ويتشكّل التناذر من عودة المشهد الصدمي، سواء في الليل من خلال الكوابيس أو في النهار من خلال الانبعاثات وأحلام اليقظة التي فيها تبدو الأمور أكثر تعقيدا، فالشخص يعيش واقع الحدث والواقع الذي يتواجد فيه في نفس الوقت، و بهذا تمثّ السيناريوهات الجديدة محاولات لإرصان الصدمة انطلاقا من عناصر الحياة النفسية الحالية، وفي كل مرة يتم التكفل بالجسم الغريب الداخلي جزئيا أو كليا من خلال تصورات، ما عدا لحظة اللقاء مع الموت. (Lebigot, 2006, pp.26, 27)

كما أن كل صدمة شديدة يمكنها أن تتجاوز قدرات تفكير الطفل، تسجَّ ل في نفسيته تحت شكل إحساسات جسدية أو صور في الحالة العنيفة، دون أن يستط يع الطفل القيام بالتمييز بين ما يفكر فيه والواقع، لا وجود لفرق بين الحاضر والماضي، مثل هؤلاء الأطفال يعلنون "بما أنني أفكر فيه- أي الحدث- إذا لا أزال في الحاضر" (Berger, Bonneville, 2007, p.25) ليبقى الحدث الصدمي مركزا لحياتهم ، يمارس عليهم نقطة جذب قوية تمنعهم من التقدم إلى الأمام، من ترقب المستقبل ومن التأمل في الغد.

تكسرِّ الصدمة الحد الفاصل بين الواقع الفعلي والواقع النفسي، فعدم نضج الطفل يجعله لا يميز إذا كان الألم الذي يحسّه والرعشة التي في داخله هي واقع يعود له، لما قد عايشه، أم أنه بفعل الانشطار، قد أصبح هو نفسه متفرجا على نفسه، مثلما يفعل مشاهدا لحلقات الرسوم المتحركة العنيفة أو المخيفة، يحس بالخوف، يغمض عينيه لكنه يدرك أنه مجرد متفرج، مُ شرَاِ د متى أراد أغلق التلفاز، لكنه لا يس تطيع أن يطفئ مشاهد الحدث الصدمي فيبقى حبيس هذه الدوامة، تتكرر وتتكرر .

ولهذا كثيرا ما يُتهم الأطفال ضحايا الاستغلال الجنسي بالكذب، بالخلط بين الواقع والخيال، باستعارة مشاهد من الأفلام واحتلال دور فيه ا، بالخيال الشاسع الكاذب، لكن الخلط لا يعود إلى هذا وإنما إلى عجزهم عن احتواء الصدمة الجنسية.

8-البعدي l'Après - Coup وإرصان الصدمة

قدم S. Freud (1895) هذا المصطلح في مؤلفه "مخطط إجمالي لعلم نفس علمي" فيما يخص حالة Emma ضمن نظرية الذاكرة والزمنية، أين الجنسية تلعب دورا مسبقا من خلال تطورها على زمنين، فالصدمة النفسية التي تحمل محتوى جنسي، معاشة من طرف طفل ذو ثماني سنوات، تترك أثر ا سينشطّ خلال البلوغ آخذة بذلك كل معناها، وميكانيزم الدفاع المستعمل من طرف الأنا هنا هو الكبت، حيث أكد S. Freud قائلا :"هذه الحالة تقدِّم لنا جدولا نمطيا عن الكبت الهستيري، ولن يفوتنا أبدا كشف أن ذكرى مكبوتة لم تتحول إلا في البعدي إلى صدمة".

ومن خلال رسائله إلى Wilhelm Fliess (رسائل 01مارس 1896، 20ماي 1896، 6ديسمبر1896، 14نوفمبر 1897)، قام S. Freud بتعريف هذا المفهوم من خلال وصفه لذاكرة مكوّ نة من التسجيلات المتتابعة، على طبقات تحمل تصورات الإنتاجات النفسية لفترات متتابعة من الحياة، وأكد أن بعض الآثار الذكروية تكون دائما على صلة مع الجنسي، لتصبح موضوعات للكبت وتستمر كعناصر غير متحوِّ لة، غير مترجمة، ضمن تنظيم عقلي يزداد تطورا. (Geissmann, Houzel, 2003, pp.15, 16)

فالبعدي l'après – coup هو سيرورة مستمرة للعمل النفسي، إنه الوسيلة التي يستعملها الشخص من أجل معناه الكلي وبعُدِه التاريخي للمعطيات المتأمّ لةَ، وبهذا يحمل البعدي معنى تنقيحات الحياة أثناء الحركات النفسية التي تأخذ إلى معاني جديدة، إلى فعاليات نفسية جديدة أو إلى اشتداد الإمكانية المرضية، ومن هنا يَشهد البعدي الزمنية النفسية La temporalité psychique، السببية النفسية La causalité psychique وعمل الذاكرة. (Puyuelo, 2002, p.207)

لكن كيف يمكن تحديد الزمن بالكلام ؟ الزمن الذي لا نستطيع التفكير فيه هو شرط كل فكر، وهو ما لا نتحكم به.

يرى Henri Bergson (1809-1941) أن التمييز الذي نقوم به بين الحاضر والماضي -إن لم يكن كيفيا- فهو على الأقل متعلق نسبيا بامتداد الحقل الذي يشمله تيقظنا للحياة، والحاضر يمثل المكان الذي يخصص

مثل هذا المجهود، وبهذا يتعلق حاضرنا بالماضي عندما نتوقف عن إعطائه صفة المصلحة الراهنة، وبالتالي لا شيء يمنعنا من نقل أبعد ما استطعنا وتمنيناه إلى الوراء، خط الانفصال بين حاضرنا وماضينا.

فالذاكرة حسب H. Bergson لا تحتاج إلى تفسير، إذا أخذنا بعين الاعتبار استمرارية الحياة الداخلية وحالتها اللاانقسامية، فالماضي يصون نفسه من ذاته، ذاتي الحركة، ولا توجد إمكانية خاصة بحيث يتم الاحتفاظ من الماضي لسكبه في الحاضر. (**آدلر ألفريد، برغسون هنري، فرويد سيجمند، 1976، ص ص. 104 – 106**)

لذلك لا يفرّق المصدومون بين واقعهم النفسي والواقع الفعلي، لأن فرط يقظتهم متمركز ومسلّط على مشاهد الحدث الدرامي الذي مروا به ، وبذلك تمتد صفة الماضي لتغيّم على حاضرهم ويعود خط الانفصال إلى الماضي البعيد القريب من أنفسهم.

وتذهب Françoise Dolto إلى أن التحليل النفسي هو معرفة ما بعد الحدث : "عندما شيء ما لا يأتي عمل الكلام واستعم ال التداعيات الحرة يسمح بالعثور – بعد الحدث– عمّا يمكن أن يكون قد خلق الألم " كذلك بحثت F. Dolto في بداياتها متسائلة "كيف يحدث 'هذا' وكيف يمكن أن يمر 'هذا' عندما يحدث بشكل مؤلم، من أجل القيام بما هو أحسن حتى يمر 'هذا' بشكل جيد"، بمعنى أنها استعملت هذه المعرفة التحليلية للبعدي كمعرفة يمكن استعمالها في القبلي L'avant coup، من أجل تجنيب الأطفال نوعا من الأحداث والكثير م ن الجراح. (Hassoun, Spielmann, 1995, p.84)

إذًا قد يحمل البعدي معنى الحدَ ث أو العامل المفجِّ ر،كما قد يكون فرصة أو فرصا متعددة ليس فقط للتفريغ الانفعالي وإنما لإرصان نفسي مؤجَّ ل، كذلك لا يُحصرَ مفهوم البعدي في رد الفعل المؤجَّ ل على إثارات ماضية، تفاداها الطفل بسبب عدم نضجه الفزيولوجي والانفعالي، بل يتعداه إلى أمل مفتوح على التصحيح والإنبناء، لأنه يسمح للفرد انطلاقا من قدراته الحالية إرصان ما لم يمتلك له قبلا معنى، وبهذا تأ سيس طريقته الخاصة في التحليل الذاتي، قائمة على معرفة مطوّلة بالذات.

ومن هنا يمكن التفكير كذلك فيما هو قبلي كما هو، ولكن خاصة من خلال صلته مع البعد ي، أي الاهتمام بالثنائية القبلي L'avant – coup والبعدي L'après – coup من أجل – مثلما أكدت على ذلك Dolto – تجنيب الطفل ما قد يعيشه من ألم، أو على الأقل التمكن من فهم معاناته ، وبهذا، كانت F. Dolto محلّة ما قبل الأوديبي، تختزل الزمن مؤكّدة أن الطفل ومنذ ولادته شخص رغبة مكتمل.

9-حالة الشدة ما بعد الصدمي L'Etat de Stress Post Traumatique

الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية في طبعته الرابعة (1994)، الصادر عن الجمعية الأمريكية للطب العقلي، وضع الحدود التعريفية والجدول العيادي، وعيَّن العامل المفجِّ ر لما أطلق علية حالة الشدة ما بعد الصدمي L'Etat de Stress Post Traumatique (ESPT), Post Traumatique Stress Disorders (PTSD)

فوضِع هذا التصنيف في البداية لسلسلة من الأعراض التي يطورها ضحايا الحرب، لكن فيما بعد أُستعمل من أجل وصف الآثار النفسية للكوارث الطبيعية (الزلازل والفيضانات)، حوادث المرور، حوادث العمل الاعتداءات مثل الاختطاف، السطو المسلح، الاغتصاب، وجرائم الإرهاب . (Boudarene, 2005, p.124) وليس سوى حديثا جدا، حتى أصبح يستعمل فيما يخص العنف الزواج ي La violence conjugale. (Hirigoyen, 1998, p.237)

9-1- حالة الشدة ما بعد الصدمي PTSD والضغط Le Stress

يرى Crocq (2000) أن مفاهيم "الصدمة النفسية Psycho Traumatisme" أو "التناذر النفسي الصدمي Le Syndrome Psycho Traumatique" هي أكثر ملاءمة لتحديد الظواهر ا لم رتبطة بالحدث الصدمي، بينما كل ماله علاقة مع مفهوم الضغط Le Stress يترجم ضمن المآل المباشر للصدمة، ويُبرز خاصية حادة وموجزة، بمعنى أن الأعراض الدائمة التي تظهر بعد مدة من الحدث الصدمي تنتمي إلى سيرورة الصدمة بينما الضغط فهو ظاهرة عابرة. (Boudarene, 2005, p.124)

وبالعودة إلى الاستعارة الفرويدية، عندما تمارس الصدمة النفسية فعل التهديد على المتعضي، يرتفع الضغط داخل الحويصلة الحية ويخلق المعاناة النفسية التي تترجَ م من خلال القلق ؛ بمعنى من خلال تقوية وتعزيز الطاقة الايجابية لسطح صاد الاثارات الذي يزيد من مقاو مته، لذلك في حالة الشدة، غلاف صاد الاثارات ينثني، ينغمد ولكنه لا يتحطم، وعندما يختفي التهديد، الحويصلة الحية مثل الكرة تسترجع شكلها الأصلي، قد تبقى ذكرى مؤلمة عن الحدث، ولكن هذه الذكرى تُتخَذ ضمن شبكة التصورات وتُ عُّ للتطور، لتفقد شحنتها من القلق (العاطفة) وتتحمل الكبت. (Lebigot, 2006, p.11)

شكل رقم (**01**): رسم توضيحي يبيّن سيرورة اكتساح الصدمة للحويصلة الحية

الحويصلة الحية في حالة الراحة

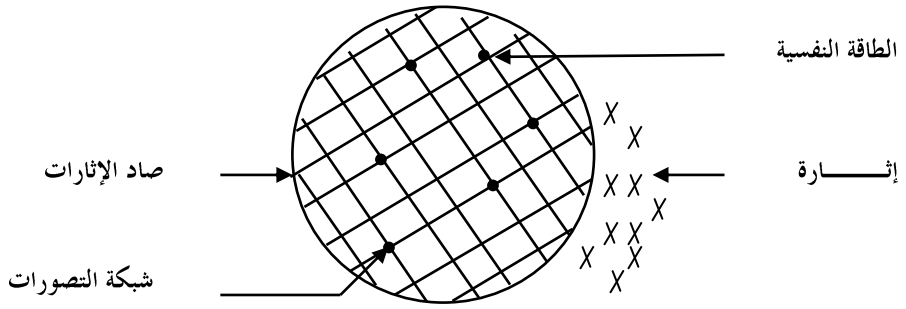

في حالة الضغط **le stress**

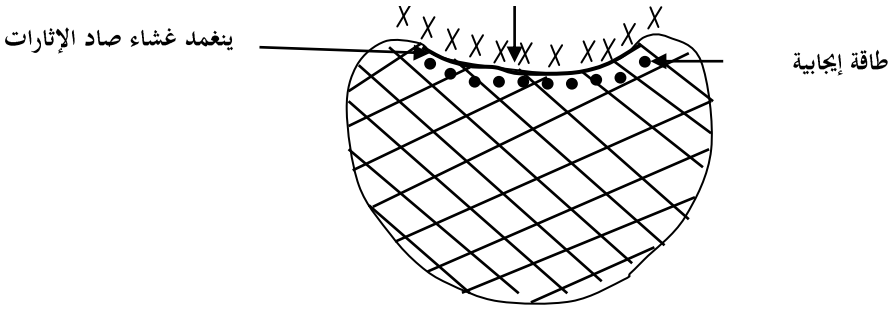

في حالة الصدمة

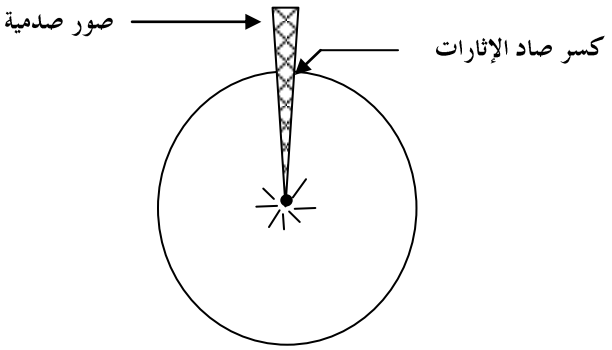

9-2- المعايير التشخيصية لاضطراب حالة الشدة ما بعد الصدمي حسب DSM IV

A- الشخص يتعرض إلى حدث صدمي أين يكون كلا العنصرين التاليين حاضرين:

1- الشخص خَبِرَ شهِدَ أو تواجه مع حدث أو أحداث، التي على إثرها كان يمكن أن يموت أو أن يُجرح بشكل خطير، أو هُدِّد على إثرها بالموت أو بجراح خطيرة، أو التي على إثرها السلامة الجسدية الخاصة به أو بالآخرين هدِّدت؛

2- رد فعل الشخص على الحدث يترجَم من خلال خوف شديد، إحساس بالعجز أو بالرعب؛

ملاحظة:لدى الأطفال، السلوك غير المنتظم أو المتهيِّج يمكن أن يكون بديلا لهذه التظاهرات.

B – الحدث الصدمي يعاد إحياؤه باستمرار بشكل أو بالعديد من الأشكال التالية:

1- ذكريات متكرِّرة ومكتسحة للحدث مثيرة إحساسا بالعجز، وتشتمل على صور، أفكار و إدراكات ؛

ملاحظة: لدى الأطفال، يمكن أن يطرأ اللعب التكراري معبراً عن مواضيع وأبعاد الصدمة؛

2- الأحلام التكرارية عن الحدث مثيرة إحساسا بالعجز ؛

ملاحظة: لدى الأطفال قد يكون هناك أحلام مفزعة دون محتوى يمكن التعرف عليه؛

3- انطباع أو تصرف مفاجئ "وكأنّ" الحدث الصدمي سوف يتكرر (متضمنا الإحساس بإحياء الحدث أوهام ، هلاوس، مشاهد مفككة، ومضات Flash –Back)؛

ملاحظة: لدى الأطفال الصغار، يكون هناك إعادة بناء (إعادة تمثيل) خاص بالصدمة؛

4- إحساس قوي بالعجز الجسدي أثناء التعرض إلى إشارات داخلية أو خارجية يمكنها أن تستحضر أو أن تماثل بُعْدًا للحدث الصدمي المسبب؛

5- إعادة تنشيط فزيولوجي أثناء التعرض إلى إشارات داخلية أو خارجية يمكنها أن تستحضر أو تماثل بُعْدًا للحدث الصدمي.

C- التفادي الدائم للمثيرات المرتبطة بالصدمة وتثبيط تجد يد النشاط العام (غير سابق للصدمة)، وهذا ما يشاهَدُ في حضور على الأقل ثلاثة من بين التظاهرات التالية:

1- بذل الجهد من أجل تفادي الأفكار، الأحاسيس أو المحادثات المرتبطة بالصدمة؛

2- جهود من أجل تفادي النشاطات، الأماكن أو الأشخاص الذين يحيون ذكريات الصدمة ؛

3- عدم القدرة على تذكر بُعْدٍ مهم في الصدمة ؛

4- التخفيض الواضح للاهتمام أوالمشاركة في نشاطات مهمة؛

5- إحساس بالانفصال عن الآخرين أو بأن يصبح غريبا بالنسبة للآخرين؛

6- تقيُّدٌ (تقلُّص) العواطف (مثل عدم القدرة على اختبار الأحاسيس الحنونة)؛

7- إحساس بالتقييد في طريق مسدود (مثل أن يفكر بأنه لا يستطيع أن يصنع مستقبلا، بأن يتزوج وأن يصبح لديه أولاد، أوأن يحصل على سير طبيعي للحياة).

D– حضور أعراض دائمة تترجم تنشيطا عصبي – نباتي Une activation neuro – végétative (غير سابق للصدمة) وهذا ما يشاهَدُ في حضور على الأقل اثنتين من التظاهرات التالية:

1– صعوبات في الاستسلام للنوم أو النوم المتقطّع؛

2– سرعة الانفعال أو الغضب؛

3– صعوبة في التركيز؛

4– اليقظة المفرطة؛

5– رد فعل من الارتجاف (الرعشة) مبالغ فيه؛

E– في حالة الاضطراب، يجب أن تستمر أعراض المعايير (B.C.D) أكثر من شهر.

F– الاضطراب يحدث معاناة ذات دلالة عيادية أو تغير ا في النظام الاجتماعي، المهني أو ضمن ميادين أخرى مهمة.

ملاحظة: يحدّدُ الاضطراب إذا كان:

– حادا: إذا كانت مدة الأعراض أقل من ثلاثة أشهر؛

– مزمنا: إذا كانت مدة الأعراض من ثلاثة أشهر فما فوق؛

– يكون حدوث الاضطراب مؤجلا إذا كانت بداية الأعراض على الأقل بعد ستة أشهر من عامل الشدة؛ (DSMIV, 2003, pp.539, 540)

– الجدول العيادي يظهر أحيانا بعد فترة متنوعة من الكمون بعد الصدمة، تمتد من بضع ساعات إلى عدة أشهر وتكون بدون أعراض. (Lévy–Soussan, 1994, p.126)

9-2-1-اضطراب حالة الشدة ما بعد الصدمي لدى الأطفال

بناء على المعايير التشخيصية السابق ذكرها، سنحاول تحديد بعض الأعراض والتظاهرات الخاصة بالأطفال المصدومين و على وجه التحديد ضحايا الاستغلال الجنسي.

– اضطرابات في النوم مرافقَة بالكوابيس و/أو الرعب الليلي، سرعة التأثر مع البكاء الدائم، نكوص أو تأخر في النمو النفسي الحركي يعود أساسا على الطفل في سن مبكرة؛

– عند الأطفال الأكبر سنا، ليس من النادر ملاحظة الشكاوى الجسدية (ألم في البطن مثلا)؛

– قلق الانفصال مع سلوك التعلق، رهاب الوضعيات التي تعو د إلى الصدمة، مواقف من الانكماش مع الحزن وعدم التكيف مع المدرسة، هي الاضطرابات التي عادة تلاحظ لدى الأطفال في سن المدرسة؛

– سلوكات نكوصية مثل التبول اللاإرادي L'énurésie أو التبرز اللاإرادي L'encoprésie؛

– تظاهرات التناذر التكراري تظهر أكثر طبيعيا ضمن الألعاب ورسومات الأطفال التي تتكرر دون أي لذة وترافق عادة اللعب؛ (Boudarene, 2005, p.129)

– استحضار المشاهد العنيفة يبقى مؤلما لمدة طويلة وأحيانا دائما، لأن الجراح الماضية المنشَّطة تثير الألم تماما مثل لحظة وقوع الحدث، فهي تنعش مشاهد الخزي، وما يشعِر بالعجز،وما هو غير محتمل هو عدم فهم معنى كل ما يتأتى، إنه التألم من أجل لا شيء؛

– تصرفات من الخوف والتجنب، فقد يصاب الطفل بالذعر لمجرد مصادفته لشخص يشبه المتحرِّ ش به أوعندما يكون في وضعية تذكِّره بالماضي؛

– الفزع والألم المثار من خلال استحضار الماضي يمنع الضحايا من العودة إلى الأما كن التي تم فيها الاعتداء عليهم وهذا ما يخلق شكلا من الرهاب؛

– ضحية الاعتداء الجنسي تعبِّعن إحساس من الوحدة، لأنه من الصعب تسمية شيء ما عندما لا نكون واثقين من معنى ما نحس؛

– الصدمة تحُدث انحرافا في الوقت، فتركد الذاكرة على الحدث الصدمي، تذكر مفرط، الحاضر يصبح غير واقعي، محدثا النسيان أو الانفصال عن الأمور اليومية؛ (Hirigoyen, 2001, pp.204-206)

–الطفل قد يعطي انطباعا بأنه يعاني من الخدر (التخدُّر) الانفعالي Une anesthésie émotionnelle يبدو لا مباليا، يحمل إحساسا بعدم امتلاك أي مستقبل، وهذا النهك يلاحَ ظ غالبا لدى الأطفال الذين تكبدوا الاعتداءات الجنسية الممتدة، المصاحبةَ بالإحساس بالذنب وبالخزي، بضعف تقدير الذات وبرؤية متشائمة للعالم مما لا يمكنه إلا نادرا الوثوق في الراشدين؛

– في الحالات الخطيرة بالنسبة لهؤلاء الأطفال، قد يُ نهِك الطفل نفسه في القيام بمجهود ات شاقة حتى لا يفكر في الصدمة، مجهودات يمكن أن تحدث نهكا عاطفيا عاما؛

– في بعض الحالات، الطفل قد يتملَّكه الخوف من البقاء وحيدا في الظلام، لأنه يحيي لديه العنف الجنسي الذي تعرض له. (Dumas, 2005, p.16, pp.38, 39)

الفصل الثاني

الاستغلال الجنسي

« La seule loi commune à toute l'espèce humaine, et l'école n'en parle jamais, c'est l'interdit de l'inceste, homosexuel et hétérosexuel. »

Françoise Dolto

1- العنف La violence

لماذا مصطلح عنف؟ العنف الجنسي La violence sexuelle على وجه التحديد، لماذا لا نتحدث عن العدوانية L'agressivité، الهدمية La destructivité، أو الكره La haine، أو مباشرة عن الاستغلال L'abus أو حتى عن نزوات الموت؟

ربما لأن مصطلح العنف الذي يحمل داخله أفكارا متناقضة هو وحده الك فيل بتقريب مالا يُحتمل تصوُّ ره فمثلا S. Freud (1929) في" Malaise dans la civilisation " رأى بأن: "الإنسان محاولا إشباع حاجته للعدوانية على حساب قرينه، استغلال عمله دون تعويض، باستعماله جنسيا دون رضاه، اغتصاب ماله، بإهانته بتكبيده العذابات، بتعذيبه وقتله" يجمِّد معنى العنف.

وتعرِّفه Françoise Héritier (1996) على أنه من جهة ينتمي إلى مصطلح اغتصاب Le viol، إلى فكرة الكسر والتحطيم L'effraction، إلى السيطرة والتحكم La domination وإلى رفض الغيرية، ومن جهة أخرى، فهو يرتبط بفكرة البأس والقوة La vigueur، القدرة La puissance والقوة الحيوية La force vitale.

لذلك هناك تناقض بين العنف الذي يُتحمَّل والذي يُسلّط، وفي ذات الوقت بين الذي يُطلق فيه الرعب وبين الذي يؤدي إلى نوع من الا فتتان، بين عنف الحياة البنائي، الملائم وعنف الموت الهدمي، الذي يجرُّ إلى الانتحار، إلى القتل وإلى استخدام الإقصاء، العزل، العنصرية، التحرش، الإبادات، سوء المعاملة والاعتداءات الجنسية.(Ansermet, 2002, pp.15-17)

وبهذا فالصدمة قد تكون منبعا للعنف بقدر ما تكون نتيجة له، فمع العنف نَسقُط حتما على واقع لا يمكن مواجهته، لا يمكن استيعابه ولا يمكن تمثيله أو حتى احتواؤه، يصمد أمام كل الاستراتيجيات، ليبقى ضمن حلقة مفرغة حتى يصبح فيما بعد نواتا للعنف (التماهي بالمعتدي).

2- تعريف الاستغلال الجنسي

2-1- الإطار القانوني:

العِرض عرفا هو الطهارة الجنسية، أي إلتزام الشخص سلوكا جنسيا يَبعُ د به عن أن يوجَّ ه إليه لَوْمٌ اجتماعي، و من ثمّ يُعدُّ مساسا بالعِرض كل فعل مُ خِل بهذه الطهارة.

أما قانونا، فيعني الحرية الجنسية، ومن ثمّ يُعُدُّ الفعل اعتداء على العِرض إذا تضمّ ن مساسا بهذه الحرية أو خروجا على الحدود الموضوعة لها.

وهتك العرض Un attentat à la pudeur هو الإخلال العمدي الجسيم بحياء المَجْنِي عليه بفعل يرتكب على جسمه، ويمسُّ في الغالب عورة فيه.

وقد خصّص المشرّع لهتك العرض نصين : أولهما هو المادة 334 من قانون العقوبات الجزائري التي تقضي بأنه: "يعاقب بالحبس من خمس إلى عشر سنوات كل من ارتكب فعلا مخلا بالحياء (والمقصود به حسب النص الفرنسي هتك العِرض) ضد قاصر لم يكمل السادسة عشرة ذكرا كان أو أنثى بغير عنف أو شرع في ذلك.

ويعاقب بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات أحد الأصول الذي يرتكب فعلا مخلا بالحياء (هتك العرض) ضد قاصر ولو تجاوز السادسة عشر من عمره و لم يصبح بعدُ راشدا بالزواج".

أما النص الثاني فهو المادة 335 منه التي قرّرت بأنه: "يعاقب بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات كل من ارتكب فعلا مخلا بالحياء (هتك العِرض) ضد إنسان ذكرا كان أو أنثى بغير عنف (حسب النص الفرنسي بعنف) أو شرع في ذلك.

وإذا وقعت الجريمة على قاصر لم يكمل السادسة عشرة يعاقب الجاني بالسجن المؤقت من عشر سنوات إلى عشرين سنة." (**محمد رشاد متولي، 1989، ص.03، ص ص.143، 144**)

ويستوي العنف في أن يكون ماديا أو أدبيا أو باستعمال الخديعة أو المباغتة أو المكر فتكون الجريمة بمجرد انعدام رضا الضحية، وانعدام رضا القاصر (أقل من16سنة) غير المميِّز (13سنة) مفترض.

(**بوسقيعة أحسن، 2007، ص.102**)

2-2-التعريف اللغوي:

الاستغلال الجنسي L'abus Sexuel، Sexuel Abuse يعني الانفصال، البع د عن الاستعمال "US" الطبيعي، والاستغلال L'abus يعني الاستعمال السيئ Le mauvais usage أو الاستعمال المفرط L'usage excessif وهذا لا يعني مثلما يقول البعض ممن ينتقدون هذا المصطلح بأن هناك استعمالا مسموحا، لأ ن استغل Abuser تعني بالتحديد تجاوز الحدود، بمعنى انتهاك وخرق القانون. (Gabel, 1998, p.06)

2-3-التعريف الاصطلاحي:

الاستغلال الجنسي هو فعل شخص يستغل منصبه (وضعيته) أو قوته، من أجل فرض إرادته على الآخر في المجال الجنسي، وبالنسبة للطفل، الاستغلال الجنسي قد يأخذ عدة أشكال كمداعبات أو ملامسات غير لائقة تخلق في ذهن الطفل اختلاطا بين الحنان واللّذة الشهوانية. (Sillamy, 2004, p.03)

وقد عرّفه Henri Kempe (1978) على أنه: "تورط أطفال ومراهقين تابعين وغير ناضجين في نشاطات جنسية، التي لا يفهمونها حقيقة أو التي تنتهك المحرّمات الإجتماعية للأدوار العائلية، ويتضمّ ن الاستغلال الجنسي إشتهاء الأطفال، الاغتصابات وجميع أشكال زنا المحارم".

وحسب Conte (1991): "الاستغلال الجنسي للطفل يمكن أن يُعرَّف كتفاعل بين طفل (حتّى14سنة) وراشد، الذي ضمنه يُستعمل الطفل كوسيلة لاشباع الحاجات الجنسية Sexuels أو المجنَّسة Sexualisés

للراشد، فيُقلّص الطفل إلى موضوع جنسي، أين يقوم ا لراشد باستعمال وضعيته المسيطرة (إسراف في استعمال السلطة)، والطفل الذي هو تابع له جرّاء عجزه الطفولي، تُخان ثقته من طرف المستغِل، فليس لا فزيولوجيا، لا انفعاليا ولا معرفيا متطور بشكل كافي من أجل تكملة الفعل الجنسي".

(Collart, 2005, pp.19, 20)

وبهذا يتضمن الاستغلال L'abus مفاهيم المقدرة والاستطاعة La puissance من خلال:

- سوء استعمال السلطة L'abus de pouvoir؛
- استغلال الثقـــة L'abus de confiance.

بمعنى مفاهيم أين النية والتصميم (مع سبق الإصرار والترصد) حاضرين.

ويفترض الاستغلال الجنسي اختلالا وظيفيا على ثلاثة مستويات هي:

- أولا: السلطة الممارسة من طرف كبير (قوي) على صغير (ضعيف)؛
- ثانيا: الثقة الممنوحة من طرف صغير (تابع) إلى من هو أكبر منه (حامي)؛
- ثالثا: الاستعمال الجانح للجنسية، بمعنى التعدي على حق الخصوصية لكل فرد على جسده.

2-4- تعريف منظمة الصحة العالمية L'OMS

تحدِّد أنّ: "الاستغلال الجنسي للأطفال يتضمن كون هذا الأخير يكون ضحية لراشد أو شخص – على نحو ظاهر– أكبر سنا منه، بغرض الإشباع الجنسي لهذا الأخير (الراشد)، والجُرم يمكن أن يأخذ أشكالا عدة كمكالمات هاتفية فاحشة (مخِلة بالحياء)، فعل فاضح، البصبصة Le Voyeurisme، صور إباحية Des Images Pornographiques، معاشرات أو محاولات لمعاشرات جنسية، اغتصاب، زنا محارم، تعهُّر (دعارة) القصر La Prostitution des Mineurs". (Gabel, 1998, pp.06, 07)

3- الموافقة Le consentement

تستوجب الموافقة الحقيقية توفرُّ شرطين أساسيين هما:

- يجب أن يعرف الشخص على ماذا سوف يوافق؛
- يجب أن يكون الشخص حرا في قول "نعم" أو "لا".

والأطفال لا يستطيعون تقديم موافقة واضحة، لأنهم يفتقرون إلى المعلومات الضرورية من أجل ذلك، وحتى وإن امتلكوا معلومات بيولوجية وفزيولوجية، فهم عموما غير مدركين للمدلولات الإجتماعية للجنسية، ومن جهة أخرى فهم لا يمتلكون الحرية في قول نعم أو لا، سواء من الناحية القانونية أو من الناحية النفسية بالنسبة للعلاقات مع الراشد، لذلك أكد David Finkelhor في مقاله What's wrong with sex between adults and children ? أن هذه التركيبة من نقص المعرفة والافتقار إلى السلطة هي المعيار المحدِّد من أجل اعتبار تفاعل جنسي بين راشد وطفل على أنه استغلال جنسي. (Collart, 2005, p. 22)

4- بين اللعب الجنسي والاستغلال الجنسي

Roberge et Schechter (1976) عرَّفا الاستغلال الجنسي باعتباره : "انغماس أطفال ومراهقين متعمِّدين، غير ناضجين من ناحية النمو والارتقاء، في نشاطات جنسية لا يفهمونها تماما، وغير قادرين على إعطاء موافقة معلومة لتلك الأنشطة، وينتهك ذلك المحرَّمات الاجتماعية لأدوار الأسرة ".

(**حسين علي فايد، 2006، ص.16**)

وبهذا لا تُستبعد الألعاب الجنسية التي تتم بين الأط فال خاصة في مرحلة الكمون وما قبل المراهقة أو بين المراهقين.

R. E. Helfer, C. Henry Kempe (1977) في " L'enfant battu et sa famille, comment leur devenir en aide ? "، بيَّنا من خلال تعريف الاستغلال الجنسي بأن هناك نشاطات جنسية غير متلائمة مع سن ونمو الطفل النفسي والجنسي، الذي يتحملها عن إكراه، عن عنف أو عن غواية، أو التي تنتهك المحرّمات الاجتماعية. (Gabel, 1998, p. 07)

وأكد C.H Kempe بأن مشاركة الطفل ضمن ألعاب جنسية ليست في حدود فهمه أو لا تتماشى مع نموه أو مخالفة للقانون، تُشكّل اعتداءً جنسيا حتى وإن لم يكن هناك عنف. (Sillamy, 2004, p.03)

وبهذا يفقد معيار العنف أحَقيته في التمييز بين اللعب الجنسي على أساس قبول الطرفين والاستغلال الجنسي المسلّط تحت الإكراه، إذا هل اللعب الجنسي هو لعب بريء أم أنه شكل مبكِّر للاستغلال الجنسي ؟

في" الإبداع الأدبي والحلم اليقِظ" " La création littéraire et le rêve eveillé"، S.Freud (1908) أكد بأن: "لعب الأطفال موجّه من خلال الرغبة التي تساعد على رفع الطفل ، تلك الرغبة ليصبح كبيرا وراشدا فالطفل يلعب دائما بأن يكون كبيرا، يُقلّد في ألعابه ما استطاع معرفته عن حياة كبار الأشخاص " (Puyuelo, 2002, p.168) فاللعب تقليد بغُية النضج والنمو، خطوة أولى نحو التماهي،كما قد يكون عابرا كالألعاب الجنسية الانتقالية، ونحن لا نختار ما نتماهى معه بقدر ما نتماهى مع ما هو متاح وموجود، والغلمة الطفلية قد تنساب من خلال نماذج التقليد المثيرة، المغوية، المتاحة والمتواجدة في المحيط العائلي.

S. Freud لم يقل أبدا أنه من السذاجة أن يتبادل الأطفال فيما بينهم ألعابا جنسية، بل دافع عن الجنسية الطفلية واعتبرها في الأصل غلمية ذاتية Auto – érotique قبل البلوغ، فالجنسية الطفلية جلية، ولكن هناك بعض الممارسات الجنسية بين الأطفال التي تسمح لنا على الأقل بالتفكير بأن جميع النشاطات الجنسية ليست ساذجة، وأن البعض منها يُسجَّ ل ضمن خانة الانحراف، وهذا ما أكدته دراسة Eric Albert على الوضعيات التي يُخضع فيها مراهق طفلا ضعيفا إلى هواماته ويستعمل إراديا السيناريوهات المعتادة للراشد المعتدي.

(Ansermet, 2002, pp.71, 72)

والخبرة الجنسية المتشاركة بين الأطفال أو المراهقين، سواء كان الشريكان من نفس الجنس أو من جنسين متغايرين، تُدرك عموما كلعب، لعب مفروض في أقصاه وليس كاستغلال جنسي، وقد يعود السبب ربما إلى

تقارب الأعمار أو الرضا المتبادل أو ربما لتبادل الأدوار بين الطرفين، أو لأنها تكون عابرة، وقد تتخذ مناسبات عدة، بدافع الفضول للإطلاع على الفروق التشريحية بين الجنسين، أو للتأكد إن كان هناك اختلاف في فزيولوجية المناطق التناسلية لدى أفراد نفس الجنس، وعادة تبدأ بلعب أدوار تقمصية ك لعبة الطبيب والمريض مثلا، أين يتم استعراء المريض الذي يتخذ وضعية خاضعة والكشف عن المناطق الحميمية من طرف الطبيب الذي يتخذ هنا وضعية نشطة.

كذلك قد يكون البحث عن الإحساس بالانتماء بالنسبة للضحية أو التماس كل القدرة الخيالية بالنسبة للمعتدي، هو ما يطوِّر سيرو رة اللعب الجنسي لتتحول تدريجيا إلى شكل من الاستغلال الجنسي ، وهذا ما يكشف عن تصدعات علائقية مبكرة واضطراب في الجانب العاطفي لدى الطرفين.

5-اشتهاء الأطفال La Pédophilie

5-1-مفاهيـــم:

اشتهاء الأطفال ما يعرف La pédophilie مصطلح لاتيني الأصل بمعنى Paidos, Pais أي طفل Philien بمعنى حب، أي حب الأطفال، وهو انحراف جنسي يتضمن الانجذاب الغلمي المستميت لراشد نحو الأطفال الصغار من الجنسين.(Sillamy, 1982, p.212)

هو انحراف في اختيار الشريك لأنه يتضمن الطفل كشريك جنسي، وفي هذه الحالة يحاول المنحرف أن يحتوي ويحمي الطفل بالشكل الذي تمنى أن يُعامَل به في الصغر، فهو يحب نفسه في صورة هذا الطفل (الضحية). (Tremblay, 1971, p.88)

ويتحدد الإغراء البيدوفيلي في وجود إثارة جنسية على مستوى هوامي لجسد الطفل (صبي أو فتاة) عادة قبل البلوغ (Ciavaldini, 2005, p.27). بينما اللواط (الستاه) La pédérastie فهو شكل من الجنسية المثلية يتميز بانجذاب جنسي نحو الصبيان الصغار.

وحتى نتحدث على اشتهاء الأطفال La pédophilie، يجب أن يكون فارق السن بين المستغل والطفل (الضحية) على الأقل خمس سنوات. (DSM IV, 2003, p.659)

5-2-أصناف مشتهيي الاطفال:

يجب أن نميز بين:

5-2-1- مشتهي الأطفال العرضي Le pédophile occasionnel.

5-2-2- مشتهي الأطفال المنحرف Le pédophile pervers: فالمنحرف لا يبحث كشركاء محتملين إلا عن الأطفال أو المراهقين، الذين معهم يستشعر ضرورة المرور إلى الفعل.

ويجب التأكيد بأن مواضيع المنحرف هم في ا لواقع ضحايا دون دفاع، حتى وإن أعطو ا في بعض الحالات الانطباع بأنهم شركاء للراشد، الذي يستغلهم ويُ فرط في استع مال قدرته على الغواية ، لذا فالأطفال الذين يصبحون مواضيع جنسية للراشدين، يتكبدون دائما صدمات جد عميقة ومطوّلة.(Marson, 2004, p.154)

5-3-أشكال الاستغلال الجنسي للأطفال:

يشتمل الاستغلال الجنسي للأطفال في الواقع على جميع الأفعال الموجّ هة نحو الحميمية الجسدية للطفل (Born, Gosset 1996) التي تعتدي على منطقته الحسّ ية أو التي تستعمل جسده (Miller-Perrin1999) وتشتمل على : "أشكال لفظية وغير لفظية، حركية، بصرية ، استعراضية، بصبصة، استمناءات باليد، مص جنسي...حتى علاقات جنسية كاملة مع اختراق فمي، شرجي أو مهبلي " (Haesevoets1997) من خلال إصبع، عضو جنسي أو موضوع ما (Collart, 2005, p.23) ، وسندرج بعضها فيما يلي:

- الاكتفاء بتعرية الطفل والنظر إليه؛
- استعراض المناطق التناسلية أمام الطفل؛
- الاستمناء في حضور الطفل؛
- ملامسة ومداعبة الطفل بحنان؛(DSM IV, 2003, p.660)
- التقبيل الشهواني؛
- الاحتكاك الجسدي؛
- الضغط الكلامي لممارسة الجنس (إجبار الطفل على الخضوع)؛
- تعريض الطفل لصور وأفلام إباحية؛
- تصوير الطفل في وضعيات مثيرة. (**بسام عاطف المهتار، 2008، ص.70**)

البعض الآخر يذهبون إلى:

- التمادي إلى مص العضو التناسلي للطفل (الصبي) La fellation؛
- لحس العضو التناسلي للفتاة Le cunnilingus؛
- اختراق المهبل، الفم، أو الإست (فتحة الشرج) سواء بالأصابع أو بمواضيع ما أو بالقضيب.

(DSM IV, 2003, p.660)

وبهذا يجمع انحراف اشتهاء الأطفال La pédophilie بين جميع الممارسات الجنسية التي قد تتواجد في باقي أشكال الانحراف الجنسي، بعض المنحرفين قد يلجؤون إلى تلبيس الطفل الصبي قطع ملابس أنثوية داخلية ويباشرون في الاستمناء في حضوره دون المرور إلى الفعل، البعض الآخر مِن من يستحضرون ميولا مازوشية قد يرغمون الطفل على القيام ببعض الممارسا ت عليهم، كضربهم بالسوط، عضهم في المناطق التناسلية، أو حتى شتمهم كتحضير للإثارة الجنسية، وغيرها من الممارسات المتداخلة فيما بين باقي أشكال الانحرافا ت الجنسية

لذلك ربما التمييز الجوهري بينها وبين انحراف اشتهاء الأطفال La pédophilie يكمن في سن الشريك الجنسي (الطفل) والفارق العمري بين الضحية والمعتدي.

5-4- المشتهي الجنسي للأطفال Le Pédophile:

ينجذب المشتهي الجنسي للأطفال عادة إلى أطفال في عمر خاص، البعض يفضل الصبيان والبعض الآخر الفتيات، والبعض يثارون من طرف الصبيان أكثر من الفتيات، والذين ينجذبون نحو الفتيات، يفضلون عادة الفتيات بين سن الثامنة والعشر سنوات، في حين الذين ينجذبون نحو الصبيان يفضلون على العموم الأكبر سنا بقليل، البعض ينجذبون جنسيا فقط نحو الأطفال والبعض الآخر ينجذبون أحيانا نحو الراشد كذلك.

ومعدل تكرير الجُرم لدى الأشخاص المستغلين للصبيان، هو تقريبا ضعف المعدل بالنسبة لأولئك الذين يفضلون الفتيات. (DSM IV, 2003, p.660)

لأنه ربما يكون اختبار ما قد تماهى فيه قبلا مع المعتدي، يتجسّد في أقصى صوره عندما تكون الضحية من نفس جنسه، أي يمثّله، كما أنه غالبا ما يُطرح إشكال مآل ضحية الاستغلال الجنسي في تشابك مع انحراف الجنسية المثلية التي تعود أساسا إلى اضطراب في التماهيات الأولى مع الصور الوالدية الذكرية والأنثوية، فهل يتماهى الطفل ضحية الاستغلال الجنسي بشكل كامل مع المعتدي علي ه، ليتحول في المستقبل بدوره إلى مستغل للأطفال؟ أم سيكون التماهي جزئيا، ينصب على اختيار الشريك من نفس الجنس، مع تعزيز غلمي لفتحة الشرج يحوّله إلى مثلي خاضع مثلا؟

هذه التساؤلات تطرح عمق وحساسية البناء النفسي لمشتهي الأطفال Le pédophile، ما سنحاول طرح بعض سلته الشخصية ضمن الرؤى التحليلية.

زنا المحارم لدى Ciavaldini ليس سوى اشتهاء أطفال داخل العائلة، فميَّز لدى الآباء المنتهكين للمحارم عدة شخصيات يمكن إسقاطها على مشتهيي الأطفال، فذكَر الأب الذي يحن إلى طفولته، المكتئب والذي يتخذ وضعية الطفل بالنسبة لزوجته، كذ لك الأب المستقيل من وظيفته كأب ولكنه يوظّف بشدة البعد الوظيفي والنشاطات الاجتماعية، ثم الأب المستبدّ في المترل، الشبيه بأب العصابة و الذي يتعاطى بدون تمييز مع أولاده وبناته، و أخيرا الأب غير الناضج. (Cloarec, 2007, p.34)

Alberto Aiguer (1996) قدّم وصفا للمنحرف النرجسي في كتابه "المنحرف النرجسي وشريكه " "Le pervers narcissique et son complice" قائلا: "الأفراد المنحرفون النرجسيون هم أولئك الذين تحت تأثير ذاتهم المتعاظمة، يحاولون خلق رابط مع فرد ثانٍ، هاجمين على تكامل نرجسية الآخر من أجل تجريدها من الدفاع، يهاجمون كذلك حب الذات، الثقة بالنفس، التقدير الذاتي، والإيما ن بالذات وبالآخر , وفي ذات الوقت هم يبحثون عن طريقة ما للاعتقاد بأن رابط تبعية الآخر نحوهم لا يمكن بتديله، وأن الآخر هو الذي يلتمسه".
(Hirigoyen, 1998, p.151)

يضيف كذلك مؤكدا بأنه لدى هؤلاء الأشخاص، الهدمية La destructivité (النزعة إلى الهدم أو الإهلاك) تصبح أمرا جيدا Un Bien في الذات: "لدى الشاذ (المنحرف)، إنه الشذوذ النرجسي الذي يدفعه إلى تجريد وإقصاء الآخر إلى النهاية، دون لذة، إلى إنهاك نفسه وإلى إنهاك الآخر إلى الحد الأقصى لقواه".
(Gabel, 1998, p.15)

وبالتالي فالغواية الواقعية هي استغلالية Abusive، ليس فقط جراء آثارها الصدمية، وإنما لأنها تستنزف الطاقات النرجسية للطرفين (للطفل وللمعتدي)، لذلك فانحراف اشتهاء الأطفال La pédophilie قبل أن يكون انحرافا جنسيا هو أولا انحراف نرجسي يحمل بعدا تدميريا لنرجسية الطفل، وهذا ما يميز حميمية الرابط المؤسَّس بين الضحية والمعتدي، أي أنه يترجم خطابا نرجسيا مفتوحا، عاطفي وسليم من طرف الطفل لكنه جنسي وشاذ من طرف الراشد، وهذا ما تبيِّنه سيرورة الغواية.

P.C Racamier (1987) في مؤلفه "De la perversion narcissique"، أكد أن الغاوي (المغوي) يصبح فيما بعد شاذ ا نرجسا: "عياديا، الشذوذ النرجسي يتحدّد بالنسبة إلى الفرد من خلال الحاجة واللذة الغالبين لإظهار مزايا نفسه على حساب الآخر".

P.C Racamier أظهر كذلك بأن هذه اللحظات من الشذوذ النرجسي تحدث خصوصا لدى الفرد الذي يكون في حالة حداد Deuil، والذي يحاول تفادي معاناة الفقدان من خلال إحالتها على آخر، بمعنى إرسالها إلى الآخر، من أجل في نفس الوقت إنكارها (رفضها)، وضمن هذه الشروط، الشاذ النرجسي يعلم أيَّ ضحية يمكنها أن تشتهي هذه المعاناة، فيجب عليه أن يمارس عليها نوعا من السادية والعنف، ويجب عليه إذا إيجاد ضحية أين سوف يستغل القبول المازوشي لديها، يجب إذًا ألا يقاوم".

لذا يرى Racamier أنّ: "التصرف النرجسي الشاذ، سيكون دائما الاقتناص المعنوي La Prédation Morale، هجوم على أنا الآخر لحساب نرجسية الشخص وتجريده من أهليته ونرجسيته الشرعية"، إذا سيكون فعلا مستترا وسريعا، مثل فعل إنسان متوحش، يغري ذلك الذي سينقضُّ عليه. (Gabel, 1998, pp.14, 15)

وهذا ما يجعل المشتهي الجنسي للأطفال يختار هذا الطفل دون ذاك، فهو لا يحدّد ضعف الطفل من خلال الميل المازوشي لهذا الأخير ، أو استعداده لتقبل الإذلال والألم أو اشتهائه للمعاناة، لأنه وببساطة، عالم الطفل لا يعرف مبدأ ولا قانونا غير مبدأ اللذة ويتجنب كل ما هو مؤلم، لكن المعتدي يحدِّد ضعف الطفل انطلا قا من هشاشة الوسط الذي يعيش فيه ومن الظروف التي تحيط به، لذلك غالبا ما يترصدون بالعائلة – دون الحديث عن زنا المحارم المسلَّط من طرف الأب – قبل ترصد الطفل، بحثا عن الثغرات التي منها ينسجون رابطهم الرمزي.

ضمن قصة الشخص العنيف و المستغل، نجد أشكالا معتبرة من الفقدان قد حدثت في طفولته الأولى كموت أحد الوالدين أوكليهما، الانفصال عن المرضعة، ترك واقعي له بين سن الثمانية عشر شهرا (18شهرا) والثلاث سنوات (03 سنوات)، أي سن الحركة، غياب أحد الوالدين...وغيرها، أي صدمات مبكرة تؤدي إلى تفكك الروابط الممهد والمؤسِّس للفعل العنيف، لذلك قد يمثل العنف لدى المعت دي محاولة يائسة لخلق الارتباط

قصد البقاء ضمن علاقة، نزاع واتصال فزيولوجي يحمل معنى إثارات حسية يمكن أن تعاش كتعزية، تُزيل – للحظات قصيرة– الإحساس بالوحدة والترك. (Berclaz, 2002, p.32)

وهذا ما يميز الاعتداءات الجنسية في أقصى درجاتها، والتي غالبا ما تكون مرافقة بممارسات سادية من طرف المعتدي الذي لا يستطيع ا لتوقف عند حد الملامسات ، فيتعداها ملتمسا الإحساس بالإثارة في أقصى درجاتها.

بعض المسيئين جنسيا للأطفال تكبّدوا خبرات شخصية من الإساءة الجنسية أثناء طفولتهم ويتسمون بضعف القدرة على التعلق أو الاتصا ل، انخفاض تقدير الذات، عدم النضج الانفعالي كما يدل عليه تمركز الأنا (التمركز حول الذات)، انخفاض التنظيم الانفعالي (الضبط الانفعالي)، كذلك احتياجات قوية للإشباع المباشر ترافقها احتياجات للتنظيم الانفعالي،كذلك احتياجات قوية للاعتمادية، وغالبا ما ينتمون إلى أسَر تتميز بمهارات والدية ضعيفة ونقص نموذج ملائم للدور الوالدي في الطفولة. (**حسين على فايد، 2006،ص ص.43، 44**)

عجزهم عن خلق روابط سوية ومستقرة هو ما يجعلهم يقنعون أنفسهم بأن طلب الارتباط مقدَّم من طرف الآخر، ويشكّلون علاقة تبعية ليس مع الطفل وإنما مع الإثارة اللامشبِعة التي يتحصلون عليها من خلال هذا الرابط الذي يُنهَك ويُستنزَف تدريجيا، بدءا بكلام معسول وملامسات سطحية وصولا إلى أقصى درجات الاستغلال الجنسي، لأن فشل الضبط الانفعالي يحول دون إبطال آلية الار تباط، وبالتالي يستحيل التخلي عن الرابط الذي يصبح بالنسبة للمعتدي خالدا وقدسيا، لأنه غالبا ما يُلحق به معاني روحانية حتى يبرِّر لنفسه عجزه عن التخلي عنه.

الواقع العيادي يشير من جهة أخرى إلى احتمال الانجذا ب الثانوي نحو الأطفال لدى أشخاص جنسيين مغايرين أوكذلك جنسيين مثليين، كما قد يكون الانجذاب الجنسي للطفل موضوعا غالبا (قهرية مسيطرة على الشخص) أو قد يكون ثانويا. (Ciavaldini, 2005, pp.27, 28)

ففي فترة المراهقة مثلا، تحت انبثاق الجنسية ضمن واقع الجسد، يجبَر المراهق على تأمين قنوات وعلى تمرير تظاهراته التروية عبر المنطق وعن طريق الأشكال التي تنتمي إلى محددات هويته الخاصة.(Forget, 2007, p.10)

لذلك فقد يختارون الأطفال لتفريغ إثا رتهم الجنسية التي يعجزون عن ضبطها، أو ربما لأن الإلحاح والدفع التروي الشديد، في غياب إمكانية التقاء الموضوع الجنسي التناسلي أو عدم وجود مساحات حميمية تنفيسية تُطرح خلالها هذه الانشغالات الجنسية التي تسيطر على المراهق حول شكل وحجم الأعضاء التناسلية، طبيعة الاثارات المستغربةَ التي تجتاحه، حاجته الملحة إلى مقارنتها مع ما يم تلك وما يحس به الآخر من نفس سنه وبالتحديد حاجته إلى تحديد معنى لما يمر به، قد يدفعه إلى تفريغ هذا الفيض من الإثارة بأكثر الطرق بدائية وأقلها عقلانية، من خلال المرور مباشرة إلى الفعل مهما كانت طبيعة الموضوع الجنسي المتاح (طفل أو حيوان)، فالأمر سيان بالنسبة له، المهم التخلص من الإثارة.

ولا نستغرب بحالات زنا المحارم، بالمرور إلى الفعل بين الإخوة والأخ وات في سن المراهقة، أو على الأم خاصة ضمن العائلات التي تفتقد إلى نسق علائقي محدَّد المعالم، يضع ويرسم الحدود المفرِّقة بين الجنسين (بعض العائلات يشترك فيها المراهق مثلا وشقيقته غرفة واحدة، أو أخرى تعزِّ ز سلوك العُريِ وعدم الاحتشام داخل المترل...).

إن الاسعداد النشوئي للانحراف النرجسي والجنسي –كما ذكرنا– هو ما يجعل من الظروف المهيِّئة عوامل محرِّضة، للمرور من الفعل العارض إلى إدمان وتوظيف نرجسي شاذ، كلي ومزمن.

5-5- رغبة الراشد نحو الطفل:

تحدث Sandor Ferenczi عن الاختلاط بين توقعات الحنان للطفل والرغبات الجنسية للراشد، الذي لا ينتهي دائما بالاستغلال الجنسي، بل قد ينتهي تحت شكل مواقف صدمية باتجاه الطفل، أين شدة الصدمة لا تعود إلى الإثارة الغلمية المختبرَة، وإنما إلى رمزية وأهمية الحواج ز التي ينصبها الراشد من أجل التعامل مع الخزي الذي داخله.

5-5-1- البرودة La Froideur:

الأشخاص الذين تخيفهم فكرة أنهم قد يكونون محاطين برغبات جنسية اتجاه الأطفال، يتفادون أي اختلاط أو تقرب منهم، وحتى يتوصل الشخص إلى ذلك، يحيط نفسه بحاجز من البرودة العاطفية، يجعله بعيدا وغير عاطفي. (Tisseron, 2004, pp.11, 12)

قد يحس الطفل جراء هذا بالرفض وعدم التقبل من طرف الآخر، خاصة إذا كان هذا الآخر من يحمل هذه الرغبات الجنسية الدفينة شخصا ذو مكانة خاصة في حياته كأن يكون معلمه مثلا ، مدربه أو حتى والده، فيبقى الطفل على عطشه للإثارة وللحنان وتدريجيا يقوده إلى الانفصال وقطع الرابط نهائيا، وبهذا ينتهج إستراتيجية عدم التعلق أو العكس، يزيح طلباته نحو روابط أخرى مما يضعه من جديد تحت خطر الاستغلال الجنسي.

5-5-2- المعاملة العنيفة (التعنيف) Le Rudoiement:

وأحيانا أخرى، يحمي هذا الشخص نفسه من خلال العنف، يوبِّخ ويعنِّف كثيرا الطفل الذي بسببه يخشى أن يحس بالإثارة بطريقة غير محتملة. (Tisseron, 2004, p. 12)

فيحس الطفل أنه غير مرغوب، سبب إزعاج، مض طهَد، يحمِل أخطاء وديون العالم، يعاقَب بسبب ومن دون سبب، وكأنه يحمل على كتفيه خطيئة الوجو د، الألم المسجل في جسده ونفسه يصبح الرمز الوحيد للإثارة والمعنى الوحيد للاهتمام، مما يعزِّز الميل المازوشي لديه واستعداده لتحمل المعاناة، أو يغرسه في سيرورة التماهي بالمعتدي ليماثل من اعتدى عليه قوة ومقدرة، فينتقم للطفل الضعيف داخله كل مرة يمارس فيها العنف على أقرانه.

5-5-3- تحويل الخزي Le transfert de la honte:

الخزي الذي يستشعره بالنسبة لرغباته الخاصة يمكنه أحيانا أن ينقله للطفل المعيَّن، فالصغير الذي يدرك بأن الراشد يترعج كل مرة يقترب فيها منه، هو مهدد بأن يعتقد أنه هو نفسه موضوع الخزي L'objet de la honte وتبنِّي موقف الخزي في الحياة. (Tisseron, 2004, p.12)

هذا ما يجعل الطفل يقلّص من حجم علاقاته الاجتماعية، وتفادي النشاطات التي قد تظهره (نشاطات مسرحية، موسيقية أو رياضية في المدرسة، المسابقات الفكرية، المشاركة في القسم ...)، وانخفاض تقديره الذاتي بسبب إحساسه بالرفض يعزِّز تدريجيا ميله إلى الانعزال.

5-5-4- المبالغة في الاهتمام:

بعض المربين والمعلمين مَن يحملون رغبات جنسية اتجاه الأطفال، قد يكونون مرافقين ممتازين للأطفال الذين تحت رعايتهم، ورغباتهم الجنسية المحتملة بالنسبة لهؤلاء الأطفال تحُوَّل بشكل فعال إلى عاطفة، إلى حنان واهتمام تربوي. (Tisseron, 2004, p.24)

فكيف أن من يحملون هذه الرغبات يجذبون الأطفال أكثر من غيرهم، يفتن وهم بالاهتمام والرعاية المفرطة المطوَّقة، التي حتى وإن لم تُتْبع بالمرور إلى الفعل، قد تهدد بقوة علاقة الطفل مع والديه، قد تصل إلى تصدع الرابط نهائيا معه م، واتخاذ هذا الشخص كمثال جيد للأنا للتماهي معه، فنجد بعض الأطفال يثورون على والديهم قائلين: "أنت لا تحبني، معلمي يهتم بي أكثر منك، إذا هو من يحبني".

5-6- سمات الأسرة التي يقع أطفالها ضحايا للاستغلال الجنسي:

- مترل بدون أب أو بزوج أو رفيق أم؛
- غياب متكرر للأم؛
- أم مستخدمَة (عاملة)، مريضة أو عاجزة؛
- نقص الاتصال الملائم الخاص بالجنسية يؤدي إلى نقص المعرفة لدى الطفل(الجنسية والحوار)؛
- علاقة ضعيفة بين الطفل وأحد الوالدين على الأقل؛
- قبول مرتفع للعري الأسري ونقص الخصوصية؛
- العنف الزواجي، المترلي أو صراعات والدية أخرى؛
- وجود استخدام للمواد المخدِّرة داخل المترل. (**حسين علي فايد، 2006، ص.44**)

قد يذهب بعض المعتدين، اعتمادا على النقطة الأولى، إلى الز واج من أم الطفل الذي يرغبون فيه، أو على الأقل كسب ثقتها وتقديم المساعدة لها في بعض مسؤوليات المترل حتى تتاح لهم تمضية أكبر وقت ممكن مع الطفل، قد يتكفلون حتى بالاهتمام به، بإيصاله إلى المدرسة ومرافقته بشكل دائم تحت غطاء تقديم المساعدة.

5-7- الرابط بين الطفل والمعتدي:

سيرورات الارتباط تقوم على بناء الإحساس بالأمان , فبالنسبة للنمو الطبيعي، الطفل لديه منذ الشهور الأولى الحاجة إلى وضع رابط انتقائي مع راشد الذي يصبح صورة لارتباط مستقر، موثوق، متوقع ومتاح، قادر على فهم احتياجاته وخفض توتراته، والذي يسمح له بالإحساس بالأمن في كل مرة يكو ن فيها في وضعية عجز وحيرة كبيرة.

والأطفال يقيمون علاقات ارتباط حتى مع الوالدين الأكثر إهمالا والمسيئين لمعاملتهم، لكن هذا الطفل يرتبط على شكل جد مرضي، غير آمن، مخل بالنظام، مشوَّش، وغير موجَّ ه، حيث يظهر الطفل مذعورا، مرتبكا وغير قادر على استعمال أشكال منسجمة من الاتصال.(Berger, Bonneville, 2007, pp.10, 11)

وعندما يتواجد استغلال جنسي للطفل من طرف والد، مربي، أو راشد عموما، فإن توظيفات الارتباط والتوظيفات الجنسية للطفل تلتحم بينهما، وتصبح في نفس الوقت غير قابلة للانفصال عن الراشد – الذي معه– العلاقة الجنسية كان لها مكان، فيبقى مرتبطا به أبديا، بشكل خالد، أو أكثر تحديدا يبقى مسكونا من طرف المعتدي إلى الأبد.(Tisseron, 2004, p.34)

إن ما يميِّز صدمة الاستغلال الجنسي هو التموضع على اللذة المعاشة ضمن تجاذب غير محتمل، لأنه يحتفظ برابط مع المعتدي ومع العنف المتحمَّل.(Ansermet, 2002, p.117)

قدرات الطفل الدفاعية أمام الحدث الجنسي تُتجاوز، ولا تستطيع –أي الدفاعات– أن تقف أمام فيض تدفق المثير المخلّ بالتوازن، المهم جدا كما ونوعا، إذًا مُقلق هو، مرعب ومؤ لم، الذي كان قبلا مولّدا للغلمة.
(Berger, Bonneville, 2007, p.23)

فاللذة التي استشعرها يوما بملامسة المناطق التناسلية أثناء الرعايات اليومية أو الاستحمام، لم تعد هي نفسها، وما كان مصدرا للّذة قبلا أصبح الآن مصدرا للألم.

إن الوضعية جد مؤلمة لأن أشكال الإثارة التي قام الراشد بتوليدها داخل الطفل تل تمس الخفض والتهدئة فلا يستطيع إلا تفويت كل شكل آخر للعلاقة حتى يبقى وفيا للمعتدي، يبحث عن شركاء يشبهونه، أو يكرِّ ر ضمن علاقاته شكلا من السلوكات الجنسية المحددة مثل التي قد فرضها عليه المعتدي قبلا، وبهذا يبقى حبيس الفخ الشيطاني الذي نصب له باسم الحب والحنان.(Tisseron, 2004, p.34)

Giovanna Stoll et Maurice Hurni تحدثوا عن كره الحب أو كراهية الحب من أجل وصف العلاقة المنحرفة، ففي البداية تكون باسم الحب تحت قناع الرغبة، وليس من أجل الشخص في حد ذاته.
(Hirigoyen, 1998, p.140)

ولا يمكن على الإطلاق التكفل بالأطفال ضحايا الاستغلال الجنسي من قِبل الراشد، إذا لم نَ تقبل و لم نعترف بوجود هذا الرابط بين الضحية والمعتدي، نسق علائقي يُبنى على أساس مرضي – أكيد من طرف المعتدي– تتشابك ضمنه الأدوار والأمكنة، ينكص الراشد عاطفيا ليكبر الطفل جنسيا، لتوظف الطاقة النرجسية

للطرفين بشكل كلي، فلا تهم طبيعة الرابط، أن يحب الطفل المعتدي الآن أو أن يكرهه، المهم الاعتراف به دون حكم.

6- سيرورة الاستغلال الجنسي للأطفال

أكد S. Ferenczi أن الغواية الواقعية توظّف هواما لا شعوريا للطفل من قبل الراشد المعتدي، وقد درس Claude Janin ضمن سلسلة من الأعما ل (1985، 1988، 1989، 1995) النتائج المترتبة على بنية الجهاز النفسي في مواجهتها مع حدث يأتي ليكرِّر هواما، كحال الطفل الذي يكون في مواجهة لغواية واقعية، تكرار وإعادة في الواقع لهوام أصلي عن الغواية، فضمن هذه اللقاءات المؤلمة بين هوامات وحدث، الحيز النفسي الداخلي يتواصل من خلال عجز الجهاز النفسي بعد الآن على أن يمثل دوره كحاوي Contenant للعالم الداخلي، وهذا ما حدّده Claude Janin (1995) بانهيار أو وهن الموقعية الداخلية Le collapsus de la topique interne و متبعا S. Freud، يرى C. Janin في الموقعية الداخلية ذلك ا لحيز الخيالي المؤسَّس، الذي ضمنه ينبسط الواقع النفسي للشخص، إنها نوعا ما الخشبة التي عليها يتم الإخراج الخيالي للهوامات والأحلام، تنتظم منذ البدء، منذ أن يبدأ الطفل في تمييز العالم الخارجي مع أخطاره واشباعاته الواقعية ، عن واقعه النفسي والعالم الداخلي لرغبا ته ولقلقه.(Diatkine, 1995-1996, p.25)

وهناك حتى من يؤكد مثل Suzanne B. Robert-Ouvray (2003) بأنه لا وجود للالتحا م التام بين الأم والطفل، فحتى في بطن أمه، الجنين منفصل عنها من خلال غشاء المشيمة الذي يلعب دور الثالث، فإذا سمحت الوظيفة الوالدية فيما بعد ضمن علاقة طبيعية بالحفاظ على هذا الفارق الحتمي والضروري، أين يحس الطفل نفسه مفهوما، ومُ تَم اهى مع أحاسيسه على نوعيها من طرف أب جيد، ستبقى له مساحة من الوجود يتفوق فيها الجيد على السيئ، وبهذا سيسْهُل على الطفل الحر في إحساسه التعرف على من يريد إيذاءه، وفيما بعد سوف يستشعر ذلك عندما يقوم هو بالإساءة، إذا ضمن علاقة ملائمة، الطفل وبشكل كا فٍ مُشبَعَ ضمن حاجاته، يدمج قدراته على التمييز، على المعارضة وعلى التوكيد.

المستغلون جنسيا لا يختارون هؤلاء الأطفال، الآباء غير المستغلين والمح ترمين لأطفالهم لا يصبحون معتدين لكنهم يختارون الطفل الذي منذ مرحلة مبكرة، ضمن إسقاطاته على الوالد، لا يستقبل في المقابل إسقاطات والده أو يتحصل على استجابة (الإقصاء الدفاعي)، مالا يسمح له بامتلاك هذا الفارق الحتمي حتى يتمايز عن المعتدي وحتى يقوم بربط الأب الجيد والأب السيئ، فيبقى الطفل ضمن مزيج وضمن اختلاط في الهوية فالاطمئنان غير كافٍ ، والثنائية القطبية تتثبت، في القطب الجيد هناك المزيج طفل جيد / أب جيد، وفي القطب الأسود هناك المزيج طفل سيء/ أب سيء، والخلط بين معتدي/ معتدى عليه هو دائما حاضر في القطب الأسود الطفل إذًا مشطور في تماهياته.

يُضاف إليها حالات الإسراف في السلطة للوالدين (عندما يتْرُك الطفل باكيا لساعات طوال حتى يُنتظم نومه ليلا في الأسابيع الأولى، عندما يُثبّ ت طفل ليُحتضن، ليُغرق بالقبل ...)، كل هذا إسراف في استعمال

السلطة الذي يتعارض مع الغيرية مثلما يتعارض العنف مع الحنان، والوالد غير المطَمْئِن هو والد لا يمكن الاعتماد على مصادره العاطفية الداخلية الخاصة للاستجابة للطفل، وجميع الاضطرابات النفسوجسدية، جميع الحرمانات العاطفية والتصورية متولّدة عن التصرفات الاسرافية الوالدية، وتشارك في إضعاف الطفل وتعيينه كضحية مستقبلية للاستغلال الجنسي.

وفجأة، وفي ظل كل هذا، يأتي المنتهِك ليقدم للطفل ما هو بحاجة إليه، اللطف، الاهتمام، شكل من الاعتراف بشخصه، لمسه بلطف، فيسترخي الطفل وينفتح، يحس أخيرا بالفارق الذي يتوق إليه ويحتاجه ليتواجد كشخص حر، لن يحس بعد الآن بأنه بهذا السوء لأن أحدا ما يهتم به ويعطيه الحنان، بداية للتمايز تأخذ مكانها لكن الطفل ضمن توازن مؤقت، إنه مثل رضيع في بداية سيرورة التماهي.

(B. Robert – Ouvray, 2003, pp.176-186)

S. Ferenczi (1933) من أجل التمييز بين جنسية الأطفال وجنسية الراشدين، تحدث عن لغة الحنان لدى الطفل التي تقابلها لغة الشهوة لدى الراشد، ومرتكزا على أعمال S. Freud الذي أوضح بأن قدرة حب موضوعي تأتي بعد مرحلة تماهي مع الموضوع، وصف هذه المرحلة من الحب الموضوعي السلبي Le stade de l'amour objectal passif بمرحلة الحنان Le stade de la tendresse، فكتب قائلا : "آثار من حب الموضوع يمكنها أن تظهر لكن فقط كهوامات، بشكل لعبي، كذلك الأطفال يلعبون مع فكرة أخذ مكان الأب من نفس الجنس حتى يصبحوا زوجا للوالد من الجنس المخالف، فإذا فُرض على الأطفال أثناء هذه الفترة من الحنان، حب زيادة أو حب مختلف عن ذلك الذي يرغبون، يمكن أن يُحدِ ث هذا نفس النتائج المنشئة للمرض التي أحدثها الحرمان من الحب لحد الآن".(Gabel, 1998, p.60)

في البدء، يغرق المعتدي في هذا الانفتاح الأول الذي هو الاطمئنان جرّاء إشباع الحاجات، وضمن كسر مفاجئ، في لحظة خاطفة، يتحول اللطيف إلى عنيف، سلاّب يستولي على براءة الطفل، يجعل من ه ضحية لمرة ثانية، فالتلاشي المفاجئ للوالد الجيد يجعل الطفل الصغير يتخبط داخل الاختلاط الأولي، كل شيء يعاد خلطه من جديد، تُرصُّ الصور فوق بعضها، تختلط الهويات، وببساطة الطفل تمت خيانته، كان قد بدأ بناء وتأسيس ذاته والآن كل شيء قد انهار لتنهار معه الموقعية الداخلية للطفل، لأن المرور إلى الفعل من طرف المعتدي هو خيانة عظمى، فبعدما أظهَ ر الأب الجيد، أخرجه من احتشامه وعزلته، الآن أُبتلع من طرف الأب السيئ مثلما يحدث في الثقب الأسود (المتوحدين)، إنه ضمن هذا التلاشي الثاني للأب الجيد (انقطاع الرابط مع المعتدي) أين تستقر الصدمة، إنه هنا أين أغلبية الاستغلالات الجنسية تجعل من الطفل ضحية مزدوجة.

لا وجود هنا للعب الجنسي مهما كان سن المعتدي، لأن الطفل عن دما يكتشف جنسيته مع أطفال آخرين يكون في حالة أساسية من الفضول والاستثارة المرتبطة بالإحساسات التي يتحصل عليها، هذه الاس تثارة لا تسعى إلى جعل الآخر آلة أو إلى امتلاكه (النية في حالة الاستغلال الجنسي)، بل تسعى إلى التبادل، إلى النظر إلى الآخر حتى يمتلك نفسه جيدا، حتى ينتمي إلى سنه بشكل أحسن وهذه هي الجنسية الطفلية الطبيعية، لكن الراشد الذي يستغل الطفل هو في حالة خاصة، الطفل يحسها، يكتشف هذا الوميض الخاص في عينيه، فنظرة المعتدي هي

واحدة من بين العناصر الأكثر صدمية بالنسبة للطفل، ترافقه مثل مُ ضطهِد Un persécuteur داخلي، يلاحظ وضعيات الجسم، بعض حركات الفم، ارتعاش أصابعه، يتعرف على رعشة من يمتلك السلطة، فانقباض العضلات الجنسي للمعتدي ينقل درجة من الارتعاش غير معروفة بالنسبة للطفل، يجد نفسه أمام وضعية مبهمة التي لا تمثل جزءا من مكتسباته الفزيولوجية، العصبية والحركية، لذلك نلاحظ بأن جلّ الأطفال يصرِّحون بأنهم غير مدركين لكونهم قد تعرضوا للاستغلال الجنسي، وقد أكد S. Freud على هذا قائلا:"الطفل أحيانا يُفِر من عدم خبرته الجنسية، يخلط بين الاختراق La pénétration والحك (الدعك والغواية في العناية الأمومية) بمقابل هذه المنطقة التناسلية الشرجية، حركة القضيب بين فخذيه، بمعنى العلاقة الجنسية الجافة، هذا الخلط ضمن تفسيرات الطفل يمكن أن يُ نقِصَ من مصداقيته"، فالطفل ليس لديه المرجعية الداخلية لمعالج ة المعلومات التي يستقبلها، ليس لديه المخزون الجنسي الذي لدى الراشد مع جميع المكونات الحسية والتمثيلية للعضو الجنسي لدى المرأة والرجل، استثارات، هيجانات ومتعة الانتعاظ.

وفي جو من الخوف والصمت الثقيل دون كلمة، يعيش الطفل التواصل الجنسي مع المعتدي سواء عن طريق العينين، الكلمات، الاحتكاكات أو كإثارة مفرطة، فتختلط العواطف، الخوف، التقزز، الخزي، الرفض، الصور تُرص وتُلتغى، الإحساسات تجف ليُسجَّ ل الانقباض العضلي الجنسي على الفور، فيجد الطفل نفسه كليا أسودا مذنبا، وسخا، سيئا ومثيرا للخزي، فالوالد الجيد اختفى خاطفا معه الطفل الجيد، الانشطار يستقر للأبد، فلا يبقى سوى السواد والسوء، كل شيء فارغ من العاطفة والكلمات.

إن إدماج الاثارات هو سيرورة متكاملة لا يمكنها أن تتم إلا عندما يُ صاب القليل فقط من التناسق لدى الطفل لحظة الإثارة (رد فعل)، وليس هو الحال عادة، ومن أجل إدماج الخبرات الحسية الجنسية، يجب على الطفل أن يمتلك نضج الأعضاء التناسلية والجنسية للراشد، وهذا ما هو مستحيل، فيجد نفسه مشلولا في جسده ومصعوقا في سيروراته الفكرية. (B. Robert – Ouvray, 2003, pp.184, 185, pp.198, 199)

والتظاهرة الإكلينيكية الفورية للانهيار الموقعي ستكون حسب C. Janin الإحساس بضياع الشخصية La dépersonnalisation، وعلى الأغلب تعيد الموقعية بناء نفسها لكن من خلال طرق مرضية، حدَّد Janin بعضها، كانشطار النفسية برفض واحد من جانبي الواقع، إما الواقع الخارجي بأن يحيد الطفل عن الحياة الواقعية ويتفاعل مع الصدمة من خلال الذهان، أو ينصب على الواقع النفسي بخفض نشاطه النفسي وتقليصه إلى ما أسماه Pierre Marty الحياة العملية La vie opératoire مع خطر الجسدنة La somatisation، وأشكال أخرى تتُوجِم الألم والمعاناة النفسية الصامتة لكل طفل وقع ضحية هذا الفخ.(Diatkine, 1995-1996, p.26)

لذلك فالنمو الطبيعي للطفل يَحمِل على المطالبة بمساحة من الحميمية، لأنه ضمن هذا الحيز الحميمي وفقط ضمنه، أين يستطيع الطفل ترك الحرية لتخيلاته الجنسية وألعابه الغلمية الذاتية، وإلا فهو معرّ ض في أي لحظة لأن تُنتهك معالمه.

7-الخزي La Honte

7-1-مفهوم الخزي:

كتب Jorge Semprun في ديباجة كتابه "الكتابة أو الحياة" " L'écriture ou La vie" أن: "الرعب الهلع وخبرة الموت النفسي، تشترك في الواقع في فك وفسخ الانتماء الإنساني، التهديد وحل جميع الروابط بما فيها تلك التي تبدو إلى حد الآن جد قوية، فالكارثة تؤدي إلى لقاء الخزي مع رغبته في التلاشي التام، لكنه في نفس الوقت، يدفع إلى تمالك النفس وإعادة الإنبناء، فضمن معنى أو آخر هو معْربَ حتمي".

إذا، الخزي لدى الضحية يحمل معنيين متعارضين ومتكاملين في آن معا:

- واحد مفتوح على الإحساس بالانتماء : فاختبار الخزي معناه الإحساس بالتقلص والانخفاض إلى حالة تجعل من الضحية غريبة بين الأشخاص.
- ثاني مفتوح على الهوية النرجسية : كذلك اختبار بأنها لم تتماهى تماما مع الشيء الذي أراد المعتدي أن يفعله بها يحمل معنى البقاء، أي القدرة على الحفاظ في صميم عملية سلب إنسانيتها La déshumanisation على الحنين إلى إنسانية كاملة.(Tisseron, 2006, pp. 05, 47)

لذلك ترى M. F. Hirigoyen (1998) بأن الخزي لدى ضحايا الاعتداء يتأتى من الوعي بالمسايرة المرضية والتي سمحت بالعنف من طرف الآخر.(Hirigoyen, 1998, p. 192)

7-2-مراحل الخزي: أدرج Serge Tisseron (2004) ثلاث مراحل للخزي:

7-2-1-القلق الكارثي L'angoisse catastrophique

ضمن الإحساس بالخزي يتصدع الاعتقاد بالوجود، معالم النسق تتوارى أمام ناظري الشخص، ما كان يوحده مع الآخرين قد اختفي، العُ قد الملائمة التي عليها كان يستند و روابطه مع الآخرين تفُكَ ليرمَ ى خارج النسق، ويرى S. Tisseron بأن القلق هو من أن يُحذَ ف، من أن يُقتطَ ع من العالم، فالمجازفة ليست بأن يفقد الحب وكل إمكانية للمتعة مثلما في الإحساس بالذنب، ولكن حتىَّ كل ظاهرة للإهتمام من قبل المقربين. (Tisseron, 2004, p.55)

فنظرة أوكلمة غير ملائمة يمكن أن تجلب الخزي، كذلك كل وضعية تضع الطفل في مقابل الدونية المذِّلة تعرقل قواه الحيوية، تعطيه الإحساس بأنّ الأرض تختفي من تحت قدميه وأنَّه لم يعُد بَعدَ الآن مستندا على شيء ولا على أي شخص. (Gayda, 2007, p. 36)

7-2-2-الاختلاط La confusion

المرحلة الثانية مسيطِرة من خلال الاختلاط الذي يعاش في القلق، وهي تشهد تقدما معتبرا بالنسبة للتي سبقها، الشخص هنا ليس على الإطلاق "لاشيء"، إنَّه في اختلاط تأكيد أنَّه موجود، لا يعرف أين هو، من هو مع من هو، في أي لحظة هو، وهو شكل آخر ليعرف أنه ذلك الذي لا يعلم شيئا.

7-2-3-الإحساس بالخزي بالمعنى الصريح

هي لحظة جدُّ هامة لإعادة بناء الذات وهذا لسببين :

- في الإحساس بالخزي، الشخص يستشعر ويسمي الخزي الخاص به، كما أن تسميته لما يختبره تسمح له بتشكيله في موضوع والإحساس بأنَّه قادر على تحديد معالم واقعه النفسي.
- الإحساس بالخزي هو مؤسِّس من خلال وقوعنا على التصورات الاجتماعية، كون الآخرين يشعروننا بالخزي يعني أننا موجودون، وبشكل آخر نقول أن الخزي هو إيجابي بالنسبة للهوية الذاتية وتشكيل الرابط الاجتماعي. (Tisseron, 2004, pp. 55, 56)

وبالتالي مهما تكن حالات أوراحنا Nos états d'âmes، لدينا دائما مكان لنشغله، حضور والحضور بمعنى الحاضر، حالة من اليقظة التي تسمح لنا أن نكون ضمن المكان والزمان، بمعنى ضمن إمكانية معينة واستعداد للقاء، إنه فقط في الحاضر أين يلتقي ترسُّب الماضي ضمن حيز التجربة وانبساط المستقبل ضمن أفق الانتظار. (Puyuelo, 2002, p. 215)

إذا خبرة الاختلاط تشكِّل محاولة أولى لإعادة الإنبناء، فأن يكون في حيرة من أمره، معناه أنَّه بدأ البحث عمَّا يعيده إلى السطح، ووحده الوقوف على موطن الألم ما يسمح بلملمته، وإلا كيف ن درك حجم ما يحتمي بالعتمة، أن نحدد ما يسبب لنا الألم هو ما يجعلنا نتصالح مع أنفسنا ونخرُ ج من الخبرة أقوى، وهو ما يمنح للرابط رمزية ولا يحصره في التبعية للآخر.

7-3-الخزي يحطم حاجز التمييز بين الفضاء الحميمي والفضاء الخاص بالآخر

تُشكِل الهوية بالنسبة للفرد الغلاف الذي يسمح له بأن يكون موحَدا ومتجانسا، بتحديد ماهو داخلي وما هو خارجي بالنسبة لنفسه، أي الذات والآخر، وهذا الغلاف هو في ذات الوقت خبرة حسية ونفسية، يحتوي على الأفكار الحميمية الخاصة، أي ما لا نتقاسمه مع أي شخص، الذي هو محتوى في أعماق الكائن، ما هو جد خاص ويُخبَّؤ عادة عن الآخرين، مالا نتقاسمه إلا مع شخص مختار وجد مقرّب، وعلى غرار البشرة، هذا الغلاف يستر حميمية الفرد ويخفيها عن الآخرين، يحميه من التعديات، كما يوقف ويسد فيض الإثارة، ومثل الخلية الحية كذلك هو هذا الغلاف، يجب أن يكون قابلا للنفوذ لأنه بحاجة إلى علاقات خارجية حتى يتجدَّد، ولكنَّه لا يمكن أن يكون جدُّ مسامي حتى لا يتفكك وَيَتحلَّل في النسيج الذي يحيط به. (Gayda, 2007, pp. 31,32)

والحياء يحمي هذه المنطقة الحميمية ويساهم في وضع وبشكل واضح الفرق بين المنطقة الحميمية والأخرى العامة، لكنَّ الاسْتخفاف بحياء الطفل معناه اجتياح حديقته السرية، مهاجمة غلافه والاعتداء على هويته، فتُنتهك عتبة الحميمية، الكسر الذي قُدِّر الحياء لمنعه يجد مكانا، ليخضع الفكر إلى النظرة المحقِّقة والمتسائلة للآخر ويُشَلُّ.

ففي خبرة الخزي يُلغى كل تمييز قاعدي، الجدران التي تحمي المنازل تنمحي، الملابس تُخلع والأفكار تصبح عارية لتُكشَف على العلن، ومن يكون فريسة لخبرة الخزي، لديه الانطباع بأن أبسط إيماءة، أكثر حركاته تحفظا وفكرته الأكثر سرية، هي وكأنها معروضة أمام ناظر كل شخص.

7-4- الخزي يُكسر الحوار المستدخل ذات مع ذات/ التجريد من جميع الروابط إلا الرابط مع المعتدي

الخزي يتلخص دائما في التصدع أو التهديد بالتصدع للركائز التي تشيَّد عليها هوية كل واحد منا:

- التقدير الذي نحمله لذواتنا؛
- العاطفة المتقاسَمة التي تربطنا بالمقربين منا؛
- اليقين من أننا جزء من الجماعة الإنسانية.

لكن كيف يتوصل الخزي إلى زعزعة هذه الدعامات القاعدية للهوية في آن معا؟

أجاب Serge Tisseron (2006) بأنَّ هذا يتم من خلال تكسير الاتصال الذي تبقيه الضحية مع انفعالاتها الخاصة، وخاصة مع ما يمثل الدعامة لها، هذا الشريك الانفعالي المستدخل الذي يمثّ ل لكل واحد منا الضامن (الحامي)، فالجلاَّد لا يبحث فقط عن تدمير قدرات المقاومة للضحية، ولكن أيضا لإقناعها بأنه الرابط الوحيد الذي يربطها مع الجماعة الإنسانية. (Tisseron, 2006, p. 04, p. 15, p. 37)

وبهذا تغوص الضحية في القناعة المفزعة بوجود لطخة دائمة، لا تصلَّح ولا تُغتفر، يُ حس الطفل بأنَّه مشروخ عن نفسه بقدر الجماعة التي إلى حدِّ الآن كان مرتبطا بها. (Tisseron, 2004, pp. 54,55)

هذا التقدير المنخفض للذات الناتج عن الجرح النرجسي العميق بفعل الكسر الممارس على المساحة الحميمية، هو ما سوف يُطلق سيرورة إخضاع الطفل وفقا لما يتراءى لـلرَّاشد، فعندما يفرض المعتدي الخزي على الضحية، يفُقِدها هذا الخزي كل معلَم شخصي ويحثها على اعتناق تلك المعالم الخاصة بالآخرين، فتنتظر من المقربين منها أن يقترحوا معالم جديدة، تبُقِ إلى الأبد خطر لقائها مع الخزي من جديد.

وعموما الخزي لدى ضحية الاستغلال ا لجنسي شاهد على فعالية الاعتداء من جهة، فقد مسَّ ها في صميم شخصيتها وجرَّدها تحت ناظري المعتدي، ولكنه في نفس الوقت شاهد على أنَّ الاعتداء لم ينجح في إنتزاع إنسانيتها تماما وبأن الجزء الإنساني المتبقي فيها يتألم ويعاني من الدمار.

7-5- الحياء La Pudeur

تطورت القواعد الاجتماعية اليوم بشكل معتبر، لكنَّ الحياء حافظ على بُعده القاعدي كوسيلة في خدمة حماية الذات، والشروط التي يتشكل ضمنها تبيِّن جيدا هذه الميزة، فنحن نتعلمه بالتماهي مع السلوكات المحتشمة للرَّاشد، إلا أن بعض الأهل يتساءلون أحيانا "كيف نعلِّم الحياء لأولادنا؟"، إنَّه أمر بسيط، يكفي أن يكون الوالد في ذاته محتشما ضمن علاقته معهم، وسوف يستدخلون تلقائيا هذه الطريقة في الإحساس والسلوك.

(Tisseron, 2006, pp. 08, 09, pp.15, 16, p. 47)

وبشكل أبسط نقول بأن الأطفال محتشمون في حدود حياء واحتشام أوليائهم، منذ أن ي كونوا جدُّ صغار هم يدركون لحظات أو مناطق تحفظ الرَّاشد بمقابلهم، لكنهم لا يستطيعون تسميتها أو التعبير عنها إلا فيما بعد عندما يكتسبون القدرات الفكرية من أجل ذلك، لهذا من المهم جدا بالنسبة للطفل أن يحس الإحراج والحياء من طرف الرّاشد، لأن هذا يمنحه الملا مح حول ما هو حميمي بالنسبة للآخر وما ليس كذلك، حول ما ينتمي إلى

ميدان الآخر وحدوده وبذلك حول حدود مجاله الحميمي الشخصي، فالحياء عندما يُحترم، يضبط المسافة بين الأشخاص ويضمن الاحتشام الذي يلاحظه كل واحد بالنسبة للآخر، إذا فالحياء تأسيسي لأنه يساهم في تشكيل غلاف الهوية الشخصية. (Gayda, 2007, pp. 34, 35)

نذكر أنه من الأهل حتى وإن لم يغرقوا أولادهم بالإثارة، فإنهم يُلقون بهم إلى مصادر أخرى تتكفل بذلك كاصطحاب الأمهات لأبنائهن الذكور إلى الحمامات الجماعية، في سن قد مُيِّزَ فيها الفرق التشريحي بين الجنسين وهم الآن يصارعون من أجل ضبط إثارتهم المتأتية من الداخل، لذلك يحمل الحياء بهذا المعنى مفهوم صاد الإثارات.

7-5-1- بين الحياء والخزي:

- الخزي مختلف عن الحياء في كونه يتعلق أساسا بخطر الاعتداء، بينما يقي الإحساس بالحياء من الاعتداء.
- الحياء يرتكز على خطر متخيَّل ومتوقع، بينما الخزي هو أثر صدمة أخذت مكانها في الوقع وهو شاهد بأنَّ الحمايات التي في مقابل الاعتداء قد فشلت.

الحياء ينصُّ على عدم الظهور أبدًا عاريا أمام شخص أعل ى (أكبر، أقوى، أعلى مقاما)، لأن هذا الأخير يمكنه أن يحاول استغلال الوضع دون أن تتمكن الضحية من الدفاع عن نفسها.(Tisseron, 2006, p. 08)

إذا فالحياء يسعى إلى ما يفرض احترام كل شخص أمام الآخر، محافظا على روابطه مع الآخر، ليس ما يعزله ويُضمِر عواطفه.

7-6-الإحساس بالذنب

الحديث عن الإحساس بالذنب يعني الاستناد إلى ركن أخلاقي الذي يسن ماهو جيد أو سيء، إنها القيم الأخلاقية للوالدين والمجتمع الممثَّلة في الأنا الأعلى، الذي عرّ فه S. Freud كركن من الشخصية لديه دور المراقب، قاضي إزاء أنا الشخص، فالضمير الأخلاقي إذا كواحد من وظائف الأنا الأعلى، يجسِّ د القانون ويمنع عندما يُنتهك، ونشاط الأنا الأعلى يتمظهر تحت جميع الانف عالات التي ترتبط بالضمير الأخلاقي وأساسها الإحساس بالذنب.

وحسب S. Lebovici و M .Soulé (1970)، فإن ثراء الحياة الهوامية للطفل وأهمية واقعه النفسي تؤكد بأنه سيجد بسهولة أسبابا ليشعر بالذنب، لذلك من المهم جدا ترك الطفل الضحية يعبِّ ر عن نفسه، عن مستوى إحساسه بالذنب، والإصغاء له دون الحكم عليه، لأن ما يمكن أن يقوله ويستشعره على المستوى الشعوري، لكن أيضا على المستوى اللاشعوري مختلف تماما عن إسقاطاتنا وعن منطقنا كراشدين، وإلا سينتهي به الإحساس بالذنب المجتاف عن المعتدي إلى التماهي به. (Gabel, 1998, pp. 62, 63)

ويهدِّد الإحساس بالذنب تقدير الذات وضمان الاستفادة من حنان وعاطفة المقربين، لكنه لا يمسّ بالإحساس بالانتماء، ولهذا فالإحساس بالذنب غالبا ما يفضَّل على الخزي، لأنَّه يترافق دائما مع اليقين في إمكانية استعادة السمعة. (Tisseron, 2006, pp. 13,14)

فالعقاب من طرف الجماعة هو نفسه الدليل الأكثر تأكيدا على استمرارية الاستفادة من انتباههم.

7-6-1- دور الإحساس بالذنب ودور الخزي، بين الخوف من العقاب وقلق الخزي

كل من الإحساس بالذنب وقلق الخزي يلعبان تقريبا نفس الدور، يمداننا بالحاجز والنصيحة، فالإحساس بالذنب يلعب هذا الدور بالنسبة لرغباتنا التي يكون تحقيقها محرَّما، أما الخزي فيلعب هذا الدور بالنسبة للعلاقات التي نحافظ عليها مع الجماعة التي تربطنا.

إن الخزي مثل الإحساس بالذنب، يعمل أحيانا كعرض Un symptôme، وأحيانا أخرى كإشارة خطر Un signal d'alarme، فالإحساس بالذنب يمكنه أن يحدث على إثر انتهاك، كما يمكن أن يحذِّر من خطر المرور إلى المحرَّم ويردعنا عن فعله، كذلك قلق الخزي، يمكن أن يشهد تصدع الروابط التي تصلنا بجماعتنا، لكن يمكنه كذلك أن يحذّرنا وينبهنا إلى أن التصدع وشيك ويسمح لنا بتفاديه. (Tisseron, 2006, p. 57)

وبالنسبة للأطفال ضحايا الاستغلال الجنسي، في كلتا الحالتين أين يعمل فيهما الإحساس بالذنب وقلق الخزي كإشارة خطر، يتوقف على ما يحمله الطفل من تصورات عن الفعل وعن عواقب الفعل، وهذا ما يفتقر له نظرا لعدم نضجه على كافة المستويات، لذلك هؤلاء الأطفال هم بدون قلق الإشار ة من أجل حماية أناهم (فيما يتعلق بالجنس)، فيمرون مباشرة إلى وضعية الألم النرجسي، و وحدها كفاءة عمل الخصاء (F.Dolto) ما تسمح للطفل بحماية مساحته الحميمية حتى وإن لم يملك تصورا عن جنسية الرَّاشد.

7-7- التكفل النفسي بالخزي

من حسن الحظ أن ما يعطي أثره الصدمي ا لخاص للخزي، هو كذلك ما يمكنه توجيه الأخصائيين في التكفل به، لذلك يجب أن يحارَب ضمن الميادين الثلاثة التي يهددها:

- النرجسية
  - ضمن مكوناتها النفسية مثل الجسدية.
- الروابط العاطفية مع المقربين والمشاركة في الجماعة الإنسانية.

كما أن الإقرار بالخزي هو الشرط الأول الحتمي حتى يجد مكانه ضمن قصصنا الفردية، العائلية والاجتماعية، وحتى لا تتكرر الأحداث التي كانت أصلا له مطلقا. (Tisseron, 2006, pp. 16, 62)

كما أنه ضمن إعادة نسج شبكة الروابط الجديدة، لابد أولا من الاعتراف بالرابط المحوري ال ذي شكَّل فرقا في حياة الضحية ألاَ وهو رابطها مع المعتدي.

8- تناذر التكيف للطفل ضحية الاستغلال الجنسي

Le Syndrome D'Adaptation De L'Enfant Victime D'Abus Sexuel

The Child Sexual Abuse Accommodation Syndrom

Summit R. C (1983) في مقال له نُشر في جريدة "Child Abuse And Neglect" وصف هذا التناذر معتمدا على أربع سنوات من البحث على مئات الأشخاص، اكدى منها بحالات الاستغلال الجنسي وحسب Summit R. C الطفل ضحية مزدوجة، أولا للاستغلال الجنسي وثانيا ضحية شك وريبة الراشدين فيه، وقد أظهر بأن اللحظة الأولى للإفشاء تشكّل صدمة بالنسبة للطفل، الراشدون لا يفهمون عموما سلوكات الأطفال في هذه اللحظة، فبالنسبة لهم هي سلوكات ضد كل طبيعة ومعارضة لتوقعاتهم، بمعنى يُهُوِّطُون رد فعلهم الخاص كراشدين (الاعتراض، الرفض، حركات دفاعية...) على الطفل، لهذا يشكون في كلامه ويتهمونه حتى بالتولع بالكذب La mythomanie .

ويحتوي التناذر على خمسة عناصر، العنصرين الأولين مرتبطين بالجروحية La vulnérabilité للطفل والعناصر الثلاثة الأخرى هي عواقب الاستغلالات الجنسية، فعندما ينقاد الطفل إلى الشرك، يتكي ف معه والإفشاء عن السر يكون متأخرا، غير مقنع وغير موثوق، وبالتالي سوف ينكمش الطفل وينسحب.

8-1- السر Le Secret

يرى Summit R. C بأن الواقع المرعب بالنسبة للطفل ضحية الاستغلال الجنسي، يتعلق بكون الأمر لا يحدُثُ إلا عندما يكون الطفل وحيدا مع الراشد، ولا يجب عليه أبدا أن يتقاسم مع أي كان هذا السر المرعب الذي يُحفظ به تحت التهديد،كأن يقول له المعتدي :"لا تقله لأمك، سوف تكرهني " أو "سوف تقتلك، سوف ترميك أوتنقلك"، هي تهديدات تجعل من آثار إفشاء السر أكثر خطورة بكثير من الفعل والطفل يلتزم الصمت لا يقول شيئا أبدا، فهو يخشى من العقاب أو من عجز الراشدين عن حمايته من عنف الم عتدي، فإذا لم يستطع التحدث فلأنه لا يثق بعدَ الآن في الراشد. (Gabel, 1998, pp. 69, 70)

فيعيش الطفل أحاسيس القلق والرعب بمواجهة الفراغ، والترك أو العنف ضمن الوحدة المطلقة، لأنه لا يملك في وضعيته أي راشد قادر على التماهي مع ما يحس.(Berger, Bonneville, 2007, p. 25)

هو التماهي بالتعاطف (Anna Freud) إذًا ما يفتقده الطفل، أن تُكسَر وحدته المختلقة من طرف المعتدي، أن يجد معنى وتصور لإحساساته ضمن انفعالات الآخر وتضامنه معه، آخر ينجح معه في ترجمة ما عجز قبلا عن إدراكه، وكلما ظل السر دفينا،كلما تخمَّرت الصدمة وتأصلت ضمن نسق علائقي مريض الذي يتحول إلى شكل للوجود، ركيزته هذا المعيش الصدمي الصامت.

8-2-الإحساس بالعجز Le Sentiment D'Impuissance

نُعلّمُ الطفل أن يحذر من الأغراب، لكن في آن واحد، أ ن يكون مطيعا وودودا مع جميع الراشدين الذين يعتنون به، فالطفل بهذا لا يثير أبدا ولا يبدو أنه من يُغوي الراشد، فالمعتدي في أغلب الحالات يكون شخصا مقربا من الطفل، يقوم أولا بنسج علاقة ثقة مع الطفل حتى يترائي له بأنه لن يشتكيه مطلقا عندما يوسع العلاقة فالراشدون الذين يبحثون عن الأطفال الصغار كشركاء جنسيين لهم، يكتشفون سريعا شيئا عج يبا لدى أشخاص أقل عنفا، يكتشفون أن الأطفال هم بدون دفاعات، لا يشتكون ولا يقاومون .(Gabel, 1998, p. 70)

فالرغبة الجنسية للراشد نحو الطفل تجد أولا منبعها ضمن الاشباع في إيجاد لدى الطفل شريكا خاضعا لذلك غالبا ما يطلب الراشد من الطفل مالا يتجرأ على طلبه من شريكه الراشد. (Tisseron, 2004, p. 27)

8-3-الطفل يتكيف مع هذه الوضعية L'Enfant S'adapte à Cette Situation

إن الطفل الذي لم يبحث مباشرة عن المساعدة و لم تتم حمايته، الخيار الوحيد الممكن بالنسبة له هو أن يتعلم تقبل الوضعية والبقاء، بثمن انقلاب القيم الأخلاقية وتغييرات نفسية ضارة بالنسبة لشخصيته، وهذا سواء عن طريق الانشطار أو الانقلاب إلى ضده من التجربة، وما كان سيئا يصبح جيدا أ و عن طريق ميكانيزم التماهي با لمعتدي، فالطفل مأخوذ ضمن نسق علائقي مرضي، يتكيف معه حتى وإن كان لهذا ا لنسق آثار مشؤومة على تنظيمه، لذلك تحدث Summit عن جزيرة البقاء Un ilot de survie، حالات من التفكك والانفصام La dissociation من أجل التوفيق بين المواضيع الجيدة والأخرى السيئة،كشكل للنمو الممكن للأطفال ضحايا الاستغلالات الجنسية.(Gabel, 1998, pp. 70, 71, p. 75)

وترى M. F. Hirigoyen (1998) بأن الطفل ضحية الاعتداءات المنحرفة ليس له إلا العودة إلى آليات الانشطار الحامي Le clivage protecteur ليجد نفسه حاملا لنواة نفسية ميتة، فكل ما لم يتم إرصانه في الطفولة يُستَط في المرور إلى الفعل الدائم في سن الرشد، وحتى وإن لم يتحول كل طفل أسيئت معاملته إلى معتدي، فإن نواة التهديم قد خُلقت فيه.

ومع الوقت، حسب Alice Miller (1988) في "La souffrance muette de l'enfant" يظهر أن الأطفال الضحايا ينسون الاعتداء المتحمَّ ل، لكنهم يعاودون إنتاجه على أنفسهم بالقلب نحو الذات وإيذائها وبهذا يستقر الألم كجسم غريب في النفس، نشِط وفي ذات الوقت مرفوض.
(Hirigoyen, 1998, p. 61, p. 198)

إذاً تَظهر الضرورة حيوية للانشطار الذي يبدو أنه الدفاع الوحيد الممكن من أجل البقاء، ضمن حالة من الشدة اللامتناهية، فيجب التخلص بسرعة من الحمل الإدراكي والحسي، والثمن هو فقدان جزء كامل من قصته صورة المواضيع المفقودة مفرَّغة، فعدم نضج أنا الطفل لا يسمح بحدوث الحداد.(Puyuelo, 2002, p. 251)

حسب C. Bonnet (1999) في كتاب " Spécificité des soins chez les victimes de viol et d'inceste" هناك تناذر التعدي Le syndrome d'intrusion الذي يؤدي إلى إحساس بالخروج من الجسد كميكانيزم للبقاء.(Ansermet, 2002, p.117)

إذًا ارتباط الألم مع اللّذة المعاشة ضمن تجاذب غير محتمل، وعجز الطفل عن قطع الرابط الرمزي مع المعتدي، الذي يحتفظ به عميقا في النفس غير مرصن مع جميع العواطف الملتصقة به، هو ما يجعله يحسّ بكل هذا الاغتراب وكأنه ليس هو، شخص آخر من قام بالفعل، وبالتالي يُحَل هذا التجاذب بتقاسم النقيضين بفضل آليات بدائية تسمح له بالاستمرار.

8-4-الإفشاء (الكشف) المتأخر وغير المقنع Le Dévoilement Retardé Et Non Convaincant

بمقابل تظاهرات جرسية تتضمن الأطفال، الراشد (المعتني بالطفل أولا) ليس قادرا كذلك على تخيُّلها، لأن الجنسية وبالتحديد تلك المتعلقة بالأطفال تزعج دائما وتعيد الشخص إلى قصته ومفهومه عن الجنسية، فالخطر كبير إلى درجة تتم فيها شيطنته (يُنسب إلى أعمال الشيطان)، باعتبار هذه التظاهرات غير إنسانية، أو على العكس، تُتَجاهل تماما، و صفة الشيطنة هذه التي تُلحق بالجنسية الطفلية على وجه العموم، تنتهي بما وحدهم ممثلي العدالة يملكون كلماتهم للتكلم في هذا المجال. (Ansermet, 2002, p. 72)

الطفل يذهب للبحث عن العون والمساعدة بجانب راشد آخر، على الأغلب الأم، التي إليها سوف يحاول البوح بما قد لحق به عن ثقة فيها، الدراما تتأتى من كونه لن يُصدَّق والأسوأ من ذلك أنه سوف يُعاقَب، إذا سوف يجد نفسه جذريا وحيدا، ولن يمتلك بعد الآن مُطلقا المصدر الذي به أصبح خطأً، ببتره من ذاته، ببتر الجزء الذي تلقى الحدث. (Hassoun, Spielmann, 1995, p. 93)

يبتر هذه المنطقة التناسلية من الصورة اللاشعورية المكوَّنة عن جسمه، سواء بشطرها من تصوره اللاشعوري مع الخبرة المؤلمة المنْكَرَة من طرف الأهل، فلا يجد نفسه إلا ممتثلا لحالة الرفض التي يعيشها محيطه المقرب أمام عجزه عن التعبير أو الدفاع عن نفسه، أو بالنكوص إلى صورة جسم سابقة تغيب فيها فعالية هذه المنطقة وتحسسُه بأمان أكبر، أو على العكس تماما، قد تحمل هذه المنطقة بُعْدًا قيميا آخر شبيها بالقيمة التي يتقلَّدها البراز عند بعض الأطفال في ظروف معينة، وبالتالي قد تحمل هذه المنطقة بعدا رمزيا متبقيا من العلاقة التي ربطت الطفل مع المعتدي، فتعزَّز نرجسيا ليصبح الطفل وكأنه لا يملك سوى هذه المنطقة.

P. Ariès (1973) أكد بأنه مع نهاية القرن العشرين، انفصال عالم الأطفال عن عالم الراشدين سيكون عبر خاتمة درامية، الشك والريبة بين الأجيال وكذلك تمزق الروابط بينها، فالخطابات الاجتماعية،كتابات المحللين النفسانيين، رجال القانون، علماء الاجتماع، جميعها تتقارب على نقطة قصور الكفاءة الوالدية، التي يُرجعها البعض إلى جانب الخواء الترميزي، وهذا ما يحمل حقبتنا على البقاء في استسلام لسلسلة كاملة من التناذرات بدءا بالعنف داخل العائلة وصولا إلى العنف المتعلق بالأطفال. (Lebrun, 2002, p. 09)

وقد أكد Summit R. C على أهمية حضور المحامي، طبيب نفسي Psychiatre أو أخصائي نفسي Un Psychologue كخبراء لحظة الكشف عن السر.(Gabel, 1998, p. 71)

ويُستحسن ألا يكون الأخصائيون المتدخّلون في هذه اللحظة، ممن شَوِدوا فترة التخاذل والتكذيب التي قد اختبرها الطفل، أو شاركوا فيها بشكل أو بآخر بصمتهم هم كذلك، أو بتأييدهم لقرارات الأهل المتخاذلة بالنسبة للطفل، لأن الأطفال ضحايا الاستغلالات الجنسية، أكثر ما يميزهم زيادة على صعوبة الوثوق في الراشد من جديد، هو قابلية فسخ الروابط بسرعة وبصعوبة تجديدها مع ذات الشخص من جديد، لذلك وجراء الجرح النرجسي العميق، يعانون من مشاكل على مستوى آلية الارتباط، مما يضع عملية التكفل بهم موضعا حساسا لأنهم سبق وأن خبروا الانفصال في أقصى شدته.

8-5-الانقباض(الانكماش) La Rétraction

قد يكون المستمع الأول للطفل شرطيا أو طبيبا أو أخصائية اجتماعية أو مربيا أو فردا من العائلة، و هذا اللقاء الأول ذو قيمة خاصة، تكمن في تقبل الإصغاء إلى ما لا يمكن تخيُّله، ثم تسجيل كل ما تقوم الضحية بسرده، لأن الشواهد تتشوه فيما بعد بسبب اختلاط في الذاكرة أو جرَّاء تعدد المتدخلين وأسئلتهم المتكررة (Debout, Durigon, 1994, p.145). لذلك فالأطفال غالبا ما يعانون من نمط ثاني من الاعتداء ، وهي تلك التدخلات الصدمية المتسبقَّعن طريق التقصي الطبي أو النفسي لغير المتمرِّسين، أو من خلال تحقيقات الشرطة. (Ciavaldini, 2005, p.13)

ويرى Summit R. C أنه: "أمام خطر الكارثة الذي يحرِّضه الإفشاء عن السر، الطفل سوف يختار أن ينسحب وينكمش وهذا لا سيما لما يعكسه غالبا المتدخلون الطبيون والاجتماعيون، الذين يخشون عواقب الكشف أكثر من عواقب الاستغلال الجنسي على التنظيم النفسي للطفل وعلى نموه "، وكلما كان المعالجون مكوَّنين،كلما تقبلوا واقع الأحداث، وكلما استطاعوا توفير مساعدة ملائمة للطفل، فيخاطرون أقل في معالجة الاستغلال الجنسي باعتباره هوام، لذلك من المهم جدا سند كلمة الطفل والإقرار بكم هي ضعيفة في هذه الوضعية، فالخطر من ألا يتحدث أكبر من أن يتحدث عن خطأ أو أن يكذب. (Gabel, 1998, p.71, p. 75)

9-الأسرة والمجتمع وسيرورة إخضاع الطفل

G. Devereux يرى بأن صورة المجتمع عن الطفل تؤثر على التفكير النفسي العام لأفراد هذا المجتمع وبنفس القدر تؤثر على أشكال نمو الطفل، كما أن طريقة النظر إلى الطفل وجعله كبيرا، تتحدد من خلال الأشكال التربوية وتصورات كل ثقافة، التي تكون مختلفة من ثقافة إلى أخرى.

(Aouattach, 2004, pp. 33,34)

وبالنسبة لأغلبية الثقافات، الولادة تُوجَع إلى المشاركة في سيرورة حيوية واجتماعية تتضمَّن تخليد المجتمع وكلما كان الأمر متعلقا بالمجتمعات التقليدية، كلما كان قدوم الطفل يُتخَذ ضمن روابط مع الأسلاف، إنه معنى جميع المعتقدات التي لا تحصى لتنوعها والمحيطة بما يملكّه القادم الجديد بالنسبة لأولئك الذين كانوا قبله.

وفعل الإنجاب بالنسبة للوالدين هو فعل اندماج داخل المجتمع والخضوع لقانونه، أما بالنسبة للطفل، فهذا المفهوم يُترجِم شكلا من التبعية الفطرية له بمقابل والديه، فحسب الطفل، أنا طفل والديَّ ا، لكن والديَّا نفسهما ليس سوى حلقة، إذا أنا خليفة سلفي، ليتحول بهذا الرابطُ مع السلف مصدرا للتبعية المبكرة بالنسبة لأطفال المجتمعات التقليدية، ليُحمَّلوا المسؤولية من خلال الوضعية التي تمنح لهم، بكو نهم الممثل والمجسِّد لهذا السلف ويجب أن يكونوا جديرين بذلك.(Gauchet, 2008, pp. 49,50)

والعائلة الجزائرية ما هي إلاّ إنتاج اجتماعي يعكس صورة المجتمع الذي توجد وتتطور فيه، وتتميز بكونها عائلة بطريقية، الأب فيها والجد هو القائد الروحي للجماعة العائلية، وينظّ م فيها أمور تسيير التراث الجماعي وله مرتبة خاصة تسمح له بالحفاظ غالبا بواسطة نظام محكم على تماسك الجماعة المترلية، النسب فيها ذكوري والانتماء أبوي وانتماء المرأة (الأم) يبقى انتماؤها لأبيها.

والأسرة الجزائرية خاضعة لمبدأ التماسك الداخلي والخارجي، تبقى العائلة La Ayla مصطلح يحمل قيمة أخلاقية وروحية،كلمة جدية لا يمكن أن تكون موضوعا للهزل، لذلك وللحفاظ على هذا التماسك يستطيع البطريق اتخاذ إجراءات حاسمة. (**بوتفنوشت مصطفى، 1984، ص. 14، ص ص. 37، 38**).

وقد توصل Didier Anzieu (1981) في مؤلَّفه: " الجماعة واللاَّشعور: الخيال الجمعي" Le groupe " et L'Inconscient : L'Imaginaire Groupal "، إلى فكرة أنَّ الطاقة ا لمستثمرة من أجل أن تتماسك مؤسسة، أعلى من تلك المستثمرة مباشرة من أجل عملها. (Marneffe, 2004, p. 32)

وفي المجتمع الجزائري كثيرا ما يُلحق مفهوم الدفاع عن التماسك بمصطلح العصبية، لذلك يتخذ النِيفُ مفهوما ضمنيا في مفهوم الشرف، شرف الجماعة، شرف تمّ اكتسابه ويتعاظم مع الزمن عن طريق الانضمام الكامل إلى نظام القيم، ويسيطر على المجتمع الجزائري ضمن المناطق الريفية خاصة ما يُعرف بوحدة العرش والعرش يعني القبيلة في الضمير الجمعي لأعضاء الجماعة، الشيء الذي لا زا لوا ينتمون إليه عن طريق الدم أو التحالف أو العقد، وهو الشيء الذي هم في استعداد للاستماتة من أجله، وضمن ما يحكمه من علاقات اجتماعية، هناك تخوف حقيقي من الوقوع تحت طائلة احتقار الجار أو الصديق أو الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها الشخص (**بوتفنوشت مصطفى، 1984، ص. 43، ص ص. 53، 54**). فيترعرع الطفل الجزائري مُ شبعًا بهذه المعاني التي يتحدد من خلالها انتماؤه للجماعة، والذي من أجل استحقاقه يجب الخضوع والالتزام بمعايير الجماعة.

ومن هنا ينبني مفهوم التقدير المتبادل، الاحترام، النمو وتكوين الشخصية الناضجة مرتبطا بشكل خاص بمفهوم التبعية، بالخضوع والخشية، فالطفل الجيد، المهذَّب، الذي لديه شخصية هو ذلك الذي يتجرَّ د من أناه حتى يصبح كليا تحت سيطرة وحكم الراشدين، وبالتالي كل سيرورة التربي ة والجتمعة تسعى إلى نفي الفردية ومن أجل الحصول على الطفل المثالي، من أجل تفادي الخزي أو التجرّ د من الأهلية الاجتماعية –لأن الأطفال محسوبون على أنهم انعكاس لأهلهم– يستعمل هؤلاء العقاب الجسدي والابتزاز العاطفي والعنف ذو الطابع النفسري (Aouattach, 2004, p. 39). فأحيانا سوء المعاملة La maltraitance تستتر تحت قناع التربية

فحسب Alice Miller (1984) في كتاب "C'est pour ton bien" الذي تضمّن البيداغوجيا السوداء La pédagogie noire، أضرار التربية التقليدية هي من أجل كسر وتحطيم إرادة الطفل حتى يكون كائنا مطيعا ومنقادا.(Hirigoyen, 1998, p. 48)

فعندما يكون أحد الوالدين أو كليهما متسلطا أو عدوانيا بشكل مفرط، يخنق الطفل داخله كل فكرة للثورة التي ترهبه، وكذلك الأب الضعيف، يمكنه أن يردع الطفل عن إظهار أو حتى اختبار عدوانيته ، خشية أن يجرح والده من خلال هجماته التي يظهر له فيها الأب غير قادر على الدفاع عن نفسه، فتَكُفه وتثبطه، وبهذا لا يتوصل الأطفال إلى تصور عدوانيتهم بشكل طبيعي، يمرون على الأغلب بنمو نفسي عاطفي مضطرب ويصبحون خاضعين وبشدة، يظهرون إراديا ضعفا جسديا أمام أبسط المضايقات، لأن شعورهم بالخزي بالنسبة للعدوانية الخاصة واستحالة تصور الرغبة العدوانية بسبب هذا القمع، يجعلهم غير قادرين على التمييز بين عنف الدفاع عن الذات وعنف العدوانية.(Tisseron, 2004, pp. 08, 09)

فالطفل المهذب هو الذي لا يكثر الحركة في حضور الضيوف، الذي يلتزم المكان الذي خُصص له فلا يحرك ساكنا، هو الذي يلتزم الصمت في حضور الكبار ولا يقاطع أحاديثهم، هو الذي لا ينقل كلام الكبار إلا ما يسمح له بقوله، هو الذي لا يرجع الكلام في وجه من ه م أكبر سنا منه، هو الذي لا يصرخ، لا يضرب أخاه ولا يجلب عيب الجيران...هو ببساطة الذي لا يقول "لا"، فيكفي أنّه مُنح حق الوجود.

لذلك فالتربية ضمن المجتمعات المغاربية تتحقق تحت شكل قمعي ضمن سيرورة الجثمعة للطفل وهذه التربية القمعية تتدخل في وقت جدُّ مبكر (Aouattach, 2004, p. 35). بدءا بتقميط المولود الجديد بطريقة محكمة من الرجلين إلى الكتفين، رِجلا الطفل تحكم مستقيمة الواحدة جنب الأخرى، واليدان مسدلتان على الرجلين مغلقتان جيدا في جميع الفصول، وهذا يحدِّ د أخذ المجتمع على عاتقه، وطريقة لإدخال الطفل في الحياة من خلال الحركات الجسمانية التي تقوم بها الأم لولدها.(**بوتفنوشت مصطفى، 1984،ص ص. 83، 84**)

وابتداء من سن الثا نية، السن الموافقة تقريبا لحدث الفطام ، تبدأ عملية الجثمعة La socialisation الجدية، وكل مرحلة متميَّزة بالسلطة الجماعية العائلية، ابتداءً من سلطة الوالدين والشخص الأكبر سنا، ليجد الطفل نفسه خاضعا لسلطة جميع الرَّاشدين حتى خارج العائلة، لأن التربية معتبَ رة كقضية الجماعة الاجتماعية ككل، فأي راشد ينتمي إلى المحيط العائلي أو حتى الجيران يستطيع أن يعنِّ ف الطفل على فعل ما، فهو – أي الراشد– يلعب دور المربي بالنسبة للطفل الذي بدوره يجب أن يطيعه.

وحتى جثمعة الطفل تتحققُ حسب الشكل التربوي الساري، بالعودة إلى العقاب الج سدي والتأديب، وهي ممارسات مشروعة من طرف الجميع، ومحتملة على أساس أولا أن مبدأ "الضرب يسمح بتربية أحسن " أو "الأطفال يجب ترويضهم وتربيتهم ماداموا صغارا "، لكن أيضا بالتوافق مع مبدأ أن المعاناة تنضِّ ج، يصبح رجلا حقيقيا عندما يختبر الحرمان والألم. (Aouattach, 2004, pp. 36, 37)

فالرغبة في الخضوع إذًا تجد أصلها ضمن دينامية سيرورة الارتباط، الطفل الصغير يدخل إلى الحياة باحثا عن الحماية وعن المرشد، ويرجع من أجل هذا إلى راشد مفضَّل أو إلى جماعة عائلية تحميه، ولأن التبعية لشخص آخر تتولد تحت جناح الحماية، أين فيما بعد، كل تبعية تترع إلى أن تعاش كحماية وكل حماية تجعله يعيش خطر التبعية. (Tisseron, 2006, p. 49)

تبعية إلى مجتمع العنف الذي هو جزء منه، من ثقافته ومن قصته، العنف الذي أصبح شكلا للحياة والتفكير بالنسبة للجميع، فمجتمعنا الحديث يتميز بالعنف الممارس اتجاه الأفراد والجماعات الاجتماعية الأكثر ضعفا وبالتالي يُولّد إحساسا بعدم الأمان. (Marneffe, 2004, pp. 09, 10)

وبهذا يبقى العنف بجميع أشكاله ودرجاته، بدءا بالتعنيف اللفظي وصولا إلى العنف الجسدي، سواء بهدف التربية والتأديب، أو نتيجة انسلاخ الروابط المشكِّلة للبنيان الاجتماعي عن بعضها بسبب ما تعرضت له البلاد من صدمات، هو ما يطبع حاليا شكل التواصل في المجتمع الجزائري.

10- الجنس والمحرَّم في المجتمع الجزائري

المحرَّم Tabou بمعنى الطابع المقدَّس الذي يرتبط بشخص أو شيء، أو بالتعميم بصورة أو فكرة، ويُمنَع الاتصال أوالتعبير أوحتى التفكير فيها خشية العقاب السحري، أو في جميع الحالات تحت جزاء إطلاق حصر شديد (Tusques, 1976, p. 92) وما يعتبر محرَّما بالنسبة لمجتمع قد لا يكون كذلك بالنسبة لآخر، مع أن بعض المواضيع قد احتفظت بقدسيتها عبر سيرورة الزمن، أولها تناول الجانب الجنسي ضمن الحياة الإنسانية، إلاَّ أن الجنسية رغم ذلك تخضع للتغيُّرات الثقافية والاعتقادات المتحكمة في كل مجتمع.

وتتجسد خصوصية المجتمع الجزائري ضمن الأنماط السلوكية والأنساق العلائقية العفوية للعائلة الجزائرية البسيطة، فالدين الإسلامي في الجزائر المعاصرة مازال يؤثر على كل مظاهر الحياة الاجتماعية، في الريف والمدينة وعليه فالتربية الدينية تبقى مانعا قويا أمام إغراءات الجريمة، لأنها تقوِّي وتنمِّي القيم الأخلاقية وقبول السلطة التقليدية والإيمان بوجود الجنة والنار، وحسب المعايير والقيم الإسلامية للمجتمع الجزائري، العلاقة الجنسية لا تقع إلا في إطار الزواج، زيادة على ذلك فإن الحوار مع الأطفال حول الجنس ليس مقبولا أخلاقيا.

(مانع علي، 2002، ص ص. 105، 124)

فالجنس في المجتمع الجزائري هو ذلك الممنوع والمحرَّم المطلق، ومخالفة ذلك خرق يؤدي إلى المذلة، إلى العيب والنزاعات المفتوحة، التعدي البسيط قد يُسمح به، لكن إذا وصل إلى درجة خطيرة فلا يمكن، وعلى المرأة أن تقف إزاء رجال العائلة موقفا متحفظا وعلى الرجل أن يتجنب الاجتماع مع نساء العائلة، وانطلاقا من هذا يتربى الطفل منذ صغره حسب توجهين، الخطر الممكن الذي تؤدي إليه المرأة، ومبدأ التساوي أو التشابه الموجود بين كل نساء العائلة (أم ، خالات، بنات عم...). **(بوتفنوشت مصطفى، 1984، ص ص. 63،64)**.

وهكذا يترعرع الطفل منذ صغره على أنَّ المرأة هي الموضوع الجنسي الذي يجب تفاديه، ويُحصر مفهوم الجنس ضمن هذا التقارب الذي تحرِّمه الشريعة إلا في إطاره المحلَّل، وتعمل العادات والتقاليد على تجسيد هذا

التحريم وتوكيده بالترهيب، لكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا نحن اليوم بصدد معالجة مثل هذه الظواهر؟ لماذا هذه الإباحية المستترة التي تبطن بنيان المجتمع الجزائري؟ لماذا هذا التفشي، ليصبح كل ما يدب على وجه الأرض موضوعا جنسيا ليس فقط المرأة؟.

اليوم نتحدث عن تفكك المجتمع، P. Legendre (1993) قال بإمكانية الحديث اليوم عن "خدمة ذاتية معيارية Self–Service Normatif"، بمعنى كل فرد يجلب من أجل تكوي نه نسقه الخاص من القيم والقواعد عن طريق "سوق القيم" المتواجد حاليا. (Cartuyvels, 2005, p. 29)

فالعائلة تتموضع حاليا على مجموعة من القيم الخاصة، المؤسَّسة على المعرفة الفردية، فأصبحت بهذا مأوى ضد المجتمع خاصة بالنسبة للأطفال، إلحاح للحماية ضد إكراهات الحياة الاجتماعية، وانحراف اشتهاء الأطفال La pédophilie هو رمز هذا الخطر الخارجي المرتبط بعالم الراشدين. (Gauchet, 2008, p. 52)

وهكذا بين الخصوصية والجثمعة، الأطفال هم أعراض مجتمع ضائع، هم أكثر تحطما من العالم الذي يضمُّهم، يفشلون في الصمود في عالم لا ينتظرهم بل يدعسهم (Epstein, 2007, p. 07). عالم لا يُميَّزون فيه عن بقية الأعمار، مجتمع استدل عليه Philippe Jeammet (2005) بمصطلح "La société adulescente" وكأن الأعمار لا تتعاقب بعد الآن بشكل واضح، تذبذب في تعاقب الأجيال لأن الأعمار الأربعة في الحياة تعدّلت من خلال الصورة التي لديها في المجتمع.(Collart, Sosson, 2007, p.16)

René Girard (1999) في كتابه " Je vois Satan tomber comme l'éclair " تحدث عن فكرة الضحية البريئة، أو كبش المحرقة Le bouc émissaire، حيث أكد ع لى العمل القاعدي لبعض المجتمعات المتمثل في تحديد ضحية ، كبش محرقة، وتقوية وهم إحساسها بالذنب من أجل السماح بتصريف جميع أشكال الضغط الجماعي. (Hirigoyen, 2001, p. 279)

وفي المجتمع الجزائري، أصبح الأطفال كبش المحرقة ليس لأنهم أُ ختيروا لذلك، بل لأنهم أضعف حلقات السلسلة، فما تكبدته الجزائر من مآسي ومن عنف إرهابي لا يمكن تصوّ ره، الروابط الاجتماعية أصبحت هشة وعلى الأغلب حُطِّمت، تماسك الجماعة شُوِّه، الميكانيزمات التي تضبط الحياة الاجتماعية وتنظّ م القيم الضرورية من أجل الرقابة الاجتماعية تلاشت ودُمِّرت، النظام الاجتماعي انهار والممنوعات رُفعت، خاصة تلك المتضمِّ نة العنف الاجتماعي الذي أصبح تدريجيا مضاعفا. (Boudarene, 2005, p. 126)

وكما قال Everett Dean Martin (1924) فالمكبوتات المشتركة تنطلق لأن أفكار ا ضابطة معينة توقفت عن أداء وظيفتها في البيئة الاجتماعية المباشرة، ومن أمثلة هذه الأفكار قدسية الحياة البشرية والاعتقاد بأنه من الخطأ تدمير ممتلكات الغير. (**جيفلورد ج. بب وآخرون، ص. 290**)

فالنَّفس والثقافة حسب N. Tobie لديهما كوظيفة – واحدة من أجل الفرد والأخرى من أجل المجتمع– جعل الواقع دالاً، ذو معنى وخاصة مُتوقَّع، في حين أن بعض الوضعيات، سواء جراء عنفها (الاستغلال الجنسي)

أو جراء إخلالها بالبنية النَّفس / الثقافة (تلاشي معالم الهويةِ الثقافية) تقطَعُ سلسلة المعنى، إنها هذه الأحداث التي عادة تسمى صدمات.(Nathan, 1986, pp. 58, 59)

وبانهيار الوسائل التقليدية للضبط الاجتماعي، أصبح عدم التجانس والتغير الاجتماعي صفتين هامتين تميزان المجتمع، نتيجة تعرضه لمعايير وقيم عصرية مختلفة ناشئة جزئي ا عن تطور وسائل جديدة للاتصال، زد على ذلك التقلص التدريجي للسلطة التي كان يتمتع بها الأب قديما على عائلته ومن جهة أخرى ضعف التمسك بالدين وخاصة على مستوى الجيل الجديد. (**مانع علي ، 1996، ص. 33، 36**)

لتبقى العائلة الجزائرية البسيطة تقتات يوميا على ذكرياتها الصدمية، تلتمس معالمها التي مُحيت في ذكريات مؤلمة علَّها تسترجع روابطها التي تلاشت، فهذا أهون من إحساسها بالاغتراب والإحساس بعدم الأمان الذي يجتاحها، فكل شيء مباح كما أبيح يوما، الجميع يلتمس الارتباط في العنف، في الجنس، المهم خفض الإثارة وبلوغ الطمأنينة والأمان، استرجاع ملامح الهوية المفقودة، مجتمع يُخْلَق ضمن آخر، جميعنا ندرك ذلك، نمارس أدوارنا في المجتمعين، لكن لا أحد يتكلم، لأننا جميعا نحاول الصمود، إلا أن ثمن الصمود اليوم هم أطفالنا، هم البعدي الذي ننتظره بتصحيحاته.

11- كلمة الطفل أمام تخاذل الأسرة والمجتمع

يرى Thierry Bastin أن وظيفة السر العائلي حول العنف الجسدي أو الجنسي هي الحفاظ على الطفل ضمن قصور Une minorité بالنسبة للصوَر المثالية للوالدين، وكأثر له تتشكَّل خرافة عائلية تدل على إلتواء جماعي للواقع والقصة، فتُساء معاملة الطفل ويُستعبد من أجل الإبقا ء على صورة جد مثالية لكن منشطرة للوالدين.(Collart, Sosson, 2007, p. 140)

وعندما يُرتكب الاستغلال الجنسي على طفل، ليس من النادر اكتشاف بأن الأحداث قد عُرفت منذ زمن لدى المقربين وخاصة الأم، وهذا الأمر بقدر ما هو صادم، كثيرا ما يزال يمر في صمت، ولا شيء لا يحثُّ على التفكير بأن هذه الأم قد تحملت هي الأخرى عنفا مشابها في طفولتها الخاصة وأنها تصمت لهذا السبب، ومن جهة أخرى، قد يكون الإبلا غ عن الاستغلال الجنسي الذي طفلها كان ضحية له، يعني بالنسبة للأم الإقرار بأن الوضعية قد تجاوزتها، فلتت من بين أيديها، وهذا بالنسبةلها غالبا غير محتمل.(Tisseron, 2006, pp. 23, 24)

وبهذا ينتهجن الصمت والخنوع سياسة للرد على الاعتداء والتعايش معه.

Serge Leclaire (1975) في مؤلفه "On tue un enfant" وصف بشكل عجيب العنف وكذلك صمود أحاسيس الوالدين حول الطفل المذهل الذي يرغبان في امتلا كه (يرغبان أن يكوناه) والذي لا يستطيعان مطلقا التخلي عنه، حيث قال: "الطفل المذهل هو تصور لاشعوري أ ولي يسمح برؤية –تقريبا دون قناع– واقع جميع رغباتنا، التخلي عنه يعني ا لموت وعدم امتلاك بَعدُ سببا للعيش " (Boyer, 1983, p. 26). فإذا لم يُتَم و لم يُعاود الحداد على هذا الطفل المذهل، سو ف تُسلب ذاتية هذا الطفل تمسُّ كا بتحقيق رغبات الأهل الخاصة

وبالنسبة للأب المغاربي مثلا، فهو يختبر فخرا واقعيا عندما تكون الشواهد المتعلقة بطفله تتمثل في المدح، بينما لا يتقبل إطلاقا أن يصل إلى لحظة قد يسبب فيها هذا الطفل الخزي لهم.(Aouattach, 2004, p. 39)

لذلك يرى Jean-Paul Mugnier، أن العائلة بالإطلاع على بؤسه ا من قبل ثالث ممثل لقيم المجتمع تَعرِض ليس فقد عَرَضها Son symptôme، وإنَّما هذا بمثابة طلب Une demande، يمثّل بالنسبة للوالد مرادفا للاعتراف، الاعتراف بالتعامل بسوء مع الطفل ، الاعتراف بعدم القدرة على حمايته، وكنتيجة لذلك سيحاسِب دوما على وضعيته كأ ب أوكأم، ويؤكد Jean-Pierre Lebrun، أنَّ ما يحدث في بعض حالات سوء المعاملة الخطيرة، التي في الأصل لا يجب أن يُسمح فيها بالتأجيل إلى الغد، نوع من الإرجائية (نزعة إلى التأجيل)، فتُتْرك رغم ذلك لتستمر، لأنه يوجد في ذات الوقت أمل في وجود حل أقل إكراها وأقل معاكسة للإيديولوجية المحيطة.(Cartuyvels, 2005, p. 08, p. 62)

وأمام صمت الجميع وتواطئهم، تفقد كلمة الطفل مصداقيتها، يتعايش مع إحساسه بعدم الأمان النابع من ماض مجوف، من عالم بدون مصير، من عدم الاستطاعة على الاستناد على الماضي، على حاضر تأخذ فيه شريعة الغاب مكان القانون، عدم الأمان العاطفي عندما لا يكون ه ناك شخص نثق فيه. (Epstein, 2007, p. 09)

وقد يتعايش الطفل مع ألمه، لكن الصمت بالنسبة له مهما كانت دوافعه، يحمل معنا واحدا، هو أن كل من أحبه وانتمى إليه قد خذله، بدءا بالمعتدي وصولا إلى الأسرة والمجتمع.

12- بعض المعالم من أجل التدخل في حالة الاستغلال الجنسي

S. Ferenczi (1933) أكد أن الأشخاص الذين صُدموا جنسيا في طفولتهم والذين وجدوا أنفسهم تماما لوحدهم لأنهم لم يجدوا أي راشد ليصغي لهم، هم بالفعل أكثر مما نستطيع أن نخمن، ولا يوجد أي تحليل يمكن أن يُعتبر كاملا إذا لم ينجح في الولوج إلى المادة الصدمية، لذلك يجب البحث عن نبش سبب الألم وتشريحه مساعدين العميل على استرجاع قصته الخاصة.

اختلف مع S. Freud فيما أسماه S. Ferenczi "التقنية النشطة" "La technique active" التي لا تتوانى عن التوصية ببعض التواصلات الفزيولوجية بين المحلل والعميل، رغبة في تقديم له عن طريق الملامسات والقبَ ل الحنان الذي افتقده يوما، لكن S. Freud رد عليه بشدة، مؤكدا أن هذه الطرق من الفعل- حتى وإن كانت محدَّدة- تتخذ أساسا بعُدّ زنا المحارم من خلال تكرار الغواية التي كان العميل ضحية لها فيما قبل (وقد طرح هذا الإشكال نفسه علينا في التعامل مع الحالات بشكل واضح).(Hassoun, Spielmann, 1995, pp. 93, 94)

وكلما كان الطفل أكثر نضجا في نموه النفسي كلما امتلك استراتيجيات من أجل تجاوز الصدمة، فكل شيء يتعلق بقوة هذا النشاط النفسي الداخلي للطفل أثناء وبعد الاعتداء ، وأيضا إمكانية استرجاعه بفضل التدخل النفسي المتخصِّص المبكر والسند الاجتماعي (العائلة، المجتمع، القانون).

(B. Robert – Ouvray, 2003, p.185)

12-1- بالنسبة للطفل ضحية الاستغلال الجنسي:

في Furniss M. E (1990) "L'inceste et l'abus sexuel dans la famille : un modèle de traitement intégré" أدرج ست خطوات لمخطط العمل الذي يقترحه من أجل وضعيات زنا المحارم، وأكد أنه حتى يُمكّن من تشخيص الاستغلال الجنسي، يجب أولا تصديق ما يقوله الطفل، ثم الإصغاء للطفل منفردا قبل الإفشاء عن السر بين مجمل العائلة.

- من المهم أخذ الوقت الكافي في الإصغاء للطفل، أخذ الوقت للتفكير والإعداد بالعودة إلى خصوصية التوظيف النفسي للطفل ومستواه من النمو العاطفي والنضج الجنسي.
- الإصغاء إلى الطفل باعتباره شخصا، ضمن واقعه الفزيولوجي بقدر واقعه النفسي.
- يأخذ الاستغلال الجنسي غالبا مكانا ضمن إطار علاقة عاطفية بين المستغل والضحية، لذلك من المهم جدا الإقرار بوجود هذا الرابط، حتى وإن كان رابطا مرضيا ويضع الطفل في خطر، يجب ألا يلغى حتى وإن كان تفاديه يبدو ضروريا، لأنه من خلاله فقط يمكن بلوغ عمق المعيش النفسي للطفل.
- يجب محاولة فهم المعنى الذي يتخذه الاستغلال الجنسي لدى الطفل ضمن إطار علاقته مع المستغل.
- يجب التنبهُّ إلى أن الإحساس بالذنب لدى الطفل ضحية الاستغلال الجنسي، سواء كان شعوريا أو لاشعوريا، لا يتوقف مع انقطاع العلاقة مع المستغل وتوقف الاستغلال الجنسي، وقد يكون مَفْرَقا سواء كركيزة لإرساء المعالم المميِّزة والمحرِّمة نحو بناء الجلد أو قد يقود باجتياف ذنب المعتدي نحو الاحتفاظ بالشريك المحب متماهيا معه.

- إن تدخل القانون يمكنه أن يخلّص الضحية من جزء فقط من إحساسها بالذنب، كما يمكن أن يساعد الطفل في بناء نفسه، مظهرا بأن الجسم الاجتماعي قد تحمّل مسؤوليته في تطبيق القانون، فبعد أن كان الطفل متهما في أعين الجميع بُرِّئ بسلطة القانون.

12-2- بالنسبة للمتدخلين(الأخصائيين):

Furniss. M. E (1990) أكد أنه في لحظة الكشف عن السر، الأزمة الأساسية التي نواجهها هي أولا أزمة أخصائيين، فمعظم المتدخلين في مثل هذه الحالات نجدهم محتارين، مذهولين ومنجذبين نحو مخاوفهم الطفولية التي يمكن أن تنبثق كذلك مثل إحساسهم بالذنب، لذلك عندما نتوصل نحن أنفسنا إلى التمكن من تقبل كواقع، والتمكن من تصور علاقة جنسية بين طفل وراشد، عندها فقط يمكننا أن نمنح الطفل إمكانية التكلم معنا عن الأمر، أين يترجَم إحساسُنا ضمن حركاتنا التقمصية تماهيا مع ما يعانيه.

وحسب Furniss: "عمل فوري وغير مخطَّط للأخصائيين، غالبا ما يؤدي إلى عدم وضع إثبات واقع الاستغلال، وإعطاء مكان لردود أفعال غير علاجية لمهنيين بدون هدف ومقاصد واضحة".

(Gabel, 1998, pp. 75 -77)

وعلاوة على الخوف والحزي المختبران من طرف الطفل شخصيا، يجب الأخذ بعين الإعتبار وجود أو عدم وجود –سواء قبل، أثناء أو بعد الحدث– لأسرار عائلية منشئة للمرض تعيق أو حتى أحيانا تحطّ م قدرة الطفل على التكلم بإسمه الخاص، فتحت تأثير الاحساس بالخز ي الذي يبلّل الأشكال اللفظية و غير اللفظية للإتصال داخل العائلة، الطفل يترع إلى التكافل والتضامن لاشعوريا مع أشخاص محيطه محاولا شفاءهم، رافضا رؤية الصدمات التي تحمَّلها والتي يجبره رجال القانون و العيادي ربما على سردها.(Hachet, 2006, p.12)

فنحن إذًا من نتحمل جزءا كبيرا من جميع القوى الداخلية أو الخارجية التي تدفع الطفل إلى عدم الحديث عن الأمر، إلى الإحساس بالخزي، إلى الشك وإلى فقدان الثقة في الآخرين.

13-الجنسية والحوار

Françoise Dolto طرحت رؤية مختلفة للطفل، لأنها على يقين بأنه حتى قبل ولادته هو كائن لغة Un être de langage، منذور ومكرَّس للتواصلات الإنسانية، وسندت فكرة أن الطفل يمكنه فهم كل شيء بمجرد ولادته ويمكن حتى قبل ولادته، كما عمِلت جاهدة من أجل احترام جسد الطفل، فقالت فيما يخص تحرير الجنسية: "ارتدوا ثيابكم، إنه من الصعب بالنسبة لطفل أن يرى حجم قضيب أبيه بالنسبة لحجم قضيبه، لا تظهروا الجنسية ولا تمارسوا (تمثّلوا) جسديا الجنسية، تكلموا عنها".(Hassoun, Spielmann, 1995, p. 85)

فالجنسية إذًا لا تُعلَّم بل تحاور، والحوار هو وضعية ضمنه ا شخصان يترجمان الواحد بالنسبة للآخر ما كان لهما رغبة أو حاجة للتعبير عنه، في لحظة هما في رغبة وحاجة لذلك، وأن الواحد والآخر يستطيعان ويريدان فهم رسالتهما المتبادلة جيدا.(Jacobson, 1976, p. 15)

وعندما قالت F. Dolto: "تحدثوا، تحدثوا إلى أطفالكم"، "تحدثوا" لاتعني قول لكل شيء ولا تعني إغراقهم في الكلام، فهي تُدعِّم ضرورة احترام خصوصية الطفل وخصوصية الوالدين،كذلك احترام جنسية الطفل وجنسية الوالدين، فمثلا قول للطفل:"والدك سوف يذهب للعيش في منزل آخر دون منزل الأم، سو ف يفترقان" تساعد الطفل على فهم ما سوف يغيِّر حياته، أما قول:"والدك لديه عشيقة، لقد خانني" لن يساعده على شيء فالكلام الذي يأتي في وقته المناسب هو مهم من أجل تجاوز صعوبة ما، فه م وضعية والابتعاد عن بعض العواطف، هو كلام إيجابي الذي يقدِّم للطفل معنى يجعله أكثر قوة. (Hassoun, Spielmann, 1995, p.86)

فالأطفال يدركون بسرعة بأن الجنسية La sexualité هي ميدان يترسخ ضمن الحميمية، الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعلّمهم إياه في هذا الخصوص، بأنه من الممنوع ممارستها،كل ما تبقى يُكتشف ويتشكل ضمن العلاقة مع الآخرين، لأنه من خلال الخبرات وضمن العلاقات مع من يحيطونه، أين يتعلم الطفل بأن هناك أشياء يمكن أن تقال وفي نفس الوقت، هناك أخرى تمر إلى داخل الذات والتي لا تنتمي إلا للذات ولا يمكن تعريتها أو كشفها. (Gayda, 2007, p. 33)

ومن مجمل هذه الخبرات المؤلمة أو غير المؤلمة، لا يدمج الطفل إلا ما يدرك له معنى وما يحمل تبريرا يتناسب مع مستوى فهمه، فليست الجنسية هي ذلك المحرَّم المطلق كما تُصوَّر للأطفال حتى دون تفسير، وكأنها الثقب الأسود الذي إن سقط فيه فلا مخرج منه وإنما هي ذلك المؤجل الذي لا يحق للشخص إلا في إطاره المجاز.

حسب C. Eliacheff (1997) في "Vies privées, de l'enfant Roi à l'enfant Victime" :"ألام أحيانا على كثرة الحديث مع الأطفال وعلى قول أشياء لهم يُ فترض أنها غير محتمَلة، على منعهم من النسيان، إنه العكس، فلا يمكن أن ننسى إلا ما قد تعرَّ فنا عليه، دون ذلك، الكائن الإنساني يجبَر على تذكر باستمرار ما قد بقي غامضا وخاصة خادعا (أسطوريا)، هذه الذاكرة هنا عبارة عن ألم لأنه يتعذر تسميتها".

(Marneffe, 2004, pp. 47, 48)

ولهذا عندما يمر الطفل بخبرة الاستغلال الجنسي يعجز عن تقديم تصور ومعنى لما مر به، في أي خانة يدرجها، فينكمش ململما ما تبقى مما يحمل معنى ضمن رصيده من التصورات، هذا إن وجد ما به سوف يتشبث ليساعده على البقاء، خاصة أمام عجز وقصور الوظيفة الرمزية للمقربين منه، فكيف يجد معنى لما يعجز يتهرب ويشعر الآخر بالخزي في الحديث عنه.

14- تقنية تحليل متكيفة مع الأطفال

ترى كل من Anna Freud و Mélanie Klein أن الاتصال اللفظي مع الطفل غير كافي ، لكن أبعد من الكلمات التي يفتقر إليها الطفل، ما يبدو مؤثرا بعمق لدى A. Freud (1926) إحساسها بأن ما ينقص الطفل هو تصور هدف الوضعية التحليلية الذي يوجِّه العميل الراشد.

و قد أكدت M. Klein قائلة: "محلل نفسي للطفل، إذا أراد أن ينجح في عمله يجب عليه أن يمتلك نفس الموقف أمام اللاشعور مثل المحلّ ل النفسي للراشد"، وهذا ما يقتضي بالنسبة إلي ها فهم نفسية عميلها من أجل التمكن من التواصل معه حول ما قد حدث له، فحسب قولها : "ما أقدِّمه لعملائي الصغار هو السند و التنفيس المضمون من خلال التحليل".

لذلك كانت ترفض أي إشباع شخ صي لعملائها الصغار، سواء تحت شكل ملامسات أو هدايا، وأكدت أن المقصد منذ البداية ، هو الحصول على اتصال مع لا شعور الطفل بطريقة تسمح بالتنفيس عن قلقه وجذب اهتمامه مما يُحسِّس الطفل بالطمأنينة، وفيما بعد تتم إعادة طمأنينته بشكل أعمق.

(Geissmann, Houzel, 2003, pp.08, 09)

D.W. Winnicott (1896-1971) في كتابه "Playing and Reality" "Jeu et Réalité" "اللعب والواقع" يرى بأن قدرة وكفاءة المحلّل تكمن في خلق الثقة اللازمة (النقلة)، والسند الذي يجب أن يُضمن في الجلسة يصبح من هذا المنظور أكثر أهمية من التأويلات.

Françoise Dolto (1908-1988) كانت بطريقتها محللة نفسانية وطبيبة أطفال من خلال إصغائها وملاحظتها لأجسام الأطفال، ولكن أصالتها تكمن في مبادرة الحوار معهم، فهي تدعم فكرة أن الأعراض وأمراض الجسد هي مثل الكلمات، الجسد يحدِّثها وهي تجيب عليه.

وذهبت من خلال كتابها "التحليل النفسي وطب الأطفال " "Psychanalyse et Pédiatrie" (1971) وإعدادها في "الصورة اللاشعورية للجسم" "L'image inconsciente du corps" (1984) أين فصلّت النمو النفسي اللاشعوري للجسم، إلى تشكيل هذه الوضعية.

وبطريقة معينة كانت كذلك محللة نفسية للتربية مقترِحة مقاربة لتربية الأطفال، وبهذا تنطلق F. Dolto من مبدأ أنه يجب نقل المعرفة التحليلية ووضعها في متناول الجميع، شارحين للآباء و المربين كيف تسير نفسية الطفل،كيف ينمو، وبذلك نحصل على أقل احتمال من الأطفال المضطربين وبالتالي راشدين عصابيين أقل، فكل شخص له الحق في المعرفة واختيار استعمال ما يعرفه، وما وضّحته F. Dolto بشكل جلي دون آخر، وما يمكن أن يكون في متناول الجميع، أن استقبال طفل هو استقبال لعائلته واحترام لقصته، لذا في الإصغاء للأطفال نصبح مختلفين.

A. Freud أكدت بأنه لا يمكن تحليل طفل قبل الست سنوات، واعتبرت هذه القاعدة الطابع البيداغوجي والتربوي للتحليل النفسي للأطفال، لأنه – حسبها– قبل الأوديب لا يكون هناك إلا علاج للفمي والشرجي لكن على العكس من ذلك، F. Dolto كانت محللة ما قبل الأوديبي، بل كشفت أن الفمي والشرجي يؤسِّ سان لتكوين الهوية، وبالتالي هما قاعديا ن للعمل في جلسة تحليل نفسي مع الأطفال، فنّدت بالنظريات القائلة بأن الإحساس بالذنب لا يظهر عند الطفل إلا أثناء الصراع الأوديبي، وأن الطفل لا يمتلك تصورا عقليا عن العالم الذي يحيط به إلا ابتداءا من اللحظة التي يبدأ فيها الكلام، فهي تجزم بأن ا لطفل كائن علائقي حتى قبل ولادته كذلك،كانت تخاطب مباشرة الأطفال أنفسهم إلى درجة أنها كانت ترفض أحيانا الإصغاء إلى الآباء في غياب الأبناء . (Hassoun, Spielmann, 1995, pp. 81-88)

وكقاعدة عامة بالنسبة للأطفال الذين لم يتجاوزوا الأوديب أو لم يدخلوه أصلا، مهما يكن سنهم، تقوم باستقبالهم في البداية أمام والديهم، ثم برؤية الوالدين مرارا لوحدهما، وتترك الاختيار للطفل، في كل مرة يرغب فيها بترك والديه يحضران إلى الجلسات وحتى المشاركة فيها.

وتؤكد بأن جعل الطفل يرسم أو يشكّل أثناء المقابلة لا يعني اللعب معه، فالقاعدة هي عدم مشاركة الطفل اللعب بشكل نشط، بمعنى عدم خلط هوامات المحلّل مع هوامات الطفل في الجلسة، فمن خلال رسمه، يتوصل الطفل عن طريق تداعي الأفكار إلى الحديث عن محيطه، عن المحلّل نفسه وعن التأويلات التي يخضعه لها، وقد نعتقد بأنه يتحدث عن هؤلاء الأشخاص في الواقع لكن في الحقيقة هو يتحدث عنهم مثلما يتصورهم بالنسبة لذاتيته الخاصة،كذلك الرسومات والتشكيل Le modelage لا تقترح عليه بهدف حصري في جعله يتحدث عن أبيه وعن أمه، بل هي مثل الأحلام وهوامات الراشدين شهود على اللاشعور، فكل رسم،كل تصور للعالم، هو تعبير، تواصل صامت وقول للذات أو قول للآخر.

فالطفل الصغير لا يستطيع الدخول ضمن علاقة إلا من خلال الإسقاط ، وليس في الواقع إلا مع الخصاء الأوديبي والدخول ضمن النظام الرمزي للقانون، أين العلاقة المباشرة الواقعية تصبح ممكنة، فالطفل قد يمنح إلى

أبعد حد جزءا أو كامل صورة جسمه اللاشعورية على مواضيع ، حيوانات أو أشخاص وفي اللحظة التي يقوم فيها بهذا الإسقاط أين يُوصل حياته اللاشعورية.

لذلك فإنتاجات الطفل هي أيضا هوامات حقيقية ممثّلة، أين بنيات اللاشعور قابلة لفك رموزها، ولا تكون كذلك إلا من خلال كلام الطفل الذي يبث الحياة في مختلف أجزاء رسوماته منذ أن يتحدث إلى المحلّل، فما عند الراشدين يترجم من خلال تداعيات أفكارهم حول حلم مسرد، يمكن أن يمثّل لدى الأطفال من خلال ما يرسمونه على ورقة الرسم أو ما يشكّلونه كدعامات لهواماتهم.(Dolto, 1984, p.07, pp. 26-29)

وتؤكد F.Dolto أن أهم نقطة في المنهجية هي الإصغاء محاولين أن نكون دائما حاضرين، لذلك يجب أولا الإصغاء إلى أنفسنا وأن نتبوأ عن حق مكانة أخصائيين، وتؤكد على ضرورة جمعة رحيل العميل، فبعد كل حصة يجب قول كلمة تعيد العميل إلى الكلام الاجتماعي، متفادين تركه بصمت (بالضغط على يده أو لا يجب قول كلمة مثل:"كانت حصة جيدة" أو "إلى اللقاء المقبل" أو "يوم كذا.."، يجب قول كلمة حتى يعود إلى الإجتماعي، إلى المساواة وإلى المواطنة، وحتى لا يبق الشخص ضمن هوام من الدونية يكفُّه فيما بعد.

(Dolto, 1989, pp.184, 185)

إن الأثر الملموس لما قاتلت F. Dolto من أجله، أن منزلة الطفل تغيرت داخل الأسرة والمجتمع بالنسبة لمن آمن برؤيتها ومن طبق مبادئها في عيادته النفسية، فمن منظورها، العائلة هي البنية القاعدية التي تستدعي ترميمها لذلك فكل سياسة وقاية وحماية للطفولة لا يمكن أن تترُك إلا ضمن سياسة شاملة للعائلة ككل.

الفصل الثالث

النـــمو النفسي الجنسي للطفـــل

« Le rôle d'une mère, c'est d'être la pour être quittée »

Anna Freud

1-الجنسية الإنسانية La Sexualité Humaine

تحتل الجنسية مكانة جد مهمة في حياة الكائنات الحية، لأنها سيرورة عضوية هرمونية منظورة من أجل الإنسال، تقوم على لقاء آخر مختلف عن الذات ومن جنس معاكس بغية الإنجاب والحفاظ على استمرارية النوع لكن الجنسية الإنسانية تتميز أساسا عن غيرها بالبعد العلائقي، الرجل والمرأة لا يلتقيان فقط من أجل الإنجاب فالجنسية الإنسانية عبارة عن سيرورة نفسية جسدية مستمرة، ما معناه أنها تتشكل، أنها تنمو وأنها تتحول من الولادة حتى الموت، في نفس الوقت مثل جميع العناصر التي تشارك في نمو الكائن الإنساني، ولذلك من المهم التمييز بين الجنسية والتناسلية:

1-1-التناسلية La Génitalité

التناسلية لاتينيا مشتقة من Génitalis بمعنى "ما يدخل"، وهي كلمة تستعمل للتعبير عن نشاط الأعضاء التناسلية للإنجاب.

1-2-الجنسية La Sexualité

هي نشاط علائقي مجنَّس (أضيفت عليه صفة الجنسية) من فرد اتجاه آخر.

(B. Robert –Ouvray, 2003, pp. 187- 189)

1-2-1-الجنسية الراشدة La Sexualité Adulte

تتميز عن الجنسية الطفلية من خلال مبدأ المنطقة التناسلية، اختيار موضوع كامل وإمكانية الإنجاب (Gabel, 1998, p.59)، ويرى S. Freud أن الجنسية الراشدة في الأصل هي اشتقاق مطابق للجنسية الطفلية ومؤسَّس في جميع نقاطه على هذه الأخيرة تبعا لمبدأ التكرار .(B. Clément, 1976, p. 78)

1-2-2-الجنسية الطفلية La Sexualité Infantile

عرَّفها S. Freud (1908) على أنها: "كل ما يتضمن نشاطات الطفولة الأولى في بحث عن المتع الموضعية Les jouissances locales، التي هذا العضو أو ذاك قابل لتدبيرها" (Gabel, 1998, p.59). وبالتالي يتعدى هذا التعريف التناسلية.

كما انطلق S. Freud محاولا توسيع الأبحاث حول الانحراف La perversion، لكل من Henry Havelock Ellis (1859–1939) وRichard Von Krafft-Ebing (1840–1902) بتبعا لمحورين، تضمَّن الأول الجنسية الطفلية والثاني الجنسية الراشدة، ومنه عرَّ ف الجنسية الطفلية على أنها انحراف متعدد الأشكال Une perversion polymorphe واستدل في الحياة العاطفية للطفل على عناصر التي عادة تُلحق بالجنسية الراشدة، مثل المداعبات، التثبيت على موضوع للحب، اللّذة في التألم أو جعل الآخر يتألم، وبهذا أنشأ رابطا بين الممارسات الشاذة للعملاء الراشدين وسلوكات الطفل.

قام S. Freud بتصنيف الميول الجنسية الطفلية إلى اتجاهين وثلاث مراحل قاعدية:

- اتجاهان، أولهما يتمثل في الغلمة الذاتية L'auto érotisme وثانيهما في التوجه نحو اختيار موضوع خارجي.

- ثلاث مراحل قاعدية، تعود إلى كون الجنسية تُنظَّم حسب هيمنة المناطق المولّدة للغلمة في كل مرحلة ضمن سيرورة من خلالها كل الحياة الجنسية تسخَّر لخدمة التناسل.(B. Clément, 1976, pp. 78, 79)

وبهذا يؤكد S. Freud بأن جميع النزعات المنحرفة ترجع أصولها إلى عهد الطفولة، وأن الأطفال يحملون بذورها ويُفصِحون عنها بالقدر الذي يتماشى مع عدم نضجهم، فحسبه، الجنسية المنحرفة ليست شيئا آخر سوى الجنسية الطفلية مضخمة ومفككة إلى مكوناتها الجزئية . (**فرويد سيجمند، 1967، ص. 343**)

لكن Suzanne B. Robert – Ouvray (2003) ترى بأن اعتبار الطفل كمنحرف (شاذ) متعدد الأشكال Un Pervers Polymorphe يجعل منه فاسقا، ولا يستحق إلا ما يحدث معه أو أكثر، ولأصبح الاستغلال الجنسي ربما هدية له، مثلما يبرِّر معظم المستغلون أفعالهم، وترى بأن الحديث عن تابو الجنسية الانتهاكية، عن رغبة لا شعورية لطفل بأن يصبح الشريك الجنسي لوالده، عن أوديب Œdipe سيء الإرصان لم يسمح أبدا بحل المشكل الحقيقي للاستغلال الجنسي للطفل، كذلك القول بأن هوامات زنا المحارم هي كاشفة لتنظيمة أوديبية للنفس ومبيِّنة لصحة نفسية جيدة، يفتح الباب أمام جميع أشكال الاستغلال.

لذلك للحديث عن جنسية طفلية يجب الانطلاق من نظرية الاتصال والنمو النفسي الحركي وليس من نظرية النزوات، لأنه – حسبها– إذا اعتبرنا أن الطفل هو كائن نزوي يمكنه بالت أكيد أن يظهر كمحرض Provocateur، وإذا كانت لديه رغبة لاشعورية بأن يكون الشريك الجنسي لوالده، إذاً ا يمكنه البحث عن الاستثارة مع الراشد ويستفيد منها.

وما يجعل من الطفل ضحية للاستغلالات الجنسية هو الفهم الخاطئ لجنسيته، إذ يجب أن ينظر إليه على أنه أولا كائن تواصلي، يتطور وينمو ضمن جنسيته، مثل حركيته، مثل قدراته المعرفية، إذاً ا يصدم من موقف الراشد عندما يمرِّر يده على عضوه الجنسي، يصدم من رؤية والده يتعرى دون حياء أمامه، ويهلع عندما يقرأ في عيني الراشد شيئا غير الحنان، غير الحب والاحترام، فلا وجود لرغبة جنسية تناسلية لدى الطفل بمقابل راشد، هو هوام خاص بالراشد.(B. Robert – Ouvray, 2003, pp. 186, 187)

وحسب Marceline Gabel (1998) في "Les enfants victimes d'abus sexuel"، مجرد استعمال مصطلح جنسية Sexualité لدى الطفل مثلما يُستعمل لدى الراشد يحمل إلى الخلط، لأن كلمة جنسية تثير نوعا ما تصورا عن جنسية طفلية جد مماثلة لجنسية الراشد، وبهذا، هذه النظرة الراشدة لا تترك ولو مساحة ضئيلة لخصوصية تنظيم الطفل، فالراشد لا يفكر إلا في الجِ ماع، لذلك ومن أجل تمييز الفرق في التنظيم بين الطفل والراشد، يُستحب استعمال مصطلح مختلف من أج ل الحديث عن جنسية الطفل، مصطلح يعترف ببعد الإثارة L'excitation واللذّة Le plaisir لكن ضمن ما هو طفولي، لذلك مصطلح الشبقية (التعلق بالملذات

الجسدية) La sensualité يبدو أكثر ملاءمة، فهو أقل دلالة على الجنسية الراشدة حتى من مصطلح الغلمة L'érotisme. (Gabel, 1998, pp. 59, 60)

2- مراحل النمو النفسي الجنسي حسب S. Freud

2-1- المرحلة الفمية Le Stade Oral

تشتمل تقريبا على السنة الأولى من الحياة، سنة محصورة في الأخذ وتلقي المعلومات، المنطقة المولدة للغلمة تتمثل في المنطقة الفمية الشفهية La zone bucco – labiale، فمن خلال الفم تنتظم الإحساسات الأولى التجويف الفمي مع اللسان، الشفتين، الخدين، المسالك الأنفية Les voies nasales، البلعوم، كذلك المعدة الرئتين وجميع الأعضاء الحسية مع أهمية خاصة للمس والرؤية، اليد و سطح البشرة، كلها مصادر نزوية خاصة بهذه المرحلة (Voizot, 1977, p.64). والهدف التروي هنا يتجه نحو نقطتين هما:

- **أولا:** لذة غلمية ذاتية، إذ أكد S. Freud أن اللذة المستمدة من فعل المَصّ هي لذة جنسية.

- **ثانيا:** الرغبة في إدماج المواضيع (ثدي الأم الذي يصبح أول موضوع للرغبة الجنسية)، وبهذا سوف تمنح هذه الإدماجات البدائية Les incorporation primitives النموذج للتماهيات والاجتيافات التي تأتي فيما بعد، لكن سرعان ما يذر الرضيع الثدي ليستبدله بجزء آخر من جسمه، فيأخذ في مص إبهامه أو لسانه، ويزيد الطفل من شدة تهيُّجه حين يلتجئ إلى منطقة ثانية من جسمه، وبهذا يتخذ سبيله من التمصص إلى الاستمناء.

(**فرويد سيجمند، 1967، ص. 347**)

ثم يأتي الفطام ليجسِّد الصراع العلائقي الخاص بهذه المرحلة، فإذا كان متأخرا جدا Un sevrage tardif أثناء المرحلة السادية الفمية، سوف يعاش من طرف الرضيع كإحباط أو كعقاب على نزواته العدوانية، أما إذا كان مبكرا جدا Un servage précoce، قبل أن يزاح التوظيف الليبيدي على مواضيع أخرى، فالطفل في خطر أن يبقى مثبتا في علاقة من النمط الفمي السلبي.

إذًا ضمن هذه المرحلة، المعادلة الرمزية بالنسبة للطفل تكمن بين التغذية والأم، والصعوبات العلائقية سواء مع الأم أو الآخر، سوف تترجَم مباشرة على مستوى الغذاء وعلى قاعدة الإسقاط، وهذا ما سنلمسه بشكل جلي ضمن تنظير F. Dolto وأمراض صورة الجسم اللاشعورية، سيكون القلق الخاص بالمرحلة الفمية السلبية هو قلق الابتلاع Une angoisse d'engloutissement وبالنسبة للمرحلة الفمية النشِطة (الإيجابية) سيكون قلق الافتراس (الالتهام) Une angoisse de dévoration، والصدمات المبكرة سوف تبرز مستلِ فة مميزات هذه المرحلة ضمن طابعها المرضي.

Karl Abraham قسمَّ المرحلة الفمية إلى فترتين ضمنيتين :

2-1-1- الفترة الفمية البدائية La Phase Orale Primitive

تتضمن السداسي الأول من الحياة، وهي فترة الملاحظة السلبية، سابقة للتجاذب Pré-ambivalente بمعنى أن الثدي لا يمكن أن يُتصوَ ر بعَدُ على أنه جيد وسيء في آن معا، أي أن يكون مكافئا ومحبطا في ذات الوقت، وهي المرحلة الفمية الحقيقية التي تحدث عنها S .Freud والذي قسمها بدوره إلى مرحلة نرجسية أولية Le stade narcissique primaire، ومرحلة اتكالية Le stade anaclitique.

2-1-2- الفترة الفمية المتأخرة La Phase Orale Tardive

تتضمن السداسي الثاني من أشهر السنة الأولى، هي فترة السادية الفمية أين تظهر النزوات الافت راسية Les pulsions cannibaliques ، التي تنشّط بدورها النزوات الافتراسية للأم.(Golse, 2002, pp.19, 20)

2-2- المرحلة الشرجية Le Stade Anal

تنطوي تقريبا على السنة الثانية من الحياة، سنة مسخرة من أجل التحكم (نزوة الاستيلاء La pulsion d'emprise)، المنطقة المو لدّة للغلمة متمثلة في الغ شاء المخاطي الشرجي (فتحة الشرج- المستقيم السجمي السيني) La muqueuse ano –recto– sigmoïdienne، مرورا بكامل الغشاء المخاطي الهضمي La muqueuse digestive حتى المعدة L'estomac، ممتدا ما فوق الصّمامات Les sphincters، الأنسجة الهضمية Paroi digestive، مجموع العضلات العجائية La musculature périnéale وأغشية (جلد، شعر) العِجان Les téguments du périnée وفيما بعد يُغلَّم مجموع عضلات الجسم والجهد (حركة الإخراج) في حد ذاته.(Mertens de Wilmars. Ch, 1983, p. 79)

والموضوع النزوي هنا في حالة تعقيد، فه و لا يتضمن المادة البرازية فقط بما تُحدثه من لذة في إخراجها أو الإمساك بها، بل كذلك الأم، كموضوع وظيفي للسيطرة وللتبادل معه، وتأخذ المادة البرازية بعدا قيميا آخر بالنسبة للطفل، فعندما يسلك البراز المعي، باعتباره جسما منبها للجزء الحساس من الغشاء المخاطي، ي درَك من طرف الطفل وكأنه بشير بعضو آخر يجب أن يظهر بعد مرحلة الطفولة. (**مصطفى غالب، 1995، ص. 79**)

Karl Abraham قسم المرحلة الشرجية إلى فترتين ضمنيتين هما:

2-2-1- الفترة السادية الشرجية الإخراجية La Phase Sadique Anale Expulsive

تتضمن السداسي الثالث من الحياة، وتسيطر الغلمة الذاتية النرجسية L'auto–érotisme narcissique تأخذ بعدا ساديا من خلال الإخراج في غير وقته للمواضيع المهدَّمة، مما يأخذ قيمة تحدي ضد الراشد.

2-2-2- الفترة المازوشية الشرجية الإمساكية La Phase Masochique Anale Rétentive

تتضمن السداسي الرابع من الحياة، وتتميز بالبحث النشِط عن اللذة السلبية المرتبطة بإمساك المواد البرازية لذة لا تكون دائما مجردة من السادية، فما يحتفظ به الطفل داخله هو ما يعتبره الراشد ثمينا وينتظره كهدية.

في الشهر الثامن عشر أين وصف S. Freud لدى أحد أطفاله اللعب بالبكرة Le jeu de la bobine الذي فوق قدرته على ترميز حضور وغياب الأم، يترجِ م كذلك البلوغ إلى نوع من التحكم الرمزي، وإلى نوع من السلطة العلائقية على الآخر (الطفل يعشق رؤية الراشد وهو يجمع ما يرميه).

وتنطوي هذه المرحلة على ثلاثة أبعاد تأسيسية في إرساء الجنسية الطفلية ه ي:

- **البعد السادي:** ويتضمن تدمير الموضوع الخارجي لكن مع ذلك الاحتفاظ به داخل الذات قصد مراقبته و التحكم فيه، ما يحمل الطفل على اكتشاف السلطة على نفسه وعلى الآخر، وتصبح الفضلات سندا لمفهوم الملكية الخاصة.

- **البعد المازوشي:** يعود إلى البحث النشط عن اللذة من خلا ل التجارب المؤلمة، لذة الردفة (الضرب على الردف) Le Plaisir de la fessé إذا كان الألم غير كبير، مرتبط بإزاحة التوظيف الليبيدي من الإست إلى جلد الردفين،كما أن الإفراط من هذا المظهر التربوي يؤدي إلى إغلام متزايد لهذه المنطقة الجسدية.

- **الثنائية الجنسية La Bisexualité:** وتتخذ جذورها ضمن احتمالية كون المعي (المستقيمLe rectum) في ذات الوقت عضوا مفرِّ غا قابلا للاستثارة من خلال الاتسا ع أو الاختراقات (الميل والنزعة السلبية الأنثوية) وعضوا مفرزا، تبرزي، يقوم بالإخراج (ميل ونزعة ذكورية نشطة)، والتجاذب يكمن حتّ في كون الاحتفاظ يمكن أن يكون نشِطا، في حين الإخراج سلبيا، وبهذا تكمن أهمية المرحلة الشرجية في كونها تساهم في إرساء الثنائية المتضادة النشاط/ الخضوع Activité/ Passivité في مكانها.

2-3-المرحلة الإحليلية"القضيبية" "Le Stade Urétral " Phallique

تقُم وحدة علا ئقية للتروات الجزئية تحت مبدأ الأعضاء التناسلية، لكن دون الحديث حقيقة عن تناسلية الليبيدو، تنطلق ابتداء من السنة الثالثة من الحياة، وتتمحور حول مضمون مرتبط بغياب القضيب أو حضوره.

المنطقة المولِّدة للغلمة هي الإحليل L'urètre، مع لذة مزدوجة من التبول والحصر ، واللذة الإحليلية تحمل بعدا غلميا ذاتيا وآخر متعلق بالموضوع (هوامات عن التبول على الآخر)، كما أن الاستمناء الثانوي يستند على لذة الإفراز، وبعض حالات التبول اللاإرادي يمكن أن تؤوَّل ضمن معنى هوام استمنائي لاشعوري.

والمرحلة القضيبية عموما تبقى مرحلة قبل تنا سلية، لأن القضيب معروف كعضو حامل للقدرة أكثر منه كعضو تناسلي بحت، لذلك هي مرحلة تبقى في جزء كبير منها نرجسية وليست موضوعية، ويؤكد S. Freud أن ما يجسِّد أكثر القضيب، هو كونه موضوعا قابلا للاقتطاع هواميا، إذً ا جزئي، لذا فالقلق الخاص بهذه المرحلة هو قلق الخصا ء، لكن هناك خصاء ضمن رؤية نرجسية أكثر منه موضوعي (وهذا ما تضمَّنه مفهوم الخصاء النرجسي حسب F. Dolto). (Golse, 2002, pp. 21- 23)

وتتميز هذه المرحلة بالتنافس الأخوي، فالطفل المتواجد بين طفلين آخرين، يحس نفسه غالبا نوعا ما مهملا، لا يتمتع بكل الاهتمام الذي يعطَى عادة للبكر وللأصغر، وإذا لم يشجع الطفل الوسط على تنمية مراكز اهتمام خاصة به فيمكنه أن يختبر إحساسا بالإحباط. (Goodman, 1980, p. 192)

وما يميز هذه المرحلة بوجه التحديد هو إرساء مفهوم العقدة Le complexe، الذي أُستعمل لأول مرة من طرف الطبيب الألماني Theodor Zieher، وقد ميّز S. Freud بين عقدة الأوديب وعقدة الخصاء، وأعطاهما قيمة بنائية أساسية في النمو النفسي الجنسي للطفل.

2-3-1- عقدة أوديب Le Complexe d'Œdipe

معتمدا على مجموعة من العناصر من أسطورة إغريقية، أدرج S. Freud عقدة الأوديب التي هي مجموع ميول الحب والعدوان لدى الطفل بمقابل والديه، فكل فرد كان يوما ما أوديبا Œdipe في الخيال، متوهما نفسه قاتلا أباه، متخلصا منه حتى يأخذ مكانه بجانب أمه، ضامنا الاستحواذ على حبها، وبهذا تكون عقدة الأوديب مزامنة للفضول الجنسي الطفولي حول الفرق بين الجنسين.(Lecourt, 2006, pp. 102, 103)

Georges Politzer (1903-1942) أكد بأن أيَّ مفهوم يمكن أن يعتبر كتابع لعلم النفس، فقط إذا كان قبلا مرتبطا بدراما بحيث يعرض شيئا عن شخص ما، لذا فعقدة الأوديب، صحيحة أم خاطئة، تنتمي إلى علم النفس لأنها لا يمكن أن تُملأ إلا من خلال الأفراد.(Politzer, 1969, p. 103)

ومنه نميز بين الأوديب لدى:

- الصبي: عقدة الأوديب تنمحي أمام عقدة الخصاء، بمعنى في اللحظة التي يعي فيها بأن والده عائق في التماسه للأم وفي تحقيق رغبته، في هذه اللحظة يتمكن الطفل من التماهي مع والده والبحث على أن يصبح مثله حتى يتمتع فيما بعد بنفس الامتيازات إلى جانب امرأته.

- الفتاة: الوضعية أكثر تعقيدا، لأن اكتشاف آثار الخصاء، الفرق بين الجنسين والرغبة في القضيب، هو في الواقع ما يدخل الفتاة في عقدة الأوديب، وانقلاب الحب الذي تحمله لأمها (باكتشاف أن هذه الأخيرة غير مزوَّدة بهذا العضو) يجعلها تتشبث بوالدها متخيلة أنها تستطيع مثل أمها الحصول على طفل.

في الحالتين يدخل الأب كمنظم للعلاقة الثنائية أم /طفل التي تتحول سريعا إلى ثلاثية، وبهذا تكون عقدة الأوديب أساسية من أجل إرساء مكان للأنا الأعلى ومثال الأنا L'Idéal du Moi، ويختلف أوديب الصبي عن أوديب الفتاة في كون عقدة الأوديب لديه لا تتطلب تغييرا لموضوع الحب، بينما بالنسبة للفتاة، مثل هذا التغيير يجب أن يكون، والعكس بالنسبة لسيرورة التماهيات، مما جعل S. Freud يؤكد أن التماهيات الأنثوية للفتاة أكثر ترسيخا من التماهيات الذكورية للصبي.(Lecourt, 2006, p. 104)

فهل الأوديب إذًا معبر حتمي يَحولُ دون زنا المحارم؟ يحول دون تحول طفل اليوم إلى والد مستغل جنسيا في المستقبل؟ يحول دون استسلام الطفل لرغبات الراشد؟.

Juliette Favez – Boutonnier تؤكد أنه وحده حل و إرصان الوضعية الأوديبية ما يسمح بوصو ل الفرد إلى نوع من الاستقلالية، عندما يبحث عن الخروج من العائلة، عن توظيف خارج العائلة للتروات الليبيدية التي على وشك أن تصبح تناسلية. (Tusques, 1976, p. 122)

2-3-2- عقدة الخصاء Le Complexe de Castration

تعود عقدة الخصاء إلى هوام الخصاء، محاولة للرد على تساؤل الفرق ا لتشريحي بين الجنسين الذي يُطرح على الطفل، وقلق الخصاء يعكس الإحساس بالتهديد الذي يستشعره الطفل أمام التحقق من هذا الفرق التشريحي، وأكثر تحديدا غياب القضيب لدى الفتاة، وتعاش عقدة الخصاء لدى الجنسين كما يلي:

- الصبي: يتوهم الخصاء كعقاب من طرف الأب مرتبط بإحس اس بالذنب يعود إلى النشاطات الغلمية الذاتية، وقلق الخصاء لديه يمكن أن يُنقَ ل على كل فقدان أو انفصال أو إصابة جسدي ة (ضرس مؤ لم، عملية حادث...)، وبمقابل هذه الوضعية من القلق، يقوم الصبي بالدفاع عن نفسه من خلال فرط في توظيف القضيب إنكار واقع الجنس الأنثوي، بتمنيات لإصلاح سحري أو من خلال الاعتقاد بأم قضيبية مثالية.

- الفتاة: تؤوِّل غياب القضيب كأذية متحَمَّلة، أذية يمكنها إنكارها أو البحث عن الإصلاح والتعويض (كالحصول على طفل من الأب) لتعويض هذا الجرح النرجسي المعاش، فلا وجود إذا بالنسبة لها لقلق الخصاء وإنما لرد فعل على الفقدان. (Lecourt, 2006, pp. 107, 108)

2-4- مرحلة الكمون La Période de Latence

هي مرحلة أساسا لا صراعية، تتموضع بين السبع سنوات والثانية عشر سنة، تستمر التروات المتعلقة بالمراحل السابقة في جزء منها لكنها تظهر أقل حدة، وتتمثل النقطة الأساسية في وسو سة الشخصية بواسطة التربية والتعليم قصد إخضاع الطفل لإيقاع منتظم وقانون محدد، وهذه الميول الو سواسية تستلقي على استعمال التكوين العكسي (الاشمئزاز، الحشمة ...) الذي يسمح للطفل بالتنفيس شيئا فشيئا عن الصراعات الجنسية للمراحل السابقة.

وبترع الطابع الجنسي تدريجيا عن الأفكار والسلوكات بفضل عمل كامل من الكبت، مسهلا بذلك للتسامي بإزاحة الأهداف التروية نحو مواضيع أكثر اجتماعية، يُ فسْح المجال لإمكانية خاصة بالطفل من أجل التعلم البيداغوجي(الجهاز المعرفي كصاد للاثارات)، لكن الطاقة الخاصة بهذه الاهتمامات الجديدة تستمر- أكيد- مستمدة من اهتمامات جنسية أساسية.

خروج الإشكالية الأوديبية عن حيز العائلة يتم بفضل إزاحة الصراعات ا لبدائية على بدائل للصور الأبوية وهذا ما يسمح بظهور أحاسيس الحنان والاحترام اتجاه الصور الأبوية.(Golse, 2002, pp. 25, 26)

كما أن مفهوم السيئ والجيد كان في البدء يخضع لمعايير الوالدين، لكن بعد السبع سنوات يبدأ الطفل في الحكم والنقد، يقوم بالاعتراض ويبحث عن الأسباب لما يُفرض عليه، إذ بتوسع محيطه العلائقي، يقوم بمقارنة كل ما تعلمه من آراء عما هو سيء وما هو جيد عن والديه مع آراء الآخرين، و يقارن خاصة بين ما ي قوله والداه وما يقومان به في الواقع. (Mucchielli, Vincent, 1974, p. 26)

2-5-البلوغ والمراهقة La Puberté et L'Adolescence

في مقابل التغيُّرات النفسية والجسدية المعروفة، يبرز الدفع التروي الذي يخِل بالصلات بين الأركان النفسية ليحس الأنا Moi بأنه تم الاعتداء عليه من خلال القلق التروي والذي بمقابله يجب أن يتخذ دفاعه، فيعيد تنشيط الإشكالية الأوديبية مع إزاحة لها على بدائل أبوية مثالية (أساتذة، فنانين...)، مع أيضا إعادة تنشيط للإشكالية القبل- تناسلية لا سيما الفمية (الامتناع العقلي عن الأكل، الإدمان، التدخين...)، ومن هنا ميكانيزمات الدفاع النفسي الأكثر قدما كالانشطار والإنكار تجد نفسها من جديد في السياق وهذا ما يفسر المظاهر الذهانية.

هي مرحلة التنازلات، حداد الأوهام الشخصية Le deuil des illusions personnelles وحداد الصور الوالدية Le deuil des images parentales، التفاوت بين الأنا Moi ومثال الأنا Idéal du Moi (جرح نرجسي) والإقرار بالعيوب المحتَّمة للوالدين (فقدان الموضوع)، كما تمثل الفرصة الأخيرة التلقائية من أجل أن يصحِّح الشخص خبراته من الفشل في المرحلة الأوديبية، ومع نهاية المراهقة يتم اختيار الموضوع الجنسي ليثبتَّ بشكل نهائي بعد نشاط للميول الجنسية المثلية تحت إطار إعادة تحقيق الضمان النرجسي، ومتعلقة بتأمين الذات أو البحث عن الذات التي هي داخل الآخر وهذا تحضيرا لاختيار موضوع مغاير للجنس، ومن جهة أخرى مختلف التروات الجزئية تكتمل تحت اسم اللذة الممهِّدة للفعل الجنسي الكامل. (Golse, 2002, pp. 26,27)

لذا تعتبر هذه المرحلة كميل للعبور إلى الفعل Le passage à l'acte، فالمراهقة تُظهِر الشخص في بحث عن الملامح لأن الجنسية تقتحمه من خلال البلوغ في جسده وفي واقع هذا الجسد، فبالرغم من جميع أشكال التربية، تنكشف الجنسية مثلما لم تُتَخيل قبلا، تظهر غير متوقَعة فيما تُحدِثه، وتبدو أنها لا تقهر أمام أي كبح . (Forget, 2007, p. 09)

لذلك تحت هذا الاجتياح التروي لسجلات بنيوية عارية، يحركها الميل للمرور إلى الفعل، يجد المراهق نفسه تحت وطأة الدفع التروي، متقلدا دور المعتدي، مسلِطا هذا الاجتياح الذي كان هو - قبل لحظة - ضحية له، على ضحية أخرى، على طفل صغير يتخذه موضوعا لتهدئته.

الجدول رقم (01) : جدول يوضح النمو الغريزي – العاطفي عند الأطفال

السن	المنطقة المولدة للغلمة	شكل الإشباع	العلاقة مع الموضوع	آليات الدفاع	التنظيمة البنيوية (الموقعية)
من الولادة حتى السنة	فمية تجويف بدائي سلبي ثم نشط بظهور الأسنان	المص غير مدمج العض، التمزق (الافتراسية) Le cannibalisme	أم كموضوع أول غير متمايز عنه تجاذب وجداني بالنسبة لموضوع أول متمايز عنه	– الاجتياف – التماهيات الأولى –الإسقاط – النكوص – التثبيت	الهو بروز الأنا لايزال ضعيفا وسلبيا
سنة إلى ثلاث سنوات	شرجية مبكرة شرجية متأخرة	–الإفراغ(الإخراج) – الرفض والتدمير – الإمساك، السيطرة والامتلاك	تجاذب وجداني في أوجه	– الإسقاط – تماهي (خاصة بالمعتدي) – نكوص – تثبيت – إنكار	– الأنا يتقوى – الأنا المثالي متعاظم ونرجسي – أنا أعلى أولي جد عدائي وسادي
3 إلى 6 سنوات	إحليلية قضيبية بظرية بالنسبة للفتاة	– إفراغ – إمساك (احتفاظ) – اللمس – النظر – الاستعراء	– نرجسية ثم علاقة ثلاثية أوديبية (عقدة الأوديب)	جميع ميكانيزمات الأنا تظهر وخاصة الكبت التكوينات العكسية الإزاحة والتسامي.	الهو، الأنا، الأنا الأعلى نهائيا (أوديبي) والتماهيات الثانوية تتم مع مثال الأنا
6 إلى 12سنة	لا منطقة جديدة مرحلة الكمون	جميع الأشكال السابقة مستعملة بشكل مخفف	التوسع إلى خارج إطار الوالدين، العائلة المدرسة والمجتمع	– التكوينات العكسية – التسامي	الصراعات تستقر بين الأنظمة الثلاثة ويتمركز الأنا في الوسط
12سنة البلوغ إلى المراهقة	تناسلية (أعضاء جنسية) راشدين	– إحياء الأشكال الطفولية – أشكال راشدة (الانتعاظ (L'orgasme	– تنشيط العلاقة مع موضوع الطفولة – علاقات جديدة مع مواضيع مغايرة لجنس الشخص ونحو الزواج.	– العقلنة L'intellectuali-satioun – الزهد Un axétisme إضافة إلى باقي الميكانيزمات الأخرى.	تصدع مع انفجار بنيوي يؤدي إلى إعادة ظهور العصاب الطفلي المحتمل ثم إعادة تنظيم شخصية الراشد نهائيا.

النمو الغريزي – العاطفي عند الأطفال

Le Développement Instinctivo-Affectif de L'Enfant

حسب Houzel et Mazet (1979)

(Lévy- Sussan, 1994, p.56)

3-الاستمناء ومراحله

الأصل الاشتقاقي لكلمة استمناء Masturbation هو Manus Stupratio، La séduction par la main، أي المغازلة باليد ، والاستمناء هو غلمي ذاتي، يُتصور الموضوع الج نسي من خلال الجسم الخاص بالشخص، وهناك:

3-1-استمناء مبكر La Masturbation Précoce

يعود أساسا إلى نشاط استكشاف الجسم من طرف الطفل، حيث من خلال هذه النشاطات الغلمية الذاتية يحاول الرضيع الاكتفاء بنفسه وتجاوز الأم، يظهر في حدود الشهر الثامن لدى الأطفال الذين ينمون بطريقة متناغمة، وسريعا ما يخف هذا النشاط الاستمنائي في حدود السنة الثانية متزامنا مع مبدأ الغلمة الشرجية L'érotisme anal.

3-2-استمناء ثانوي La Masturbation Secondaire

في المرحلة القضيبية، يعاود الاستمناء الظهور مشبعًا بجميع الهوامات الخاصة بهذه المرحلة.

3-3-مرحلة الكمون

مجموع الأنشطة المتعلقة بالغلمة الذاتية تأخذ في الانخفاض، إذ أن كل طاقة الطفل تبدو ممتصة من خلال المقاومة ضد الاستمناء، الطاقة التي من خلال منحى الكبت والتساميات يعاد توظيفها في التعلم.

3-4-استمناء ثالث La Masturbation Tertiaire

يتضمن مرحلة ما قبل المراهقة والمراهقة، ويُتخَ ذ ضمن بُعْ جنسي و تناسلي مع جميع الهوامات الغلمية النرجسية أو الموضوعية، وبهذا يوضع في إطار الناضج.(Golse, 2002, pp. 40, 41)

4-الغواية أثناء العنايات الجسدية وأثرها الصدمي

المصدر الرئيسي للذة الجنسية الطفلية هو إثارة مناطق من الجسم، تحديدا الأعضاء الجنسية وعموما مناطق حسأَّسة للإثارة هي الفم، فتحة الشرج، الإحليل، الجلد وبعض الأسطح الحساسة.

(Freud, 1966, p. 51)

وقد وصف Georg Groddeck (1866-1934) النشاط الجنسي أثناء العناية الأمومية قائلا : "الطفل الذي كان يصيح منذ قليل عندما كان يُغسل له وجهه، يهدأ فجأة عندما تُمرَّر الإسفنجة اللينة بين ساقيه الصغيرتين، وجهه يعبِّفجأة عن نشوة حقيقية، ولا يتُرك بعدها أبدا، والأم التي كانت في اللحظة السابقة، تحثُّ الطفل وتواسيه حتى تساعده على تحمل هذا التحميم المزعج، يبدو في صوتها نبرات عطوفة، حنونة، حتى أنَّ ني سأقول نبرات عشق، التصرف الغلمي يوحي لدى الأم والطفل التعبير عن المتعة".

(B. Clément, 1976, p. 78)

فتواصل واحتكاكات الطفل مع الأشخاص الذين يعتنون به هي بالنسبة له مصدر ا مستمرا من الإثارات والإشباعات الجنسية الناتجة والمتأتية من المناطق الغلمية، فالأم تُظهر للطفل إحساسات متأتية من حياتها الجنسية الخاصة، تحتضنه، تقبلّه، تهدهده وتعتبره من دون شك كبديل لموضوع جنسي كامل، وبهذا توقظ من خلال حنانها التروة الجنسية لطفلها، وتحدّد من ثَمَّ شدتها في المستقبل، تعتقد بأن حركاتها تُظهِر حُبلغير جنسي وصافي الذي الجنس فيه ليس له أي مكان، لأنها ربما تتفادى إثارة الأعضاء الجنسية للطفل أكثر مما تتطلبه منها العنايات الجسدية، لكن التروة الجنسية لا توقظ فقط من خلال إثارة المناطق التناسلية، فكل فيض للإثارة أو إفراط في الحنان الوالدي يصبح ضارا لأنه يمكن أن يحمل إلى شبقية Une sensualité مبكرة، فالتي تدلّل الطفل تجعله غير قادر لزمن على التخلي عن الحب أو بإشباع نفسه بحب أكثر رقيا.(Freud, 1962, pp. 133, 134)

إذًا فالأم ضمن رابطها مع طفلها الذي تعتني به، تحتويه وتحميه، لديها كذلك قيمة مولّ دة للغلمة، تمنح للعناية إيقاع اللذة الجنسية حتى بالنسبة للفتاة، فحسب P. Aulagnier، الفتاة تأتي إلى عالم مكوَّن مسبقا للمؤنث، ومكانة الأم معترف بها كرحم مزدوج، فهي تحمل الفتاة لكنها كذلك موضوع الحب الأصلي وتعطي وزنا للنماذج النسائية. (Marinopoulos, 2007, p. 24)

وهذا ما جعل J. Laplanche (1990) يقترح نظرية الغواية المطلقة والمعمَّمَة La séduction généralisée، فحسب رأيه، الأم تعطى معنى لإثارة الطفل من خلال منحه جنسيتها اللاشعورية بكل حسن نية، لأنها تنقل كذلك الخبرات الثقافية عن الجنسية، ويمكنها أن تقوم بالتحويل Le transfert على رضيعها الذي عليه سوف تنقل صراعاتها المعاشة مع والديها، لذلك تترجِم ضمن عناي اتها الأمومية به، حاجاتها المتجاذبة وجدانيا من الغواية والتعويم النرجسي Le renflouement narcissique. (Gabel, 1998, pp. 15, 16)

إذًا فالطفل لا يمكنه التيقظ لنفسه إلا لأنه وعاء لاهتمام ورغبات الوالدين أولا، وهذا الاهتمام سوف يصبح كذلك بالنسبة له المحرك لبناء نرجسيته، تقديره لذاته وقدرته على توظيف الرابط مع الآخر، لكن بعض الأطفال قد يكونون موضوع توظيف متجاوَ ز الذي يقتحم باستمرار جسدهم ويغلّمه، الذي يعتدي عليه دون أن يستطيع الطفل التكيف مع هذه الهجمة، فعندما لا يُقبَّل الطفل إلا فوق الفم، هذه الإثارة المفر طة تُفرَض عليه دون أن يمتلك أي دفاع، لا فزيولوجي، لا لفظي ولا فكري حتى يتمكن من تقنينها، فالأطفال هم مثل الراشدين في كونهم يتأرج حون باستمرار بين البحث عن الاستثارة والحاجة إلى توقيفها، هذه الحركة المزدوجة تُ حدث ضغطا داخليا الذي يفرض عليهم تنظيم وسائلهم الخ اصة من صاد الإثارات، فبعض الأطفال أمام صوَ ر مثيرة في التلفاز، سوف يحتمون من خلال غلق أعينهم حتى وإن كانوا يتلذذون بها.(Gayda, 2007, pp. 37– 39)

والعديد منهم يواجهون وضعيات من الاختلاط المشوَّشة، التي لا يفهمون إذا كانت مفسَّرة بالعناية الجسدية مثل الاستحمام والتنظيف بعد التبرز ، أو أنها منجزَة من طرف الراشد من أجل لذته فقط.

لذلك وحسب Lebovici و Soulé (1970)، كل إثارة لها شدة شديدة من صنع الراشدين، يمكنها خاصة في أوقات معينة وضمن شروط معينة أن تبلغ إلى أثر الصدمة، لأن كل إثارة خارجية لا تتوافق مع درجة النمو الداخلي للفرد ومع إمكانياته للتكامل الفزيولوجي والعاطفي هي مخلة بالنظام. (Gabel, 1998, p. 66)

5- نظرية الارتباط La Théorie de L' Attachement

كانت بدايات البحث حول نشأة الرابط بين الأم و صغيرها مع Heinroth (1910) وLorentz (1935) بدءا على العصافير ثم الثدييات ثم اسقاط نتائجه على النوع الإنساني (Gorot, 2001-2002, p27). وأُسِّس بمفهومه الحالي من طرف العالم الأمريكي Harlow والمحلل النفسي الانجليزي John Bowlby سنة 1958 يقوم على أنه هناك داخل المولود الجديد ميل أولي، أصيل ودائم للبحث عن العلاقة مع الآخر ي سبق التروة الجنسية (Favord – Charles, 1975, p. 58). هو سلوك غريزي، تفاعل أولي وليس نتيجة التعلم، مرت بط بتنشيط الأنظمة الفزيولوجية و السلوكية التي تسعى إلى الحفاظ على التجاور مع الأم محققا وظيفته الفورية من الحماية، ثم وظيفة ثانية مُنذرَة للبقاء.(Chabanier, 1990, p. 77)

أظهر Harlow (1958) للمرة الأولى أنه في إقامة ا لروابط العاطفية بين الأم وطفلها، إشباع حاجات التغذية ليس له فعلا الدور الأول الذي عادة يلحق به، فقبلا لدى المولود الجديد حاجة إلى التواصل و البحث عن التجاور والتقارب مع الأم تسبق الجوع، وكل ارتبا ط لديه نهاية ويؤدي إلى الانفصال، سواء تعلق الأمر بارتباط مدته ساعة أو خمسون سنة، الانفصال يقود إلى سيرورة الحداد وعندما يتم الحداد كما يجب، هناك إمكانية لإعادة خلق ارتباط جديد. (Berclaz, 2002, p. 30)

5-1- مفهوم القاعدة الأكيدة حسب J. Bowlby وبناء النرجسية

هناك مخطط نموذجي للتفاعل المميَّز بين الوالد والطفل، ما يسمى الاستكشاف انطلاقا من قاعدة أكيدة وحسب J. Bowlby: "عندما يحس فرد (مهما يكن سنه) بأنه في أمان، لديه الميل إلى الابتعاد عن صورته الارتباطية من أجل الاستكشاف، وعندما يحس بأنه مهدَّد بخطر، بقلق أو تعب أو في حالة سيئة، يشعر بالحاجة إلى التقارب". (Golse, 2001, p. 88)

قد تعني القاعدة الأكيدة صورة الارتباط الأولى المطمئنة التي يمكن العودة إليها وهذا ما يحملنا –بشكل ما– إلى صورة الجسم القاعدية (F. Dolto) التي تسمح للطفل بأن يحس بأنه ضمن استمرارية نرجسي ة تُمدُّه بالإحساس بالوجود، وكيف أن بناءها يتوقف على كفاءة الخصاءات المتعددة أين اللغة (خاصة اللفظية منها) وحدها القادرة على نسج هذا الرابط الرمزي الذي من خلاله ينتقل الطفل بليونة إلى قاعدته الأكيدة، ويحافظ عليها حتى يستطيع دائما العودة إليها والارتكاز عليها.

لهذا تؤكد F. Dolto أن صدمة الانفصال عن الوالدين دون عمل كلام بين الطفل ووالديه، يمنع استعاد ة الشخص قبل الصدمة، فهناك ثغرة متعذر إصلاحها. (Dolto, 1984, p. 228)

لذلك حاليا نتحدث عن "الموضوع أو الخلفية "Un arrière plan" للتماهي الأولي، فحسبJ. Grotstein يجب ضمان خلفيات قبل التمكن من التقدم إلى الأمام.(Golse, 2001, p. 89)

مفهوم الخلفية فيما يعكسه عن مفهوم القاعدة الأكيدة حسب J. Bowlby يحملنا نحو مفهوم الوظيفة الأمومية وكفاءتها ضمن سيرورة الجلَد أين الرابط والمعنى يلتقيان، فالطفل ليس بحاجة فقط إلى رابطه مع والديه البيولوجيين كي يكون جَلِدا، بل إلى رابط يعلّمه بالتدرج كيف يمنح معنى لما يختبره، يمنحه المعنى في بادئ الأمر لكنه مع ذات الوقت يمنحه الوسيلة التي بها توصل هو كذلك إلى هذا المعنى، من خلال اللغة، لكن وحده تقبل الخصاءات الشخصية ما سيسمح للوالدين بشحن ه ذه الكلمات الفارغة بالمعاني والعواطف .

فاللغة إذًا تسجل خبراتنا المؤلمة والسعيدة، والأهم من التسجيل هو إعطاؤها معنى لتجعلنا أقوى، وتسمح لنا بإرصانها، بإدماجها والعودة إلى القاعدة الأكيدة، الخلفية المطمْئِنة بشكل أَلْيَنَ وأكثر كفاءة.

5-2-نموذج الارتباط لبولبي J. Bowlby (1969)

يفترضBowlby (1969) حضور نماذج داخلية فاعلة ومؤثرة لدى الراشد، أين الأصل فيها يعود إلى نوعية التبادلات في الطفولة المبكرة، وهذه الأشكال الداخلية تُرجَم من خلال وجود استراتيجيات علائقية يمكن مقاربتها مع أشكال للضبط الانفعالي.

5-2-1-الإستراتيجية الأولية La Stratégie Primaire

تشتمل على نظام للضبط اللين للبعد الاجتماعي، هذه الإستراتيجية تسمح للفرد باستعمال الآخرين كمصدر للأمن والتعزية في وضعية الضغط، وبهذا يمكن أن يكون نظام الارتباط منشطا، ثم بمجرد ما يتحصل على التشجيع يُبطَل، وهذه السير ورة من التنشيط L'Activation والإبطال La Désactivation تعبِّر عن حضور شكل مرن من الضبط الانفعالي، وفي هذه الحالة يُظه ر الفرد مقدرة على إرسال طلباته نحو الآخرين والثقة في الآخرين هنا هي مرتبطة بنوع من الثقة في النفس. (Ansermet, 2002, pp. 242, 243)

لكن هذه المقدرة تتوقف على وجود الخبرة المبكرة للارتباط المطمئن التي تسمح ببناء الجلد، وإلا فيؤكد B.Cyrulnik أن الطفل الذي يكوِّن ارتباطا غير موجه وغير منظَّم لا يمكن أن يصبح جلِدا، ليصبح في حد ذاته عائقا أمام إعداد مشروع حياتي ضمن محيط ملائم ، وعليه سيجد صعوبة في الح صول على رابط مستقر (Berger, Bonneville, 2007, p. 11). والخبرة المبكرة تعني أن الرضيع عندما يستدخل صورة أمومية مطَمْئِنة فإنه سيطوِّر إحساسا بالثقة في نفسه وفي الآخرين، وهذا ما سيسمح له بالابتعاد من أجل استكشاف العالم، إذًا فالارتباط أصلا من أجل الصمود عندما يتشكَّل وليس متعلقا مثل التبعية بمتطلبات وضعية معينة، لذلك لا يتطلب بالضرورة عدم النضج. (Berclaz, 2002, p. 30)

5-2-2-الاستراتيجيات الثانوية Les Stratégies Secondaires

الشكلان الآتيان من الاستراتيجيات تسمى ثانوية وتوافق أنظمة من الضبط أقل ملاءمة وأكثر صلابة:

5-2-2-1-الإستراتيجية الثانوية المبطلة La Stratégie Secondaire Désactivatrice

تسعى إلى الحفاظ على العواطف في أدنى مستوى ممكن لها من النشاط (وهنا يتفادى الطلبات الاجتماعية) هذه الإستراتيجية تماثل "الإقصاء الدفاعي – L'exclusion défensive " الذي وصفه Bowlby (1969)، إذ أن هذا الإبطال المتلاحق للحاجات يبيِّن نقص أو غياب الثقة في الآخر، لديه كنتيجة طبيعية لذلك "ثقة قهرية في النفس " والموصوفة كذلك من طرف Bowlby. (Ansermet, 2002, p. 243)

ويمكن أن نتحدث عن انقطاعات ضمن سيرورة الارتباط، فالشخص قد يجد صعو بات في خلق روابط خوفا من الانفصال أو تجديد ارتباط قديم بعد الانفصال، لذلك فالش خص لن يقوم بإعادة خلق رابط جديد ولكن العكس سوف ينفصل ويتجرد من كل رابط، يصبح باردا (عاطفيا)، صلبا ويفقد التواصل مع احتياجاته وانفعالاته (Berclaz, 2002, p. 30). وقد وجد Bowlby أن الأطفال الذين تعرضوا لانفصالات مطولة يلجؤون إلى عدم التعلق باعتباره الشكل النهائي للتعامل مع الانفصا ل، فيتوقف الطفل عن التعبير عن سلوك التعلق ويبتعد حتى بعيدا عن أشكال ورموز التعلق عند عودتهم. (**حسين علي فايد، 2006 ، ص.73**)

إذًا وحده انتظام الإيقاع بين الحضو ر والغياب ضمن الخبرات العلائقية المبكرة ما سوف يسمح للطفل بالتواصل مع احتياجاته وتجديد روابطه وإنعاشها باستمرار، حتى يتمكن من الانسلال من الفخ الشيطاني للعلاقة مع المعتدي و يبلغ بهذا حافة البقاء.

5-2-2-2-الإستراتيجية الثانوية المنشّطة بإفراط La Stratégie Secondaire Hyperactivatrice

تشير إلى فرط اليقظة الانفعالية Une hypervigilance émotionnelle، الطلبات المقدَّمة للآخرين تشتد والاستجابات المحتملة لهؤلاء لا توفِّق في إبطال نظام الارتباط للفرد، لذلك تعبِّر هذه اليقظة الانفعالية عن نقص الثقة في النفس وميل إ لى خيبة الأمل الاجتماعية، ويعود هذا إلى عدم كفاءة الوظيفة الوالدي ة وعلى الأخص الوظيفة الأمومية، سواء بالإفراط أو التفريط، وعندما لا تكون الانفعالات متاحة، لا يمكن ضبطها عقليا، وبالتالي يجب استدعاء مصادر خارجية للضبط، البحث عن الإحساس بالعودة إلى مواد مؤثرة على النفسية، الامتناع العقلي عن الأكل أو الشره للأكل، أيضا البحث عن الاستثارة الجنسية من خلال التعرض للضغط (ضغط مهني، رياضة خطرة ...) وغيرها، كلها أشكال جانبية للضبط تسمح للشخص بتحويل انتباهه عن الانفعالا ت المؤلمة وغير المرغوبة. (Ansermet, 2002, p. 241, p. 243)

هذا الشكل من اليقظة الانفعالية يترجم شكلا من التبعية للآخر ، فيبقى الشخص على عطشه للعلاقة للتواصل والإثارة، يظل التفعيل نشطا دون راحة ومن دون أن يمنحه الاستجابة الملائمة التي تُسنده وتحرِّ ره فيسعى إلى نسج عدد لامتناهي وفي ذات الوقت غير مستقر من الروابط، قد لا يتوانى –مجبرا– دون أن يُتم الحداد على رابط قد تلاشى، أن يدخل مباشرة طرفا ضمن آخر،كما قد يلتزم برابط يقوم بإنهاكه على أمل أن يحصل

على الإشباع الذي يرويه من الأمن والاستقرار أو ربما من التفاعل والتواصل ، كما أن خلل أشكال معالجة المعلومة ذات الطبيعة الانفعالية هو ما يمهّد للاحباطات الاجتماعية والإحساس بالرفض من الآخر .

5-3-الميكانيزمات الأولية للارتباط

أبقى J. Bowlby (1964) على خمسة نماذج من السلوك المتمثلة في : المص، العناق، البكاء، الابتسامة وفعل المتابعة (Berclaz, 2002, p. 30) ويمكن أن ندرج ضمن فعل المتابعة كلا من سلوك التشبث، الإمساك وتوجيه الوجه، وبهذا تدل ميكانيزمات الارتباط على أن الطفل ضمن اتصال.

5-4-الارتباط والجنسية L' Attachement et la Sexualité

اقترح G. Rosolato مفهوم الفرق المميِّز للاشباعات Un écart différenciateur des satisfactions للتمييز بين السجل الجنسي والسجل اللاجنسي، فضمن سجل حفظ الذات، الطفل يجب عليه بالضرورة العودة إلى الآخر من أجل الحصول على إشباع حاجاته، لكن في السجل الجنسي الطفل عادة لا يعود إلا لنفسه، وإلى غلمته الذاتية من أجل الحصول على إشباع رغباته.(Golse, 2001, p. 87)

إذا في أي السجلين يمكن إدراج الارتباط ؟ وهل إدراجه في واحد يعني إقصاءه من الآخر ؟ للإجابة على هذا التساؤل سوف نحاول معالجته من خلال عدة نقاط.

5-4-1-الاستناد L'Etayage

تقوم الوظيفة الجنسية على قاعدة الوظيفة الجسدية، وبالتالي هذه الحاجات (نزوات حفظ الذات) لا تُجنَّس (تمنح صفة الجنسية) إلا فيما بعد، عندما تمنح للنزوات الجنسية المنطقة الجسدية المولدة للغلمة التي تشعرها بلذة تفوق لذة إشباع الحاجة البيولوجية هي لذة العلاقة، وبهذا سوف يكون الرض يع بحاجة إلى الإشباع الفمي أولا ثم يقوم بتوظيف الأم (ثدي الأم كموضوع جزئي) ليبيديا كموضوع نزوي لأنه يسمح له بالحصول على إشباع حاجاته, ليتشكل هنا زمن أولي مؤسَّس عن طريق ارتباط الطفل مع أمه، الذي – أي الارتباط– سوف يُتبع بتوظيفه النزوي (الاستناد النزوي). (Delion, 2007, pp. 16, 17)

لكن J. Bowlby أكد أنه إذا كان داخل العلاقة المبكرة "الرضاعة والجنسية" تلعبان أحيانا دورا مهما فالعلاقة تتواجد من أجل نفسها، ولها كما هي وظيفة مهمة من أجل البقاء على حسب الحماية، كذلك في إطار الارتباط، الروابط لم تُعتبر كخاضعة للتغذية ولا للجنسية ولا مشتقة عنها، والرغبة الملحة للمواساة والسند أمام الشدة ليست على الإطلاق معتبرة كصبيانية مثلما تضمنته نظرية التبعية".

إذًا بهذا الكلام يرفض J. Bowlby نظرية الاستناد الفرويدية ويضع الحاجة البيولوجية ضمن موضع ثانوي في قيام الارتباط مع الموضوع، ولكنه مع هذا لا ينفي حضور الجنسية في زمن مبكر من العلاقة.

يضيف J. Bowlby أنَّ: "الروابط الانفعالية ذات المعنى بين الأفراد هي وظائف أساسية من أجل بقائهم ولذلك فهي تحمل قيمة أولية "، بمعنى يمكن التفكير في الارتباط على أنه بصمة مشتركة لسلوك غريزي، وهذا ما جعل D. Anzieu يتحدث عن نزوة الارتباط La pulsion d'attachement (Golse, 2001, pp. 85, 86).

وحتى Freud في حديثه عن نزوات حفظ الذات يستعمل مصطلحات مثل "وظيفة" و"حاجة".

(بونتاليس ج.ب. ولابلانش جان 1985, ص.69)

ومن هنا يمكن التفكير في الارتباط على أنه حاجة أولية، بنفس القدر مثل الحاجات الأخرى المتموضعة ضمن سجل حفظ الذات،كما أن آلية الارتباط تحتا ج إلى طرف آخر لتفعيلها وبهذا تصب ضمن السجل اللاّجنسي (سجل حفظ الذات)، لكن من جهة أخرى، إذا فكرنا في الارتباط على أنه حاجة من حاجات حفظ الذات، إذاً يمكنه مثل الحاجة البيولوجية في آلية الاستناد أن يُجَنَّس (يصبح ليبيديا) بشكل ثانوي.

شكل رقم (02): يوضح آلية الاستناد L'étayage حسب Freud

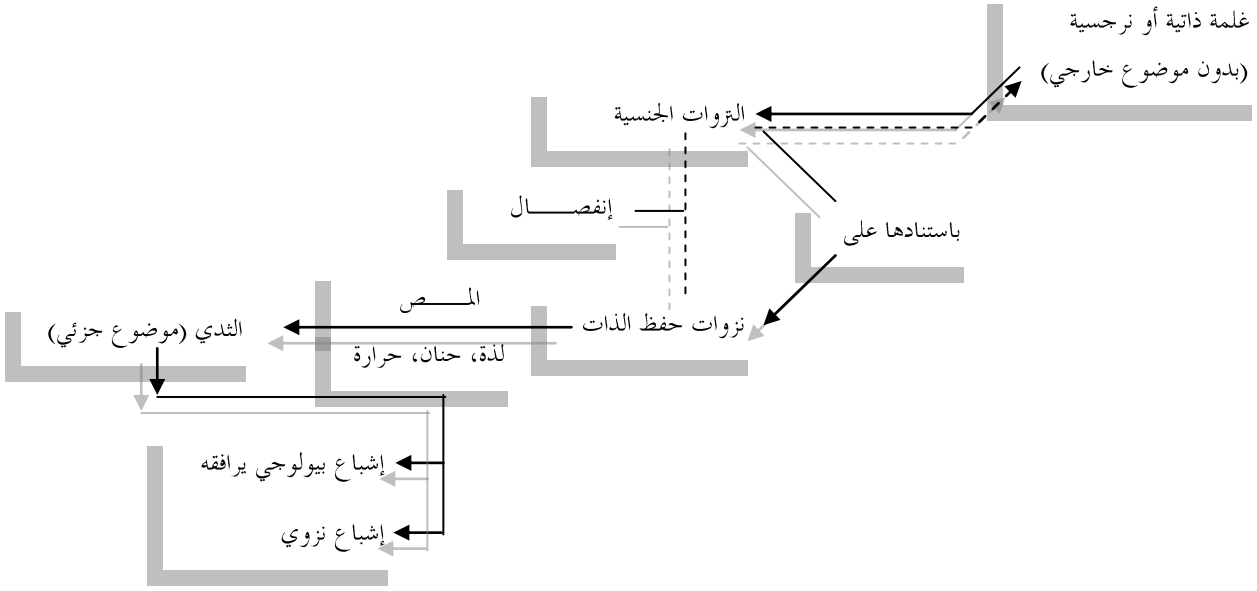

5-4-2- إزاحة النموذج الفمي الخاص بالاستناد إلى نموذج خاص بالارتباط

بمناسبة الرضاعات يكتشف الطفل لذة العلاقة (الراحة، الاحتكاك، دفء الأم ...)، لذة تبرز "كمكافأة" بالنسبة إلى إشباع الحاجات الفمية، وبالتالي يمكن من دون شك تخيل أنه إ ذا كان الارتباط يحمل بالمثل قيمة حاجة أولية، فالطفل بمناسبة استعماله لميكانيزمات الارتباط، سوف يكتشف بنفس الطريقة لذّات إضافية مرتبطة برد فعل واستجابة الشريك المتفاعل في مختلف أوضاعه، وكما قال S. Lebovici الارتباط إذاً: "سلوك أولي يقتضي كذلك روابط مع الجنسية".(Golse, 2001, pp.86, 87)

في الاستناد ، العلاقة التي من خلالها تمر النزوات الجنسية إلى الموضوع لتمنح الرضيع لذّات معزّزة لِ لذَة خفض إثارة الجوع، تضاف ثانويا على إشباع الحاجة البيولوجية الأساسية للمتعضي، وفي الارتباط تختصر

الطريق، تستند التروات الجنسية على خفض الإثارة التي يشكّلها الانفصال، وهذا يعني أن الرضيع كائن علائقي حتى قبل أن يولد (مثلما هو كائن حاجة هو كذلك كائن رغبة).

بمعنى أن مفهوم العلاقة يتعدى المفهوم الجنسي ولا تحصر فقط ضمنه، وإنما تترسَّخ على المستوى العاطفي أين يُدرَج ما يحدَّد تحت اسم الجنسية الطفلية، فالطفل لايبحث عن الجنس بمعناه الصريح، هو يبحث عن الاتصال والتفاعل، عن الأمن والاستقرار، لذلك نجده يستثمر كل رصيده العاطفي في رابط يحقق له كل هذا، والجنسية الراشدة بطبيعتها تحقق أقصى درجات الالتحام الممكنة، فإذا أضفنا عليها التوظيف العاطفي الطفلي، نستطيع أن نفهم طبيعة الرابط بين الطفل والمعتدي الجنسي.

5-4-3-الارتباط الذاتي L'Auto –Attachement

الطفل مهيأ بعدد معين من البرامج الداخلية للارتباط، لكنه مجبر على العودة إلى الآخر حتى يتمكن من تفعيلها والاستفادة منها، ومن هذا المنطلق يمكن التأكيد كذلك على أن الارتباط يندمج في سجل حفظ الذات وهذا يؤدي إلى تمرير – في صمت– جميع حركات الارتباط الذاتي L'auto – attachement التي يستطيع الرضيع لعبها مبكرا على مستوى مسرحه السلوكي الصغير (جسده) ، من خلال ضم اليدين، ضم الرجلين، اتحاد اليدين مع الفم...، وانطلاقا من هذه السلوكات، ينمو حسب Esther Bick، G. Haag مفهوم "التماهيات ضمن الجسدية" Les identifications intra-corporelles المؤسَّسة على التمييز الوظيفي المبكر بين نصفي جسد الرضيع (واحد ممثّل لوظيفة الأم والآخر ممثّل لوظيفة الرضيع).

وحتى وإن كانت هذه الحركات للارتباط الذاتي تتقلد أوليا مكانة معادلة رمزية ، بدلا من مكانة هلاوس بدائية ذات بُعْد غلمي ذاتي حقيقي، لكنها لا تستمر طويلا حتى تتموضع ضمن سجل العلاقة وتحت ختم الجنسي بالمعنى الواسع. (Golse, 2001, p. 88)

لذلك عندما يتم هذا الارتباط الذاتي ضمن فضاء آمن ومستقر وواسع، سواء في حضور الأم التي عادة ما تفسرِّ هذه الحركات كتفاعل معها وبدورها تستجيب لها، أو في حضور ما يدل على استمرارية وجودها، سوف يستكشف الطفل جسمه ضمن دفء عاطفي يساعده على تشكيل الصورة اللاشعورية عن جسمه انطلاقا من هذه الإحساسات اللمسية، أما في حالة الانفصال فقد تترجم هذه الحركات طلبا للارتباط، بحثا عن الآخر الذي عليه يستند الشخص ويعزِّز إحساسه بالوجود والاستقرار، وكثيرا ما تلازم بعض هذه الحركات الأطفال وحتى الراشدين، بشكل دائم أو أثناء لحظات التوتر والخجل،كضم اليدين، تشبيك الأصابع أو ضم الرجلين، وجمي عها تترُجم طلبات للارتباط الذي يعزِّز طاقة الشخص ويدفعه إلى الأمام.

إذا فالارتباط الموصوف من طرف bowlby يمثّل بعمق هذه الدفعة المذهلة نحو الآخر التي تنعش فورا الرضَّع، دفعة تصبح سريعا ليبيدية، لذا وضمن الارتباط، تصوُّر الجنسي– الذي غالبا ما يُختزَل ضمن معنى الجنسي التناسلي أو ضمن معنى غلمي أضيق – يأخذ معناه الواسع، لذلك من الصعب جدا إقصاء الارتباط من السجل الجنسي.

شكل رقم (03): مخطط يوضح سيرورة الإرتباط

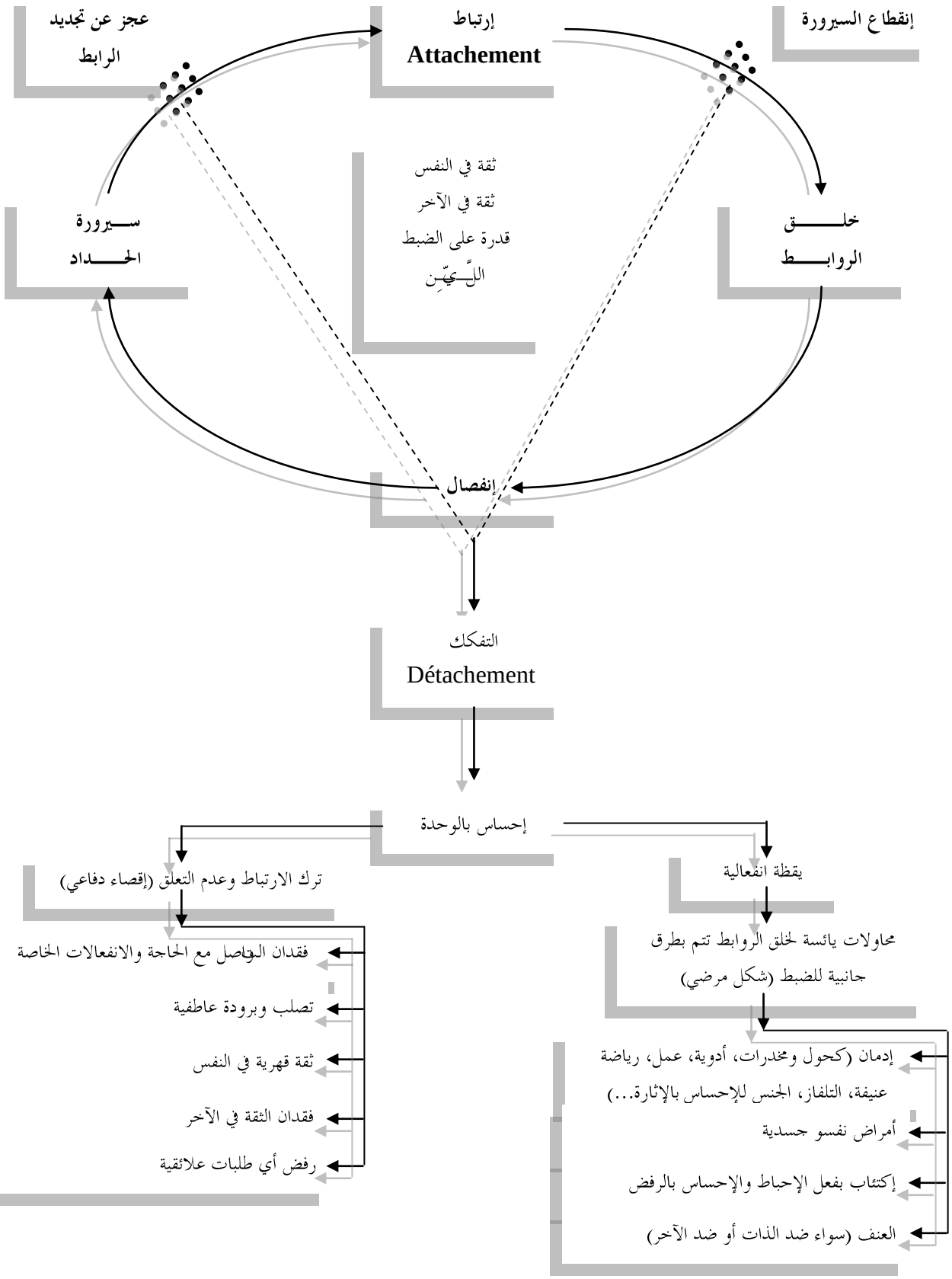

6- كفاءة الوظيفة الوالدية

الوظيفة الوالدية تعني مجموعة من التعديلات النفسية لدى كل أم /أب بقصد توظيف طفل والا رتباط به ليس فقط على المستوى البيولوجي وإنما كذلك على المستوى النفسي، لذلك عرّف Stoléru (2000) الأمومة على أنها: "مجموعة منظمَّة من التصورات العقلية، العواطف، الرغبات والسلوكات للأم في صلة مع طفلها، الذي يكون ضمن حالة المشروع المنتظر على مدى الحمل أو الذي قد ولد". (Delion, 2007, p. 12)

فالأمومة إذًا ليست غريزية بقدر ما هي تاريخية، تأخذ معنى ضمن بناء تاريخ الطفل، فالأم ليست بالضرورة تلك التي تلد الطفل، ولكن هي تلك التي تستجيب لحاجات الطفل منمِّ ية بذلك البعد الرمزي للرابط، وخالقة كذلك قطبا من الحواسية La sensorialité الذي يُحدث آثارا ذكروية للقاء الخصب، فيشكِّ ل الطفل الأنا-البشرة (D. Anzieu) ليكون مصدر الجسد النفسي في طور البناء، وكثيرون هم من تناولوا الروابط الأولى الواعدة بالحياة، بالحب، بالنرجسية، بالذات وبالآخر، فمثلا نجد Stern (الانسجام العاطفي L'accordage affectif)، Bion (الوهم الأمومي La rêverie maternelle) وWinnicott (الجنون الطبيعي La folie normale).

خلال هذه الحالة الأولية , يلعب الأب دور الحاوي من أجل السماح للأم بهذا العمل من التطابق وليكون دعامة لِوَهمها، فهذه القدرة على أن تكون راشدا منتبها وراع، جسم يختبر وينقل هذه الخبرة، يسمح فيما بعد للطفل بأن يصنع انطلاقا من هذه المادة الخام مادته النفسية، إنه من خلال خبرة هذا التواصل الخارجي معه، الذي يأخذ الطفل وعيا به على مر الخبرة العلائقية المعاشة، أين ينبني، يتشكل ويعيش كمتمايز .

(Marinopoulos, 2007, pp. 20 -23)

Françoise Dolto في مؤلفها "Lorsque l'enfant parait" أكدت بأن الطفل ومنذ ولادته يتدخل الوالدان في محيطه الداخلي ونموه النفسي، كذلك الوظائف الأمومية والأبوية ليست متساوية وإنما متكاملة، ففي الشهور الأولى من حياة الطفل، الوظيفة الأمومية هي التي تقوم بالعناية، بالارتباط وبالاستقرار , تهيئ الأمن القاعدي وتدخل إيقاعا من الحضور والغياب، في حين الوظيفة الأبوية لا تكتفي بأن تشهد الدور الأمومي، إنها هذا الثالث الذي يُدخل مباعدة تدريجية بين شخص الأم والطفل، مرتكزا على رابط الحب الذي يجمعه بزوجته رابط مشترك وموجود قبل الطفل، مرتكزا كذلك على العلاقة مع طفله، الأب يقترح قطب تخليص وتحرير بالنسبة للعلاقة الثنائية وإمكانية مساحة نفسية وانفتاح على العالم. (Monnoye, 2005, p.12)

إذًا الوظيفتان الأمومية والأبوية متكاملتان ومتلاحمتان، فالطفل منذ ولادته يَهْرَب إلى هذه المرأة وإلى هذا الرجل، وكوظيفته في الحياة، فالرجل دعامة المرأة في سيرورة أمومتها، يهيئ الالتحام ويشجع للانفصال.

Helène Deutsch (1945) في كتابها "علم نفس النساء""La psychologie des femmes" أكدت أن المهمتين الكبيرتين على عاتق المرأة باعتبارها أمًا , تكمنان في التأسيس بطريقة منسجمة لوحدتها مع الطفل وفسخها بطريقة كذلك منسجمة فيما بعد، وهذا العمل النفسي الأمومي طويل ومؤلم دائما (عمل

الخصاءات)، فكل شيء يحدث وكأن الأم يجب أن تمنح ولادتين لطفلها، فإذا كانت من خلال الوضع تعطي ولادة لرضيع فإنها من خلال نفاس مطول لعدة شهور تنشئ كائنا نفسيا.

والقدرة على أن تصبح المرأة أمًا (Claudine Geissmann) مرتبطة بقدرتها على النكوص إلى مرحلة كانت فيها هي رضيعا لأمها، مع كل ما يعنيه ه ذا في قصتها الخاصة، إذ يجب عليها التقمص مع الطفل الذي تحمله ولكن أيضا مع أمها كيفما استدخلتها، ليدخل لاشعورها، ماضيها وخيالها بقوة ضمن علاقتها الحالية ليثريها أو ليعيقها، وضعيتها الأمومية سوف توقظ في داخلها خبراتها الخاصة في مختلف المراحل لطفولتها المبكرة وهذه الصور المدفونة، المسترجعة والمنشَّطة تأتي لتُسقط على التصور الذي شكلته المرأة الآن عن الأم التي تكون وعن الطفل الذي تمتلك. (Geissmann, Houzel, 2003, pp. 219-222)

6-1- الوظيفة الوالدية كصاد للاثارات

جميع الرضع يُكتسحون بمثيرات متأتية من الداخل مثل الج وع أو من الخارج مثل البرد، فهم لا يفهمون المعنى منها ولا يستطيعون مواجهتها لوحدهم، واحد من أدوار الوالدين أن يقوموا بحمايتهم من هذه المثيرات وإعطائها معنى، وهذه الوظيفة الخاصة جدا التي تسيِّر ضبط الاثارات وتخفضِّها، يطلق عليها اسم صاد الإثارات Pare- Excitation (Gayda, 2007, p. 37).

إذًا الطفل ومنذ ولادته فريسة للقوى التروية ومصدر للاثارات التي لا يستطيع إلا جزئيا التحكم فيها، وهنا الأم سوف تلعب دور الحاوي (Bion) وصاد الاثارات حتى لا يتلقى الطفل مثيرات خارجية إلا تلك التي يستطيع دمجها، وحتى تخفَّض الاثارات الداخلية هي الأخرى ضمن حمام من العاطفة Un bain d'affect. (Gabel, 1998, p. 65)

وكثيرة هي الأعمال (D. Anzieu, D. W. Winnicott) التي أكدت على القطب الأمومي كنظام لصاد الاثارات، وحول تأثير فيض المغلفات (le Moi-Peau) في حالة الصدمة أين يتم كسر صاد الاثارات، لكن مَن يقول بكسر وتحطيم نظام صاد الاثارات لا يقصد بالضرورة صدمة ضخمة، وهنا نسجل أعمال M. Khan حول الصدمة الضمنية Le traumatisme cumulatif، والتي تُدرج أيضا ضمن عجز الوظيفة الأمومية عن التغليف (الاحتواء) الحامي. (Golse, 2001, p. 102)

هي صدمات خفية متراكمة ، تمارس فعلها بالتكاثف والتقادم، مسؤولة عن البنية الهشة للطفل التي تقلّ ص حظوظه في تطوير الجلد أمام صدمات عميقة كالاستغلال الجنسي.

7- آليات الدفاع النفسي

في مقال مؤسِّس للتحليل النفسي "دراسة حول نفاس الدفاع "، عرّف S. Freud (1894) كدفاع كل تصرف يستعمله الأنا Moi في الصراعات المحتمَل أن تؤدي إلى العصاب، و ميكانيزمات الدفاع يمكن أن تتقلد وظائف إيجابية أكثر منها سلبية، لأنها تدُل على أنها استجابات تكيفية أو سيرورات للضبط تسعى إلى إعادة التوازن النفسي.

يعرفها Steve Abadie - Rosier (2009) على أنها مجموعة من الميكانيزمات النفسية, عموما لاشعورية مستعملة من طرف الأنا Moi حتى يدافع عن نفسه ضد القلق المفرط الذي يمكن أن يثير بعض الصراعات النفسية. (Abadie-Rosier, 2009, p. 11)

وقد ذُكرت العديد من آليات الدفاع النفسي، بدءا على يد S. Freud (1915) الذي أدرج في "التروات ومصائر التروات" أربع سيرورات لمآل التروات الجنسية، تمثّل في ذات الوقت أشكالا للدفاع ضدها وهي القلب إلى الضد Le renversement dans le contraire (إرتداد الأهداف التروية من النشاط إلى الخضوع، وقلب المحتوى بتحويل الحب إلى كره)، الإرتداد على الشخص ذاته le retournement sur la personne propre الكبت والتسامي.(Freud, 1968, pp. 24, 25)

ثم ابنته Anna Freud التي حاولت وضع تسلسل زمني لمجموعة من الميكانيزمات الدفاعية، منطلقة من فرضية أن كل ميكانيزم دفاعي جديد يوجد ربما مخصصا من أجل التحكم في إلحاح نزوي محدَّد، والذي يتراءى مرتبطا بمرحلة خاصة من نمو الطفل، وبهذا أدرجت عشرة ميكانيزمات مختلفة هي الكبت Le refoulement النكوص La régression، التكوينات العكسية Les formations réactionnelles، العزل L'isolation الإلغاء الرجعي L'annulation rétroactive، الإسقاط La projection، الا جتياف L'introjection الارتداد ضد الذات Le retournement contre soi، التحويل إلى ضده La transformation en son contraire والتسامي La sublimation.(Golse, 2002, p. 45, p. 48)

بعض الباحثين الآخرين وصلوا إلى أكثر من سبعين ميكانزما ، والعديد من العلماء من بينهم M. Klein و George Eman Vaillant نشروا تصنيفات لميكانيزمات الدفاع، ويقترح Steve Abadie–Rosier التصنيف التالي :

1- الميكانيزمات التروية Les mécanismes pulsionnels وتضم: الكبت، التسامي، التعويض والتكوينات العكسية.

2- ميكانيزمات توَجُّه الموضوع Les mécanismes d'orientation de l'objet وتضم: الإزاحة الإبدال والانشطار.

3- ميكانيزمات تنكير الواقع Les mécanismes de travestissement de la réalité وتضم: الهوام الإنكار، الرفض والإلغاء.

4- ميكانيزمات توَجُّه الأنا Les mécanismes d'orientation du Moi وتضم: الإسقاط، التماهي الانفصام (التفكك) La dissociation, النكوص والإقلاب.

5- التنفيس L'abréaction أو التطهير الانفعالي. (Abadie-Rosier, 2009, p. 12)

وسنحاول التركيز بالتبسيط والتحليل على أهم الآليات التي يستعملها الأنا الطفلي خاصة في حالات الاستغلال الجنسي، والتي نحبّذ تسميتها بالسيرورات النفسية لما تحدثه من تحول جوهري ودائم في الشخصية

فليست مجرد آليات آنية وقتية للدفاع أمام الصدمة، بل تتحول تدريجيا وفي صمت تبعا للتشكيل الهندسي -إذا صح التعبير- الداخلي الذي تخلقه تكيفا مع الوضعية الصدمية إلى شكل في الوجود ونمط للحياة.

7-1-الآليات الموظفة من طرف الأنا الطفلي

7-1-1-الإغماء

يعتبر الإغماء انهيارا كاملا للأنا استجابة للصدمة، حيث يتخلى الأنا عن وظيفته الرئيسية وهي الوعي، مما ينتج عنه عدم القدرة على إدراك تهديد الصدمة أو التصرف حيالها، وبهذا العجز عن الإدراك، يمتنع الفرد عن التعرض لمزيد من تهديد المثيرات (**س.بلوم جيرالد ، 1995، ص.121**). وغالبا ما يكون فقدان الوعي الاستجابة السريعة للطفل ضحية الاستغلال الجنسي مباشرة أثناء الحدث، وهذا يعود من جهة إلى عنف وشدة الصدمة الملاقَاة ونوعيتها المستغرَبة التي لا تحمل تصورا مسبقا، ومن جهة أخرى إلى عدم نضج الأنا الطفلي .

7-1-2-الإنكار La Dénégation

ميكانيزم دفاعي أين إنتاج فكرة أو إحساس يجد أصله في اللاشعور، تُترجَم لفظيا ويستدل عليها في الواقع دون أن يعني هذا تعرف الشخص عليها كتابعة وخاصة به، وحدها رمزية هذه الفكرة تظهر في شعور الفرد (Abadie – Rosier, 2009, p.19). ويرى S. Freud (1925) أنه : "من خلال رمز الإنكار، الفكر يتحرر من حدود الكبت ويُثرى بمحتويات، أين لا يمكنه المرور من أجل إكمالها".

A. Freud (1936) في "الأنا وميكانيزمات الدفاع " " Le Moi et les mécanismes de défense " استعملت مصطلح النفي La négation بمعنى مماثل لمفهوم الإنكار، فالطفل يختبر الكثير من الألم لتمييزه الهوامات عن الواقع، الواقع الداخلي والواقع الخارجي ينفصلان تدريجيا حتى يتموضع الحد بين الخارج والداخل وخوف الطفل الصغير دائما معاش من طرفه على أنه خوف واقعي أمام أخطار خارجية، وبالتالي يستطيع تحديد مصادر خشيته والبحث عن السيطرة على خوفه بالعودة إلى ميكانيزمات متنوعة.

(Golse, 2002, p. 38, p. 46)

7-1-2-1-النفي من خلال الهوام La Négation par Le Fantasme

إن "أنا" الطفل الصغير يعيش تبعا لمبدأ اللذة ويلزمه زمن طويل حتى يتعلم تحمل الألم، لذلك يرفض الإقرار بجزء من الواقع المزعج ويبدأ في الانحراف عنه فينفيه ويبدّله بأحداث خيالية متعارضة معه تماما، وعندما ينجح هذا التحول يصبح الطفل بفضل هواماته فاقد الحس بالواقع المطروح، فيُفلت الأنا من القلق ولا يعود بحاجة بعد الآن إلى أن يلجأ إلى تدابير دفاعية أخرى، وليس من السهل تحديد الوقت الذي يفقد فيه الأنا إمكانية إلغاء كميات كبيرة من الألم الواقعي بواسطة الهوامات, فحلم اليقظة يستمر في لعب دوره حتى بالنسبة للراشد.

(**فرويد آنا ،1987، ص. 52، ص ص. 57، 58**)

7-1-2-2- النفي من خلال الأفعال والأقوال La Négation par Actes et Paroles

يُستعمل النفي من خلال الأقوال والأفعال أقل لدى الأطفال من النفي بالهوام لأنه يتطلب نوعا من المشاركة من المحيط (Golse, 2002, p. 46). وللتوصل إلى تحويل الواقع يستخدم الأنا الموضوعات الخارجية الأكثر تنوعا، وغالبا ما نحصل على نفس هذا النفي للواقع في ألعاب الأطفال إجمالا، والكثير من الهدايا المقدَّمة من الراشدين تولّد هذا الوهم، فالعصا والبذلة تصوِّر للصبي الصغير الرجولة، القطارات والسيارات وكل ألعاب البناء تستخدم لوهبه إمكانية التسامي ولتزويده بالفرصة لأن يتخيل بسرور أنه يحكم العالم، كذلك الدمى، شنطة يد صغيرة ومضلة شمسية صغيرة يُدَعمون عند الصبَية الفكرة بأنها سيدة، وغالبا ما نؤكد للطفل بأنه أصبح الآن كبيرا، وبأنه -استخفافا من الواقع- أصبح الآن بنفس قوة أبيه، وقد يحدث أن يستحوذ بعض الأطفال على صريغ التعزية هذه وأن يستعملوها بشكل منمَّط لوصف ما هو مؤلم، فلا يتوصل الأنا بفضل النفي إلى إدراك الانطباعات المؤلمة المنبثقة من الخارج، لأن النفي لا يستهدف الحياة الغريزية وإنما العالم الخارجي الذي يصدر عنه الإحباط. (**فرويد آنا ،1987، ص ص. 61، 62، ص. 65**)

7-1-2-3- انقباض (انكماش) الأنا La Rétraction du Moi

أمام خطر خارجي يه الأنا يمكنه أن يحدَّ من نشاطاته وينغلق على نفسه ضمن موقف سلبي خاضع، هذا الملاذ إلى الانكماش هو مختلف عن الكف العصابي L'inhibition névrotique الذي يسعى إلى النزاع ضد خطر داخلي، بينما هذا الميكانيزم الدفاعي يعود إلى رد فعل الأنا الجد ساذج لدى الطفل ضد مثير خارجي (Golse, 2002, p.46). فبدلا من أن يدرك الأنا الانطباع المؤلم ثم محوه بسحب التوظيف، يبقى حرا في تجنب الوضعية الخطرة، وهكذا يستطيع الهرب متجنبا حقيقة كل فرصة لأن يتألم.

7-1-3- الرفض Le Déni

وصف Freud (1924-1938) الرفض من طرف الذكر الصغير للإقرار بغياب القضيب لدى الفتاة، رفض محفزّ من خلال التوظيف الرمزي المفرط للقضيب والطابع غير المعقول لمجرد كون الأم – باعتبارها شبيهة بالذات وكائن جدير بالتقدير– أن تحرم وتجرَّد من القضيب، هذا الرفض طبيعي لدى الطفل قبل المرحلة التناسلية القضيبية ولكنه يجد صدى في التيمية Le fétichisme. (Abadie – Rosier, 2009, pp. 19, 20)

ويتمثل في إقصاء تصور مزعج ليس بمحوه (الإلغاء) أوبرفض الإعتراف به كمتعلق بالذات (الإنكار)، وإنما من خلال رفض واقع الإدراك نفسه المرتبط بهذا التصور.(Bergeret, 1995, p. 102)

7-1-4- الإلغاء L'Annulation

هو الإبطال لفعل، كلمة أو فكرة تعتبر ذميمة وجديرة بالعقاب، إذا من أصل صراع نفسي، ويتم ذلك من خلال الأفعال والممارسات الطقوسية أوالاستغفارية، أين قوة وصرامة العقاب تؤدي إلى محو وإلغاء – بشكل نسبي– الموقف المحكوم بأنه ذميم والجدير بالعقاب. (Abadie – Rosier, 2009, p. 20)

ويعتمد ميكانيزم الإلغاء على الاعتقاد السحري بأن الفكرة أو الرغبة غير المقبولة يمكن إلغاؤها من خلال أداء فعل ما، وبهذا يشترك الإلغاء مع التكوين العكسي في أن الفكرة الم ضادة يتم نقلها إلى الشعور، لكن الإلغاء يتجاوز مجال الاتجا ه إلى الأفعال الواقعية، ومن الممكن أن يتكون الدفا ع من الدافع لتكرار الفعل غير المقبول والهدف هو التحرر إلى حد ما من المعنى اللاشعوري المؤ لم. (س. **بلوم جيرالد، 1995، ص ص. 104، 105**)

مثلما هي إجبارية التكرار، أين الفعل هدفه التحكم في الأ لم ثم التحرر منه من خلال إلغائه، بعد ألا يصبح للتصور أو الفعل أي أثر نفسي نتيجة التعود عليه بفعل التكرار.

7-1-5- العـزل L'Isolation

يشير العزل إلى العملية التي بها تُحرَم ذكريات الانطباعات غير السارة من روابطها الانفعا لية، ويهف الفصل بين الفكرة وبين الانفعال المصاحب لها باستخدام شحنة مضادة، وهكذ ا يمكن للفكرة نفسها أن تدخل الشعور بينما تضل الدلالة الانفعالية لها مكبوتة، وذلك التقسيم للأفكار إلى وحدات مستقلة قد يتم إنجازه بواسطة العزل في الزمان أو المكان أو من خلال تقسيم الإدراك ككل. (س. **بلوم جيرالد ،1995، ص ص.101، 102**)

فبواسطة العزل تقُمع أو تثُطر الترابطات الموجودة بين التصور الصدمي والعاطفة المرافقة له، وحتى وإن استمر بروز التصور الصدمي فلن يكون له نفس الأثر على النفسية لأنه حُرِم من العاطفة وعُزِل بعيدا عن الوعي.

7-1-6- سيرورة الانشطار Le Processus du Clivage

هو سيرورة من خلالها بنية مادة ما تفقد تكاملها وتستبدل ببنيتين جزئيتين أو أكثر، ويميز بين:

7-1-6-1- انشطار الموضوع Le Clivage de L'Objet:

أين الموضوع في آن واحد يُصبغ بعواطف الحب والكره، فيُخلق وه م وجود موضوعين متمايزين، واحد جيد والآخر سيء. (Abadie – Rosier, 2009, p. 18)

7-1-6-2- انشطار الأنا Le Clivage du Moi:

أين جزء واحد ناتج يستشعر على أنه الذات. (Lévy – Soussan, 1994, p. 80)

ويرى S. Ferenczi (1932) أن التجزؤ داخل الأنا La fragmentation dans le Moi تكويني للصدمة، وفي نفس الوقت الدفا ع الأول ضدها، حيث قال : "خلال عذاب نفسي أو جسدي ننقسم إلى أجزاء لا أتأ لم بعدها أبدا، أتوقف حتى عن التواجد، الكل على الأقل مثل أنا Moi إجمالي، فعندما كرة تتفكك إلى مئة كرية صغيرة، يزداد السطح مئة مرة، بحيث تستحق أقل بكثير من الأ لم مقارنة مع وحدة السطح".

وارتأى S. Freud (1932) إلى المسارات التي يتبَّعها انشطار الأنا، منطلقا من كون الصدمة تُح دث كسرا يحمل النفسية على الدفا ع، لكل شيء يحدث وكأن بلورة سقطت وفي تحطمها تنكسر تبعا لتوجهاته ا للانشطار إلى أجزاء، أين التحديد، مع أنه غير مرئي، إلا أنه قد تمَّ من قبل خلال بنية البلورة التي تمثل الأنا، وكل فرد يفاوض بشكل مختلف حسب الخطوط الخاصة لكسره واقتحام الصدمة له. (Godard, 2003, p. 34)

أي أن الانشطار يحدّ ده مدي متانة ورمزية الروابط العلائقي ة المبكرة للطفل، التي تنسج البنية القاعدية وتسمح له بالحفاظ على خلفية متماسكة يعود إليها ليلملم أجزاءه من جديد.

Claude Nachin (2007) محلّلا لمفهوم الشبح النفسي Le fantôme psychique ميزّ بين شكلين لانشطار الأنا:

7-1-6-2-1- الانشطار الوظيفي Le Clivage Fonctionnel

جميع خبراتنا الجديدة تستدعي بعض الزمن من الارصان قبل أن تتمكن من أن تُجتاف، وبالتالي إثراء الأنا لذا أثناء فترة التحول هذه، يُستعمل الانشطار الوظيفي للأنا، حيث يركد المشْ كِل داخل جزء من الأنا، بطريقة نستطيع من خلالها الاستمرار في نشاطاتنا الأخرى بأقل قدر ممكن من الاضطرا ب الذي يُحدِثه المشكل سبب المعاناة، هذا الانشطا ر الطبيعي نفيذ وغير منيع، بحيث نستطيع العودة إلى مشكلنا أثناء الأوقات الحرة أو أثناء الليل.

7-1-6-2-2- تجويفات وسط الأنا Les Cryptes au Sein du Moi

في المقابل اكتشف كل من N. Abraham و M. Torok انشطارات مقفلة داخل الأنا قاما بتسميتها "تجويفات وسط الأنا"، تعود إلى فقدان موضوع الحب، وأين الفقدان لا يمكن أن يُعترَف به كفقدان بسبب سر متقاسم قبلا بين الموضوع والشخص، وهذا السر يمكن أن يقوم على نشاط جنسي غير شرعي، جنحة أو رؤية جريمة مثلا، وبين الانشطار الوظيفي للأنا والتجويفات Les cryptes، يتموضع مشكل انشطار الأنا الدائم المرتبط بترسبات الحداد الصعب حتى دون أن تتسم بأسرار مخزية، ولكن مع مرور الوقت، مرَّ ات الحداد التي لم تتم، تصبح في حد ذاتها أسرارا يعجز الشخص تدريجيا عن استحضارها، فالانشطا ر الدائم للأنا ورفض جزء من الواقع المصاحب له يكون فعالا بشكل سري. (Nachin, 2007, p. 17)

هي الصدمات الخفية التي تترسب تدريجيا لتكون فاعلة من خلال تراكمها، و قد تناولت F. Dolto بشكل مختلف وضعيات التفكك العائلي، الطلاق، التبني، لتحدد بشكل أفضل رهانات الانفصال و أهمية الروابط العلائقية، فالانفصال ليس مسألة أمكنة أو أجسدة منفصلة، ولكن على الأرجح هو ما يُحتَفظ به في الذات من الآخر المنفصل لأنه حاضر. (Hassoun, Spielmann, 1995, p. 86)

فمن السهل جدا التفكير بأن الطفل سوف ينسى، بأن لا شيء سوف يبقى م ن خبراته المؤلمة، لكن على العكس تماما، فا لذاكرة الجسدية هي مقدمة المعاناة الإنسانية، والآلام يمكنها أن تسترسل في الذات كأشباح Fantômes تلازم حجر الأطفال الخاوية والجدران السميكة، فالنسيان الطفلي موجود ولكن هذا لا يعني بأن لا شيء بعَدُ سيتواجد من هذه الخبرات المؤلمة. (B. Robert- Ouvray, 2003, p. 171)

وعندما تكون الصدمة جد مبكرة، الطفل لا يتوصل إلى إدراك إذا كا ن ما قد لحق به متأت منه أو من العالم الخارجي، وهذا ما يُحدث إحساسا أوليا بالذنب، بمعنى إحساس جد مرسَّخ بأنه إذا كان والداه (المعتدي)

غير ملائمين فهذا بسببه (Berger, Bonneville, 2007, p. 24). وهذا الإحساس بالذنب المجتاف يسمح بالاحتفاظ بالعلاقة مع المستغل، فجزء من الأنا تدفن فيه الخبرة المؤلمة والجزء الآخر يُبقي على رابط العلاقة، وقد أكد C. Nachin بأن الأشخاص حاملي أو من يلجؤون إلى انشطار الأنا، يرفضون وجود الواقع الصدمي الذي يدفن في المنطقة المنشطرة La zone clivée، ويرفضون في نفس الوقت معاناته م النفسية المرتبطة بما قد فقدوه ومن هنا تحدث كل من N. Abraham وM. Torok عن الكبت الحافظ Le refoulement conservateur في منطقة من الأنا، بمعنى إقامة والحفاظ على الانشطار ضمن الحدود أين مجموع الذكريات، الصور والكلمات المتعلقة بدراما الحدث تتواجد مصانة، محافظ عليها مع أمل أن يعاد إحياؤها يوما ما.

لكن أثناء لحظة الدراما، الانشطار يكون في نطاق العلاج الذاتي L'auto thérapie من أجل تفادي الانهيار النفسي الكامل، فيما بعد، هذا التصرف الدفاعي م ن أجل الحفاظ على الانشطار يتضح أنه مكلف جدا يُحرم الشخص من اختبار واحدة من أهم الخبرات في حياته، ويجبره على العدول عن كل ما قد يُذكّره بها مقلصا كذلك شيئا فشيئا لإدراكه للواقع (Nachin, 2007, p. 18). لذلك لا يبق للطفل المصدوم سوى اللجوء إلى سلوك الانكماش والتقوقع على النفس، عندما يعجز عن إيجاد معنى لما اختبره لدى الآخر، هذا الأخير الذي يُعزِّز سيرورة الانشطار بتفضيله للصمت، لردم الحقائق، للتناسي والمضي قدما، دون نبش وترجمة ما تحويه هذه الأجزاء المنشطرة.

Selma Fraiberg (1983) في مقالها "أشباح داخل غرفة الأطفال Fantômes dans la chambre d'enfants وصفت كيف أن المآسي، صدمات من الماضي مستبعدة من الذاكرة، تأتي لتلازم الحاضر وغالبا ما تتكرر من جيل إلى آخر (Ansermet, 2002, p. 240). وقد تحدث C. Nachin في هذا السياق عن هوامات الإدماج Les fantasmes d'incorporation، أين يُظهِر العميل أعراضا مشابهة لتلك التي تحضر لدى بعض المرضى قبل وفاتهم، بأن يحس أن شيئا ما يتحرك داخل دماغه، لذلك حسب C. Nachin, أطفال الآباء الناقلين لانشطار الأنا، سوف يكونون في مجابهة منذ ولادتهم مع الإحساس بمنطقة متعذرة ضمن إدراكهم لنفسية أمهم وأبيهم.

لكن ما هو سرداب متعذّر بالمقارنة مع المحتويات المحدَّدة عن الأم والأب ، سوف يظهر كغلاف فارغ بالنسبة للطفل، أين الأحداث المخبأة ستسجل كثغرات داخل الهو والأنا الخاصين به وال لذين سيتطوران معا ومثلما الحياة النفسية ترتعب من الخواء، سوف يجرب الطفل ملئ هذه الثغرات بجميع المعلومات الجزئية التي يمكنه تلقيها قصدا، عن طريق الحركات والإيماءات من والديه الذين يحسهما كشاهد على معاناته، إذً ا سوف يطوِّر عملا نفسيا كاملا من أجل تجربة فهم والاعتناء بوالديه بذهن لا شعوري، على أن يصبح وا بدورهم أكثر تفهما واعتناء به، وبهذا يمكن للطفل أن يستحضر أعراضا غريبة، التي تشهد لتكوينه لشبح نفسي Un fantôme psychique. (Nachin, 2007, pp. 18, 19)

وهذا ما يماثل عمل الطمس La forclusion، أين هذه العناصر الناقصة لمرحلة من مراحل النمو يصبح من الصعب تقديمها بشكل صحيح فيما بعد، لذلك حسب M. Balint (1968) يُخلق في مرحلة مبكرة من العلاقة أم/طفل ما يمثّل عيبا دائما في البناء، وما يعر ف باسم "العيب القاعدي" "Le défaut fondamental" أين الأمهات اللاتي تعرضن للجرح يبحثن عن إصلاحه مع طفلهن، ثم مع المعالج، يبحثن عن إصلاح هذا الصدع المستحيل سده. (Boyer, 1983, p. 26)

فهناك دائما تفاوتات بين الراشدين والأطفال ، بين الكلمات التي تقال لهم والتي يسمعونها، الحركات التي نقوم بها والطريقة التي بها تُحسُّ هذه الحركات من قبل الطفل ، لذلك أصرت F. Dolto على ضرورة الكلام مع الأطفال حتى الصغار جدا منهم، يجب الحديث معهم بجدية لأن ما يوضع في الجسم يجب أن يوضع عن حق علينا أن نحاول وضع في كلمات كل شيء، حتى يتمكن الطفل من تكوين تصورات عقلية يستطيع نتيجة لها أن يرمِّز ويقول بدوره كلمات.(Hassoun, Spielmann, 1995, p.84, p. 86)

إذًا تتعلق كفاءتنا في الصمود أمام الصدمات الحالية وتجاوزها على قدرتنا على إعطائها معنى وإدماجها ضمن رصيد المعاني الذي نحمله، وقدرتنا هذه قائمة في الأصل على البناء التراكمي للمعاني المستخلصة من الخبرات السابقة، فكيف نستطيع أن نعالج الآن ما لم يُمتلك له تصور أو معنى فيما مضى؟ وكيف ندمج ما ليس له معنى ضمن ماله معنى ؟ إنها هذه التجويفات المظلمة في وسط الأنا التي سوف تمتص الخبرات المطلسَمة، لتزيد بذلك من حجم التصدعات القاعدية، والتي —أي هذه الخبرات المطلسمة — سيحاول الطفل من خلالها سد الثغرات مرمما بذلك عيب الوظيفة الوالدية، لذلك سنتحدث فيما يلي عن سيرورة الإقصاء الدفاعي.

7-1-7- الإقصاء الدفاعي L'Exclusion Défensive

Peter Fonagy (1993) في مقاله "تحديد الشبح داخل غرفة الأطفال" Mesurer le fantôme dans la "chambre d'enfants" "Measuring the ghost in the nursery " أخذ بعين الاعتبار قدرة الوالدين على تصور الحالات العقلية لطفلهم، هذه المقدرة على التفكير في سلوكاته الخاصة مثل تلك المتعلقة بالآخرين حُدِّدت من طرف P. Fonagy تحت تعبير الذات الانعكاسية Réflective Self أو القدرة على التأمل الذاتي، لكن إذا تمت تسوية هذه القدرة، إذا وُجد الوالد ضمن وضعية يتوجب عليه خلالها إقصاء من روائية سيرته الذاتية الانفعالات التي اختبرها على مر طفولته بالنسبة لوالديه، فإن قدرته على فهم انفعالات طفله وما يرتبط بها هي الأخرى تتم تسويتها، بمعنى تتلاشى، وهذا ما أطلق عليه J. Bowlby (1969) اسم الإقصاء الدفاعي L'exclusion défensive.

و أكد P. Fonagy على أن الأم عندما تعبِّر في المرآة عن عاطفة الطفل، فإنها تساعده على تنظيم عالمه الداخلي، كما تسمح له كذلك بتصور حالاته العقلية، وتمثيل الانفعالات من قِ بل الطفل يمكن أن يسمح له بالوصول إلى نوع من الضبط الانفعالي بالمعنى الذي قصده أيضا كل من J. D. A Parker, R .M Bagby, G J Taylor (1977) في كتاب "Disorders of affect régulation"، أي من خلال الحفاظ على الانفعالات

ضمن الحدود المحتملة، وبهذا، بفضل قدرة الأم على تصور عواطف الطفل، تقدّم له شكلا من الضبط الانفعالي La régulation émotionnelle. (Ansermet, 2002, pp. 240, 241)

إذا فالأم تقدم المعنى الذي يسمح بضبط الانفعال ضمن تصور ، وقدرتها على التماهي مع طفلها هي ما يعزّز هذا الرابط، لذلك تحدث Stern عن "الملاءمة" أو "الانسجام العاطفي" "Un accordage affectif" ضمن الثنائية المثالية أب/طفل، فإحساس الرضيع بذاته ينعكس من خلال الوالد في حد ذاته، الذي بالمقابل يصنع هويته الأمومية والأبوية ويكتشف من جديد نفسه كفرد / أب، وهذا بمثابة الولادة الثانية له.

(Marinopoulos, 2007, p. 22)

لكن في حالة إقصاء الانفعالات، وهذا كثيرا ما نجده في حالات الإسراف في السلطة أين لغة الوالد المستغِل طاغية الوجود ويُمنع إعادة تشكيلها، فالطفل لا يملك شيئا لقوله، الطفل الذي عادة بحاجة إلى الآخر من أجل معالجة الاثارات الجديدة، فهذا الآخر هو مرآته الخارجية، يقترح عليه تنظيمات فكرية يقوم الطفل بمنطلقها بالاختيار أولا، باستخلاص ماهو جيد بالنسبة له ويرمي الباقي، لكن عندما الاقتراح يختفي ويصبح حتمية، فِكر الوالد المفروض بالقوة يدعو الطفل إلى الالتصاق بالمعطيات الخارجية دون الأخذ بعين الاعتبار هذه الخبرات الداخلية، فأثر فقدان الذاتية (ضياع الشخصية La dépersonnalisation) الراجع إلى غسيل المخ، يمكن أن يصبح مُعجِّزا بشدة بالنسبة للطفل، فيصل إلى أن يعيش كآلة دون تفكير خاص، إحساس بالاغتراب يقتحمه والولوج إلى الواقع صعب جدا، ليستقر الخمول الانفعالي والعاطفي.

(B. Robert-Ouvray, 2003, pp. 176 ,177)

إن تماهي الضحية مع المعتدي عليها تسمح لها بكبت العاطفة المرتبطة بالخبرات الصدمية وكذلك أحاسيس الذنب المحتمَلة، فعندما يتلقى أب (راشد) معاملة سيئة أثناء طفولته الخاصة، ويتمكن بعدها من الاحتفاظ ببعض القدرة التبصرية الذاتية، فإن خطر إعادة إنتاج العنف من جديد يصبح مخففا، في حين الإقصاء الدفاعي وغياب عقلنة الانفعالات، يفتح الطريق أمام التكرار المتنقل عبر الأجيال. (Ansermet, 2002, p. 240)

إذا هذه السيرورة الدفاعية من إقصاء الانفعالات من الوعي تؤدي بالأب إلى سلب ذاتية الطفل، ويمكن أن تجعل المرور إلى الفعل جد ممكن، و قد ذكرنا قبلا، كيف أن الأشخاص الذين لا ينجحون في تمثيل عدوانيتهم خشية تسلط الأب عليهم أو تسلطهم عليه، قد يتحولون إلى معتدين جرَّاء خلل في إرصان معيشهم الصدمي بسبب عجزهم عن ضبط الاثارات التي تعتريهم، أو تلك التي يخضعون لها ضمن معاني يمكن تصورها وإدماجها كيف أن عدم تمثيل الرغبات الجنسية للراشد نحو الطفل، عدم قدرته على التصور الصحيح للإثارة ثم ضبطها يطرح أشكالا متعددة لترجمة هذه الرغبة لا شعوريا (البرودة العاطفية، العنف، تحويل الخزي وأخيرا المرور إلى الفعل)، لذلك دائما ما يلصق المعتدي تهمة الإغواء بالطفل نتيجة هذا التشوه في تمثيل الإثارة.

وبهذا يمكن اعتبار الإقصاء الدفاعي كمرحلة أولية بنائية في سيرورة التماهي بالمعتدي، يمارس فعله على الرابط العاطفي الذي يصل الطفل بوالديه، مما يسمح بنقل المعيش الصدمي عبر الأجيال من خلال تكراره أو خواء الوظيفة الوالدية من المعاني، فيبقى الطفل حبيس غرفة الأشباح إذا صح التعبير، حبيس التصرفات التي لا

يجد لها معنى أو تفسيرا، فكيف يرصن ما ليس لديه عنه تصور، هل سيقصي الخبرات المؤلمة ثم يرميها في غرفة مظلمة، منشطرة ويُخضع الجزء الآخر حتى يتمكن من الحفاظ على هذا الرابط أحادي القطب، يستقبل فقط، مما قد يجره إلى التماهي مع منشئ هذا الرابط كحل أخير للحفاظ على وجوده في العالم الذي سيطر عليه فيه هذا الآخر.

7-1-8- الشبح النفسي Le Fantôme Psychique

ميزَّ C. G. Yung بين اللاشعور الفردي واللاشعور الجمعي، وذهب إلى أن هذا الأخير هو أحد أكثر جوانب الشخصية كمونا، فهو يتكون من ذكريات كامنة موروثة عن الماضي الإنساني الذي يتضمن حتى التاريخ السلالي للنوع الإنساني، وكذلك الوجود الحيواني للنشوء النوعي .(**فيصل عباس، 1994، ص ص. 126، 127**) فلا عجب إذًا إذا تحدثنا عن الموروث النفسي الذي ينتقل عبر الأجيال، ولكنن ا سنتناول هنا الجزء من الموروث النفسي الصعب تحمله، أي ترسبات الصدمات النفسية المتراكمة عبر الأجيال.

N. Abraham تحدث عن "عمل الشبح داخل اللاشعور "، وقد عرَّفه على أنه عمل داخل لاشعور الشخص لسر مخزي (زنا المحارم، الإجرام...) لسلف سابق، بمعنى عمل يُحرَّض في لا شعور شخص ما من خلال علاقته مع أب أو موضوع جد مهم، حامل لحداد غير مكتم ل أو صد مة غير متجاوزة (مواجهة مع الموت ضحايا كارثة)، وحتى في غياب سر مخزي، فالإبقاء على حداد غير تام يصبح بالنسبة للشخص نفسه سرا على مر الزمن، فالأشباح النفسية تؤُصن بهذا عبر الأجيال، محدثة دائما اضطرابات في العلاقات بين الأهل والأطفال ولكنها تنبش درامات معاشة من طرف السلف. (Nachin, 2007, pp. 38, 39)

Marie – Odile Godard (2003) وجدت بأنه جراء صدمات الحرب والإبادة الجماعية، عمق الرعب المشترك بين جماعة إنسانية كاملة يعشِّ ش متشبثا بالطفولة، أين يتأسس مليا قانونه على الانتاجات الحلمية للمصدومين في مكان الصور الطفولية، وبهذا كل شيء يعاد تنظيمه حول هذه الصور الجديدة، ليحل عمق الرعب Le fond d'horreur المشترك مقترحا تصورات مشتركة أو فردية، محل العمق النفسي الطفلي Le fond psychique infantile المتكون من مجموعة من التصورات التي دائما في استعداد لأن تنظم أو تجاور تصورات جديدة على مر قصة الفرد.(Godard, 2003, pp. 189, 190)

وينقل السلف إلى الخلف وجَعهم غير المرصن سواء بالسرد الحي لخبراتهم الصدمية أو بالصمت القاتل غير المبرَّر عما يشعرهم بالخزي أو ما قد أوصدوا عليه المنافذ، لذلك يؤكد C. Nachin بأن العميل المستقبلي يولد عادة بعد موت هؤلاء الأسلاف، فعندما يتعرض الشخص لكارثة، يعمل لا شعوره على الانفتاح ويرجعه للتواصل مع الصور اللاشعورية البدائية لأمه وأهله، وعندما ما ينبثق عن ذلك يحمل إحساسات من القوة والحب يصل الشخص إلى امتلاك ما يحمل معنى الوحي (المرشِد) الذي سوف ينقذ حياته، لكن عندما يجد نفسه مبعوثا إلى صور لأهل متضرِّ رين أو مستبعدين، إذا لم يفقد حياته، فإنه بوجه خاص سوف يتعرض لتظاهرات الأعصبة الصدمية.

فالشبح النفسي هو ذلك المحرَّم الذي يُمنع الاقتراب منه، يحتفظ به ضمن منطقة منشطرة تعبُر عبر الأجيال لأنها فجوات تسجَل في لاشعور الأطفال كنقاط سوداء لا تحمل أي معنى، ومن صعوبات علاجه، الرعب من القيام بتحطيم ختم سر والدي وعائلي محافظ عليه بمشقة، لأنه حتى السر العائلي الذي يتضمن حزيا اجتماعيا لا يحدث أثر الشبح إذا تمكن من أن يكون موضوع مشاركة كافية للعواطف والكلام ضمن ا لحيز المهتم به، بشكل يسمح للجيل صاحب الشأن بأن يتم حداده وحتى لا يصاب خلفه. (Nachin, 2007, pp.39, 40, p. 47)

ومن خلال الرابط مع طفلها، تنقل الأم خبراتها المرمَّ زة، السعيدة منها والصدمية، ضمن قالب ثقافي شامل يمرَّر له عن طريق هذا الرابط الرواسب التي تحمله ا عن خبرات أمها هي والتي تتضمن بدورها رواسب خبرات السلف، وبهذا يحمل الشبح النفسي كذلك معنى الصدمات الخفية، أين الأشخاص الذين يتمكنون من البقاء يغلقون الباب على الماضي ، ليحضوا بحياة نوعا ما متكيفة و شرعية، لكن الجزء المنشطر لدى الأهل، المقصى دفاعيا والذي يحمل معيشا صدميا غير مرصن، حداد غير متمم أو أسرار مخزية يُ ستوجَب ردمها، كل هذا يُقل على شكل مساحات جوفاء وفارغة تثير قلق العدم والتلاشي.

7-1-9-الاجتياف L'Introjection والتماهي الاجتيافي L'Identification Introjective

يرجع مصطلح الاجتياف إلى Sandor Ferenczi (1909) في مؤلفه " الاجتياف والنقلة" "L'introjection et transfert"، وعنى به الامتداد الآسر للأنا نحو مواضيع خارجية , أين سوف يُدخل داخله الخصائص الملازمة لهذه المواضيع، و تعطي M. Kleine لميكانيزمي الاجتياف والإسقاط دورا تأسيسيا في تمييز الأنا عن الخارج، لكن A. Freud ترى بأن الاجتياف والإسقاط يقتضيان التمييز الكافي بين الأنا واللاأنا (العالم الخارجي), لذلك توقيت ظهورهما يكون متأخرا. (Golse, 2002, p37, p. 49)

والاجتياف كذلك متلازم مع التماهي لأن شخصية الفرد تتكون م ن خلال سلسلة كاملة من التماهيات فبالنسبة للرضيع، الإجتيافات الأولى تسمح له بالاحتفاظ أولا بصور عن نفسه وصور عن أمه، وبما أنه من غير المكن تلقي في الذهن الأشياء والأشخاص، تنوب عنهم الرم وز المؤسَّسة على آثار الإحساسات، الحركات والصور الأولى، فيما بعد يصبح الاجتياف سيرورة مؤسَّسة ضمن الشروط الطبيعي ة أساسا على اللغة اللفظية وعليه فشكل التفكير من خلال الحركات والصور التي تسبق وتصاحب دائم ا شكل التفكير اللفظي (بالكلمات) يجد أهمية خاصة عندما يصبح الاتصال اللفظي عاجزا. (Nachin, 2007, p. 10)

وهذا ماقصدت به Françoise Dolto ترميز الخبرات والصور من خلال اللغة، حتى يتمكن الطفل من الاحتفاظ بالصور في حال غياب الكلمات أمام صعق الصدمة، ومن ثم استرجاع الكلمات بليونة انطلاقا من هذه القاعدة المرمَّزة من الخبرات المشبَعة بالمعاني والتي تحافظ على تماسك الطفل، وهذا ما يحتل دورا امتيازيا في مقاربة الطفل للصعوبات التي يستشعرها.

والاجتياف قد يكون دفاعا ضد عدم الإشباع المتسَبب من خلال غياب الموضوع (Ajuriaguerra, Diatkine, Badaracco)، فهو يتضمن علاجا من خلال حضور مدمج مثلما في الحداد وخاصة المتعلق

بالميلانخوليا La mélancolie، أين الملامات التي يوجهها الشخص لنفسه (Freud) هي تلك نفسها التي في الواقع ليس لها الحق أن توجَّه إلى الكائن المحبوب. (Bergeret, 1995, p. 100)

وارتأى S. Ferenczi إلى أن الغواية تعاش كتماهي اجتيافي Identification Introjective، حيث قال: "إن ما يجُتاف هو في الواقع خاضع لمبدأ التنظيم العقلي الأولي ومحوَّل إلى هلوسة، الاعتداء يقطع وجوده، الطفل يبحث عن إيجاد الحنان الداخلي، خصوصا وأنه كذلك يجتاف أحاسيس الذنب المختبَرة من طرف الراشد المعتدي، لذلك تنمو الشخصية بضعف وبخور، تردُّ على ا لألم العنيف، ليس عن طريق الدفاع، وإنما عن طريق التماهي الحصر واجتياف ذلك الذي هدَّدها واعتدى عليها ". (Gabel, 1998, p. 13)

وهذا ما يأخذنا إلى صلابة الاجتيافات التأسيسية الأولى مع الوالدين ونوعيتها، وكيف أنه لا يبقى سوى الرابط مع المعتدي للطفل الذي لا يجد الحنان داخله إلا ذلك الذي يقدمه له المعتدي.

Bernard Lempert (1989) في كتابه "Désamour" تحدث عن اللاّحب كنظام تدميري قائلا : "اللاّحب هو نظام للتدمير، الذي في بعض العائلات يُترّل على الطفل ويُرغب في جعله يموت، ليس مجرد غياب بسيط للحب، ولكن تنظيمة مكان الحب لعنف ثابت مستمر، الذي لا يتحمله الطفل فقط ولكن أكثر من ذلك يستدخله, لتنوب الضحية عن عمل العنف الممارس عليها من خلال سلوك التدمير الذاتي".

(Hirigoyen, 1998, p. 55)

فالطفل يُصنع بادئ الأمر ضمن قالب معالجات الآخر له، ضمن هذه الخلفية، سواء هشة أو متماسكة، التي يعود إليها في حالة الصدمات النفسية والتي بالتالي تتحكم في إمكانية صموده وتجاوزه لهذه الصدمات.

7-1-10- سيرورة التماهي بالمعتدي Le Processus de L'Identification à L'Agresseur

التماهي بالمعتدي هو نموذج للعلاقة السادومازوشية (D.Lagache)، شكل من دفاع الأنا عندما تصبح جميع الحلول التكيفية الأخرى مستحيلة ، سواء في الصدمات الحادة أو المزمنة، وهي الوضعية التي يتوا جد فيها عدد هائل من الأطفال ضحايا المعاملة السيئة والاعتداءات الجنسية. (Delion, 2007, pp. 32, 33)

لذلك سنقوم بطرح هذه الآلية انطلاقا من نقطتين متكاملتين تختلفان في عمق التوظيف لها.

7-1-10-1- السيطرة والتكرار La Maîtrise et La Répétition:

A. Freud (1947) و D. W .Winnicott (1950) شرحا التماهي بالمعتدي من خلال السيطرة على الصدمة التي تعرضت لها الضحية والتي يمكنها توقع تكرار الاعتداء وأخذ احتياطات ضده، وترى A. Freud بأنه من أجل التحكم في قلقه ضد الخطر الخارجي، الطفل عندما يصبح أكبر بق ليل يلعب دور المعتدي مستعيرا لصفاته ومقلدا لاعتداءاته، وبهذا يتحول من مُهدَّد إلى مُهدِّد، ويمر من وضعية الشخص الخاضع إلى وضعية الشخص النشط، ومن هنا يلعب التماهي بالمعتدي دورا مهما في تكوين الأنا الأعلى، لأنه يتضمن اجتياف الملامة الخارجية وقلبها على المحيط قبل أن يصبح الطفل قادرا على توجيهها نحو نفسه، فيأخذ بهذا وضعية ودور الآخر الذي يلومه.(Golse, 2002, p. 47)

وقد وصف Spitz "لا" "Non" كمنظم نفسي ثالث واعتبرها كشكل أدنى من التماهي بالمعتدي، فذلك الذي يقول "لا" لما يرغب الطفل فيه هو كذلك من يسمح باستدخ ال حدود التنظيم ضمن الجماعة العائلية والاجتماعية، إنه التماهي مع ذلك الذي يضع الحواج ز –والتي بعيدا عنها– ليس من الجيد التجول دون أن يُسمح بذلك.(Delion, 2007, pp. 32, 33)

Gilbert Diatkine أكد على أن جميع الأطفال يقلبون –انتقاليا– في جميع ألعابهم وضعيات الخضوع التي تُلزمهم بها علاقاتهم مع الراشدين، لكن التماهي بالمعتدي هو تحول دائم في الشخصية دون مقارنة مشتركة م ع هذه الألعاب العابرة، ورغم أن البناء في العمق يبقى نفسه، إلا أن التماهي بالمعتدي يتعدى مجرد مرحلة ضمنية في بناء الأنا الأعلى، أو كآلية للسيطرة على الألم والإحساس بالضعف والانهزام الذي تحدثه الخبرات الصدمية، برمي هذه الأحاسيس على آخر (شخص، لعبة، موضوع انتقالي)، أو باللجوء إلى خير وسيلة للدفاع وهي الهجوم فالتماهي بالمعتدي سيرورة كاملة، طريقة وشكل للوجود والبقاء، لذلك سنتناوله من نقطة ثانية ألا وهي:

7-1-10-2- توظيف سيرورة التماهي بالمعتدي لدى ضحايا الاستغلالات الجنسية:

بالرغم من أنه قد تم تناوله من قبل العديد من العلماء، إلا أن دراسة هذه السيرورة النفسية قد أسهبت من طرف المحلل النفسي Sandor Ferenczi والذي في مقاله الشهير "اختلاط اللغة بين الراشدين والطفل " "La confusion de langue entre les adultes et l'enfant" (1933) وصف هذا الميكانيزم تحديدا ضمن إطار الغواية في زنا المحارم، حيث قال : "الغوايات في زنا المحارم Les séductions incestueuses تنتج عادة هكذا: راشد وطفل يتحابان، الطفل لديه هوامات لعبية (اللعب) مثل لعب دور أمومي بالنسبة للراشد، هذا اللعب يمكن أن يأخذ شكلا غلميا، لكنه يبقى رغم ذلك دائما على مستوى الحنان، فهو ليس كالراشدين الذين يحملون استعدادات نفسية مرضية، يخلطون ألعاب الأطفال م ع رغبات شخص قد بلغ النضج الجنسي، ويتركون أنفسهم يتمرنون على أفعال جنسية دون التفكير في العواقب".

ثم وصف S. Ferenczi سلوك وإحساسات الأطفال بعد الاستغلالات الجنسية قائلا : "حركتهم الأولى تكون الرفض، الكره، الاشمئزاز والتقزز، مقاومة عنيفة 'لا، لا أريد، جد قوي Trop Fort، إنه يؤلمني، أُتركني' هذا أو بعض الأمور المشابهة تكون رد الفعل الفوري، إذا لم يُكف هذا الأخير بسبب الخوف الشديد، فالأطفال يحسوُّن أنفسهم جسديا ومعنويا دون دفاع، شخصيتهم لا تزال ضعيفة جدا للتمكن من الاعتراض حتّ فكريا فالقوة والسلطة الساحقة للراشدين تردهم بُكْما ويمكنها حتى أن تفقدهم الوعي، لكن هذا الخوف عندما يبلغ ذروته يجبرهم على الخضوع آليا إلى إرادة المعتدي، ليصبحوا أهون رغباته، للامتثال والإذعان منتسبين نه ائيا وبالتماهي كليا مع المعتدي". (Gabel, 1998, p. 64)

لذلك يرى S. Ferenczi بأن الصدمة تترسب في غياب رد للموضوع على وضعية العجز، فالصدمة الجنسية تتحدد من خلال القلق (قلق آلي) مع استشعار الجراح والتصدعات المبكرة في صاد الاثارات والاتصال مع الموضوع، التي تصبح نرجسية بمجرد ما أن يصبح الترميز عاطفيا (يشحن بالعاطفة)، وأين الإشارة تكون الألم

النرجسي مع الحرمان العاطفي وإلغاء رمزي (فشل الدفاع وغياب التصور)، مما يستوجب حلولا طارئة ذات طبيعة ترميمية أين يسيطر قمع العواطف (الإنكار و النسيان). (Puyuelo, 2002, pp. 206, 207)

وبهذا يحمي الأطفال أنفسهم من الصدمة إذا استطاعوا أن يثوروا، لكن الخوف الذي يتملكهم هو أصل التماهي بالمعتدي، فالراشد في الأصل هو موضوع توظيف واعي وحن ون من قبل الطفل، لكن هذا التوظيف الواعي للحنان هو السلوك المتمظهر لتوظيف غلمي لا شعوري، إلا أن الراشد المستغِ ل يقوم بمعالجة هذا الرابط الغلمي اللاشعوري كرابط شعوري، فالطفل الذي يتحدث "كلام الحنان" " Le langage de la tendresse" يجيب عليه المستغل Le pédophile "بكلام الشهوة" "Le langage de la passion"، لذلك أكد Ferenczi بأن هناك اختلاطا في اللغة, ما يتواجد غالبا في ادعاءات المعتدين مدافعين عن أنفسهم ومستندين على كون الطفل هو الذي حرَّضهم, فهم لم يقوموا –حسبهم– إلا بإشباع رغبته.(Diatkine, 1995-1996, p. 22)

وبهذا يرى S. Ferenczi أنه : "عن طريق التماهي، نقول عن طريق اجتياف المعتدي، هذا الأخير يكف عن اعتباره واقعا خارجيا ويصبح داخليا نفسيا، لكن التغيير البليغ يُحرَّض في ذهن الطفل عن طريق التماهي الحصر مع الشريك الراشد واجتياف إحساس الذنب الخاص بالراشد ، فاللعبة التي كانت لحد الآن غير مؤذية تظهر الآن كفعل يستحق العقاب، وإذا الطفل نجا من مثل هذا الاعتداء، فهو يحس باختلاط شنيع بالمعنى الدقيق فقد شُطِر، هو في ذات الوقت بريء ومذنب "Innocent – Coupable" وثقته في حكم حواسه الخاصة تكسرت"، وعليه فالطفل الذي أُستغل يصبح الكائن الذي يطيع آليا، أو الذي يتعثر (يصطدم) لكنه لن يستطيع أبدا أن يقدم حسابا لأسباب هذا الموقف، إذًا "نعم" "Oui" الراشد تصبح شيئا يمكن أن يُنتزع من الطفل في أي وقت، التبعية تصبح خطيرة ومصدرا لسوء المعاملة.

ويؤكد S. Ferenczi أن: "ماهو مهم من وجهة نظر علمية ضمن هذه الملاحظة، هو فرضية أن الشخصية لا تزال –بضعف– تنمو، تردّ على الألم العنيف، ليس عن طريق الدفاع، وإنما عن طريق التماهي الحصر واجتياف ذلك الذي يهدِّدها أو ذلك الذي يعتدي عليها، وإنه الآن فقط أين فهمت لماذا عملائي يرفضون بعناد متابعتي، عندما أنصحهم بالتفاعل والرد على الضرر المتحمَّل من الألم مثلما كنت آمل، عن طريق الكره أو عن طريق الدفاع". (Gabel Marceline et autres, 1998, pp. 64, 65)

وهذا سبب فشل العلاج النفسي لهؤلاء العملاء ، والذي جعل S. Ferenczi يؤكد على واقع الغواية ويبوئها القيمة والمصداقية التي رآها، والمؤكَّدة من خلال واقع استمرارية وبقاء الرابط الرمزي بين الطفل والمعتدي، الذي يعود إلى عجز الطفل عن الدفاع وعن كره من ربطته معه هذه العلاقة الملتحم ة، مما يجعله يعود بادئ الأمر إلى أكثر وسائل الدفاع بدائية والتي تسمح بتعايش النقيضين، بتعايش الحب والكره.

فالخبرات غير المحتملة نفسيا هي جد متنوعة (Hayatt Williams,1984)، وكل مالا يمكن تحمله نفسيا يستمر تحت شكل تماهي في الحداد المرضي Le deuil pathologique، ما يؤدي إلى تماهي مع الموضوع المفقود الذي لا يمكن التخلي عنه، لذلك من خلال هذا الطريق أين الخبرة غير المحتملة تؤدي إلى التماهي مع المعتدي.

لكن هل يمكن للتماهي بالمعتدي أن يخلق دائما معتدي جديد؟

كان Freud في "العصاب، الذهان والشذوذ" " Névrose, Psychose et Perversion" قد ذكر: "هنا أين وجدت علاقة بين طفلين، وجدت الدليل بأن الصبي الذي في هذه الحالة يلعب دور المعتدي، قد تم إغواؤه من طرف امرأة راشدة، وأنه تحت ضغط الليبيدو المتيقظ قبل أوانه وبفعل قهرية الذكروي، هذا المراهق يحاول إحياء على الفتاة الصغيرة بالتحديد نفس الممارسات التي تعلمها من الراشد، وأميل إلى الاعتقاد بأن الأطفال لا يستطيعون العثور على مسلك أفعال الاعتداء الجنسي إذا لم يتم إغواؤهم من قبل".

(Ansermet, 2002, pp.72, 73, p. 119)

إذًا نقول أن المعتد ى عليه لا يصبح بالضرورة معتديا، لكن كل معتدي هو دائما ذلك الطفل الذي قد أُستغل وأعتدي عليه بشكل أو بآخر، وتحوُّل له من خاضع إلى نشط يستلزم تماهيه مع ذلك الذي لقَّنه أساليب الاعتداء, وبعض الحالات تصل إلى الافتتان المرضي في حب ومحاكاة المستغلين مثل مقلدي الجرائم المتسلسلة.

قد لا يكتمل التماهي بالمعتدي ليحصر في التجاذبات الوجدانية الأولى بين حب أو كره المستغل،كذلك حالة اختلاط معايير التمييز المعتمدة قبلا بين ما هو جيد وما هو سيء، وذلك بفضل تغيير ظرفي متعلق مثلا برد فعل المحيط المقرَّب ومدى تقبلهم للوضع ، أو إفشاء السر وخروج الألم من دائرة الصمت أو تدخل نفسي متخصص يسمح بتحويل مجرى السيرورات النفسية، كل هذا يسمح للطفل باسترجاع جزء من قوته والعودة إلى واقع الحدث متخليا عن آليات كالإنكار والانشطار، قاطعا سيرورة التماهي ومحرِّ كا لآليات أخرى تسمح له بإعطاء معنى وتصور لما مر به.

إذًا اكتمال سيرورة التماهي بالمعتدي ضمن الظروف النمطية للاعتداء الجنسي على الأطفال، هو ما يسمح بخلق معتدي مستقبلي بشكل أو بآخر، لكن تصدع هذه السيرورة من خلال ترجمة الألم المعاش وإعطائه معنى يسمح بإدماجه بما يتناسب مع خصوصية النمو النفسي والعاطفي للطفل، سيفتح أبوابا جديدة أمام الطفل ويجعل من التماهي بالمعتدي مجرد معبر مؤقت من أجل الصمود أمام عنف الصدمة، لأن التماهي بالمعتدي أصلا لا يقوم على المطابقة والتشابه فالراشد يوظف هوامه الجنسي الشعوري على حساب الهوام اللعبي اللاشعوري للطفل وإنما يقوم على فشل الدفاع.

7-1-10-3- بين التماهي الثانوي والتماهي بالمعتدي في حالة الاستغلال الجنسي:

ضمن الحالات التي أدرجها ، أكد S. Ferenczi (1932) أنهم حتى الأطفال الذين ينتمون إلى عائلات راقية وإلى تقاليد صارمة هم على الأغلب -عندما نتجرأ على التصور- ضحايا للعنف والاغتصابات، وهم سواء الآباء أنفسهم الذين يبحثون عن بديل لعدم إشباعهم بهذه الطريقة المرضية، أو أشخاص موثوقون الذين يستغلون جهل وبراءة الأطفال. (Gabel, 1998, p. 58)

إذا لاشيء مفاجئ في كون الطفل يتماهى مع جلاده، إنه راشد الذي لديه معه أسباب للقيام بالتماهي لكن يجب تمييز حالة التماهي بالمعتدي عن تلك الأكثر تعميما والمتمثلة في التماهي الثانوي L'identification secondaire مع الوالدين التي تنتج عن إرصان الصراع الأوديبي و إرساء تحريم زنا المحارم.

التماهي الثانوي هو تعبير أولي عن رابط عاطفي مع شخص آخر، فالصبي الصغير الذي يُظهر اهتماما خاصا بوالده ويتخذ منه مثلا له، هذا السلوك لا علاقة له بوضعية خاضعة أو أنثوية اتجاه الأب وعموما اتجاه الرجل (Freud, 2001, p. 187). قد يترع الطفل (Freud, 1921) لأن يصبح هذا الآخر " أنا/ الآخر"، أن يمتلك الآخر أو أن يمتلك شيئا منه مما يحقق نفس الإشباع. (Perron, Perron-Borelli, 1997, p. 359)

هو عكس الإسقاط، ميكانيزم لتنمية الأنا وضروري من أجل بناء الشخصية، فالتماهي (Freud 1923) لا يُحدِث فقط التخلي عن توظيف الموضوع، بل أيضا ترك الهدف الجنسي الملازم لمثل هذا التوظيف لذلك هو سيرورة لترع الطابع الجنسي، بمعنى تسامي ومسلك لتسوية الفقدان، ومن جهة أخرى هو نكوص نرجسي ضمن المنظور الفمي من خلال تحويل ليبيدو الموضوع إلى ليبيدو نرجسي. (Vibert, 2007, p. 21)

فالشخص يتشبَّه بمظهر أو سمة طبع شخص آخر يمثل بالنسبة له نموذجه ويجهد في تقليده، لذلك ينبني بمقتضى المطابقة والمشابهة مع مثال الأنا، سيرورة تدريجية تدوم لسنوات مع تعديلات متواصلة على مدى الحياة وغير ملاحظة لأنها تراكمية.

أمَّا التماهي بالمعتدي فهو تحول عظيم وشبه فجائي، يتأصل ضمن تناقض درامي مع الأنا، وقد أكد Claude Janin (1995) أن الموقعية الداخلية تترجَ م من خلال الانفصال بين الخارج والداخل للجهاز النفسي، لكن في وهن الموقعية الداخلية جرَّ اء الغواية الجنسية الواقعية للطفل، كل شيء يحدث وكأن الموض وع المكلَّف بهذا الفصل قد اختفى، وهذا الموضوع سيعاد بناؤه فقط من خلال التماهي بالمعتدي، إنه الأنا الأعلى الثقافي Le Sur Moi Culturel، ميراث الوظيفة الأمومية الحيوية، الذي يحدِّ د القيم والنماذج التي يجب أن يحتذى بها إذا أراد الطفل الانتماء إلى عائلته وجماعته يتبخر ويتلاشى ما كان يسن الحد بين السيئ والجيد، كيف لا، والممثل للأنا الأعلى الثقافي (الراشد) يسلك الآن سلوكا عنيفا كممثل للترات الجنسية والعدوانية.

فبالتماهي بالمعتدي يسلك الطفل وكأنه –رغم كل شيء– يبقى جلاَّده قادرا على تبيين ما يجب عليه القيام به، ويجهد بناء داخله هذا الموضوع الذي يُثبِّت القيم حتى وإن كانت هذه القيم منحرفة، وبهذا يمكن أن يصيب هذا العنف كل الجسد الاجتماعي، منتقلا كالعدوى ليس فقط من قريب إلى آخر وإنما من جيل إلى جيل، من خلال أثر التماهي اللاشعوري للضحية بالمعتدي عليها. (Diatkine, 1995-1996, p. 24, p. 27-29)

7-1-11- الكبت Le Refoulement

الترات غير المقبولة السائرة في علاقة صراعية مع الحوافز الشعورية تتسبب في إبعادها الفوري خارج مجال الشعور، أين الذكريات المرادفة للخزي والذنب تصبح غير موجودة أمام عيني الشعور، والإقصاء الإجباري لهذه الترات يستهلك كمية ضخمة من الطاقة دون أن ينجح نهائيا في محوها ويبقى دائما غير مكتم ل، لذا ينجم

التهديد في حال تسرب الذروات المكبوتة في مجال الشعور متحرِّرة، فالأحداث المدفونة جزئيا تنتهي بأن تبرز من جديد وتخلق القلق، ومن ثم هذه الذروات سوف تكبت مرة جديدة مؤدية إلى كبت الكبت Refoulement du Refoulement. (Abadie-Rosier, 2009, pp. 12, 13)

7-1-12- النكوص La Régression

النكوص هو آلية تسمح للشخص بمواجهة العلاقة الصراعية من خلال إعادته بشكل وهمي إلى مرحلة مبكرة من نموه نحو اللذة الطفلية، وبالتالي يرجع الليبيدو إلى حالة كان فيها مرادفا للتشجيع والمكافأة سواء كانت جيدة أو سيئة (Abadie - Rosier, 2009, pp. 22, 23). ويرى Freud أن ما يجذب الليبيدو نحو مسلك النكوص هي التثبيتات التي تركها في مراحل نموه. (Lévy – Soussan, 1994, p. 89)

7-1-13- التبرير La Rationalisation

التبرير هو تقديم أسباب معقولة لسلوك غير مقبول من الناحية الاجتماعية، ليضفي على سلوك الإنسان دوافع مقبولة لديه أو لدى الآخرين، مخفضًا بذلك من التوتر الناجم.(**عشوي مصطفى، 1988، ص. 119**)

7-1-14- التعويض La Compensation

يسمح للشخص باستبدال إح ساس غير محتمل (الدونية، الذنب) بإحساس آخر يكون معاكسا له وأكثر تقبلا (التفوق مثلا). (Abadie - Rosier, 2009, p. 15)

في كتابه "دراسة في سفلية الأعضاء ومعاوضتها النفسية " "Etude sur l'infériorité des organes et leur compensation psychique " Alfred Adler (1907) لخص نظريته حول الإحساس بالدونية في جملة "أن تكون رجلا، هو أن تحسَّ أنك دوني" "Etre un homme, c'est se sentir inférieur " .

(Favord - Charles, 1975, p. 72)

وبهذا يرى Adler أن الشخصية هي سيرورة إبداعية لذاتها، من حيث أنها تستطيع من خلال شعورها بالنقص ونزوعها التع ويضي إلى الكمال، أن تستوعب العا لم المحيط بها، وأن تخلق ظروف الوجود الفردي الشخصي، لذلك يرسم الطفل لاشعوريا مخططا للتخلص من ذلك النقص الذي يشعر به أثناء اصطدام ه بالعا لم الخارجي، مستعينا بالوهم كوسيلة وحيلة يستعين به ا الطفل للسير خلال فوضى الوجود، فيصدر التعويض عن ذلك الوهم الذي يخضع هو نفسه للرغبة في الأمن. (**فيصل عباس، 1994، ص ص.121, 122**)

إذا فالوهم هو عبارة عن تكوين نفسي في الإنسان يتخذه مرشدا في الحياة ويصب في دافع تقدير الذات وAdler يرى بأن عقدة النقص لها ثلاثة منابع مختلفة:

- **الدونية العضوية** L'infériorité organique: ويستشهد Adler بحالات كل من Beethoven (الأصم)، و Démosthène (اللجلاج) وMonet (رؤية سيئة)، الذين خضعوا لقانون التعوي ض فأصبحوا موسيقيا، خطيبا ورساما.

- **التدليل** La gâterie: الطفل المدلَّل بإفراط يظهر اضطرابات في سلوكه الاجتماعي.

- **الإهمال في التربية** La négligence dans l'éducation: الطفل المهمَل أو الممقوت (يتيم، طفل غير شرعي ...) يحس بأنه متروك وسيحمل الميل سواء بالقابلية للتثبيط أو بالسيطرة وإرادة المقدرة.

(Favord - Charles, 1975, pp. 72, 73)

ويرى Adler بأنه بقدر ما يضل الاحتكاك الاجتماعي للطفل ضيقا ، بقدر ما تتكون لديه مفاهيم للتفوق مقابلة للحس السليم، وارتأى إلى أن هناك طريقة أخرى مختلفة تماما، يلتزمها عادة الأولاد الذين عانوا تجربة لاذعة متعلقة بالموت، منذ وقت مبكر، فيرسمون خطة ليص بحوا مثلا أطباء ولاكتساب المعلومات بشكل جدي وذلك للاستمرار في البقاء. (**آدلرألفرد، برغسون هنري، فرويد سيجمند، 1976، ص. 82، ص. 84**)

وبهذا يمكن إسقاط نوعا ما مفهوم Adler عن عقدة النقص على حالات ا لأطفال ضحايا الاعتداءات الجنسية، من خلال تركيز العمل خلال التد خل النفسي على النسق الفكري للطفل، نساعده على استخلاص ما يمكن أن يعتقد به من ملكاته الداخلية الفردية، التي تسمح له انطلاقا من الاعتقاد بها بتحديد هدف ضمن مخطط إيجابي يبقيه صامدا ويسنده في سيرورة تحديد انبنائه، لأن أكثر ما يحتاجه الطفل ضحية الاعتداء الجنسي أ ن يستشعر ثقته بنفسه انطلاقا من انجازاته الفردية البسيطة، لأنه سبق وأن فقد ما كان سببا في انتهاك حرمته، فقد ثقته في الآخر.

7-1-15- التصريف/التنفيس L'Abréaction

يرى S. Freud بأن العذاب المستمر من غير احتجا ج يندرج تحت اسم "إماتة النفس"، وليس لرد فعل الشخص الذي يتلقى بعض الضرر نتيجة تطهيرية إلا إذا كان حقا معادلا كما هو حاصل في الانتقام، لكن الكائن البشري -حسبه- يجد في اللغة تعادلا للفعل، ويحصل هذا التعادل بفضل الانفعال العاطفي الذي يمكن أن يعود ويظهر تأثيره بصورة واعية، تقريبا بالطريقة ذاتها، إنها الكلمات بذ اتها هي التي تؤلف التهيج الحسي الملائم مثل الشكاوي والإفصاح عن ثقل (الاعتراف). (**بروير جوزيف، فرويد سيغمند، 1986، ص. 29**)

فهذا التحرير للعواطف المؤجَّل والقوي يؤدي إلى تصريف انفعالي Une abréaction émotionnelle من خلال إحياء للحدث الصدمي متطابق مع كل الشحنة العاطفية الأولى للصدمة وهذا ما يُحدث الانفراج لكن العيادة النفسية تظْهر بأن هذا الانفراج Le soulagement ليس إلا مؤقتا، إذًا إشكالية الصدمة واستيعاب المعنى لم تحل، ليتحول العميل إلى شخص ذو تصريفات متكررة Des abréactions répétées دون تحسين لحالته، نظرا لتراكم الضغوط المحدث من خلال استمرار العواطف المنشئة للمرض Les affects pathogènes.

لذلك كان S. Freud (1895) واضحا جدا منذ البداية فيما يخص استقلالية العميل أثناء إعادة امتلاكه لخبرته الصدمية غير المنفَّس عنها وغير المنفصلة، على اعتبار أن الصدمة تبقى كجسم غريب في النفسية، فكتب قائلا: "بالأخذ بعين الاعتبار المعاناة، تحديد الحدث الأصلي، توجيه العميل على مسيرة قصته الشخصية التي يجب

عليه القيام بها، توجيهه لحظة قوله نحو استذكار وضعيته الذاتية لحظة الأحداث، المساعدة على تخليصه من الانجذاب الذي تمارسه علية الصدمة وإعادة وضع هذه الصدمة ضمن مسار حياته أين يمكنه إيجاد سبب لربطها ".

إذًا حتى يكون التنفيس فعالا، لا يجب أن يحمل فقط كل كمية العواطف المتصلة بالحدث الصادم، ولكن أيضا أن يسمح بتدا عيات دلالية تُنقل من خلال اللغة، وتسجيل الصدمة ضمن العقدة الكبيرة للتداعيات حتى يتمكن العميل من استيعابها، فالاستذكار المرصَن La remémoration élaborée وليس الذكرى العنيفة للصدمة، كذلك اندماجها ضمن اتصالية واستمرارية قصة الفرد، هو ما سوف يهيئ استيعاب الصدمة والعواطف المتصلة بها من طرف العميل، وهذا الشكل من التنفيس هو ما سوف يستشعره العميل ليس فقط كاستراحة عابرة لِمَا بعد التفريغ الانفعالي Post–Décharge émotionnelle ولكن كتطهير صادق، انفرا ج موضِّح وتهدئة للروح.(Abadie – Rosier, 2009, pp. 25, 26)

فجائية الصدمة ومباغتتها للشخص لا تمكنه في الواقع من تفريغ عواطفه ضمن الفعل ولاحتى من خلال التصور، لأنه غالبا لم يمتلك من قبل تصورا لها مثلما هو الح ال في الاستغلال الجنسي للأطفال، ما يشل حركة الطفل ويجمِّد انفعالاته لحظة الحدث جاعلا إياه م رتسلما لعنف الصدمة، لكن بعض الأشخاص أو الأطفال قد يستطيعون الرد مباشرة بعد الحدث أو أثنائه بالبكاء أو التصور لصدم ة مماثلة، هؤلاء قد ينجون من الكسر الصدمي.

الفصل الرابع

الصورة اللاشعورية للجسم

« Les mots, pour prendre sens, doivent d'abord prendre corps, être du moins métabolisés dans une image du corps relationnelle »

Françoise Dolto

« Rien n'est seulement organique chez l'être humain, tout est aussi symbolique »

Françoise Dolto

1- التصور الجسدي وصورة الجسم، لمحة تاريخية

إشكالية الجسد في الحياة النفسية والمكانة التي يحتلها على مستوى الترميز الخيالي، تم تناولها من خلال تيارين: علم الأعصاب العقلي La Neuropsychiatrie الذي طرح تساؤلات ضمن مفهوم التصور الجسدي Le schéma corporel والتحليل النفسي الذي ضِ منه أُعِدّ مفهوم صورة الجسم L'image du corps وسنحاول طرح التطور الزمني لإعداد هذين المفهومين المؤسسين ضمن بعض المحطات.

1-1- التصور الجسدي Le Schéma Corporel

تم تناوله في البداية ضمن مفه وم الحسُّ بالوجود La cénesthésie، على أساس أن مظاهر الإدراك الحسي التي تؤسس المعرفة بالجسد الخاص عديدة، فأنا أعلم أن جسدي موجود كموضوع، وأنّ ني أمتلك جسدا، وأنا قادر على وصفه على العموم، فهو جسد إنسان كمعطى أساسي مع الخصائص العالمية للبنية والوظيفة المرتبطة به إنه هذا الجسد في فردانيته، شرْكْلٌ أصلي بين كل الأجسام.

حسب Peisse (1844): "إنه من خلال هذا الإحساس، ما يظهر الجسد بلا فتور للأنا كأنه ملكه الخاص، وأن المحتوى الروحاني يُستشعر ويُدرَك موجودا ضمن المساحة المحدودة للعضوية "، وبهذا أُعطِيَ الحسُّ بالوجود على أنه إحساسات مشتركة.

وفيما يخص دراسة اضطرابات الشخصية الفزيولوجية والعقلية، إدعى Krishaber (1874) قصور الحسِّ بالوجود.

Taine وThéodule Ribot تحدثا عن معنى الجسد مركزَيْن على الوظيفة العقلية، مؤكدَ ين على الأحاسيس ذات الأصل الداخلي في النظر إلى الجسد الخ اص، بينما الأحاسيس ذات الأصل الخارجي، فهي لا تتدخل إلا بقيمة مساعدة ومراقبة.

كل من C. Wernicke (1848- 1905) وتلامذته A. Storch و O. Förster في ألمانيا، Deny وCamus في فرنسا قالوا بخصوصية جهاز حسي Un appareil sensoriel، بحيث تكون الإحساسات العضوية ذات الأصل الخارجي وصورتها الذكروية متحدة (اتصال اليد مع الطاولة يمنح التعرف على اليد كجزء جسدي وعلى اتجاهها أكثر من التعرف على صلابة الطاولة ووضعيتها المكانية)، فحسب Wernicke هي متحدة مع صور الإحساسات ذات الأصل الداخلي من أجل تأسيس الحس بالوجود La cénesthésie كإحساس بوجودنا الجسمي.

قدَّم Förster مصطلح الجسمي- النفسي Somato- psyché وحسب كل من Förster و Storch فهناك اختفاء للعامل العضوي في الإدراك، حيث اضطراب التقدير يأتي من الخارج بمقدار الجسمانية، وعليه فجميع هذه النظريات تناولت استمرارية وظيفة التصور وليس التصور نفسه.

ركّز A. Pick (1904) على تمثيل الأنا الفزيولوجي، في دراسة لحالة عمه ذاتي Auto-topoagnosie مؤكدا على استحضار الصورة الحيزية للجسد، وقد أثبت من خلال الجدول العيادي للمريض (اضطرابات التموضع لبعض أجزاء الجسم، الحركات المنعكسة...) أهمية صورة الأنا الجسدي.

Jean Lhermitte كتب:" هل نستطيع أن نقوم بفعل إذا لم نكن متأكدين من تصور هيئاتنا، وضعيات خاصة لأجزاء أطرافنا، وأخيرا صورة لرداء مرن يغلّف جسمنا؟ "، و قد تجاوزنا من خلال مصطلحات صورة Image وتصور Schéma – المقدَّمة من طرف A.Pick والمتناولة من طرف Lhermitte– المفهوم البسيط لجسدية النفس La Somato-psyché، أين الوظيفة هي الإمداد بمعلومات مستعملة في الفعل L'action والتمثيل La représentation، للخوض في فكرة الاستمرارية وواقع التصورات عن الجسم الخاص.

ثم تأتي أعمال كل من P. Bonnier و Sir Henry Head، إذ ومنذ سنة 1893 بمناسبة عمله على الدوار Le vertige، P. Bonnier وضع نظريته التي أكدها سنة 1905 في جواب على Deny وCamus رافضا لمصطلح الحس بالوجود La cénesthésie، فلا وجود لإحساسات مشتركة في علم الفزيولوجيا، الاضطرابات التي فُسِّرت بفشل وظيفة أو اللاوظيفة لجسدية النفس Afonction de la somatopsyché، P. Bonnier يرجعها إلى اللاتصور واللاتمثيل، إلى اضطراب من خلاله بعض الأجزاء من أنفسنا تكفُّ عن التشكل والتصور داخل المفهوم الذي نمتلكه عن أجسامنا، ومن هنا قدم P. Bonnier فكرة الصورة المحدَّدة التي نمتلكها عن أجسامنا والتي تستقرئ الإحساسات الداخلية والخارجية، لتصبح مرجعا لكل إدراك حسي وتخصص له حيزا محددا، كذلك أنشأ المفهوم الحديث عن التصور الجسدي.

Sir Henry Head حدد كذلك هذا المفهوم الذي أحيانا يسميه تصورا جسديLe schéma corporel وأحيانا أخرى يسميه شكلا موضعيUn model postural، هذا الشكل الموضعي يتكون من خلال المعطيات الحسية، البصرية واللمسية، ولكن خاصة الموضعية (وضعية الجسم ومركزه)، يُظهر بعض التغيير تبعا لكل معطيات جديدة، لكن على الأغلب هو دائم ومستمر في وجوده، ويسمح بمجابهة متواصلة لكل إدراك أو إحساس جديد بالنسبة لوضعية الجسم في مجمله، وحسبه، من ضمن الأدلة التي تدعِّم تأكيد وجود وديمومة مثل هذا التصور الجسدي، أكثرها إقناعا هي بدون شك تلك التي ترتكز على المرض Asomatognosie وAnosognosie (جهل أو اضطراب التعرف على أحد أجزاء الجسم).

كذلك ظاهرة "العضو المتوهم" "Le Membre Fantôme" للمبتورين، أين العضو المزال بعد عملية البتر يُبْقِي في الإحساس به سواء من خلال إحساس بسيط بحضوره، أو من خلال إحساس أقوى وأكثر صفاء يستدعي وضعية محددة للعضو، أو من خلال آلام غير محتملة، وقد أكد J.M Charcot (1888) على أن الأساس في هذه الظاهرة هو النظام النفسي.

وبعد حوالي نصف قرن من ذلك، L.Van Bogaert درس الظاهرة واستخلص مؤكدا على وجود تصور جسدي مرتبط بالإحساسات لكن في نفس الوقت متحرِّ ر ومستقل، أي أن التصور الجسدي ليس معطى أولي للمنظومة العصبية، ولكن شيء يجب أن يؤسَّس وأن ينبني ضمن نشأة كذلك نسبيا بطيئة.

دراسة إحصائية لكل من W. Riese (1928) و François Gantheret أظهرت بأنه لا وجود لعضو متوهم مرتبط بعملية بتر فعلية قبل سن الخمس والست سنوات، وبالتالي قبل هذه السن من المحتمل أن التصور الجسدي لا يزال تابعا للمعطيات الحسية، وأنه لا يكون إلا بعد هذه السن متوضعا كواقع غير تابع ومستقل.

هذا المفهوم حول التصور الجسدي هو قاعدي من أجل فهم وظائف إدراكية، وتناسق الحركية وكذلك المرض المتعلق بها، كما يمكن ضمنه التفكير في كل ما هو نظام التوجيه المكاني- الزماني أو الجانبية La latéralisation، فكل هذه المظاهر متمركزة على وجود وتوظيف هذا التصور الجسدي.

1-2- صورة الجسـم L'Image du Corps

S. Freud (1885) في "L'esquisse d'une psychologie scientifique" اهتم بالجسم ضمن اهتماماته بالخلية العصبية، كمية الطاقة العصبية، الإدراك، الذاكرة، التفكير، الانفعال وكذلك الحلم، وفي رسالة لصديقه Wilhelm Fliess (07 أوت 1901) فيما يخص مشروع مشترك حول الثنائية الجنسية La bisexualité، أكد على اهتمامه بدراسة الجانب النفسي للثنائية الجنسية الإنسانية المكمِّ ل للجزء التشريحي البيولوجي.

وضمن نظريته حول التروات، سواء الأولى أو الثانية، ترك الجسم ال بيولوجي Le corps biologique حتى لا يهتم سوى بالجسم في الهوام Le corps dans le fantasme، وجلسة التحليل النفسي بتُوز بدون شك وجود الهوامات اللاشعورية في مقابل الهوامات الشعورية الملاحظة في الأحلام النهارية، والهوامات اللاشعورية لا يمكن أن تكون إلا نتيجة لعملية بناء، فحسب S. Freud: "كل شيء يحدث وكأن العميل مر هون بدراما مع صور أبوية خاصة، وأن كل شيء يحدث وكأن العميل يعيش داخل هذا التشريح الوهمي L'anatomie fantasmatique، ومسألة التطور الليبيدي مثلا، تظهر مثل هذا التشريح، أين تجد التروات الجنسية الجزئية إشباعها متمركزة على مناطق مولّدة للغلمة، وتعطي هذه الأشكال المكان لبناءات هوامية يعاش فيها الجسم بالطريقة الأكثر غرابة، فهناك الجسم الهوامي الفمي Le corps fantasmatique oral المتمثل في الفم كمستقبل، وكذلك الثدي، وعموما هو تكامل الاثنين ورفض الانفصال الممكن بينهما ، أيضا جسم التنظيمة الشرجية الحاوي، سكن المواضيع الخطيرة والمفضَّلة في آن معا، وهو كذلك أنبوب مفرِّ غ وموزع للمواضيع التي هي في نفس الوقت أجزاء من الجسم، ثمينة ومفجرة.

P. Federn كذلك P. Shilder، هذا الأخير الذي سخر واحدا من مراجعه الرئيسية (1935) لدراسة صورة الجسم فيما سماه "البنية الليبيدية La structure Libidinale" لهذه الصورة، فبالنسبة إليه : "الليبيدو هو ما يضع شكلا لتراكم المعطيات الحسية".

في علم الاجتماع، يُنظر لصورة الجسم على أنها ليست معزولة عن الآخر، تتفاعل على مستوى الهوام تُمنح من خلال الإسقاط أو الاجتياف لعناصر يمكنها حتى أن تتداخل معها تماما.

ومنذ مرجع P. Shilder، تطور تناول مفهوم صورة الجسم في التحليل النفسي على يد J. Chasseguet- Smirgel (1963)، ثم تناول مفهوم مرحلة المرآة Le stade du miroir على يد Jacques Lacan الذي ركز على البناء نفسه لصورة الجسم، انطلاقا من ثبات فكرة ما قبل النضج الإنساني La Prématuration humaine وعدم اكتمال نمو الطفل وعدم قدرته الإدراكية الأصلية، حيث نجد في الهوامات الذهانية بالأخص فكرة الجسم المجزأ Le corps morcelé إلى قطع.

J-Lacan وضع فرضية زمن خاص، ذلك أين بفضل النضج البصري، ومن خلال صورة الجسم الأمومي والإحساسات المتعلقة بالجسم الخاص المرتبطة به، ومجموع الصور المشتقة حتى الآن، يستطيع الطفل رؤية أن جسمه يأتي فجأة ليتوحد، وهذا مؤكد في الشهر السادس قرب الانتباه والابتهاج للطفل أمام المرآة.

(B. Clément, 1976, pp. 64 – 74)

إنه من خلال تطور النظرية الفرويدية، أين التنظير حول العلاقات بين القواع د الفزيولوجية والبنية الليبيدية أو مفهوم مرحلة المرآة، ألحّ على فكرة اللحظة التكوينية لصورة الجسم والتي تمثل نظام المرور من الجسم البيولوجي إلى الجسم في الهوام.

وكثيرون هم من انطلقوا من المفاهيم الفرويدية، متناولين صورة الجسم ضمن منظور الإرساء (الترسيخ) الجسدي والتفاعلي L'ancrage corporel et interactif لسيرورات الترميز المبكرة، بدءا من Winnicott الذي أظهر بأننا نستثمر جميع مجهوداتنا النشطة والمكلّفة التي نقوم بها في بداية حياتنا، حتى نحاول بشكل ملائم إدماج الجسم والنفس، وشدد على ضرورة وجود الآخر ليعطي تدريجيا شكلا ومعنى لإحساسات الطفل، فرضيع لوحده تماما، شيء لا وجود له.

W.R.Bion (1962–1963) أدرج مفهوم الوظيفة الأمومية ألفا Alpha (طرح عناصر Beta لتسترجع في شكل عناصر Alpha)، ففي البداية، إنه الموضوع الأولي (الثدي المجتاف) هو الذي يحتوي نفسية الرضيع ويساعده على وضع دلالاته العنصرية الأولى في وسط محيطه (Alpha – Beta)، ومع نهاية الطريق يصبح الطفل قادرا على استحضار الأم الغائبة، التي تَعبُر إذًا من حالة الموضوع الحا اوي L'objet contenant إلى حالة الموضوع المحتوى L'objet contenu، عبور يفترض استدخال الطفل للوظيفة الحاوية La fonction contenante للموضوع الأولي (الأم)، ومن هنا تحدث Bion عن العلاقة بين الحاوي والمحتوى وعن اجتياف الحاوي.

ضمن هذين الزمنين هناك لحظات من التأرجح يبدو أنها تعود حسب Geneviève Haag إلى التماهيات ضمن جسدية Les identifications intra – corporelles، عندما يستعيد الرضيع داخل جسده وحركاته شيئا من الوظيفة الأمومية، وهذا خاصة أثناء التجويفات التفاعلية. بمعنى في حالة الحضور الفزيولوجي للأم ولكن البعد النفسي لها. (Golse, 2001, p. 119, p. 122, pp. 129 -132)

وترى G. Haag فيما يخص مفهوم الأنا الجسدي، أن كل شيء يدور في كل لحظة بين الجسد والفضاء ولا وجود لحياة عقلية إذا لم يكن هناك تبادل بين اثنين، فضمن حميمية ماضينا العميق، الخبرة العضلية هي نتيجة الضغوط، ا لحركات والأفعال المنعكسة، حيث تظاهرات الأنا الأولى هي مراقبة مسالك القدرة الحركية . (Geissmann, Houzel, 2003, p. 459)

كذلك نجد M. Merleau – Ponty و R. Kaes الذي ركز على الجانب التفاعلي في بناء صورة الجسم قائلا : "نحن قدمنا إلى العالم من خلال الجسد ومن خلال الجماعة، والعالم هو الجسد والجماعة".

(Golse, 2001, p. 122)

وكثيرون هم من انكبوا على فهم وتفسير سيرورة العبور من صورة الجسم الواقعي نحو صورة الجسم في الهوام أو اللاشعوري، لكن ليس أبسط ولا أشمل ولا أكثر أصالة مما فعلت المحللة النفسية للأطفال Françoise Dolto، التي أعدت الصورة اللاشعورية للجسم L'image inconsciente du corps (1984)، أين فصلّت النمو النفسي اللاشعوري عن الجسدي، وانطلاقا من تنظيرها سنحاول تقديم مقاربة فيما يخص حالة الاستغلال الجنسي.

2- مفهوم التصور الجسدي Le Schéma Corporel

يميز التصور الجسدي ا لفرد باعتباره ممثلا للنوع مهما كان المكان، العصر أو الشروط التي يعيش ضمنها هو نوعا ما خبرات واقعنا تبعا لتكامل المتعضي، أو لأضراره العابرة أو الراسخة.

التصور الجسدي يسند الجسم الحالي ضمن الفضاء إلى الخبرة المباشرة، يمكنه أن يكون مستقلا عن اللغة المسموعة (الكلام)، هو لاشعوري، قبل شعوري وشعوري، تطوري ضمن الزمن، وهو المترجم الإيجابي أو السلبي لصورة الجسم، والذي بدونه وبدون الدعامة التي يمثلها، يبقى الآخر (العلاقة مع الآخر) إلى الأبد الهوام غير الممكن التواصل معه.

3- مفهوم الصورة اللاّشعورية للجسم L'Image Inconsciente du Corps

إذا كان التصور الجسدي نفسه بالنسبة لجميع الأفراد (تقريبا من نفس العمر- تحت نفس المناخ) من النوع البشري، فصورة الجسم هي خاصة بكل فرد ومرتبطة بقصته، مميزة بلي بيدو وموافقة لنمط علائقي ليبيدي فصورة الجسم هي الحصيلة الحية لخبراتنا الانفعالية، بين الإنسانية، تكراريا معاشة عن طريق الإحساسات المولّدة للغلمة القديمة أو الحالية ، ويمكن أن تعتبر كالتجسيد الرمزي اللاشعوري للشخص الراغب Le sujet désirant وهذا حتى قبل أن يكون الفرد قادرا على تعيين نفسه من خلال الضمير الشخصي "أنا".

هي للغاية لا شعورية، يمكنها أن تصبح في جزء منها قبل شعورية فقط عندما ترتبط باللغة الكلامية الشعورية، هي في كل لحظة ذاكرة لا شعورية لكل المعيش العلائقي، وفي نفس الوقت هي حالية، حية، في وضعية دينامية، نرجسية وفي نفس الوقت بين علائقية، فبفضل صورة الجسم المحمولة من طرف التصور الجسدي والمتقاطعة معه، أين نستطيع الدخول ضمن اتصال مع الآخرين، وكل تواصل مع الآخر، سواء كان متمثلا في

الاتصال أو تفادي الاتصال، يُضم من طرف صورة الجسم، لأنه ضمن صورة الجسم، دعامة النرجسية، أين الزمن يتقاطع مع الفضاء، وأين الماضي اللاشعوري يصدي في العلاقة الحاضرة ، فالليبيدو يُنقل ضمن العلاقة الحالية، لكن يمكن أن يوجد موقظا لصورة علائقية قديمة.

التصور الجسدي الذي هو تجريد لمعيش الجسم، ينبني من خلال التعلم والخبرة، في حين تنبني صورة الجسم من خلال التواصل بين الأشخاص، والأثر يوما بعد يوم يخزَّن للتمتع المحبط، المقمو ع أو المحرَّم، لهذا فهي ترجع حصريا إلى الخيال، إلى خيال مسجَّل منذ البداية لدى الإنسان بالبعد الرمزي، وتذاع من خلال كلام الاتصال المخزن بين الأشخاص، يمكنها أن تكون مستقلة عن التصور الجسدي، تترابط من خلال النرجسية، هي مشكَّلة من وصلة دينامية لصورة القاعدة، صورة وظيفية وصورة للمناطق المولدة للغلمة أين يترجم ضغط الترات .

(Dolto, 1984, p. 18, pp. 23, 24)

3-1- صورة القاعدة L' Image de Base:

هي المكوِّن الأول لصورة الجسم، وه ي ما يسمح للطفل بأن يحس نفسه ضمن Une mêmeté d'être بمعنى ضمن استمرارية واتصالية نرجسية، أو ضمن استمرارية فضائية زمانية، تبقى وتمتلئ منذ ولادته رغم تغيرات حياته والتنقلات المفروضة على جسمه، وبالرغم من الخبرات التي يُقتاد لتحملها.

إنه من خلال هذه La mêmeté، أين يتأتى مفهوم الوجود، والإحساس بالوجود للكائن الإنساني هو الذي يربط جسمه مع نرجسيته، إحساس جلي يأتي من هذا اليقين في الاستمرارية.

(إذا كانت النرجسية هي استمرارية، على الأقل هناك قصة، وهذا يحقِّق تمييز أوقات مختلفة)

صورة القاعدة هي أساسا متشكلة من النرجسية الجوهرية (الأصلية) Le Narcissisme Primordial بمعنى نرجسية الشخص باعتباره شخص الرغبة في الحياة Sujet du désir de vivre، سابق الوجود لحمله ولهذا فالطفل هو وريث رمزي لرغبة الوالدين، هذه النرجسية الجوهرية تشكِّل نوعا من حدس معاش للكائن في العالم كفرد من النوع الإنساني، بمعنى مجرد من كل وسيلة تعبيرية مثلم ا هو لدى الطفل الذي لا يزال داخل الرحم (بمعنى هناك حدس بالوجود، حدس لا يستلزم أي وسيلة تعبيرية، ولا يعني أن النرجسية هي الحدس وإنما هي التي تشكله).

هذا الدال (هذا الحدس بالانتماء إلى نفس النوع) هو الذي يعطي معنى الهوية الاجتماعية الرمزية، وهنا تتواجد قيمة وأهمية الاسم Le Prénom، الذي في لحظة مرور الجنين إلى رضيع يُستقبل - أي الاسم- من طرف الشخص (الشخص والركنان الحام يان) مرتبط بجسمه المرئي بالنسبة للآخرين، ويشهد بالن سبة له على خلوده وبقائه الوجودي La pérennité existentielle، وعندما يتعرف على نفسه في صوتم هذه الكلمة، فهذا دليل على سيادة نزوات الحياة الخاصة به على نزوات الموت.

صورة القاعدة لا يمكنها أن تصاب أو أن تشوه إلا في حال بروز تصور أوهوام مهدِّد للحياة، على الرغم من أن هذا الهوام ليس من عمل نزوات الموت، لأن هذه الأخيرة قاصرة حيويا (خاملة)، وخاصةً هي بدون تصور.

عندما تكون صورة القاعدة مهدَّدَة، تظهر حالة من الخواف المتوسطة Etat phobique moyen خاصة بالدفاع ضد خطر مستشعر كمضطهِد، تصور هذا الاضطهاد المتوهَّم La persécution fantasmée هو في حد ذاته مرتبط بالمنطقة المولدة للغلمة، المتفوقَة حينها لدى الشخص، الذي سوف يتفاعل مع ما يضع في خطر صورة جسمه القاعدية من خلال هوام اضطهاد حشوي (متعلق بالأحشاء)، سري، تنفسي فمي وشرجي Une Persécution Viscérale ,Ombilicale ,Respiratoire ,Orale et Anale كذلك بالتصدع (حدوث ثقب) والانفجار، حسب اللحظة الصدمية المختبرة الأولى في قصته للدفاع ضد هذا الخطر المهدِّد كحلول أخيرة.

كل مرحلة تأتي لتغيِّر التصورات التي يمكن أن يمتلكها الطفل في صورته القاعدية والتي تتراكم عليها باقي الخبرات والصور، وبهذا هناك صورة قاعدية خاصة بكل مرحلة:

3-1-1- بعد الولادة، تظهر أولا صورة قاعدية تنفسية، شمية وسمعية (Cavum، صدر)

Une Image de Base Respiratoire, Olfactivo – Auditive (Cavum, Thorax)

وهي أول صورة هوائية للقاعدة.

3-1-2- صورة قاعدة فمية Une Image de Base Orale:

لا تتضمن فقط الأولى وإنما كذلك كل المنطقة الفموية، البلعوم Le Pharynx والحنجرة Le Larynx التي –أي المنطقة ككل إلى Cavum et Thorax– تربط صورة البطن، تصور المتلئ والفارغ للمعدة، والتي يمكنها أن تكون في تواصل أو أن تحمل صدى الإحساسات الجنينية للجوع والامتلاء المعدي.

3-1-3- صورة القاعدة الشرجية Une Image de Base Anale :

التي تضيف نظام الاحتباس (احتفاظ) أو الإخراج / الإفراغ للجزء السفلي للقناة الهضمية، وتضيف كذلك محيط حجمه الذي يشكل الحوض (عندما يتعلم ا لطفل الجلوس)، وتضيف أيضا التصور اللمسي للأرداف والعجان Le Périnée (المسافة بين عضو التناسل والشرج).

إذا لا مكان أحسن من على مستوى صورة القاعدة والنرجسية الجوهرية، أين لا يمكن تحديد الصراع لتروات الحياة مع نزوات الموت، هذه الأخيرة يمكنها أن تبقى مطولا متفوق ة لدى الرضيع، عندما تعامله الأم والمحيط كموضوع للرعاية دون التحدث مع شخصه.

3-2- الصورة الوظيفية L'Image Fonctionnelle:

في حين أن صورة القاعدة ذات بعد ساكن، فإ ن الصورة الوظيفية هي صورة لشخص يسعى إلى تكملة رغبته، وهذا ما يحدث من خلال وساطة طلب متموضع في ا لتصور الجسدي، في مكان مولد للغلمة أين يتم الإحساس بنقص خاص (محدد حسب المنطقة) وهذا ما يثير الرغبة.

إنه بفضل الصورة الوظيفية أين نزوات الحياة يمكنها، بعد أن تحمل صفة الذاتية Etre subjectivées في الرغبة، أن تسعى للتمظهر من أجل الحصول على اللذة، بأن تعبِّ عن نفسها ضمن العلاقة مع العالم والآخر كذلك الصورة الوظيفية الشرجية لجسم طفل هي أولا صورة لإصدار إخراجي، في الأصل على اتصال مع الحاجة إلى التبرز والتغوط التي يتكبدها الطفل، تُستشعر سلبيا (يخضع لهذه الحاجة للتبرز)، والتي قد تأخذ أولا معنى لغة مع الأم، ثم ثانوي تأخذ شكل صورة تعبِّر عن الإخراج / الإفراغ المستحب لموضوع جزئي، ليس دائما أساسي، والذي بواسطة الإزاحة يمكن أن يكون محوَّلا على موضوع جزئي بديل من الجسم الخاص.

فمثلا اليد التي هي أولا منطقة مولدة للغلمة قابضة (ممسكة) فمية (حركتها مثل حركة الفم)، ثم رافضة (رامية) شرجية، باندماجها في صورة وظيفية عضدية- ذراعية Brachiale، تعطي للطفل الحرية العظمية العضلية التي تسمح له ببلوغ أهدافه وإشباع حاجاته والتعبير عن رغباته من خلال ألعابه، وبهذا يحقق إعداد الصورة الوظيفية -بالنسبة إلى الاستعمال الوحيد للمناطق المولدة للغلمة- ثراء في الإمكانيات العلائقية مع الآخر.

لكن على العكس، إذا وجدت الصورة الوظيفية مُ لْكَرَة كلها أو في جزء منها، كتدخل يتعارض مع حركة الطفل "لا تلمس"، هذا الأخير يمكن أن يختار كمخرج نظام الانكماش والانسحا ب، حتى لا تدخل المنطقة المولدة للغلمة في تواصل مع ا لموضوع المحرَّم والموضوع الخطير، وحتى لا تدخل رغبته في صراع مع رغبة الراشد الحامي.

3-3- الصورة المولدة للغلمة L'Image Erogène:

هي مرتبطة بالصورة الوظيفية للجسم، المكان أين تتمركز اللذة أو الألم الغلمي ضمن العلاقة مع الآخر تصورها يرجع إلى حلقات Cercles، بيضوية Ovales، مقعَّرة Concaves، كروية Boules، ملمس Un Palpe، خطوط Traits وثقوب Trous متخيَّلة، ممنوحة لمقاصد مرسلة نشطة Des intentions émissives actives أو مستقبلة خاضعة Réceptives passives لهدف مستحب أو مزعج.

هذه المركبات الثلاثة لصورة الجسم تتطو ر وتتحول وتتعدل، آخذة في الحسبان الخبرات التي يواجهها الشخص والحدود التي يلتقيها، خاصة تحت شكل الخصاءات المولّدة للرمز التي تُ فرض عليه، وتقلبات قصته تسمح في أحسن الحالات لصورة القاعدة أن تضمن تماسكه النرجسي.

ولهذا من الضروري:

- للصورة الوظيفية أن تسمح باستعمال ملائم للتصور الجسدي؛

– للصورة المولدة للغلمة أن تفتح للشخص طريق اللذة المتقاسمة.

3–4– الصورة الدينامية L' Image Dynamique:

الصورة الدينامية تتطابق مع الرغبة في الكينونة، أو الرغبة في الوجود Le désir d'être والاستمرار ضمن حدث Un advenir، وهذه الرغبة باعتبارها – قاعديا – معاقبة بالنقص Le manque هي دائما منفتحة على المجهول.

الصورة الدينامية ليس لديها تصور خاص بها، هي شدة القصد La tension d'intention، تصورها سوف يكون كلمة رغبة Désir، مصرَّفة كفعل نشط، مشارك وحاضر في الشخص كتجسيد للفعل ذهب / راح Aller، رائح ليرغب Allant Désirant، ملتصق بكل واحدة من الصور الثلاثة ضمن اتصال حالي أو ضمني مع الصورتين الأخيرتين.

إذا أردنا تقديم تمثيل مبسط لهذه الصورة الدينامية، فسوف يكون تحت شكل احتمالي لخط منقط ينطلق من الشخص بواسطة منطقة مولدة للغلمة من جسمه متجها نحو الم وضوع، وهي –أي الصورة الدينامية– تماثل قوة في انتظار بلوغ الموضوع.

Sujet --------► Objet

وتظهر بطريقة غير مباشرة في هذه الصور للآلات القذفية، فمن خلال البنادق أو المدافع تنطلق نقاط صغيرة من أجل بلوغ موضوع المرمى، إنها مسيرة الرغبة المشبَعَة بالمعنى ذاهبة نحو الهدف، كما تظهر كذلك تحت شكل آخر افتراضي في زمن مبكر من نمو الأطفال (من 9 إلى 10أشهر)، صانعين دوامة صغيرة – تسمى من طرفهم فيما بعد حلزونا– على جميع أجزاء التصور التخطيطي (قصة مثلا) التي تجلب اهتمامهم، ومن ثم يقلبون الصفحة باحثين عن شيء آخر، وهنا صورة الشخص هي ما تستشعر دينامية، بمعنى في حالة رغبة.

وبما أننا نستطيع العثور على الصورة الدينامية تحت أحد الشكلين الخطيين Les formes graphiques فلا شك في أنها كما هي ليس لها تصور Représentation، وهي من هذا المنطلق منيعة على أي حدث مخصي Un evénement castrateur، يمكنها فقط أن تصبح في باطن الشخص بسبب حالة خوافية، فالموضوع الخوافي L'objet phobique يأتي ليمنع ويكوِّن حاجزا للصورة الدينامية خلال مسيرتها الراغبة مهددا الشخص في حقه في الكينونة.

ضمن الصورة الدينامية يمكن الحديث عن:

3–4–1– صورة دينامية فمية Une Image Dynamique Orale:

التي بالنسبة للحاجة تكون جابذة (دافعة نحو المركز) Centripète، وبالنسبة للرغبة تكون جابذة Centripète ونابذة Centrifuge في نفس الوقت.

3-4-2- صورة دينامية شرجية Une Image Dynamique Anale:

التي بالنسبة للحاجة تكون نابذة ومبعدة Centrifuge، وبالنسبة للرغبة نابذة وقد تكون كذلك جابذة Centripète في حالة اللواط La sodomie المتمَّم على آخر، أو المتحمل من آخر لدى الجنسيين المثليين .

3-4-3- صورة دينامية تناسلية Une Image Dynamique Génitale:

لدى المرأة تكون صورة جابذة بالنسبة للموضوع الجزئي القضيبي، بينما بالنسبة للرجل هي صورة دينامية نابذة، كذلك في الولادة ، هناك صورة دينامية نابذة مخرجة Centrifuge expulsive بالنسبة للطفل الذي هو شخص، إذا موضوع كامل Un objet total، بالرغم من أن هذا الجسم الجنيني الذي بصدد أن يولد هو موضوع جزئي با لنسبة للقنوات التناس لية الواضعة Les voies génitales parturiente، والمرأة سريعا ما ستكون بمقابل هذا الشخص المولود، أُمًا مستقبلة أو رافضة بالنسبة للطفل كشخص مثلما هو في الولادة .

بالعودة إلى الصورة الدينامية الفمية-الشرجية، هذه الصورة الكاملة للجهاز الهضمي يجب أن تكون متلائمة مع التصور الجسدي، صورة دائما جابذة، ضمن معنى مسار لولبي (تقلصي استداري) Un Cheminement Péristaltique الذي يذهب من الفم نحو فتحة الشرج، عندما يكون هناك تقلبات في هذه الحركة التقلصية الاستدارية (حالة القيء)، معناه أن الصورة الفمية وليست الشرجية انقلبت، بمعنى أصبحت شرجية Etre analisée، تقوم برمي الموضوع الجزئي المبتلع.

لقد تقلبت في العلاقة مع الآخر، شخ ص حاضر، خيالي أو واقعي، أو بالنسبة لموضوع يُستشعر على أنه خطير في المعدة، وهذا المثال يُظهر حيوية الصورة الدينامية الممثَّلة في الرغبة، إذ يمكنها أن تذهب إلى درجة عكس مسار الموضوع الجزئي للحاجة، بمعنى تحكُّم الرغبة في الحاجة، وبهذا تنكص إلى مرحلة سابقة في حالة عجز أو صدمة في المرحلة الحالية.

إن الصورة الدينامية هي دائما تلك المتمثلة في رغبة البحث عن موضوع جديد، ولهذا فهي متضادة مع الغلمة الذاتية، التي لا تحدث إلا لستر غياب الموضوع الواقعي الملائم للرغبة، والصور الثلاثة مرتبطة فيما بينها من خلال نزوات الحياة، التي تنشَّط من أجل الشخص داخل الصورة الدينامية. (Dolto, 1984, pp. 50- 60)

4-الأنا الجسدي Le Moi Corporel

أكد S. Freud منذ البدء على أن الأنا Le Moi هو قبل كل شيء أنا جسدي Moi Corporel، ليس مجرد كيان سطحي وإنما هو إسقاط للسطح، يلعب الإدراك الحسي في الأنا نفس الدور الذي تلعبه الغريزة في الهو، لكن إلى جانب جه از الإدراك الحسي، هناك عامل آخر له دور في تكوين الأنا وتمايزه عن الهو متمثل في بدن الشخص ذاته، ومن سطح البدن على الأخص تنبعث الادراكات الحسية الخارجية والداخلية.

(فرويد سيجمند،1998، ص ص. 43، 44)

فمن الجزء الذي كان في الأصل طبقة قشرية مزوَّ دة بأعضاء الحس لاستقبال المنبهات، وبجهاز حركي للوقاية من التنبيه المفرط، ينمو الأنا الجسدي الذي يقوم بسلطة الإشراف على الحركة الإرادية، نتيجة العلاقة التي

تكونت من قبل بين الإدراك الحسي والحركة العضلية، فيقوم بمهمة حفظ الذات فيما يتعلق بالأحداث الخارجية من خلال تخزين الخبرات المتعلقة بها وتجنب المنبهات المفرطة. (**فرويد سيجمند، 1986، ص. 46**)

و"أنا" الطفل غير ناضج تماما، ليس لد يه قدرة التقرير بمقابل الاعتداءات الداخلية والخارجية، لا يقرر إعادة دفع الضغوطات القوية والإحساسات المؤ لم ة والعواطف المكدرة نحو الخارج ، لذلك ضمن السلوكات المتكيفة الوالد يمنح طاقة إيجابية تسمح با لمرور من وضعية نفسوجسدية صلبة إلى وضعية أخرى أقل صلابة، وبالا ستجابة بطريقة ملائمة على الضغط المعاش، يخلق الوالد لدى الطفل حركة من الانبساط (الاطمئنان).

إذًا هذا الانبساط النفسي الحركي هو الشكل الأول بالنسبة للطفل ليقول "نعم" لما يحدث معه، نعم للدفء، نعم للحضور، نعم للسعادة، نعم للعلاقة، نعم للعا لم الخارجي والداخلي ونعم للتعرف على حاجاته فهذه الحركة النفسوجسدية للانبساط تسمح بإدماج الأحاسيس الجيدة، كل ما هو ناعم ولطيف يدخل إلى الداخل، إلى العمق ليركُ د بهدوء، وعندما يكون الصغير في سريره من جديد ، هادئا وشبعانا، يجد نفسه لوحده مع غلافه الذي احتفظ بآثار الضغط الأولى، ثم آثار الانفراج بفضل هذه العلاقة التي هو بصدد عيشها.

ومن هنا، عندما يختبر من جديد الأ لم، ضغطه الجسدي سوف يكون شكله الأول للتعبير عن انزعاجه، عن "اللاّ"، لا لما يحدث معه، لا للغياب، لا للأ لم، لا للإحباط، لا للعا لم الداخلي والخارجي، لا للرضاعة إذا حاولت أمه إرضاعه في حين حاجته مختلفة.

وبالنسبة للإنسان لا وجود لمنطقة خاصة بالأ لم، المعلومة تنتشر على مجموع المراكز، وعدم النضج الكافي للطفل يجعله غير قادر لوحده على التحكم في الأ لم، فإذا لم ت وجد هناك معالجة مسكِّنة وسريعة أثناء الاثارات القوية، الأ لم سيخلد في العمق ، يُفقَد والطفل لن يستط يع بعد هذا أن يدمج أحاسيس ا أخرى، ببساطة يصبح واهنا، مصعوقا وغارقا في أحاسيسه المؤلمة.(B. Robert – Ouvray, 2003, pp. 51-54, pp. 135, 136)

إذًا نوعية استجابات الآخر هي ما سيعطي معنى للإحساسات الأولى التي ستدخل في تشكيل الأنا، الذي يجب أن يمر أولا بالجسدي.

4-1-الأنا البشرة Le Moi- Peau ووظائفه

Didier Anzieu (1985) يرى أن البشرة عبارة عن أنا قبلي، كيس، سطح فاصل، هي معطى أصلي ذو طبيعة عضوية وخيالية في نفس الوقت، كنظام للحماية لفردانيتن ا وفي ذات الوقت وسيلة أولى ومكان للتبادل والاتصال مع الآخر.

إذا فالأنا – البشرة Le Moi- Peau صورة يصبح عليها الطفل، حتى يتصور نفسه كذات حاوية لمحتويات نفسية انطلاقا من خبرات سطح الجسم، غلافه هو لمسي، شمي، صوتي، وأخيرا بصري.

(Ponnier, 2003, pp. 99, 100)

يقوم الأنا– البشرة بمجموعة من الوظائف هي في خدمة نزوة الارتباط، الأساسية منها هي ثمانية:

4-1-1- صيانة النفس La maintenance du psychisme:

مثلما تقوم البشرة بوظيفة سند ودعم الهيكل العظمي والعضلات، كذلك الأنا- البشرة يقوم بصيانة وحفظ النفس، محوِّلا السند الخارجي للأم إلى دعم داخلي من خلال استدخاله، فالأنا-البشرة هو جزء من الأم – خاصة يديها- التي أستدخلت والتي تحفظ النفس، وما يحضر هنا ليس الإدماج الهوامي للثدي المرضع، وإنما التماهي الأولي مع موضوع الدعم الذي يضمه الطفل ويأخذه، إنها نزوة التعلق أو الارتباط.

4-1-2- الوظيفة الحاوية La fonction contenante:

مثلما تغلف البشرة سطح الجسم وضمنها تُ درَج جميع الأعضاء للإحساسات الخارجية، الأنا- البشرة كتمثيل ناشئ عن العلاقة جسم الأم/ جسم الطفل، كذلك من الاستجابات الملحقة من طرف الأم للإحساسات والانفعالات الخاصة بالرضيع، استجابات حركية وصوتية، لأن الغلاف الصوتي يضاعف الغلاف اللم سي الأنا-البشرة يسعى إلى تغليف الجهاز النفسي، فهو يصوَّر كلحاء أو كقشرة ، بينما الهو التروي مثل نواة وحاجتهما لبعضهما متلازمة، فالأنا البشرة ليس بحاوٍ إلا لأن هناك نزوات لاحتوائها، لوضعها في مصادر جسدية وفيما بعد لتمييزها، والتروات لا تُستشعر كدفعات وكقوى محرِّكة إلا إذا لاقت حدودا ونقاطا خاصة للالتصاق، وهذه التكاملية بين القشرة والنواة تؤسس الإحساس باستمرارية واتصالية الذات.

الحرمان من هذه الوظيفة الحاوية يؤدي إلى شكلين من القلق:

- قلق إثارة نزوية دائمة، متناثرة، غير قابلة للتموضع وغير قابلة للتخفيض، تترجم موقعية نفسية مؤسَّسة من نواة بدون قشرة، الفرد سوف يبحث عن قشرة بديلة في الألم الجسدي أو في القلق النفسي أين يتغلف بالألم؛
- الغلاف موجود لكن اتصاليته متقطعة، مثقوب، إنه أنا- بشري مصفاة Le Moi–Peau Passoire، الأفكار و الذكريات فيه تحفظ بصعوبة.

4-1-3- صاد الاثارات Le Pare – Excitation:

رأى S. Freud (1895) أن الأم تمثل صادا للاثارات مساعدا للرضيع، أضاف D. Anzieu أنها كذلك حتى يتمكن أنا الطفل على مر نموه من أن يجد على بشرته الخاصة إسناد ا كافيا من أجل تحمل هذه الوظيفة وكل فيض أو عجز لصاد الاثارات يؤدي إلى حالات صورية جد متنوعة:

Frances Tustin (1972) وصفت اثنتين من صور الجسم التي تنتمي تحديدا إلى التوحد الأولي والتوحد الثانوي، الأنا الأخطبوط Le Moi Poulpe، عندما ولا واحدة من وظائف الأنا- البشرة تكتسب، لا كداعم ولا كحاوي ولا كصاد للاثارات.

ثم الأنا القشري Le Moi- Crustacé مع قوقعة صلبة تأخذ مكان الحاوي الغائب، والتي تمنع على الوظائف التالية للأنا- البشرة من التكامل.

كذلك هناك القلق البارانوي L'angoisse paranoïde عن التعدي، سواء تحت شكل الاضطهاد (سرقوا أفكاري مني) أو أنه تحت التأثير (لقد أعطوني أفكارا)، وهنا وظائف الحاوي وصاد الاثارات متواجدة لكنها غير كافية.

4-1-4- التفريد L'Individuation:

من خلال لون البشرة، تركيبها ورائحتها، البشرة الإنسانية تمثل اختلافات الأفرا د, و الأنا البشرة يضمن وظيفة فردنة الذات L'individuation du soi وما يحمل للأنا الإحساس بكونه كائنا فريدا، والقلق الذي وصفه S. Freud (1919) هل هو الغرابة المحيرة L'inquiétante étrangeté، المرتبط بتهديد يقصد فردنة الذات من خلال تضعيف الإحساس بحدود هذا الفرد.

4-1-5- البين حواسية L' Intersensorialité:

الأنا-البشرة هو السطح الذي يربط فيما بين الإحساسات من طبائع مختلفة، بإقامة وتثبيت إحساس مشترك يتمحور على اللمس الذي لا يلغَى من خلال الممنوع، والحرمان من هذه الوظيفة يؤدي إلى قلق التجزئة، وأكثر تحديدا ذلك المتمثل في قلق التفكك L'angoisse de démantèlement (Meltzer 1975)، بمعنى لتوظيف مستقل وفوضوي لمختلف أعضاء الحس.

4-1-6- سند الإثارة الجنسية Le Soutien de L'Excitation Sexuelle/

الأنا-البشرة سطح يمكن أن تتموضع عليه المناطق المولدة للغلمة من أجل تأسيس الفرق بين الجنسين التمايز الذي ينهار ضمن المفاهيم النكوصية للجنسية مثلما في حالة الهوام في تواصل جسد على جسد فالأنا- البشرة يلتقط على كامل السطح التوظيف الليبيدي ويصبح غلافا للإثارة الجنسية الليبيدية الكاملة، خطأ في تفريغ إشباعي، غلاف الإثارة المولدة للغلمة هذا يمكن أن يتحول إلى غلاف قلق، وإذا سَنَدُ الإثارة الجنسية لم يُضمَن، الفرد يصبح راشدا لا يحس بالأمان الكافي من أجل الدخول في علاقة جنسية كاملة تؤدي إلى إشباع تناسلي متبادل.

4-1-7- التعبئة الليبيدية للنظام النفسي

La Recharge Libidinale du Fonctionnement Psychique

البشرة باعتبارها سطح للاستثارة الدائمة من خلال الاثارات الخارجية، لذا يعمل الأنا- البشرة على الحفاظ على الضغط الطاقوي الداخلي متفاديا قلق الانفجار للجهاز النفسي من جه ة، ومن جهة معاكسة قلق النيرفانا بمعنى قلق أمام غياب البعد الليبيدي بخفض التوتر إلى الصفر.

4-1-8- تسجيل الآثار الحسية اللمسية L'Inscription des Traces Sensorielles Tactiles

البشرة مع أعضاء الإحساس اللمسي المتضمَّ نة (اللمس، الرائحة، الساخن/البارد، الحساسية الجلدية) تزود بمعلومات مباشرة عن العالم الخارجي، فالأنا- البشرة يملؤ وظيفة تسجيل هذه الآثار، والقلق المرتبط بهذه الوظيفة

يلاحظ على سطح الجسم خلال تسجيلات مقززة وراسخة متأتية من ا لأعلى (بقع حمراء على البشرة، القوباء الجراح الرمزية...)، وحسب Bettelheim (1954) القلق قد يحمل إلى خطر محو التسجيلات ليحدَّ من تزايد القلق، أو إلى فقدان القدرة على تثبيت الآثار. (Anzieu, 1995, pp. 121-129)

5- تطور صور الجسم حسب Françoise Dolto

5-1- ثالوث La triade حاجة- رغبة- طلب

5-1-1- الحاجة

الحاجة Le Besoin هي حالة في العضوية موجودة داخل الشخص، وتحرِّض بعض النشاط من أجل التوصل إلى وضع نوع من التوازن، وقد اقترح ماسلو Maslow خمس مستويات للحاجة مؤكدا أن إشباع الحاجات القاعدية للطفل أثناء نموه هو ما سيحرره لخوض مستويات أرفع، بينما عدم إشباعها بشكل كافٍ يجعلها تناضل دون شك دائما من أجل الأولوية. (Tremblay, 1971, pp. 134-137)

5-1-2- الرغبة

يرى S. Freud بأن تراكم التهيج يُحسُّ في صورة ألم، وأنه يحرك عندئذ الجهاز إلى العمل بقصد استعادة خبرة الإشباع التي تضمنت إنقاص التهييج إنقاصا أحسن في صورة لذة، ومثل هذا التيار الذي يجري في الجهاز مبتدئا من الألم متجها إلى اللذة قد سميناه رغبة، إنه لا شيء سوى الرغبة يستطيع أن يحرك الجهاز إلى العمل.

(**فرويد سيجموند، 1982، ص. 133**)

وقد تأخذ الرغبة شكل التمني أو الاشتهاء ، فهي هذا الإلتماس غير المشبَع و الظمىء الذي يميز الكائن الإنساني، وتتميز عن الحاجة التي تشبع مباشرة، مثلما يتم ذلك عن طريق الأكل، في كون الرغبة مرتبطة بتصور وذكريات تكون مرتبطة بخبرة إشباع.

5-1-3- الطلب

J. Lacan أدرج مفهوم الطلب La demande الذي هو دائما طلب للحب (وهذا ما يطالب به دائما الأطفال) ومفهوم الحاجة، واعتبر أن الرغبة تنمو بين الفارق L'écart بين الحاجة (قطب فيزيولوجي) وطلب الحب (قطب نفسي) ، مرتبطة بالهوام وبالتالي بما هو خيالي. (Lecourt, 2006, pp. 97, 98)

5-2- الثنائية La Dyade والثلاثية La Triangulation

الثنائية أم/طفل موجودة وتتلاءم مع واقع الفترة أين الرضيع لا يمكنه الانفصال عن أمه دون خطر فقدان حياته، هناك حالة مزيجية لمتعضي الطفل مع متعضي الأم، حالة أين الانقطاع أو فقط التوقيف المطوَّ ل يُحدث آثارا قد تكون مؤثرة على المدى القصير، لكنها راسخة على المدى الطويل.

الثنائية تستمر من سبعة إلى تسعة أشهر على الأكثر، إنها الحياة الجنينية، لكن في الواقع، الثنائية هي دائما ثلاثية أم/ أب/ طفل، يضاف الطفل كقطب لحظة الحمل ، فالأم بالنسبة للجنين هي ثنائية الصوت "Bivocale" فهو يسمع أحسن صوت أبيه متحدثا لأمه من صوتها هي، وأمه بالنسبة له أم نابضة أكثر بالحياة إذا كان الأب يحدثها.

وعندما نكون بصدد الشبكات العلائقية، هي الوضعيات أين الطفل يحوِّل على أشخاص آخرين هذه الضرورة الثلاثية أب- أم- طفل التي يجدها ضمن العلاقات مع كائنات إنسانية أخرى، فطفل السبع سنوات مثلا، من أجل استقراره إذا كان صبيا، سيحصل له ضمن خياله على رفيق صبي وعلى فتاة يتحدث عليها مع الأول، وهذا ما يسمى كذلك ثلاثية.

5-3-الأنا المساعد Le Moi Auxiliaire

ضمن جنسية مثلية عفيفة، الرفيق من نفس الجنس يمثل أنا مساعد ا إضافيا للصبي، هذا الرفيق بدوره لديه صديق مفضل هو أناه المساعد ورفيقة عنها يتحدثون، ونفس الأمر بالنسبة للفتاة، فالأنا المساعد يسمح للطفل أن يمدد الثلاثية طفل –أم- أب ضمن عفة من الصداقة إلى خمسة، لذلك يلعب الأنا المساعد دورا هاما في البنية مع غياب الأخت بالنسبة للصبي والأخ بالنسبة للفتاة. (Dolto, 1988, p. 09, pp. 13, 14)

5-4-الموضوع الانتقالي حسب L'Objet Transitionnel selon F. Dolto

ضمن السيرورة الطبيعية للإعداد الذاتي لصورة الجسم، هناك كلمات للأم تسمح بترميز مواضيع المتعة ، هي أصوات انتقالية قبل لغوية و لفظية، وهذا الموضوع الجزئي الانتقالي هو شيء خالد وكلام مختلط للعلاقة طفل /أم أو طفل/أب (شبح من الكلمات)، كلام لا يملك عنه الطفل قاموسا، مفرداته لا يمكن أن تُقرأ، مُنذَرة لتمثل كلية الشخص (الأم) الذي يُحدس ضمن العلاقة موضوع / جسم ضمنيا مولدة للغلمة (علاقة فمه مع ثدي الأم تدخل الأم عن طريق الكلام لتجعله يدرك أن وجودها ليس محددا في الثدي، وإنما شخص كامل)، وضمن علاقته الوظيفية التي لا تزال ملتحمة مع الأم.

تحدثت F. Dolto عن الأم الحاضرة بكفاية، التي تمنح أطفالها الكفاية من كلمات الحب والحرية اللعبية الحركية، هؤلاء الأطفال لا يحتاجون إلى مواضيع انتقال ية (Winnicott) فمهما تكن رغبتهم في طمأنة أنفسهم لديهم كفاية من الاختراعية الحركية، وكفاية من الكلام مع أمهاتهم حتى يجدوا مخزونهم من المواضيع الانتقالية الصوتية، تيمي ضد الخطر Fétiche Anti-Danger، قبل أن ترتبط هذه الكلمات بوضعيات حتى تصبح كلمات حقيقية تُحفظ في الذاكرة على مر لحظات وحدتهم ونومهم.

هذا التبادل المطمئن مع الأم هو بالنسبة له الدليل على علاقة إنسانية دائمة، من هنا، جرح الصورة الوظيفية أو التهديد بإصابة صورة القاعدة أو حتى الإحساس باضطرابات ضمن التبا دلات التي تخدم الحاجات الأساسية

أي عندما يحس الطفل نفسه بأنه مريض، فإنه يعثر مع هذا الموضوع الخالد على صور جسمه ليستعيد معرفة عن نفسه.

والأهم أن صورة الجسم للطفل، كذلك المعافى في تكامله، تخزّن من المعاناة الماضية خبرة مرمَّزة لنزوات الحياة الخاصة بشخص متعايش مع جسمه، عندما تنجح في التفوق على نزوات المو ت، فالطفل سيلقح ضد القلق الذي سيجده مسلحا في المحنة المقبلة أحسن من الطفل الذي إلى حد الآن لم يعكره أي حادث، مسلح بمواضيع انتقالية لغوية خالدة شاهدة على خبرة بقاء. (Dolto, 1984, pp. 64 – 66)

5-5- Les Objets Mamaisés

مصطلح ومفهوم خاص بدولتو F. Dolto، إذ قصدت به المواضيع التي تبرز للطفل من خلال ترابطات الهوامات والحضور المؤمّن المخزن للأم، ومن بين هذه المواضيع لدينا المواضيع المألو فة للإطار المكاني المعتاد للطفل الألعاب التي سمّتها له، الحيوانات الخاصة بالعائلة وخاصة أشخاص المحيط الذين تتواصل معهم الأم بال كلام والذين جراء هذا، يتحددون للطفل كأشخاص آخرين ينتمون إلى الأم، لهذا كثيرا ما تؤكد F.Dolto على أن تعرف الطفل على والده يتم من خلال كلام الأم عنه، الذي تقدمه له منذ مرحلة الحمل، والطفل بفضل هذا الرابط المجتاف، رمز نرجسيته الجوهرية، سيكون بفضل وبمساعدة ا لم واضيع التي تحمل بصمة الأم، في كل لحظة متجانسا في جسمه ككل.

5-6- فضاء الأمان L'Espace de Sécurité

المكان والزمن اللذان ضمنهما يكرَّر اللقاء الذي يستجيب إلى الحاجات والرغبات، يصبح حيزا للأمن بالنسبة للطفل، فالطفل مثلا يسمع أبعد من أن يرى، إذًا فضاء الأمان السمعي لديه أكبر من فضاء الأمان البصري، وبهذا فالمجموع الناشئ عن هذا المكان هو الحيز الذي ضمنه الرابط مع الأم يُسترد بقوة.

فمن الضروري حتى تنتظم صورة الجسم أن تكون هناك مجموعة متصلة من الإ دراكات المتكررة والمتعارف عليها، والتي عليها تحطُّ الإدراكات تعاقبي حاضرة وغائبة، وأخرى غير معروفة وجديدة يكتشفها الطفل، وأمام الإدراكات التي تفاجئه، من الضروري على الراشد المرافق له أن يقدم له من خلال الكلمات إجابة عن هذه المفاجأة. (Dolto, 1984, pp. 68- 70)

5-7- قلق الشهر الثامن بين René Spitz و Françoise Dolto

يرى René Spitz (1887–1974) أنه بين الشهر السادس والشهر الثامن، بعد تعرف الرضيع على وجه الأم، إنه حضور أو غياب هذا الوجه هو الذي يحرض خبرات من اللذة أو الأ لم، والشخص الغريب بوجهه غير المعروف يصبح العلامة على غياب الأم، في حين باقي الملامح العائلية تكون مرتبطة بوجه ها، إذا مستحبة، إنه الوعي بفقدان موضوع الحب ما يثير قلق الشهر الثامن L'angoisse du huitième mois، وسوف يكتسب الطفل فيما بعد مستوى من العقلنة يأخذ بعين الاعتبار حضور أو غياب الشخص (الأم)، كما سيبحث من

خلال نشاطه العقلي عن استبدال فقدان هذا الشخص، لذلك يعتبر R. Spitz هذا القلق الذي يحدثه الغياب منظما للنمو العاطفي للطفل. (Voizot, 1977, pp. 75 -77)

Françoise Dolto ترى أن قلق الشهر الثامن ليس محتوما وليس ضروريا، يتأتي من كون الراشد لا يوسِّط ضمن الفضاء المواضيع التي يراها الطفل والتي إليها ينجذب، ويرغب بجسمه و بحاسة اللمس لديه الإمساك بها وبلوغها،كذلك من نقص أو غياب الجشعة التي يحتاجها الطفل في هذه المرحلة، إذًا سيسأم، شيء ما سيذبل من عدم ممارسته، شيء ما من لغة رغبته لم يفهم (وهذا يعود إلى كون رغبته في الحركة- خياليا- جد مبكرة عن الإمكانية الواقعية لتصوره الجسدي).(Dolto, 1984, p. 85)

5-8- ابتسامة الشهر الثالث بين René Spitz و Françoise Dolto

يرى R. Spitz أن الرضيع ضمن هذه المرحلة لا يدرك شخصا ولكن فقط إشارة Un Signal، فيستجيب من خلال ابتسامة، هي ابتسامة الشهر الثالث إذا رأى وجها إنسانيا، وقد أظهر R. Spitz بأنه ليس مجموع الواجهة هو ما يشكّل العلامة Le signe ولكن الشكل La forme ـــــ La gestalt المفضل، والمتمثل في الجبهة والعينين والأنف، أين الكل في حركة، وبهذا يمكن أن تثار ابتسامة الطفل من خلال رؤية قناع من الورق لكن هذه الاستجابة لا يمكن التحصل عليها في حالة حضور وجه الشخص.(Voizot, 1977, p. 67)

لكن Françoise Dolto ترى بأنه في حين يدرس الأخصائيون النفسانيون والمربون بأن الابتسامة لا تكون ذات معنى إلا في الشهر الثالث، فكل أم تدرك بأن هناك ابتسامات قبلا، لا ترجع للصدفة ولا للملائكة، الرضيع لا يبتسم للوجه الإنساني، إنه يبتسم للآخر باعتباره شخصا إنسانيا، فهو لا يبتسم لأي كان، ولا في أي وقت كان، فكل تظاهرة جسدية هي بالنسبة للصغير كالكلمات .(Hassoun, Spielmann, 1995, p. 85)

5-9- المناطق المولدة للغلمة Les zones érogènes

تترسخ النرجسية القاعدية Le narcissisme fondamental للشخص (التي تسمح للجسم بالعيش) ضمن العلاقات الأولى المتكررة التي ترافق في نفس الوقت التنفس، إشباع الحاجات الغذائية، إشباع الرغبات الجزئية الشمية Olfactifs، السمعية Auditifs، البصرية Visuels، اللمسية Tactiles، التي تبين التواصل من شخص الطفل Sujet-Bébé مع شخص الأم Sujet- Mère، وضمن هذا اللاتمايز للمناطق الجسدية مع هذا المكان الواقعي الذي يمثل جسم الطفل، بعض الأنظمة الجسدية تختار بسبب تكرار الأحاسيس التي يختبرها الطفل إنها أماكن من جسمه أين يتعرف يوما بعد يوم على الضغط والحرمان ثم على الانفراج والإشباع .

وعندما يحدث انفصال بين الطفل ومرضعته، الرغبة تُحبَط، لكن الطفل لا يدرك ذلك إلا عندما الحاجة الملتصقة بالرغبة تعاود الظهور، فتجد الحاجة نفسها مشبعة من خلال أي شخص كان، دون أن تستطيع الرغبة التعرف على الصوت والرائحة للشخص الذي رافق قبلا هذه الإشباعات.

وبهذ، فالمكان أين شدة الرغبة وشدة الحاجة يختلطان، يصبح مكان تمتع موعود، أُشبع أولا، وفي هذا المكان أين النقص يُختبر، هذا المكان الذي ليس فقط السند للعيش بالنسبة ل الجسم (الحاجة) وإنما أيضا للبحث عن الذات الأخرى (الرغبة)، هذا المكان في الجسم هو منطقة مولّدة للغلمة، وكل مرة يكون فيها الرضيع تحت التوتر، عن حاجة أو رغبة، فهو يبحث كيف يبلغ هذا الهدف الذي يمثل النيرفانا Le Nirvana للحضور الأمومي والأمن المعشش في حضنها.

إن الإدراكات الدقيقة- كما ذكرنا- ثم فيما بعد فتحة الشرج L'Anus، المهبل والقضيب تصبح مناطق مولدة للغلمة لمجرد:

- اتصالها بموضوع جزئي للتهدئة في علاقة مع الأم (فيما بعد مع شريك جنسي)؛
- غياب الموضوع الجزئي الذي يوسَّط عن طريق اللغة.

فالمنطقة المولدة للغلمة لا يمكنها أن تقدم إلى لغة الكلام، إلا بعد أن تحْرَم (الخصاء) نهائيا من الموضوع الخاص الذي من خلاله لقّنت على الاتصال الغلمي، وهذا غير ممكن إلا إذا نفس الموضوع الكلي (الأم) صوتت بكلماتها هذه المنطقة المولّدة للغلمة المرتبطة بالموضوع الجزئي الغلمي L'objet partiel érotique، كأن تقول له: " ثدي أمك ممنوع عليك الآن"، وبهذا تسمح هذه الكلمات للفم واللسان بأن يسترجعا قيمة الرغبة لديهما.

(Dolto, 1984, pp. 63, 64, pp. 67- 69)

فالأم من خلال اللغة الحركية، الإيمائية، السمعية واللفظية، ضمن تواصل متبادل مع طفلها تسمح له بأن يعدّ صور جسمه القاعدية الوظيفية والمولدة للغلمة.

5-10- صورة الجسـم والهو Le Ça

اعتبر S. Freud أن الهو يحوي كل موروث وما هو موجود منذ الولادة، وما هو ثابت في تركيب البدن وهو لذلك يحوي قبل كل شيء الغرائز التي تنبعث من البدن والتي تجد أول تعبير نفسي لها في الهو.

(فرويد سيجمند، 1986، ص.46)

أي أنه جمع بين الحاجة والرغبة، ودراسة صورة الجسم كما قدّمتها F. Dolto يمكن أن تساهم في توضيح مصطلح الهو Le Ça، و لكن على شرط، بإضافة أنه هناك هو Ça دائما ضمن علاقة، وأولا علاقة مع موضوع جزئي (الثدي) ضروري لبقاء الجسم.

صورة الجسم في اتجاه الرغبة ولا ترجع إلى الحاجة وحدها،كما يمكنها أن تكون سابقة للوجود Préexistée، لكنها متعايشة مع كل تعبير للشخص، شاهد على النقص في الكينونة الذي تسعى الرغبة إلى ملئه، في حين تسعى الحاجة إلى إشباع نقص الامتلاك أو الفعل للتصور الجسدي.

إن النزوات الصادرة عن الأساس البيولوجي المؤسَّس تحت شكل التصور الجسدي، لا يمكنها في الواقع المرور إلى التعبير في الهوام إلا عن طريق صورة الجسم , فإذا كان مصدر النزوات هو التصور الجسدي فإن مكان تصورها هو صورة الجسم (أي مثل الهو)، ومشيدة ضمن التواصل اللغوي مع الآخر، صور ة الجسم تشكل

الوسيلة، جسر التواصل بين الإنساني وهذا يعني أن العيش داخل تصور جسدي دون صورة جسم يمثل عيش ا أخرسا، وحيدا وصامتا، نرجسيا غير مستشعر لحدود العجز الإنساني La détresse humaine (مثل التوحد) فالكلمات حتى تأخذ معنى يجب أولا أن تأخذ جسما، أن تكون على الأقل معدَّة ضمن صورة جسم علائقية .

(Dolto, 1984, pp. 37, 38, p. 41, p. 45)

إذًا فالمتعضي أو التصور الج سدي يمد الهو أو صورة الجسم العلائقية بمصادر الطاقة ومنابع النزوات من خلال تضمنه للمناطق المولدة للغلمة، وبدورهما، أي الهو أو صورة الجسم العلائقية، هما ما يسمحان لهذه النزوات بالتمثل على مستواهما.

5-11- صورة الجسـم ونزوات الموت

تمثل نزوة الموت الميل إلى خفض التوتر، إلى الرجوع إلى الحالة اللاعضوية L'état anorganique، عندما تتوجه نحو الشخص نفسه تترجم التدمير الذاتي ، أما منقلبة على الخارج فتصبح نزوة عدوانية أو ما هو أكثر تدميرية، نزوة التدمير. (Marson, 2004, p. 139)

وقد أكد S. Freud على أن هدف الحياة هو ا لموت، لكنه لم يحدد لنزوات الموت مصدرا في الجسم و لم يطلق اسما على الطاقة التي تستعملها، وارتأى إلى أن الحياة طريق دائري لبلوغ الموت، فعندما يضطرب الوجود المستقر للمادة العضوية، تحاول العودة إلى حالة الخمود، وبهذا فالرغبة في الموت لدى الكائن الإنساني هي التم ثيل السيكولوجي لمبدأ الثبات. (**مصطفى غالب، 1985، ص. 29، ص.31**)

ولهذا فنزوة الموت تكمل عملها دون أن نراها أو نحس بها، لن يكون لها مكان ولا تصورات خاصة بها سوف تكون حذرة، سرية ومستترة، لكن في وضعيات استثنائية مثل المشاهد الصدمية التي تأتي لتترجم بشكل أكثر فعالية نزوة الموت هذه.

أكدت M-O Godard (2003) من خلال تحليلها للأحلام الصدمية ، على شكلين من التكرارات الخاصة، فتلك التي تنشد التسجيل، خلق الرابط والسيطرة على الإثارات من خلال سيرورة الترميز هي التعبير عن نزوة الحياة La pulsion de vie (Eros)، أما تلك التي تسعى إلى الحذف، المحو L'effacement, إلى قطع الرابط، إلى الإخماد عن طريق الاستتراف والإفنا ك، هي التعبير عن نزوة الموت La pulsion de mort (Thanatos). (Godard, 2003, p. 193)

وصورة الجسم حسب F. Dolto هي في كل لحظة بالنسبة للكائن الإنساني التصور الملازم اللاشعور ي أين تتأصل رغبته، ومع S. Freud تتفق F. Dolto بأن النزوات التي تسعى إلى تكملة الرغبة هي نزوات حياة وموت، ففي حين نزوات الحياة دائما مرتبطة بتصور، يمكنها أن تكون نشطة Active أو غير فاعلة Passive فإن نزوات الموت هي سكون الشخص، راحة Le repos، هي دائما بدون تصور، لا نشطة ولا سلبية.

نزوات الموت تتفوق أثناء النوم العميق، التيهانات، الغيبوبة، ليست الرغبة في الموت بمعنى الكلمة لكن الرغبة في الاستراحة والسكو ن، وتتميز بكونها بدون تصور متبق من علاقات غلمية مع الآخر، وهي تحرض

الشخص على الانسحاب من كل صورة مولدة للغلمة مثلما يحدث في النوم العميق، مثلم ا يحدث في الإغماء الذي يتبع انفعالا جد قوي، مثلما يحدث كذلك في سلس البول (التبول اللاإرادي) L'énurésie والتبرز اللاإرادي L'encoprésie الثانوي.

فصورة الجسم هي دائما صورة كامنة لاتصال ضمن هوام، لا توجد وحدة إنسانية لا تترافق مع استذكار (استحضار) لاتصال ماضي مع آخر، فالطفل وإن كان وحيدا، دائما حا ضر في داخله هوام عن علاقة ماضية واقعية ومنرجسة Narcissisante بينه وبين الآخر، الآخر الذي كان له معه في الواقع علاقة قام الطفل باجتيافها. (Dolto, 1984, pp. 34, 35)

ففي الحلم مثلا، الشخص لا يتواصل مع الموضوع في واقعه، وإنما مع الموضوع المتوهم أو الموضوع المختاف وبتبسيط أكثر نقول، أن كل حركية للرغبة نحو الارتباط حتى وإن كانت بسيطة، تترجم سيادة نزوات الحياة التي تترع إلى أشكال جديدة أكثر تمايزا وتنظيما، نحو صورة جسم أكثر تطورا وأحسن ترميزا ، نحو الرغبة والحياة، فالطفل ومنذ ولادته كائن رغبة، يترع إلى الأمام، إلى التطور والحياة، بينما كل كف لها، كل انكماش ينبئ بعمل نزوات الموت المؤقت (في الحالات الطبيعية مثل النوم) أو الدائم (في حالة الصدمات النفسية)، الذي يمزق الروابط ليعيد الشخص إلى صورة جسم قديمة تكيفا مع الوضعية، كذلك بشكل مؤقت عرضي أو بشكل يفضح قصور التفاعلات العلائقية المبكرة وعدم اكتمال عمل الخصاءات بالشكل المناسب.

5-12- صورة الجسـم وخصوصية الاسـم

بالنسبة لتسمية أطفاله، قال S. Freud: "أحرص على ألا تُختار أسماؤهم حسب ذوق (موضة) اليوم ولكن معدة من خلال ذكرى الأشخاص الأعزاء، أخيرا، الوسيلة لبلوغ الخلود، أليست بالنسبة لنا هي الحصول على أطفال؟." (Golse, 2002, p. 43)

فمن بين جميع الكلمات التي تسمع من طرف الطفل، هنا ك واحدة سوف تكون لها أهمية جوهرية، ضامنة للتماسك والالتحام النرجسي للشخص، إنه اسمه المرتبط بالجسم وبحضور الآخر، يساه م بشكل قاطع في تشكيل صور الجسم بما فيها الأكثر قدما، وهذا الرسوخ (ثبات شكل نفسي مميز)، الذي الاسم واحد منه، يظهر بأن صورة الجسم هي الأثر البنيوي للقصة الانفعالية للكائن الإنساني. (Dolto, 1984, p. 48)

الاسم بما يحمله من معاني متضمَّنة من طرف الوالدين، سيكون واحدا من الأسس القاعدية الراسخة المكوِّ نة لنرجسية الطفل ولنوعية إحساسه الأول بالوجود، الذي سوف يتأكد تدريجيا من خلال قصته العلائقية، فصحيح هو ينتمي –عن يقين– إلى هذا النوع الإنساني، لكن قد يكون وجوده مرفوضا، وهذا ما قد تح مله نوعية الانفعالات التي يشبع بها اسمه، كما قد ترسو نرجسيته القاعدية، يبرز الشخص إلى الساحة العلائقية ليختبر ذاتيته من خلال الخطاب الذي يوجه له من طرف الآخر بتحديد الاسم.

6- الوظيفة الرمزية La Fonction Symbolique

الرمز Le symbole في التحليل النفسي لا يعني العلامة Le signe أو الإشارة Le signal ولا الدليل L'indice، بل هو الممثل الحالي لشيء مكبوت، والترميز حسب S. Freud (1895) مرتبط مباشرة بالجسم، هو استعادة لعناصر من الواقع الجسمي في إطار الهوام. (B. Clément, 1976, p. 75)

F. Dolto (1984) ترى بأن كل كائن إنساني منذ ولادته موهوب بالوظيفة الرمزية، تسمح لمولود جديد بالتميز باعتباره شخصا راغبا ومسمى من ممثل غير معروف من النوع الإنساني، والخصاءات هي محن للتقسيم الرمزي، هي قول أو فعل ذو محتوى لا يمكن عكسه والذي يمثل قانونا، الذي لديه إذا أثر فعال في الواقع، متعذرة القبول في اللحظة التي تُقدم فيها، لكنها ضرورية من أجل نمو فردانية الطفل بال نسبة لأمه ثم أبيه والمقربين منه مثلما هي ضرورية لنمو اللغة. (Dolto, 1984, p. 82)

6-1- الخصاء المنشئ للرمز La Castration Symboligène

كلمة خصاء La castration تعني بتر وقطع الغدد الج نسية، إذا هي إصابة فزيولوجية تجعل الفرد الذي يتحمله (المخصي) عقيما بما لا إصلاح فيه.

في التحليل النفسي، يعود مصطلح خصاء على السيرورات التي تتم لدى كائن إنساني عندما كائن إنساني آخر يبين له بأن تكملة رغبته -تحت الشكل الذي يريد تقديمه لها- محرَّم من طرف القانون، وهذا التوضيح يمرَّر من خلال اللغة الحركية، الإيمائية أو اللفظية، لذلك تلحق بالكلمة صفة المنشئ للرمز Symboligène لأنها تعطي للمصطلح المعنى الخاص به. (Dolto, 1984, p. 78).

Pierre Delion (2005) يرى فيه عملية منشئة للرمز لأنها تشكل رمزا في رأس الطفل ، الذي يستقر لديه كمرجعية لحد لا يمكن تعديه، ولكن الرمز يتسجل لدى الطفل إذا كان حاضرا بشكل من الأشكال لدى والديه. (Delion, 2005, p. 36)

6-2- أنواع الترميز

6-2-1- الترميز المتسامي

هو التسامي إذا كان هناك خصاء يسند ترميز الترات ضمن المعنى ا للغوي نحو البحث عن مواضيع جديدة بشكل يتوافق مع قوانين الجماعة العائلية والاجتماعية، والرغبة التي هدفها الأساسي قد حرِّم، تسعى إلى تكملتها عن طريق وسائل جديدة، تتطلب سيرورة إرصان لا يتطلبها الموضوع البد ائي المرغوب (لأن الإشباع مباشر) لكن هذا لا يعني بأن الخصاء يساوي دائما التسامي، بل يمكن أن يفضي إلى الشذوذ وهذا ما سنتعرف عليه فيما يلي.

6-2-2- الترميز المنشئ للمرض

هو الترميز الذي يقيِّد، الذي يوجد توجها شاذا في إتمام الرغبة، الشخص إذًا يمكنه أن ينخدع باللذة التي يكتشفها مثلا في موضوع تثبيت، الذي يجلب لذة شديدة ومتكررة، أين تقع النرجسية في الفخ لأن البحث عن لذتها متوقف في الجسد، مكان جزئي أو كلي للمتعة ولكن موضوع للموت.

الشذوذ هو ترميز، لكن ترميز لا يتوافق مع قانون المجتمع، مع قان ون التقدم الذي من خصاء إلى خصاء يقود الشخص الذي يختبره نحو إنسانية بمعنى الإبداعية، وهذا الشذوذ قد:

- يعرف تحولا للتروات نحو إشباع لا يُدخِل تقدم الشخص نحو الامتثال للقانون؛
- يقود الفرد إلى نفي La négation سيرورات حية، وهذا ما نراه في المازوشية، أين الأنا الأعلى Sur Moi يصبح شاذا، مازوش ي وهيبوكوندري Hypocondriaque عندما يُجتاف (صورة ا لأم التي ترضى بالاعتداء)، أو مازوشي في العلاقة مع الآخر، أو مدمر ذاتي Autodestructeur (حوادث متكررة)، أو مجرد من الدفا ع المزاجي La défense humorale أمام الاعتداءات المنشئة للمرض؛
- عندما يدرَك الخصاء من قبل الراشد الذي يقدمه والطفل الذي يتلقاه، كمنع لكل رغبة تحمل كهدف لها اللذة، وكإنكار La dénégation لأبسط حدس يمتلكه الطفل فيما يتعلق بماهو متعة، في نموه الفزيولوجي العاطفي والعقلي؛
- الخصاء الذي يقدم الرغبة في الإشباع ضمن المعاناة مكان الإشباع ضمن اللذة، هو شذوذ ؛
- عندما يكون هناك أثر جنسي مثلي للتحريم الذي يمس إتمام زنا المحارم، والذي يدرك من قبل الطفل كتحريم لكل امرأة، فكل امرأة هي خاصة بوالده، ما يقود الصبي إلى توجيه التروات القضيبية التي تتمظهر داخله نحو البحث عن رجل وليس عن امرأة.(Dolto, 1984, pp. 80-82)

6-3- الشروط الضرورية من أجل ضمان البعد المنشئ للمرض لسيرورة الخصاء

6-3-1- اللغـة La Langue:

يرى J. Lacan بأن الإنسان يولد مرتين، مرة كحي ومرة كمتكلم، وفي ا لولادة الثانية لن تكون بعد الآن الغريزة هي المنظمة للحياة الفردية والجماعية، وإنما اللغة.(Cartuyvels, 2005, p. 79)

وتقصد بها F. Dolto اللغة با لمعنى الواسع للكلمة، وبمعنى أكثر تحديدا الكلمات التي تشكّل الوسيط لهذه التطورات التي تمثل الخصاءات المتجاوزة.

6-3-2- نوعيـة الراشد La Qualité d'Adulte:

يتقبل الطفل التحديد والتأجيل لإشباع رغباته، وحتى التحريم بعدم إشباعها مطلقا، إذا كان الشخص الذي يقدم له المنع هو شخص محبوب لديه، كما يجب أن يكون الراشد بالنس بة للطفل نموذجا للنجاح الإنساني والوعد بأن نفس هذه التروات يمكن أن تشبع من خلال التحصل على لذة فضلا على ذلك أكبر، في صورة ذلك

الذي يحدثه و يوجهه، ويصبح هذا الراشد نموذجا يمكن للطفل تتبعه والإصغاء إليه ، إذا امتلك اليقين بأن رغبته أُعطيت قيمة أكبر من اللذة، متقبلة وينظر إليها بشكل جيد من طرف الراشد.(Dolto, 1984, pp. 86, 87)

لذلك غياب الأب الرمزي الحاضر كفاية، أو غياب صورة الراشد الممثل للاحترام المتبادل ضمن جو من الأمن والتمايز، يعطي فرصة للمستغلين جنسيا للأطفال بأخذ مكانة، ليكون هذا المستغل هو الراشد الذي يقدم الخصاءات برؤيته المنحرفة، فبدلا من أن يؤجّل اللذة، يسرّعها ويحرّفها.

6-4- ملاءمة الخصاءات للتصور الجسدي

من أجل أن تأخذ الخصاءات قيمتها المولدة للرمز، من الضروري أن يكون التصور الجسدي للطفل قادر ا على احتمالها، لذلك هناك وقت محدد لإحداث كل خصاء، وقت أين التروات السارية قد أحدثت – قبلا– نموا معينا في التصور الجسدي، فالطفل الذي لم يبلغ سبعة أشهر من الحياة الجنينية، غير قادر على تحمل الولادة دون عناية خاصة، أو على ترميز الخصاء السري، كذلك الطفل الذي لم يبق بعد كفاية مع جسم الأم، هوغير قادر على تحمل الفطام دون نكوص إلى مراحل مبكرة من الأيام الأولى لحياته.

يبقى أنه مع هذا المتعضي الذي يجعل من الطفل كائن حاجة، يرتبط شخص ذو رغبة Un sujet de désir، فالطفل الذي بلغ الحركية ضمن إطاره العائلي، وفجأة ينقل إلى مكان جديد في غياب شخص وسيط بين الفضاء السابق والفضاء الجديد، وسيط يربطه بذكرياته السابقة، هذ ا يعتبر صدمة نفسية يعيشها الطفل صدمة قد توقف نموه الحركي، ولا يلقح ثانية على الوسط الجديد الحامي إلا وهو في حالة نكوص، فاقدا للمكتسبات، معيدا لعلاقة قديمة في الإطا ر الجديد، وذلك لأن هذا الانفصال، خصاء الرغبة الذي وقع في حب أشخاص ومواضيع الوسط السابق، لم يكن مرمزا أو منشئا للرمز، لقد كان انفصالا صدميا، ونكوصا صدميا إلى صورة جسم سابقة. (Dolto, 1984, pp. 85-87)

7- الخصـــاءات Les Castrations

7-1- الخصاء السـري La Castration Ombilicale

ترى F. Dolto أن ما يفصل في البدء جسم الطفل عن جسم أمه وما يجعله قادرا على الحياة، هو قطع الحبل السري ومن ثمة ربطه، فبقطع الحبل السري يتأصل التصور الجسدي ضمن حدود الغلاف الذي يمثل البشرة، مقطوع من المشيمة ومن أغلفة متضمنة في الرحم.

في حين كان قبلا جنينا مرتكزا على السبيل السري، من خلال ابتلاع السائل السابيائي Le liquide amniotique والتبولLa miction urinaire في السائل السابيائي، بفضل التغيرات الفزيولوجية بعد الولادة التي تترافق بصرخة مصوتة، إفراغ المحتوى الإجمالي المعوي (العقي Le méconium) المجمَّع في الحياة الجنينية جراء تنشيط التقلص الاستداري Le péristaltisme للقناة الهضمية، ترك الحياة المائية الدافئة للانتقال إلى الحياة الهوائية أين الإحساس الاستهلالي هو الاختناق , كلها تغيرات كارثاتية تطبع الولادة، التي من خلالها نترك جزءا مهما مما

شكّل سابقا في الرحم المتعضي الخاص بنا، أغلفة سابيائية Les enveloppes amniotiques، المشيمة، الحبل السري، جزء بفضله استطعنا أن نكون قابلين للاستمرار من أجل فضاء آخر الذي باستقباله لنا، جعل من المستحيل أبدا العودة إلى الفضاء السابق(الرحم), إلى شكل العيش والتمتع الذي خبرناه.

إن الندبة السرية وفقدان المشيمة، تعتبر كتجسيد مسبق لجميع الخ برات التي تسمى فيما بعد خصاءات وهذا الانفصال الأول المتمثل في الخصاء السري سوف يكون مؤسِّسا لنماذج الفرح أو القلق التي ترافق ولادة الطفل فيما يتعلق بعلاقته برغبة الآخرين.

العنصر السمعي الأكثر بروزا سيكون من خلال تكرار اسمه الدال على وجوده في العالم بالنسبة لوالديه والدال على جنسه كذلك، إنه الكلام إذا ما يرمز الخصاء السري، هذا الكلام سوف يطرق تكراريا سمع الرضيع مع جميع العواطف التي يدركها حدسيا لتجسّد شكلا لوجود نرجسي أولي.

هناك مصدران مولدان للرمز اللذان يؤسسان الخصاء السري:

- الأول يرجع إلى الأثر العضوي للولادة ضمن استقرار الصحة النفسوجسدية للأم، ومن هنا للثنائي المقترن ضمن علاقتهما التناسلية؛

- الثاني هو الأثر العاطفي الذي تجلبه إمكانية عيش الطفل، زيادة أو نقصا لنرجسية كل واحد من والديه اللذين سوف يقدمانه لحياتهما كحامل للمعنى الذي يمتلكانه في تلك اللحظة، وبهذا، المصدر الدينامي اللاشعوري المتعلق بنرجسية الوالدين سوف يسند بشكل غني أو فقير نمو الطفل.

هذان المصدران للقدرة المولدة للرمز الناتجان عن الخصاء السري للطفل (ولادته) والخصاء الخيالي La castration imaginaire للوالدين (تقبل الواقع والتوقف عن التوقعات)، يلاحظان بشكل جلي عندما يُستترف أحدهما لحظة الولادة كموت الأم، أو عندما جنس الطفل ومظهره يخيبان آمال الوالدين (الطفل المثالي) وهذا ما سنتناوله ضمن جزء أمراض صورة الجسم.(Dolto, 1984, pp. 90-95)

F. Dolto ترى بأن التحريم القاعدي الذي ينتج عن الخصاء السري هو منع مص الدماء L'interdit du vampirisme "لن تمص بعد الآن دم الأم حتى تحيا وتبقى "، وهذا ما يفسر حسبها ولع المراهقين وتلذذهم بمتابعة أفلام مصاصي الدماء، هذا لأن هذه المواد توظّف نوعا ما بشكل واعٍ، بالعودة للاتصال بأجزاء طفلية مبكرة قبل الولادة مع التيقن من أنها لن تخرج عن دراما الفيلم. (Delion, 2005, p. 37)

7-2- الخصاء الفمي La Castration Orale

الخصاء الفمي للطفل يعني الفطام Le sevrage ومنع استهلاك ما يمكن أن يكون مضرا للجسد، أما الخصاء الفمي للأم فيتضمن تقبل انفصال جسمها عن جسم رضيعها، وأن تكون قادرة على التواصل مع طفلها بشكل آخر غير أن تقدم له فقط الغذاء أو أن تأخذ فضلاته أو أن تفترسه بالقبل والمداعبات، يجب أن تتواصل معه عن طريق الكلمات والحركات التي تمثل لغة.

ومن وجهة نظر نزوية Pulsionnel وموضوعية Objectal، الخصاء الفمي هو بالنسبة للطفل الانفصال عن جزء من نفسه متواجد في جسم الأم، إنه الحليب الذي قام هو بتفجيره في ثدي الأم، سوف يتخلى عن وهم الافتراس بالنسبة لهذا الموضوع الجزئي (الثدي)، ليُحْرَم فمه من العلاقة اللم سية مع حلمة الثدي، إنه ثدي الأم لكنه يعتقد بأنه ملكه، فيقوم بملأ الفراغ الذي يخلقه غياب الثدي داخل الفم بوضع إصبعه ليحصل على لذة مجرَّدة من التغذية، هي كذلك لذة التحقق من أن فمه ليس جزءا، وهناك خصاء ناقص، على الأقل في جزء منه بالنسبة للطفل الذي يستمر في توهم علاقة مع الأم مؤسِّسا لعلاقة غلمية ذاتية بين فمه ويديه، على العكس عندما يكون الانفصال ضمن فطام تدريجي، أين اللذة الجزئية التي تربط الفم مع الثدي تقاد من طرف الأم لتوزع على المعرفة المتتابعة، بلمس مواضيع أخرى تسمى من طرف الأم لتدخله إلى اللغة.

ركزت F.Dolto على البعد الشمي لكل ما يدور حول الخصاء الفم ي، فمثلا في الرضاعة كمتممة للحاجة، الطفل يختبر إشباعا غلميا، في نفس الوقت شمي Olfactive وشبه افتراسي بمجرد الإمساك بالثدي بين فكيه، في حين أن الطفل الذي لم يتحصل قبل على الثدي والذي أرضع مباشرة من الرضاعة الاصط ناعية، يجد نفسه خاضعا لغياب هذا الشم الغلمي، لأنه من خلال الشم، أين الأم يمكنها من موضوع جزئي حلمي L'objet partiel mamellaire أن تصبح كائنا متمايزا كموضوع كامل Un objet total، لأن الرائحة لا تتصل بمكان محدد بالنسبة للطفل، وهنا يحتفظ الطفل والأم معا بما يب قي خاصا برابطهما النفسي، هو رابط حسي- نفسي بالنسبة للطفل، رائحة جسم الأم المقربة منه، صوتها، رؤيتها، نظرتها، إيقاعاتها وكل ما ينجم عنها، وما يمكنه إدراكه في اتصال جسم مع جسم، كذلك الأم التي لم يتغير شيء في صغيرها الذي لم يعد يأخذ مطلقا الثدي، هذا ما يُحدِث الأثر المولد للرمز للخصاء الفمي، إنه تقديم الطفل باعتباره منفصلا على الحضور الأمومي إلى العلاقة مع الآخر.

أما الأم التي لا تتحدث إلى رضيعها، تلك التي أثناء العناية به بسبب اكتئابها تبدو لامبالية إطلاقا، أو التي بعد فطامها له لا تستطيع م نع نفسها باستمرار عن التهامه بالقبل وإثقاله بالمداعبات، تلك التي تضررت قبلا من علاقة مضطربة مع أمها والتي تحاول يائسة الشفاء منها، يتحول طفلها بالنسبة لها الموضوع التيمي Le fétiche للثدي الأمومي القديم، حيث هي كذلك فطمت بشكل صدمي. (Dolto, 1984, pp. 99-107)

7-3-الخصاء الشرجي La Castration Anale

هناك مفهومان لمصطلح الخصاء الشرجي هما:

- الانفصال La séparation / عندما يتوقف الطفل على أن يكون موضوعا جزئيا محتجزا ضمن تبعية إلى الركن الحامي، خاضع إلى ملكيته وإلى مراقبته الكاملة (التغذية، اللباس، الاستحمام، النوم والتجول).

- المنع/التحريم L'interdit /تحريم كل فعل مضر وهدمي بالنسبة للذات مثلم ا بالنسبة للآخر، والمواضيع المستثمَرة من طرف الآخر مثل الملكية الخاصة، فيحرَّم عليه القتل مثلا.

من خلال فضلاته، الطفل يطرح الأم الخيالية المدمجة تحت شكل موضوع جزئي، الذي بعد ابتلا ع اختفى وبعد مساره في القناة الهضمية يعلن عن وصوله (آلام عند الإخراج) إلى المؤخرة (المقعدة Le siège)، فقد أكل الأم عن رغبة مرتبطة بالافتراسية الخيالية، وها هو يخرج الآن الجزء من الأم الذي عن لذة، انفصل عنه في شكل براز صلب أو سائل، إنها أم خيالية التي يأخذها ويرميها، بينما الأم الواقعية فتعطيه الموضوع الغذائي الجزئي وتسحب منه الموضوع الهضمي المفرَّغ (البراز) الذي يبدو أنها تشتهيه، هو أشياء جيدة حسب منطق الإدماج L'incorporation، فتأخذ فضلات الطفل بهذا قيمة باعتبارها مواضيع تُفترض للتغذية وللذة الأم.

عندما تنمو القدرة الحركية بعد أن كان الخصاء الفمي مولّدا للرمز ، والرعاية الأمومية لمقعد الطفل تترافق بكلمات، بألعاب وبعلاقة عاطفية كاملة مع الأم، ينمو التصور الجسدي متقاطعا مع صورة الجسم، مرتبطا بالعطية المولّدة للغلمة الإفراغية وباللذة الوظيفية للقوة العضلية الحركية، لذة تترجم ا لاهتزازات السعيدة لأطرافه جسمه، ابتسامته، قرقراته وصيحاته.

والخصاء الشرجي ليس ممكنا بشكل مولّد للرمز، الذي يجعل الطفل بناء، إلا عندما يكون هناك تماهي حركي مع الموضوع الكلي الذي يمثل كل واحد من الوالدين ومن يكبرونه سنا، من خلال حركيتهم ا لم تعمَّدة والملاحظة من طرف الطفل، أما عدم ج ثمة الطفل، فتأتي من كون المربين لم يحترموا يوما بعد يوم رغباته للمبادرة الحركية حتى وإن لم تمارس أي خطر واقعي، والطفل فقط من خلال التجربة، سوف يكتشف بأن الممنوعات حامية، وأنه عندما ينتهكها يجلب لنفسه معاناة واقعية، وهذه الخبرة هي التي تعطيه ثقة في والديه وفي أقوالهم المحدِّدَة لحريته المطلقة، لكن نرى أن الخصاء الشرجي لا يمكن أن يتم إلا عندما يكون الوالدان بالفعل محترمين للطفل و لممتلكاته الخاصة، بتهذيبه من خلال الثقة فيه (نجد بعض الأهل يقومون برمي الألعاب القديمة أو المكسرة للطفل د ون علم له، غير محترمين لشخصه، مع أن هذه الألعاب المجزأة هي جزء من نموه، البعض الآخر يستحوذون على الأموال التي تقدم للأطفال كهدايا بحجة جمعها لهم).

وبهذا فاكتساب النظافة الطبيعي يكون دائما تلقائيا لدى الطفل المربى ضمن الثقة واحترام كرامته الإنسانية لأن القيام بالإفراغ" Faire Pipi et Caca "في الأماكن المخصصة للراشدين يعطي الحق ببلوغ مستوى إنساني يحرِّره، مع استقلالية كاملة بالنسبة للحاجات الجسدية، سمة الشرف الإنساني في المجتمع، وهذا لأن الطفل ينظر للراشدين الذين يذهبون إلى المراحيض ويختلون فيها على أنهم يمتلكون مفتاحا رمزيا ذو قيمة كبيرة، لا سيما وأن الطفل لا يرافقهم.

ومن بين الأطفال الذين يُتطلب منهم التعفف في وقت مبكر، من يأخذون تأخرا بالنسبة للتصور الجسدي في صورة الجسم، لأنه بالنسبة لهم، الطريقة الوحيدة للبقاء أشخاص ا تكمن في معارضة الأوامر الممثلة للأم وحرمانها من هذه اللذة التي لديها، كون الطفل يحس نفسه زاني فمي وشرجي بالانشغال بالإفراغ والفضلات هذه المنطقة مخزية ومقدسة في آن معا، أين الحاجات والرغبات هي في الأصل ذات قيم أخلاقية متناقضة.

7-3-1- أهمية شكل الاستجابة التي يقدمها الراشد للطفل في المرحلة الشرجية

- إذا الأم أظهرت إعطاء أهمية لاستقبال الموضوع الجزئي البرازي بمقدار الطفل ككل، مثرثرا، مبتسما ماسكا لبعض المواضيع ومتبادلا إياها مع الأم، بهذا تعطي قيمة اللغة للحاجات، للفضلات كما هي، فمنذ الآن الفضلات كما هي لا يمكن أن تكون هدية، بينما هي كذلك بالنسبة للطفل الذي تبتهج أمه بفضلاته أكثر من غبطتها بنشاطاته اللعبية اليدوية والصوتية، لتصبح بهذا فتحة الشرج L'anus في شكل ما بديلا للفم، لأنها المدلول الشرجي الذي من خلال الأم اتخذ قيمة؛

- بعض الأمهات يغتبطن ويسردن للعالم أجمع عن إفرازات أطفالهن، هذا الطفل هو قا بل للشذوذ، يحاول إرضاء أمه أكثر فأكثر من خلال استعراض موهبته فيجلب إناء تبرزه أمام الجميع؛

- إذا الوسائل الأساسية للتبادل بقيت بشكل مفضل هذه المواضيع الجزئية الإحليلية والبرازية، خاصة عندما تنتج هذه المواضيع الخام بطريقة لا شعورية وحتمية من طرف جسمه، الطفل سوف يكون مؤهلا للاعتقاد بأن امتثاله السلبي لرغبة تقديم فضلاته في اللحظة التي يريدها فيها الراشد يمثل علاقة إنسانية متناغمة، وهذا ما يحرِّف ما تتخذه معنى الإبداعية لدى الطفل، إنه انحراف قهري، يجعل من الطفل الشيء الموظَّف لأم قلقة عندما لاتجد ما ترغب رؤيته داخل الإناء؛

- كل ترويض Un dressage هو تحريض شاذ للسلبية؛

- خلال هذه السن، جميع اللذات الجسدية هي أساسا متموضعة على Le cavum، الفم، فتحة الشرج بالنسبة للصبي في القضيب، وبالنسبة للفتاة في الفرج (الثغر) La vulve والبظر Le clitoris، لذات يحدثونها من خلال و ساطة أيديهم، والممنوعات الكثيرة للمس مواضيع خارجي ة بجسمه، تجبر الطفل على اعتبار يديه خطيرتين، وإذا مُنع عليه لمس جسمه الخاص، فهو يصل إلى الاعتقاد بأن جسمه كل ه أو جزء منه موضوع خَطِر قابل للقطع، قابل للافتراس، وإلى الاعتقاد بأن عضوه التناسلي في خطر بسبب يديه، وبذلك، كل جرح نرجسي يدفع الطفل إلى الانطواء على نفسه على لذات معروفة، إذا دون خطر بالنسبة لتصوره الجسدي.

(Dolto, 1984, pp. 107 -141)

7-4- مرحلة المرآة Le Stade du Miroir

تمثل مرحلة المرآة حسب J. Lacan اللحظة التي يبدأ فيها الطفل التعرف على نفسه في المرآة مختبرا فرحًا كبيرا، يحدث نوعا ما الالتحام بين لذة رؤية أمه ضمن كليتها، واللذة في القيام بتحريك جسده الخاص وبرؤية نفسه يتحرك، إنه التعرف على استمرارية نفسه كمرحلة قاعدية في نمو الشخصية. (Voizot, 1977, p. 81)

وتؤكد F. Dolto أنه عندما نعطي قيمة للبعد التأ ملي للخبرات التي يقال عنها مرآوية دون أن نؤكد بشكل كافٍ على البعد العلائقي الرمزي لهذه الخبرات التي يمكن أن يقوم بها الطفل، فلن تكون — واقعيا- إلا مرآة مسطحة، لا فائدة منها إذا الشخص ووجه بغياب مرآة لوجوده في الآخر، لأن هذا ما هو مهم.

مرحلة المرآة، لحظة ال تأكد من الإحساس بالوجود لدى الطفل، التي يمكن أن تكون رمزية بالنسبة له لكينونته في العالم بالنسبة للآخر باعتباره فردا وسط الآخرين، يمكنها أن تكون مُفقِدة للرمز بالنسبة لصورة جسمه، من خلال رؤية هذا الشيء الذي يمثل جسمه الخاص دون التعرف عليه بأنه له، مظهر لآخ ر غير معروف، صورة ينكر بأنها تخصه، هذه الصورة التأملية يجب إذا بالنسبة له أن تتطابق مع الخبرة المعروفة قبلا لتلاقي تصوره الجسدي مع صورته اللاشعورية.

اللغة الإيمائية والعاطفية التي أسسها الطفل مع العالم المحيط لا تجلب له أي إجابة فيما يتعلق بهذه الصورة التي يلاقيها في المرآة، والتي يدرك أنه الوحيد السبب فيها لأنه لم يلتق سوى سطح بارد وليس طفلا آخر ا، وأنه إذا ابتعد من أمام هذا السطح البارد فإن الصورة تختفي، على عكس جميع الخبرات الأخرى، لذلك فالصورة التأملية لا تأخذ معنى الخبرة الحية إلا من خلال الحضور بجانب ا لطفل، لشخص معه صورة جسمه وتصوره الجسدي يتعرفان على بعضهما، في نفس الوقت الذي يتعرف فيه على هذا الشخص داخل السطح المستوي للصورة التأملية، وإلا فهناك خطر بسبب المرآة أن تتلاشى صورة جسمه دون أن تتخذ الصورة التأملية معنى بالنسبة له.

إنها خبرة المرآة فقط هي التي تقدم للطفل صدمة إدراك بأن صورة جسمه لا تكفي للإجابة للآخرين عن كينونته المعروفة لديهم، بأنها إذا غير كاملة وهذا لا يعني بأن الصورة المرآوية تجيب عنه، هذا الجرح النهائي المتعذر إصلاحه لخبرة المرآة، يمكن تسميته الثقب الرمزي Le trou symbolique الذي منه ينجم عدم تكيف صورة الجسم والتصور الجسدي.

تكرار خبرة المرآة يطعّم الطفل ضد الذهول الأول، ويضمنه من خلال الشهادة المرآوية بأنه مهما يحصل لن يكون أبدا قابلا للتجزئة، لأنه بالنسبة للآخرين الذين ينعكسون مثله، غياب مظاهرهم لا يصيبهم في تكامل كينونتهم ككل، بأنه يستمر في لقائهم مثل قبل، ضمن دفء التبادلات، تعارض أو توافق الرغبات بينه وبين الآخرين.

لكن في حال لم يحدث هذا، من خلال هذا الثقب، تحدثت F. Dolto عن الفراغ، عن علاقة مرآوية غريبة، غير متطابقة، التي تتمثل في قناع حي Un masque vivant، هنا المرآة تسمح للطفل بم لاحظة نفسه وكأنه آخر Un Autre الذي لن يلتقيه أبدا، فهو يرى نفسه، ولكن كل رغبة في التواصل مع الآخر تكون محبطة، فيجد نفسه داخل هذه النافذة الغريبة، خديعة، طعم لآخر الذي لا يعرفه والذي لن يعرفه أبدا، وفي مكان كان ذو حجم ودافئ ، هناك سطح مستوٍ وبارد.

صورته تختفي من هذا السطح عندما لا يكون أمامه، وتظهر عندما يعود أمامه، تصبح بالنسبة له خبرة ملازمة لحضوره، لكنها خبرة فقط مرآوية، بدون إجابة، دون تواصل، نداؤه وحركته في المرآة هي نفسها، نداؤه يخاطب هذه الصورة لكنه لا يسمع سوى صوته الخاص، لا وجود للآخر لكي يجيبه، بهذ ا المعنى هي صورة مستعبِدة ومستلبة إذا لم يكن هناك في الفضاء شخص يعرفه، والذي معه أمام المرآة، يظهر له بأنه هو كذلك يستجيب إلى نفس شروط الانعكاس على هذا السطح المستوي البارد.

هناك هنا خبرة خديعة وفخ في لقاء الآخر، فالصورة المرآوية تصبح البديل اللاشعوري لصور ة الجسم اللاشعورية، وتحدث لدى الطفل إنكارا وتجاهلا لعلاقته الحقيقية مع الآخر، مثل هذا الفخ الذي يخلقه المظهر، فخ لما هو ليس كائنا حيا ولكن مظهرا جزئيا، قناع لكائن حي، فلا يكتشف التكامل الظاهر أولا، الطابع المنشي إلا إذا أُشبعت نرجسيته ورضت بالصورة التي يراها في المرآة.

إنه هنا، لحظة التماهي الأولي L'identification primaire، أصل النرجسية الأولية Le narcissisme primaire التي تتبع النرجسية الجوهرية Le narcissisme primordial، فتتخذ نرجسية الطفل هنا معنى لها من لاشعور الأم وترتبط به وتخضع للشكل الذي تنظر به إليه. (Dolto, 1984, pp. 147 – 156)

7-5-الخصاء الأولي :خصاء تناسلي غير أوديبي

La Castration Primaire : Castration Génitale Non – Œdipienne

يتمثل في اكتشاف الفرق الجنسي بين الفتيات والصبيان، هو لا يعرف في شكله إلا السطح الأمامي من جسمه الخاص (عن طريق النظر في المرآة)، ووحدها الإحساسات اللمسية التي تتم عن لذة أو ألم، تسمح له باستشعار المنطقة الخلفية (الدُبر) للحوض Le bassin من خلال الرعاية في الاستحمام مثلا.

الوجه الأمامي للحوض الذي يقوم بالتبول ويحدد الجنس، لا يلاحظ من طرف الطفل ضمن تمايز الأشكال الذكرية أو ا لأنثوية إلا بعد ثلاثين شهرا على العموم، لكن هذا السطح الأمامي قد طرح له مشكلا من قبل فعندما يجلس على ركبتي الراشد، يقارن نهدي النساء مع صدر الرجال، والكلمات التي تقال لهم فيما يتعلق بهذه الاختلافات للأجسام تحثهم على الافتراض، خاصة إذا كانوا صبيانا، أن خروج عضو إلى الأمام الذي يمكنه لمسه لجنس الرجال له نفس الطبيعة مثل العضو البارز إلى الأمام البين على صدر النساء، وليس من المستغرب أن الأطفال وليس فقط الأصغر سنا، لا يمتلكون كلمة أخرى من أجل وصف هذه الأعضاء غير الأصوات المزدوجة مثلا Lolo، هو تكرار للصوتم الدال على حليب الأم المخفض للعطش Le lait، أو Pipi للدلالة على القضيب حيث Pi مقطع للمحاكاة الصوتية للقذف المتتابع من ضرع البقرة باستعمال اليدين.

والرؤية الواضحة بالنسبة للصبيان لغرابة عضو الفتاة الجنسي بمثابة صدمة ونفس الأمر بالنسبة للفتاة ، فيفكر الصبي بأن الفتيات يمتلكن قضيبا مخبأ مؤقتا، والفتيات يكون ل ديهن مباشرة حركة خاطفة، عفوية و لاإرادية، لا يطرحن أسئلة وإنما يقلن:" إنه لي، لقد أخذته مني".

وضمن الحالات التي تتطور بشكل سليم، يمنح الكلمات الحقيقية التي تسند مطابقة جنسه إلى مستقبل امرأة أو رجل، هذا الشكل الجميل للقضيب يتسجل ضمن اتصالية للشكل الجميل للثدي، فالفتاة تسلّم بأنه أكثر قيمة بالنسبة لجسده ا ألا تمتلك قضيبا من أجل التبول، لأنه من جهة يمكنها التبول جالسة أو واقفة، ومن جهة أخرى بالبحث داخل المنطقة التناسلية عن القضيب المخبأ أو تحت فكرة أنها ستدفعه ليكون، تكتشف البظر الذي يقدم لها اشباعات تدرك معها أن أمها وباقي النساء اللاتي مثلها سعيدات، فتستخلص أنه شرط من أجل الحصول على أطفال وإسعاد الآباء.

إنه هنا أين يجب سند الخصاء التناسلي ضمن كلمات مرمزة توضح بأن كلا الوالدين مشتركين في عملية الإخصاب، أي أن الطفل ينتمي إلى كليهما، وعندما يسأل الصغير عن الجنس، يجب أن يفهم بوضوح بأن هناك إخصابا للكائنات الإنسانية، بمعنى المسؤولية الإنسانية عن الأبوة والأمومة وليست تفاصيل العلاقة الجنسية، لأن هذه الحقيقة إذا لم تميَّز بما يتناسب مع فهمهم، فسوف يتخيل هؤلاء الأبرياء الفعل الجنسي L'acte sexuel على أنه وظيفي بحت (قمتم به على حسب عدد الأولاد)، فيلصقون الطابع الحيواني للقاء الأول الذي يرغبون فيه كرجال ونساء في المستقبل. (Dolto, 1984, pp. 164 -175)

فالتربية الجنسية التي تشتمل على توضيح مفردات القرابة، هي ما سيهيئه لتقبل الخصاء ا لأوديبي، وما سيسمح له بتكوين تصورات سليمة ومتمايزة نوعا ما فيما يتعلق بالجنسية، تقيه وتسمح له برد الفعل في حالة الاستغلال الجنسي.

7-6-الخصاء التناسلي الأوديبي: تحريـم زنا المحارم

La Castration Génitale Œdipienne : Interdiction de L'Inceste

منذ أن يمتلك الطفل المعرفة بانتمائه القطعي والنهائي إلى جنس واحد، صورة جسمه تتغير بالنسبة له، إنها شعوريا تلك التي يجب أن تتلاءم في الواقع مع جسم سيصبح فيما بعد جسم امرأة أو جسم رجل .

7-6-1-الصبي:

الصبي هو أكثر مباشرة في الأوديب، إذا أحس بأن أمه تقدر والده فسيفخر به، وس يبحث عن التماهي الكلي معه ليتحصل على الامتيازات التي لدى والده ضمن الخصوصية مع أمه، وهنا أين يستحسن على الأب أن يقدم لإبنه الخصاء قائلا له :"إنه من المستحيل مطلقا أن يحب إبن أمه مثلما يحبها رجل آخر، وهذا ليس لأنك صغير وأنا كبير، بل لأنك ابنها ولا يمكن مطلقا لإبن وأمه أن يتزوجا وينجبا الأطفال".

لكن ماهي صورة الجسم المستعملة بالنسبة للصبي الذي يدخل في الأوديب؟

إن النزوات التناسلية النشطة التي تترسخ في الإحليلي، تبقى نزوات جزئية قضيبية تسعى نحو موضوع الرغبة بشكل غير مباشر، إنها نزوات ينقلها الطفل على مواضيع جز ئية تمثل في حد ذاتها صورا جزئية من جسمه الجنس القضيبي على وجه التحديد الذي ينقله على جميع وسائل المصادمة، الأسلحة المخصصة للهجوم، للاعتداء التوغلي (الاختراق)، للثقب، ضمن ألعاب قذفية وأفعال سادية في استهداف الفتيات، على حد قوله لقتلهن.

هنا هو يسقط من خلال ه ذه الألعاب رغبته في قذف سائل قاتل (فضلاته) يدرَك كسيئ بما أنه يرمى من طرف الجسم، أو رغبة في قذف "ما" يصنع الأطفال، وبفضل تحريم زنا المحارم، يتخلى بعد مدة عن هذه الألعاب العدوانية القضيبية، لينقل عدوانيته مستثمرا إياها في النشاط اليدوي والفكري، أما إذا لم يق دَّم هذا الخصاء من خلال تحريم زنا المحارم، فيمكنه أن يبقى كل حياته ضمن فكرة الاختيارالنرجسي- قصرا- للموضوع المختار الذي قد لا يكون أخته أو أمه ، ولكن الذي يكون مخصصا لرغباته الجزئية التناسلية الوحيدة، موضوع مختار من أجل أن يخضعه تحت الترهيب أو العنف إلى تبعيته.

7-6-2- الفتاة:

الفتاة تدخل في الحياة التناسلية ضمن هدف غواية أحد يجعلها أمًا مثل والدتها، فبالنسبة لها الرجال لديهم القضيب Le pénis والنساء لديهن الأطفال، والرغبة في التماهي مع أمها تقودها – إذا كان الثنائي على وفاق- إلى الرغبة في الحصول على الامتيازات التي خص بها والدها أمها، يتمظهر هذا التماهي أولا من خلال رغبتها في الزواج من أمها اعتقادا منها بأنها تنجب الأطفال هضميا، فالحمل والمخاض في هواماتها أشياء أنثوية بحتة تحمل شيئا من السحر، قادر على صناعة هذا الرضيع الشرجي.

الفتاة لا يمكنها الدخول في الأوديب إلا بشرط محاولة اختراق المحرَّم وإيقاع والدها في شرك الغواية، نزواتها تنجذب إلى القضيب الذي يمثل بالنسبة لها القدرة والذي تريده لها، لذلك، في الهوامات، انتهاك منع زنا المحارم من طرف والدها أو أحد إخوتها يعطي قيمة لشخصها ولنسلها، أن تُمسَك، أن تُغت صب وأن تُخترق مثلما حدث لأمها على يد أبيها يفسر أحلام المطاردة للفتيات الصغيرات.

لكن كيف نميز بين الهوام والواقع الذي قد تسرده فتاة صغيرة في حالات الاستغلال الجنسي، خاصة وأن المواقف المنحرفةللفتاة كثيرا ما تترجَم بالكلام أكثر منها لدى الصبي؟

نقول أن هناك فرق كبير بين الطريقة التي تتحدث بها مع تفاصيل واقعية، فتاة كانت فعلا موضوعا لغاوي وتلك التي تختلق الأمر، فالأطفال الخاضعون لتعديات رجال من العائلة أو خارج العائلة لا يستطيعون التكلم وقت الاعتداء، يلتزمون الصمت لأنهم يحسون بالذنب وفي نفس الوقت بالفخر في إثارة اهتمام الراشد، وعموما هم لا يمتلكون الكلمات للتهرب من مبادرات المنحرفين، لأننا لم نحدثهم قط قبلا عن خبرة أين يكونون فيها تماما ضعفاء. (Dolto, 1984, pp. 186-195)

صبي أم فتاة، الطفل موهن لحظة الارصان السليم للأوديب، هو بحاجة إلى حماية والديه في جميع الح الات وإلى رقابة تربوية فيما يخص ما قد ينبثق أمامه في المجتمع.

7-7- مرحلة الكمون

الشخصنة La personnalisation تُعرَّف كمحاولة إنسجام بين تصرفات من خلال وساطة مشروع حياة، ليست مفصولة عن الجتمعة La socialisation التي هي محاولة إنسجام بين تصرفات فردية وعلائقية مع الجماعة، من خلال وساطة تحول إجتماعي و ثقافي ضمن لعبة علاقات. (Ross, 1993, p. 115)

وطريقة تفاعل الراشدين مع الطفل يمكنها أن تسنده أو أن تشعره بالذنب عندما يواجه صعوبة، فالطفل جد حساس إلى الإصغاء الصادق والحضور العفيف والمتعاطف للراشد، الذي يتجرد من الملا مات والخطاب الأخلاقي في الإصغاء إليه، هو بحاجة إلى تنمية ثقته بنفس ه أثناء ومن خلال فشله، فليس الأب هو من يؤنب ويعظ, وإنما الأب هو من يسند معنويات طفله، لا أن يحس الطفل بامتثاله للمحرَّم بأنه فقد كل قيمة في عيني والديه ويتملكه الإحساس بالرفض. (Dolto, 1984, p. 198)

8- ثمار الخصاءات

قصدت F. Dolto بثمار الخصاءات المصير المقدر للنزوات التي لا يمكنها أن تشبع مباشرة ضمن الإشباع من جسم إلى جسم، أو إشباع الجسم بمواضيع غلمية محرمة، وضمَّنتها مفهوم سيرورة التسامي (الثقافة) الذي هو ثمار لعمل الخصاءات المتتابعة الصحية التالية:

- ثمرة الخصاء الفمي (فطام جسم الرضيع عن الجسم المرضع) هو إمكانية ولوج الطفل إلى لغة لا تكون مفهومة فقط من طرف الأم، وهذا ما يسمح له بعدها بالاستقلالية ؛

- ثمرة الخصاء الشرجي (انفصال جسم عن جسم حامي طفل /أم) المقدم من طرف أم مطمْئِنة ومساعدة بحضوره ا اللفظي، يعدُّ الطفل للرضا بحاله ضمن الفضاء والحيز الحامي، ليقوم بتجاربه الخاصة ويكتسب استقلاليته التعبيرية والحركية المتعلقة بحاجاته وبعدد من رغباته، فينمو بسلامة نحو أوديب موافق للأخلاق السائرة في ثقافته؛

- ثمار الخصاء الأوديبي تتمثل في تأقلم الطفل وتكيفه مع جميع وضعيات المجتمع، فلن يعيش بعد الآن مطلقا من أجل فقط أن يرضي، ويتمتع بالأب والأم، بل من أجل نفسه والحيز العلائقي المنفتح ككل؛

- فيما بعد الأوديب، إنه الحداد في الواقع على أحلام اللذات التي يقر الطفل بأنه لا يمكن تحقيقها، متماهيا مع الراشد المحرِّم الذي يحبه ويحترمه، فيدخل مع جميع وعو د المستقبل من أجل الوقت أين يصل مع البلوغ إلى النضج التناسلي.(Dolto, 1984, pp. 72 -76)

9- الرابط النرجسي، الأركان النفسية وتحرير الليبيدو بفضل الخصاء

9-1- النرجسية:

S. Freud (1914) في مؤلفه "Pour Introduire Le Narcissisme" ذكر بأنه قد استعار المصطلح من P. Näcke (1899) الذي استعمله في وصف الانحراف، وفي الواقع P. Näcke كان قد اشتق المصطلح من كلمة Narzissmus، ولكن للإشارة إلى رؤى H. Ellis الذي كان أول من وصف السلوك المنحرف بالارتباط مع أسطورة Narcisse. (Hirigoyen, 1998, p. 150)

9-1-1- حسب S. Freud:

يرى S. Freud أن مفهوم النرجسية لا ينطوي على مرحلة أو زمن مؤقت، ولكن على وضعية اقتصادية بمعنى نمط من الاستثمارات الليبيدية، وقد ميز بين:

- النرجسية الأولية Le Narcissisme Primaire /

تعني مرحلة التوظيفات الأولى للأنا الكلي عن طريق الليبيدو والنابعة من الهو، وقد وضع S. Freud في "مافوق الغلمة الذاتية" فرضية الحالة النرجسية الأولى الاستكفائية السابقة لكل توظيف موضوعي وأين النموذج سوف يتمثل من خلال الحياة داخل الرحم.

- النرجسية الثانوية Le Narcissisme Secondaire /

هناك دائما تأرجح بين التوظيف النرجسي والتوظيف الموضوعي، فالأنا يجب أن يعتبر كخزان كبير لليبيدو المرسل نحو المواضيع، والذي دائما مستعد لامتصاص الليبيدو الذي يرتد من خلال المواضيع، لكن بما أن الخزان الأصلي لليبيدو هو الهو، فالأنا لا يستطيع أن يضمن هذه الوظيفة إلا بعد توظ يفه الأول والمعروف بالتوظيف النرجسي. (Golse, 2002, p. 32)

9-1-2- حسب F. Dolto:

النرجسية هي قوة حيوية، شيء ما كالقوة التي يمنحنا إياها الإله داخلنا والتي لا يمكن إنكارها (Dolto, 1989, p.15) و قد ميزت F. Dolto بين ثلاث مراحل نرجسية هي:

- النرجسية الأصلية Le Narcissisme Primordial /

ومرتبطة بتحمل المولود الجديد للخصاء السري، بمجرد أن ينجو من الولادة مكتشفا استقلاليته التنفسية وعلى مستوى باقي الأجهزة.

- النرجسية الأولية Le Narcissisme Primaire /

تنتج من خبرة المرآة التي تعكس للطفل وجهه، هذه الخبرة ملازمة لم عرفته لجسده كذكر أو أنثى، وهذا نهائيا، يخلق التمييز بين الممكن والمستحيل الذي لا يتعلق بإرادة الوالدين.

- النرجسية الثانوية Le Narcissisme Secondaire /

هنا يضاف منع زنا المحارم بالنسبة للتروات الجنسية في أن تبقى في المجتمع حيوانية وغريزية بدون قانون مهذّب، فعلى الطفل من الآن وصاعدا أن يتحكم في هذه الرغبات، أن يفرق بين التفكير والفعل، وأن يتعلم الفعل باسمه، وهذا ما يشكل هوية الشخص ضمن الجماعة الإنسانية. (Dolto, 1984, p. 200)

9-2- الأركان النفسية وتحرير الليبيدو:

الليبيدو Libido مصطلح لا تيني يُترجَم بمعنى الرغبة Désir، مفهوم أستعمل من طرف S.Freud الذي استعاره عن Albert Moll للدلالة على مجموع الغرائز الجنسية والقوى النفسية التي تمثلها، وفي كتابه "ثلاث مقالات حول نظرية الجنسية" "Trois essais sur la théorie de la sexualité" يرى S. Freud (1905) أن الليبيدو: "هي قوة كميا متنوعة، تسمح لنا بتحديد السيرورات والتحولات ضمن ميدان الإثارة الجنسية"، إذا هي شكل من الطاقة المرتبطة تحديدا بالدفعات الجنسية. (Marson, 2004, pp. 161, 162)

ضبط الاقتصاد الليبيدي اللاشعوري قبل الأوديب يمكن وصفه كتجانس داخلي بين الهو Ça، الأنا Moi والأنا المثالي Moi Idéal، مصون من طرف أنا أعلى قبلي Pré- Sur Moi، هذا الاقتصاد يُغيَّر لأن الأنا ليس لديه بعد الآن أنا مثالي، مثال الأنا L'Idéal du Moi الذي ليس ممثلا من خلال شخص موجود، يأخذ مكان الهدف المراد بلوغه والذي يسند الحوافز الشعورية واللاشعورية للرغبة، وإذا شخصه استمر في الوجود، في الكبر

لن يكون أبدا أنا أعلى- قبلي الذي كان دائما ينتمي إلى الكيان الحامي الذي يحافظ ويسهر على مراقبة أفعال الطفل، الآن إنه الأنا الأعلى Sur Moi، يتموضع على هوامات خلقها هو نفسه أثناء رغبته المستحيلة بالنسبة للموضوع المحرم.

هذا الأنا الأعلى، وريث لا شعوري للأنا الأعلى القبلي والهوامات المثارة جراء تحريم زنا المحارم، يطرح هوام النجاح في جميع الاحتمالات في علاقة غرامية وجنسية غير محرمة، يدعِّم ويسند النرجسية الثانوية للشخص إبتداءا من مرحلة الكمون وحتى أيضا البلوغ، إذًا هذا الحاجز الموضوع بشكل جيد ومُرمَّز من طرف الوالدين أمام رغبة طفلهم المنتهكة للمحارم، هو الذي حرَّر الطاقة الليبيدية للطفل نحو مواضيع خارج العائلة .
(Dolto, 1984, pp. 204 -206)

نحو تسويات ملائمة لتصوره الجسدي والصورة اللاشعورية التي يمتلكها عن قدرة هذا الجسم، فلماذا لا نحرره من مضايق الرغبات القديمة من خلال الخصاء السليم نحو أفق الحياة، لكن إذا أراد الراشد تقديم الخصاء أن يعلّم الطفل الاحترام الذي يجب أن يقدمه له، لن يكون ذلك إلا من خلال احترام شخص هذا الطفل، الذي هو أيضا ماضي (J. Ross)، قصة واستراتيجيات تتأصل، لكن قبل كل شيئ هو نزوع نحو المستقبل، في بحث متأمِلا ومنفتحا على رهانات علائقية جديدة مع الآخرين.(Ross, 1993, pp. 114, 115)

10- أمراض صورة الجسـم

10-1- أخطار تشوه صورة الجسـم أثناء الحمل

الحمل يؤدي إلى اضطراب جميع معالم استمرارية الكينونة المختبَرة عبر الزمن، فمن وضعية طفل والديه إلى وضعية والد لطفل صغير، ومن المسؤولية اتجاه الذات إلى المسؤولية اتجاه الآخر، ومجمل هذه التغيرات الحقيقية في الهوية تشكل زلزالا، ومثلما نوقّر هذا البطن المكوَّر، قد نصطدم من المواقف السلبية لبعض النساء بالنسبة لتغيرات أجسامهن، لكن سيرورة تغير شكل الجسم هذه تستدعي لديهن أشكالا قديمة من القلق، فكل ما يسيطر عليها أنها"سوف تتشوه"، "سوف تصبح بشعة" و "سوف تنفجر". (Linden, 2007, p.21, p.23)

قد لا نفاجأ إذًا من وجود بعض الانقطاعات أثناء فترة الحمل -حتى وإن كان الجنين فزيولوجيا سليما- تمنعه من تشكيل صورته الجسمية الأولى وحتى أن يُسند نرجسيته الجوهرية، فأثناء الحياة الجنينية التكافلية أين استقرار الثنائية جنين /أم هو جد مهم من أجل صيرورته الإنسانية، يكفي أن يتحمل الرابط المبكر مع الأم إنقطاعات مؤذية جراء صدمات نفسية مؤثرة عل ى المرأة الحامل وقادرة حتى على زعزعة معنى الحياة لديها تجعلها تنسى وجودها الخاص، زوجها وحتى الجنين الذي تحمله، فعندما تفقد المرأة الحامل شخصا عزيزا مثلا، إذا هذه الصدمة أنستها لأيام حملها، من المحتمل جدا أن يوجد فيما بَعدُ الإشارة لذلك في ردود الأفعال ال برانوية Les réactions paranoïaques للطفل، هنّ أمهات يخرجن إلى العالم أطفالا ذهانيين منذ الولادة (و هذا أكيد مالا توجد فرصة لاستشفافه إلا أثناء عمل التحليل النفسي).(Dolto, 1984, pp. 209, 210)

الحمل إذًا شكل من الشفافية النفسية حسب Monique Bydlowski (1998)، أين لاشعور الأم يكون مفتوحا، في حالة استعراء, مما يسمح ببروز مختلف الطبقات النفسية التي قد أسهمت في قصتها.

(Delion, 2005, p. 33)

وكان W. R Bion قد قدم بشكل مجازي وخيالي الحياة النفسية قبل الولادة، مؤكدا أن هناك دون شك عناصر لحياة نفسية، الحاوي Le contenant المتمثل في رحم الأم هو من أجل وظيفة صد ما يكون جد عنيف وعن خطأ من الحاوي النفسي، قد تبقى عناصر من الإثارة الحسية جد حية، مرتسمة في النفس- جسدي كعناصر متعذّرة التمثيل من طرف جهاز تصور الأفكار. (Geissmann, Houzel, 2003, p. 450)

إذًا وحده الحفاظ على هذ ا الرابط اللاشعوري للرغبة بين الجنين والأم (La génitrice) هو ما يسمح للطفل بالعيش بسلامة وبطريقة صحية حياته الجنينية.

10-2- الصدمات المبكرة أثناء الولادة

هناك شيء متشابه لدى الأطفال الذين أمهاتهم يصبن بتزيف Une hémorragie في المشيمة Le Placenta Proevia أثناء الولادة، وكأنهم في انقطاع مع الرابط الرمزي مع أمهاتهم، وهن كذلك في انقطاع مع الرابط الرمزي مع أطفالهن أثناء الساعات التي يكن فيها في خطر الموت، والطفل كذلك في حالة إنعاش، هؤلاء الأطفال يعيشون وكأنهم قد ماتوا أثناء الولادة، إنه التناسق شخص/صورة الجسم/الصور الجسدي الذي لا يمكنه أبدا أن يتشكل، لأن التوجه نحو الحياة(الرغبة) بالنسبة لهم يعني المخاطرة بالموت.

ضمن هذه الفراغ العلائقي للوالدة مع طفلها، الفرح يعطي مكانا لقلق الموت الوشيك، يُتجاهل جنس الرضيع، ويحاط هذا الأخير بهوامات قاتلة من طرف الأب غالبا، لأنه تسبب بالخطر القاتل المميت لأمه.

وفاة الأم جراء هذه الولادة الدرامية بعد زمن من الحميمية والخصوصية مع رضيعها، يؤدي كأثر إلى منع الطفل من الانبناء ضمن نرجسية أساسية متناسقة، ثم الحداد العائلي الذي يجلب للطفل الإحساس بالذنب، بأنه قتل أمه، إنه مثل القاتل وزاني المحارم، مغتصب لاشعوريا ومرتكب لاثنين من أكبر المحرّمات الإنسانية.

أما إذا توفيت الأم بعد زمن أرضعته واهتمت به فيه، فسوف يحس وكأن الأم رحلت خاطفة معها الثدي بدون علم أحد، خاصة إذا رحلت دون أن تستطيع بنفسها أن تطمْئِن الطفل بأنها تستأمن شخصا آخر عليه لتأخذ معها الفم العلائقي واللغوي للرضيع، شيء من أنفه، شفتيه، قصباته الهوائية، لسانه، حاسة السمع والشم لديه، التي تتضامن خياليا مع الثدي المختفي مع الأم، صوتها، رائحتها، وملمسها الحيوي، لذلك فالموت المبكر للأم التي تعتني كليا بطفلها يمحو مكان الرابط في جسم الطف ل، الذي يمثل وساطته إلى اللغة وإلى الوجود الإنساني الذي زوّده به هذا الراشد الفريد، فيواصل التواجد م ثل باقي الثدييات، لكنه يفقد ما كان إنسانيا وبشكل فريد يحييه وينعشه.

وعندما الطفل يبقى بعد هذا الموت الرمزي الوشيك، الذي هدّد مناطقه المولدة للغلمة، وحتى وجو ده المتضمن الرغبة في التواصل، فإن النتيجة المتخلفة الأدنى لهذه الأحداث الصدمية الباترة هي تخلف وعيوب اللغة

أن يعلَق اللسان داخل الحنك Le palais، صيحات هي إفراغات مستمرة للأصوات أو الغياب التام للإصوات (التجهير) بسبب الموت الرمزي للحنجرة ، فالنرجسية المتصدعة في العمق والمضعَفة للمستقبل تترجم جراحها على مستويين:

– الجرح على مستوى علاقة الشخص بجسمه الخاص، بمجرد أن صورة الجسم قد بترت من منطقة مولّدة للغلمة رحلت مع الراشد المعتني، والتي هي منطقة الشم والابتلاع؛

– الجرح الأعمق هو فقدان العلاقة التي سبق لها التواجد والجد قوية أحيانا بين الرضيع والأم، وهذا الجرح لا يمكنه أن يلتئم إلا من خلال الكلام الصادق، الصادر عن شخص يعلم الطفل بأنه كان على وفاق مع أمه، يحدّثه عن الخبرة الصدمية التي عايشها معها.(Dolto, 1984, pp. 211-213)

إذًا هو الكلام وحده ما يمكنه بشكل رمزي إعادة إقامة التناسق الداخلي للطفل، فلا يمكننا إذا أردنا مساعدته على تجاوز محنته أن نجعله يختزل ألمه، بل علينا إسناده لتجاوز هذا الألم.

10-3- الفطام وإخفاقاته

في الحالات الشديدة للفطام المفاجئ أو الذي يتم عن طريق الترك أو موت المرضعة (الأم)، ما يمكن أن يبقى من الرضيع كشخص راغب Un sujet désirant يتمظهر من خلال نكوص في السلوك، يعود إلى ما تبقى من الهوامات السابقة للصدمة، أين كل ما قد ساهم قبلا في تشكيل الصورة الممسكة للفم واللسان، ضمن اتصال الرغبات بقدر الحاجات (إستناد)، يمكنه أن يعاود الظهور بشكل يقهقر من إمكانيات تصور جسدي مرتبط فيما بعد مع صورة جسم لاشعورية في اتصال مع الأم، لذلك تطلق Dolto على هذا الشكل من الفطام اسم الفطام المتوحّش Le sevrage sauvage مكان الفطام المؤنّس (المهذّب) Le sevrage humanisant .

صورة الحنجرة وتجويف الفم يمكن أن يفقدا، كذلك ك فاءات الإصوات حتى التي اكتسبها الطفل سابقا وهذا ما يماثل الدخول في حبسة Un mutisme نفسية المنشأ دون إصابة حاسة السمع، وعندما يتعلق الأمر بصورة الجسم الأكثر قدما، أي الصورة التنفسية، التي عليها ترتكز النظم القلبية– العرقية Cardio- vasculaire والإعاشية Végétatif يمكنها أن تُتلف من خلال المعاناة العاطفية المتولّدة من التقليص والترقيق المؤلم للرابط رضيع/أم.

كذلك نجد مرض عسر التنفس الشُعبي La gêne respiratoire bronchitique وانسداد Le Cavum الملاحَظ في مخاط الأنف المطمْئِن، والذي يحتاج إلى إبقائه تحت الأنف كمحاولة للعودة إلى صورة قبل الولادة أين هذه المنطقة (Le Cavum والمسالك الهوائية) لم تعلَّم بعد، مغمورة في السائل السابيائي الذي يحمي صورة الجسم الجنينية، هذا الموضوع القذر الذي يشكّل موضوعا تيميا Un fétiche قديما للعلاقة المطمْئِنة مع الأم المرضعة، كرمز وحيد باقٍ من الماضي، فقدانه يغرق الطفل في قلق كبير ليسقط تدريجيا دون أن ينتبه أحد في التوحد الثانوي L'autisme secondaire الشبيه بالنيدلة.

ويُلتمس البحث عن هذا الرابط كذلك لدى الأطفال الذين يشمون كل شيء، قد يشمون أجسام وأرجل الأشخاص، وكأنهم في بحث ملح ولجوج عن ر ائحة قد تكون رائحة المسالك التناسلية لأم قديمة أو قد تكون رائحة ولادتهم التي تجعلهم يهتدون إلى أشخاص الرغبة للتواصل البينفسي.

وعموما، الانفصالات المفاجئة والدائمة لصورة الجسم وللشخص، المتواجدة غالبا بعد الاستشفاءات المبكرة (L'hospitalisme – Spitz) والتبديلات المتتابعة للمرضعات، تجعل الطفل ينكص إلى حالة أين حاجاته الحيوية تشبع ضمن محيط لن يكون له أبدا فيه تبادلات لغوية، إيمائية أو حركية، فيصبح متوحدا، نزوات الرغبة لديه تبقى بدون مخرج، تترمز بشكل مساخي غريب إلى هلاوس فك خطير في مكان ما في الفضاء، إنه فمه الخا ص ما سوف يُفقد، وتحت شكل تصويتات مخيفة، ستكون صيحاته الخاصة التي يمتصها الفضاء (الحيز المكاني)، والتي تكون خارج الزمن بشكل تخيلي هلوسي.

هوام الجسم المحمول بين ذراعي الأم المتلاشية يتمظهر كطلب للاتصال من فم إلى ثدي، غير مرتبط بصورة جسم لا شعورية مناسبة، يهاج م أحيانا أحد ساعديه أو يديه التي تُتخذ مواضيع تيمية ممثلة للثدي الأمومي في جسمه هو، ذكريات وحيدة ضامنة لعلاقة ترضيع مرتبطة بالثدي وذراعي الأم التي تحوي الحب، هذا التوحد الصدمي يُردُّ إلى صدمة رمزية، تضاف إلى محنة في الواقع أو ترافقها، هذه المحن (الخبرات) تكون دائما مرتبطة بخصاءات ظلت غير مولّدة للرمز ولهذا يبقى الرضيع يعاني.

لذلك نقول بأن هذه الاضطرابات المبكرة في الاتصال تحدث دائما آثارا، حتى وإن نجح الطفل في تجا وزها فالتصور الجسدي الخاص بعمره لم يتقاطع مع الوسائط الضرورية لإعداد صورة جسم مطابقة، هذه الوسا ئط الرمزية هي إدراكات سمعية، بصرية ولمسية، المقدمة للمعلومة والمتأتية من الأم المتفاعلة مع طفلها والمتحدثة معه ويتبع هذا تأخر نفسي حركي وتأخر في اللغة. (Dolto, 1984, pp. 214 -221)

France Tustin تحدثت في هذا الصدد عن التوحد الطفلي L'autisme infantile, عن الولادة النفسية قبل النضج La naissance psychique prématurée، حيث أرجحت مشكل التوحد ككل إلى الوعي المبكر عن أوانه بان فصال الذات عن الموضوع، في مرحلة الطفل فيها ليس في قدرة تسمح له بمواجهة الفقدان، معيش مؤ لم لهذا البتر الذي لدى المتوحدين يرتبط دائما بالفم، إحساس بفقدان جزء من الجسم الخاص اقتلاع حلمة الثدي في نفس الوقت وكأن جزءا من الفم أُقتلع. (Geissmann, Houzel, 2003, p. 451)

10-4- العمر الفمي، الشرجي والمراحل اللاحقة حتى الخصاء الأولي

من آثار الفطام المرمز بشكل سيء، نجد رعب الالتهام لدى الأطفال، ففي الظلام يتخيلون ذئابا أو تماسيح يمكنها أن تلتهمهم، وكأن المناطق المولّدة للغلمة الفمية التي لم ترمّز بشكل كاف (على أنها تخصه) يمكنها التجول في الفضاء والإمساك بهم كموضوع لرغبتها.

عندما يتعلق الأمر بطفل قبل اكتساب المشي، إذا لم يكن لديه على الأقل في متناوله م ص الإصبع المنقذ فإن احباطات خفض توتره لا تجد بالنسبة له كمكان للقلق إلا ما يمثل بالنسبة له كرابط مع الأم، مع اضطرابات

للقناة الهضمية أو مخارج Le cavum، سلس البراز L'encoprésie، سلس البول L'énurésie، التهاب الحَرْقَوة (التهاب الأنف والبلعوم) La rhinopharyngite، التهاب الأذن Une otite.

عندما تكون المناطق المولّدة للغلمة، الوجه، الفم، فتحة الشرج والردفين المرتبطة بالتروات الفمية والشرجية مدمَجة مع اللذة، ليست في علاقة لغة مع الأم المرضعة ولا مع صور وظيفية (الصور الوظيفية الفمية للتقلص الاستداري Le péristaltisme غير المضطرب من الفم حتى فتحة الشرج) ولا مع الصورة القاعدية المتمثلة في (البطن، المعدة، المعي) سليمة، فإنه يكون هناك نكوص للشخص حتى صور قلبية تنفسية وتقلصية استدارية مضطربة، قد يكون هناك نداء إلى العودة المستحيلة للأم الجنينية في حالة عدم التعرف الشمي، أو نداء بلا جدوى للأم اللمسية والصوتية، وهذا ما يُحدث شكلا من أزمات الربو، التشنج في الشهيق والزفير Le spasme du sanglot والتهاب الحنجرة La laryngite.

إذًا صورة الجسم لهذا الطفل التي إليها تعبيرات جسمه المريض لم تترجم في ألفاظ تصبح صامتة، خرساء بالنسبة له، تُخفّضه إلى تصور جسدي يتصارع مع نزوات الموت، هذا الطفل يعاني ولا يمتلك بعد الآن أمان العلاقة كشخص مع الموضوع الكلي (الأم) أو من خلال موضوع جزئي خاص بها(صوتها، رائحتها، كلماتها).
(Dolto, 1984, pp. 236, 237, p. 251)

10-4-1-الخصاء الشرجي وإخفاقاته

يتم الترميز في هذه المرحلة تبعا لبعدين:

- فضاء الأمان L'espace de sécurité/ هو ذلك الذي فيه يترك الطفل على حريته، والذي فيه تستثمر الأم كلمات تُخزن لترافقه كمبيحة ومساعدة ضمن جميع الانشغالات التي يمكن أن يجدها في هذا الفضاء في غياب الأم، أما بتقليص فضاء الأمان الراجع إلى كلمات متعلقة بمنع اللمس والحركة، وإلى تحديد حيزه الحر في الحياة، الطفل سوف يحس بأن رغباته ومبادراته مولّدة للقلق بالنسبة لأمه.

- زمن الأمان Le Temps de sécurité/ مدة الانفصال عن الأم أو كل شخص حامٍ هي كذلك مرجعية للأمان، هي المدة التي يمكنها أ ن تكون متلائمة مع الإيقاع الضروري من أجل العودة المغبطة، وهذا الانفصال هو الذي ينظم صورة الجسم المتقاطعة في الزمن والفضاء مع التصور الجسدي، ضمن نسيج من العلاقات بين رغبته والعالم الذي يحيط به.

إذا الطفل لم يستطع تجربة واكتشاف على إيقاعه الفضاء الذي يحيط به ، وكان قد بلغ منذ أشهر عديدة النمو العضلي الذي يسمح له بذلك، بأن يُحمل دائما داخل المترل، وخارجه ينقل بواسطة المدفوعة La poussette أو السيارة، هذا الطفل لن يقوم إلا بخبرات بصرية خيالية بالنيابة وبالتماهي مع الآخر، وفي هذا السجن نزواته الشرجية بدون مخارج، م قموعة بدون كلمات، غير مرمَّزة، تثبّت لتستخدم على السجل الفمي الخيالي بتوهم كل الاستطاعة مرتبطة بتصور جسدي مجهول، غير عاجز ولكن غير مختبَر، يكون دائما بدون

علاقة مع الصورة الوظيفية للجسم التي يشكلها الطفل، ليس بالخبرة، وإنما بالتماهي مع الآخرين، بالنظر إليه م يتحركون ويسيطرون على الفضاء.

في الخيال , يمنح صورة جسمه المقيَّدة إلى صورة التجول للآخرين التي يلاحظها ويخزنها، فلا يصبح أنا- أنا/ Moi- je، بل يصبح أنا- أنت/ Moi- tu، هذا الطفل عندما بالمصادفة ينتهك هذه الجدران المصطنعة التي نصبت حوله، وينجح دون لقا ء أي من التكهنات السلبية المعلنة، سوف يفقد كل أنا أعلى ومعه كل معيار للأمان.(Dolto, 1984, pp. 258 -262)

ولأن الأطفال عادة يرتمون على مرجعية الكبار في كل يصادفون، معتقدين أنهم يفهمون كل شيء، ربما حتى اليوم الذي يسألونهم فيه عن الموت، فيدركون سواء أن الأشخاص الكبار يخافون من الحديث عن الموت، أو أنهم- إذا تلقوا إجابة على تساؤلاتهم- لا يعلمون شيئا عن الموت، و في هذا اليوم فقط أين يدرك الأطفال بأن الأشخاص الكبار لا يتعمدون عدم فهمهم (Dolto, 1986, p. 09). فيباشرون حدادهم على الصور الوالدية ملتمسين كذلك لها الأعذار.

فشل الخصاء الشرجي المولّد للرمز يدخل الطفل في لعبة الاحتفاظ عن طريق الإمساك La constipation أو الإفراغ في الإسهال La diarrhée، وفي جميع الحالات بشكل لا شعوري غير متحكم فيه، فالإمساك قد يكون إشارة لكف العلاقة الحركية مع العالم الخارجي لأن الطفل لم يُهيَّأ له، كما قد يصاب بالإسهال عندما آثار إثارة حركية لا يمكنها أن تترجم بشكل آخر، و تكبت فيما يخص تصرفات جسمه الهيكلي العظمي العضلي على مواضيع العالم الخارجي.

النزوات الشرجية تمارس فعلها إذًا على صورة الجسم الأولى، على الحركة اللولبية (التقلص الاستداري) الخاصة بالقناة الهضمية التي تصبح مفرطة الحركة، وهذا ما يحدث الإسهال، فالإسهال الأول يكون غير عفِن لكن القناة الهضمية تكون خاضعة لنشاط زائد، الجزء الفارغ منها الذي لا يعالج محتوى هضمي، يثار على نفسه و يحدث إصابة بسبب تقلص استداري على الفراغ، أي التمزق المخاطي Le délabrement muqueux.

الإسهال إذًا هو شكل لرد خطر أمومي- خياليا- مستدخل، فيظن الطفل أنه إذا أفرغ كثيرا، الأم الفمية La mère orale سوف ترجع من فوق , تجلب معها مواضيع جزئية في فتحة القناة الهضمية لأنه سوف يفرغ من الأسفل الأم السيئة، وهذا ما يجعله يأمل بأن تأتيه من الأعلى الأم الجيدة.

وعندما يفرغ الطفل بعنف محتوى قناته الهضمية فكأنه يقول لأمه "إملئيني من الأعلى"، بمعنى أنه ينادي على التواصل، على الأم الرمزية، على حضورها وحنانها، وإلا سيبقى بالنسبة لها كالقناة الهضمية.

(Dolto, 1984, pp. 111-113)

10-4-2- الغلمة الفمية- الشرجية للوالدين وأثرها المولد للمرض على الطفل

الوسواس هو الوسيلة لإيقاف النمو الليبيدي بالعودة إلى سمة شرجية، أو تحريم متعلق بجميع مواضيع اللذة الجزئية والأشياء المحاطة بها وكأنها كلها عبارة عن براز، والأم التي تربي الطفل بهذا الشكل هي قلقة من جنسيتها

الخاصة المكبوتة، خدعت في نكوصها بتثبيت تيمي Une fixation fétichiste على طفلها تحت ظل حب أمومي، هي تترجم غلمة بيدوفيلية Un érotisme pédophilique.

وبهذا الأنا القبلي Le Pré- Moi الإنساني المحبَط والممنوع من الفردنة، يتنازل إلى دور حيوان أليف مروض لرغبة مالكه الراشد الحامي، رغبات الشخص إذًا تُسقط في الأنا الأعلى القبلي Le pré- Sur moi، متخيلا منطقة مولدة للغلمة، فمية، شرهة، مفترسة، محبطة للذة، باترة وقاطعة لأصابعه التي تمتد على شيء قالت الأم ألا يُلمس. (Dolto, 1984, pp. 272, 273)

10-5- المرحلة التي تلي الخصاء الأولي- المرحلة الأوديبية ومرحلة الكمون

الوالدان اللذان مرا بأوديب صعب أو خصاء سيء Les parents mal castrés يعيشون في غموض علاقتهم العاطفية مع أطفالهم، أو عندما يقوم الأب لوحده بوضع قانون المنزل ضمن سجل نزواته الفمية الشرجية والإحليلية، المشبَعة ضمن السلوك البارانوي Le comportement paranoïaque, سيظن الطفل برؤيته لهذا الذكر المسيطر على امرأة مذعورة، بأنه فقط من خلال النزوات الإحليلية – الشرجية أين يصبح الرجل مواطنا ذو قيمة في المجتمع.

إذا كبيرة هي حساسية مثل هذا الصبي للجنسية المثلية، سواء الجنسية المثلية السلبية (الخاضعة) L'homosexualité passive بالتماهي مع الأم المكتئبة، لكنها ذات قيمة لأنها الوحيدة الحامية لأطفالها أمام الأب، أو جنسية مثلية إيجابية (نشطة) L'homosexualité active مشكَّلة ضمن الارتباط مع الأب، أين النموذج يحثه على التفكير في هذا، لذلك هؤلاء الآباء يصنعون مغتصبين للنساء والقوانين .

عندما لا يتحصل الوالدان على الخصاء من والديهما يصبح الأطفال تحت رحمة سلوكات شهوانية ملتبسة تحت إطار العاطفة الأبوية، إنه دور المدرسة خلال هذه المرحلة في إسناد وتدعيم الروح النقدية لدى الطفل بمقابل أقوال الراشدين والقوانين –غالبا غير المعقولة– التي يخضعون لها، والتي يعتقد الطفل بأنه مذنب إذا انتهكها، في حين هذا ما يجب القيام به.

كذلك تتواتر مختلف الاضطرابات الخاصة بهذه المراحل من اضطرابات التغذية والاضطرابات النفسوجسدية المختلفة... وغيرها. (Dolto, 1984, pp. 191, 192, p. 342, p. 346)

وقد إستخلصت F. Dolto إنطلاقا من تجربتها الشخصية وتحليلها الذاتي، أن ما هو مهم ليس في العادات التي يمتلكها الأشخاص، أو حتى في الجو التربوي مهما كان ، إذا بقي الشخص يقظا بشكل طبيعي، إذ ا حاول دائما فهم دوافع تصرفات وردود أفعال أولئك الذين يحيطون به وليس فقط بالتماهي معهم.
(Dolto, 1986, p. 134)

11- العلاقة نفس/جسد : بين الهستيريا والجسدنة

التفاعلات بين الجسد والنفس حصلت على اهتمام وتساؤلات الفلاسفة منذ الأزل، وكان J – M Charcot قد أكد بأن الكلمات تؤثر على الجسد وأن الجسد يمكنه أن يكون متأثرا باللغة، ثم S. Freud الذي

عمل مع J. M Charcot وJoseph Breuer درس الشخص الإنساني ضمن كليته، واستند على كون المتعضي الحي وحدة وأن سير أجزائه لا يمكن أن يفهم إلا في علاقة مع النظام ككل.

(Abadie – Rosier, 2009, pp. 76, 77)

وقد ميزت Françoise Dolto (1984) ضمن إدراجها لأمراض صورة الجسم بين:

11-1-الهستيريا L'hystérie

يطلق اسم الهستيريا على السلوكات التي لديها لا شعوريا مقاصد تلاعبية بالآخر، والنرجسية التي يبدو أنها أصيبت في الهستيريا هي النرجسية الثانوية.

11-2-الاضطرابات النفسوجسدية Les Troubles Psychosomatique

اسم يطلق على الإصابات الوظيفية في الجسم التي لا تكون راجعة إلى أسباب عضوية، ولكن الأصل في هذا الخلل الوظيفي الفزيولوجي هو اضطراب نفسي لاشعوري، لأنه ينجم عن ألم بمناسبة معاناة حميمية ترجع إلى علاقة مخفقة مع كائن مختار، التي تترجَم –أي المعاناة– من خلال جرح خيالي مع عودة إلى صورة جسم قديمة.

كما أن الاضطراب النفسوجسدي الحا لي هو تكرار –مضخم أحيانا– لخلل ماضي في النظام ، واقعي أو خيالي لجسم العميل، هذا الجسم الذي يصبح البديل لمرافق مزامن لخبرة مرتبطة بخبرة اليوم، المرافق الذي يظن الشخص بأنه يفهمه ولا يتركه لوحده أمام معاناته ومع جرحه الحالي، وفي الاضطرابات النفسوجسدية تصاب النرجسية الأولية، وهنا تنتظم هذه السمة حول التبعي ة بالنسبة للأكل والفعل (الإخراج)، أو حول الاستقلالية بالنسبة للكائن المحبوب في الطفولة. (Dolto, 1984, p. 352, p.359)

هذا الكائن المحبوب (الأم) ضمن العلاقة المختارة، أين كان يمكن أن ترافقه خبرات الخصاء الشرجي والفمي مشبَعة بالمعاني حتى يتم ترميزها، لم ينجح في إسناد النمو والترقي، مما جعل النرجسية الأولية عرضة للتصدعات والتي تترجم معاناتها مباشرة في الجسم.

وبهذا تصبح التظاهرات السوماتية مثل الكلمات، فالطفل الذي يعاني من اضطرابات تنفسية أو الذي في موضع آخر يتحدث بأمعاء باكية هو طفل ضمن صعوبات علائقية، وقد مهَّدت F. Dolto لإصغاء مختلف للأطفال خاصة الصغار جدا، فالتعبيرات الجسدية للرضَّع تُتَخذ ككلمات، لأن الطفل –حسبها– يتعرف على أمه وعلى أبيه منذ الولادة، لذلك كل الإيماءات، وضعية الجسم و النظرات هي تعبير مباشر لكائن إنساني ضمن علاقة مع الآخر. (Hassoun, Spielmann, 1995, p. 85)

وحتى بعد اكتساب اللغة، يبق ى الجسد بما سجله من خبرات مفرحة وأخرى مؤلمة، وسيل ة التعبير الأولى عندما تعجز الكلمات عن ترجمة ما نحس به.

11-2-1-اختيار عضو الجسدنة

أثناء سيرورة الجسدنة من خلال عضو أو وظيفة، هو في الواقع، المتعضي في كليته وإجماله الذي يعبر عن سوء حالته، والاضطرابات أولا تكون عامة مع التعب، غياب النوم والهزال، ثم تتطور فيما بعد إلى إصابة وظيفتي للعضو تغير فزيولوجيته، وغالبا ما يصاب العضو الأكثر ضعفا.

11-2-2-الجسدنة حسب F. Alexander

قدَّم الفزيولوجي Franck Alexander (1941) نموذجا مبينا من خلاله سيرورة حدوث الجسدنة La somatisation ومستخلصا للعلاقة بين نوعية المعيش النفسي وشكل الإصابة العضوية الظاهرة.

شكل رقم (04): يوضح نموذج الجسدنة

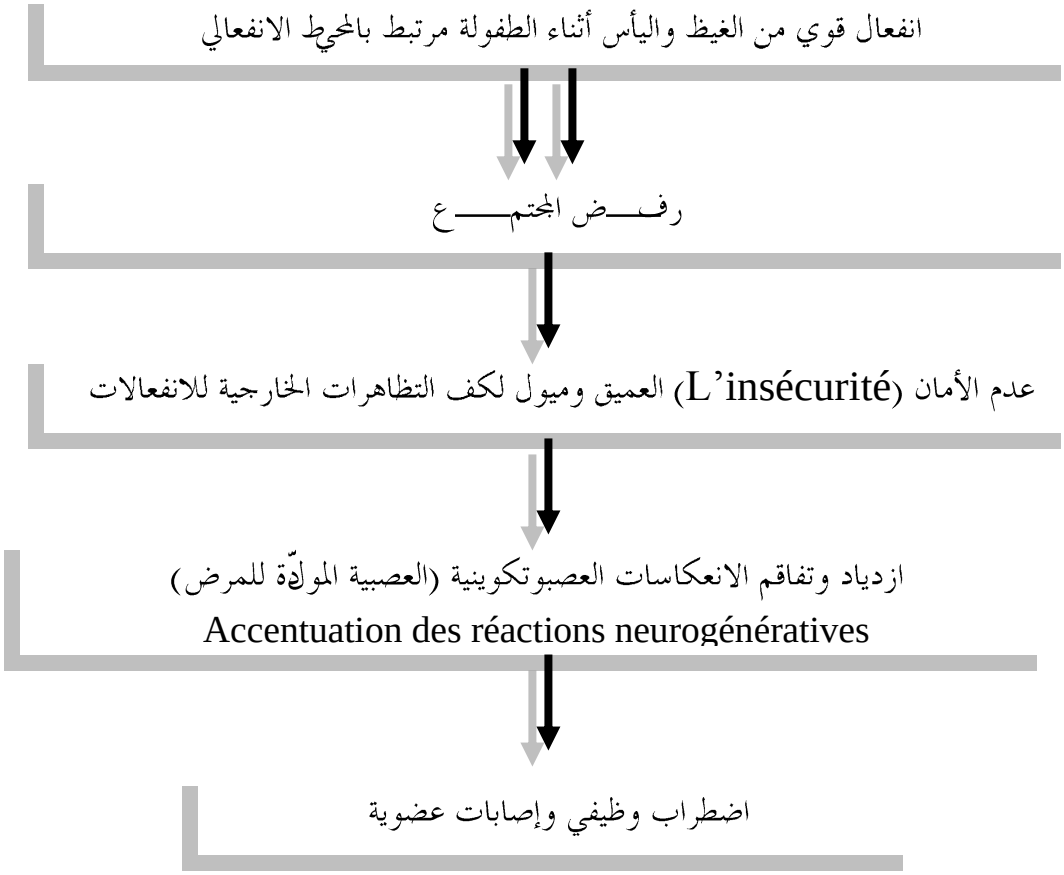

11-2-3- الانفعالات المكبوتة والأمراض النفسوجسدية

صحيح أنه غالبا ما يكون العضو المصاب مرتبطا بالصدمات النفسية، لكننا سنحاول تقديم ما يماثل المخطط لارتباط كل إصابة نفسوجسدية بشكل معين من الانفعالات المكبوتة.

- القرحة المعدية L'ulcère تمثّ غالبا نقص الحب أثناء الطفولة، وقد أرجعها F. Alexander إلى صراع دائم بين الرغبة في المواجهة (المقاومة) والهرب؛

-التهاب المستقيم (الشرج) النزفي La recto- colite hémorragique، يدل على الضغط Le stress الإرهاق، طبع مفرط الحساسية، تحقيقي وحصر؛

- الربو L'asthme لدى فرد سبق له أن أصيب بالحساسية يتأت ى من خوف مكفوف وانفعالات مخبّأة فالمصاب بالربو لم يتمكن في طفولته من أن يعلن قلقه، ويرى F. Alexander أن أغلبية المصابين بالربو أو الذين يعانون من الحساسية L'allergie كانوا محرومين من العاطفة أثناء طفولتهم، واستخلص أن أزمة الربو La crise d'asthme تعود إلى إفراط في كبت الدموع؛

- ارتفاع ضغط الدم الشرياني L'hypertension artérielle لدى الفرد الضعيف على مستوى القلب هو علامة لغضب وغيض مخزّن؛

- الأمراض الجلدية La dermatose تشمل التعبير عن حاجة، لكن كذلك الخوف من التواصل مع الآخر؛

- فرط التدرق (فرط نشاط الغدة الدرقية) Une hyperthyroïde يدل على الاحتباس الجنسي والحاجة لتحرير جنسي؛

- التهاب الجيب الأنفي La sinusite والانسدادات الأنفية يمكن أن تتأتى من الإ حساس بالذل، الإحباط أو الحقد . (Abadie –Rosier, 2009, pp.78 – 81)

الفصل الخامس

الإطـــار المنهجـــي للدراسـة

« Ce que l'enfant n'oserait dire ni écrire, il le révèle dans ses dessins, parce qu'il ne prévoit pas que dans un petit tableau, on pourra déchiffrer son caractère comme dans ses propos ou son écriture.

Il ose être lui, il s'aventure, il s'exprime »

Florent Fels

1-المنهج المتبع:

حسب Jacques Hockmann (1968) في "La criminologie clinique": "كل عالم يترجم في بحثه فلسفة ضمنية، حتى أكثر البرامج العلمية موضوعية تعبِّر في الأصل عن اختيار، عن تفضيل لبعض الأهداف وبعض الوسائل". (**مصطفى حجازي، 1993، ص. 30**)

وطبيعة موضوع الدراسة وأهدافه، ألزمتنا بالمنهج العيادي، القائم والمتضمِن لدراسة الحالة باعتبارها منهجا وأداة مستوحاة من معالم التحليل النفسي، الذي يعتبر أيضا كمنهج للإستقصاء والملاحظة، وتقنية علاجية تأخذ بعين الاعتبار الرؤى الثلاث (الموقعية، الديامية والاقتصادية) من أجل تحديد معالمها ضمن خطاب العميل.
(Abadie - Rosier, 2009, p. 28)

1-1- مفهوم المنهج العيادي:

يرى Daniel Lagache (1949) و Juliette Favez-Boutonnier (1968) أن المنهج العيادي مستجيب للهدف الأساسي لعلم النفس العيادي، وهو التوصل إلى فهم الإ نسان ضمن كليته وفردانيته، ضمن وضعية وضمن تطور، يرتبط بموقف منهجي عام يتضمن في الدراسة – على الأقل الممتدة– حالات فردية، يعتبر الفرد فيها كإطار مرجعي. (Bénony, Chahraoui, 1999, p. 13)

1-2- دراسة الحالة كمنهج وأداة:

ترى J.Favez-Boutonier أن دراسة الحالة هي: "فحص معمّق للحالة الفردية يسعى من خلال أحداث ملاحَظَة في اليوم الذي نلاحظها فيه وفي ترابط مع كل قصة الحالة، إلى فهم سلوك الشخص ضمن كل وجوده".
(Mazella, 1984, p.24)

وكثيرا ما تقوم الدراسة الإكلينيكية في علم النفس على حالة واحدة، حيث يقول "جولد شتين": "أنّه لأمْعَن في العلم أن يدرس الباحث حالة واحدة بعمق من أن يقارب بصورة سطح ية وقائع عديدة معزولة عن سياقها".

وقد أكد D. Lagache على أنه بكل ما تنطوي عليه المسالك البشرية من ثراء وتعقيد: "فإن السيكولوجي يفضل أن يتجه باهتماماته إلى الحالة الفردية، وأن يلتقط ملا حظة يضيء بها معالم مشكلة، وثمة حكمة طبية قديمة توصي بتعميق الملاحظة بدلا من تكثيرها "، ومن هنا يقودنا الكشف عن المعنى والدلالة الحقيقية إلى الواقعة الفردية العيانية بكل ما تنطوي عليه من ثراء وخصوبة في البيانات، متعمِّقين في دراسة الحالة كحالة فردية أصلية.

1-3- مسلمات المنهج العيادي:

- التصور الدينامي للشخصية.
- الشخصية كوحدة كلية حالية، فالأعراض ليس لها دلالة إلا بالرجوع إلى الوحدة الكلية للشخصية في صلتها بالعالم.

– الشخصية كوحدة كلية زمنية، فاستجابة الشخصية بإزاء موقف لا تتضح إلا في ضوء تاريخ حياة الشخص واتجاهه نحو المستقبل.(**سامية القطان، صلاح مخيمر، 1983، ص ص.77، 78، ص ص. 279، 280، ص.290**).

1-4- ركائز المنهج العيادي:

– عيادة غير مجهزة La Clinique à Main Nu متمثلة في الملاحظة والمقابلة؛

– عيادة مجهزة ومسلّحة La Clinique Armée، تضم الاختبارات الإسقاطية، السلالم العيادية وغيرها.

وقد ارتكزت الدراسة بشكل أساسي على الملاحظة والمقابلة العيادية المعمّقتين، معزّ زين نتائجهما بما أُستخلص من الوسائل التعبيرية الإسقاطية للعملاء، والتي كان الهدف الأول من اللجوء إليها هو التوسُّ ط من خلالها لبناء رابط علائقي مع الأطفال وتحريك دينامية المقابلات بحثهم على التداعي حول ما هم بصدد إنتاجه قبل تقدير شخصياتهم.

2- عينة الدراسة:

العينة مجموعة ممثلة للمجتمع الأصلي، مختارة بطريقة علمية توفيرا للجهد والوقت، وطريقة اختيارها تتحدد من خلال طبيعة موضوع الدراسة، وتنطبق عليها الملاحظات التي يسعى الباحث إلى أن يجد لها تفسيرا.

وفي مثل حالة موضوع دراستنا، لا يتحدد حجم العينة المختارة ترابطيا مع حجم المجتمع الأصلي، بل بمدى توفرها، لذلك أختيرت عينة الدراسة بطريقة قصدية بمجرد إتاحتها وتوفرها على شروط الدراسة.

2-1- إحصائيات حالات الاستغلال الجنسي على مستوى مصلحة الطب الشرعي بالمؤسسة العمومية الاستشفائية بعين آزال – سطيف – ابتداء من جوان 2008 حتى جوان 2010 م:

شكل رقم (05): رسم بياني يوضح نسبة الاعتداءات الجنسية مقارنة بنسبة الفحوصات

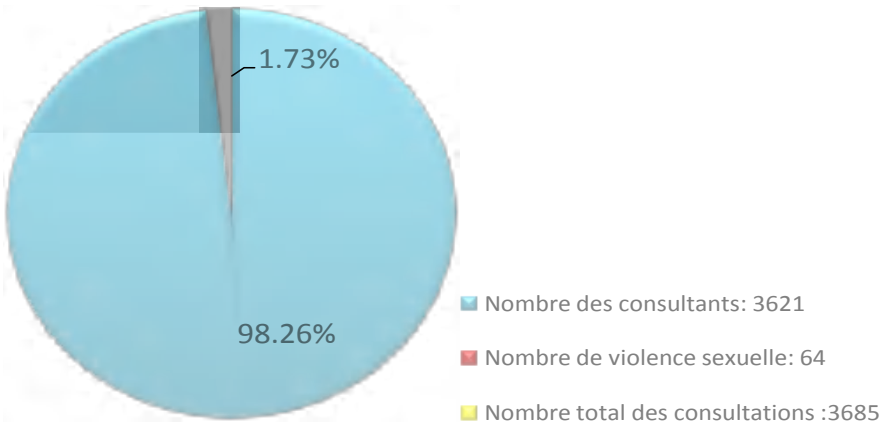

شكل رقم (06): رسم بياني يوضح نسبة الإعتداءات الجنسية لدى الذكور ولدى الإناث

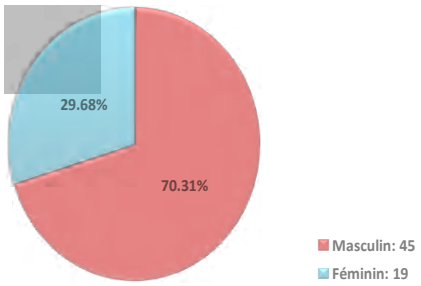

شكل رقم (07): رسم بياني يوضح نسبة الاعتداءات الجنسية لدى القصّر ولدى الراشدين

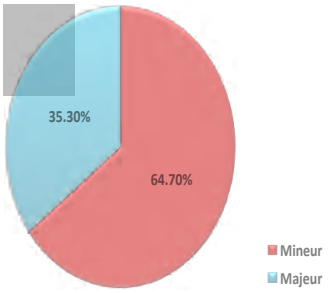

شكل رقم (08): رسم بياني يوضح نسبة الاعتداءات الجنسية لدى الذكور والإناث من القصّر

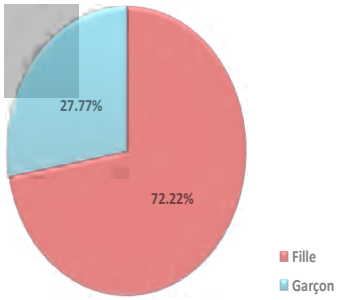

شكل رقم (09): رسم بياني يوضح نسبة توزع الاعتداءات الجنسية في المناطق التابعة لمصلحة الطب الشرعي –عـــــين آزال–

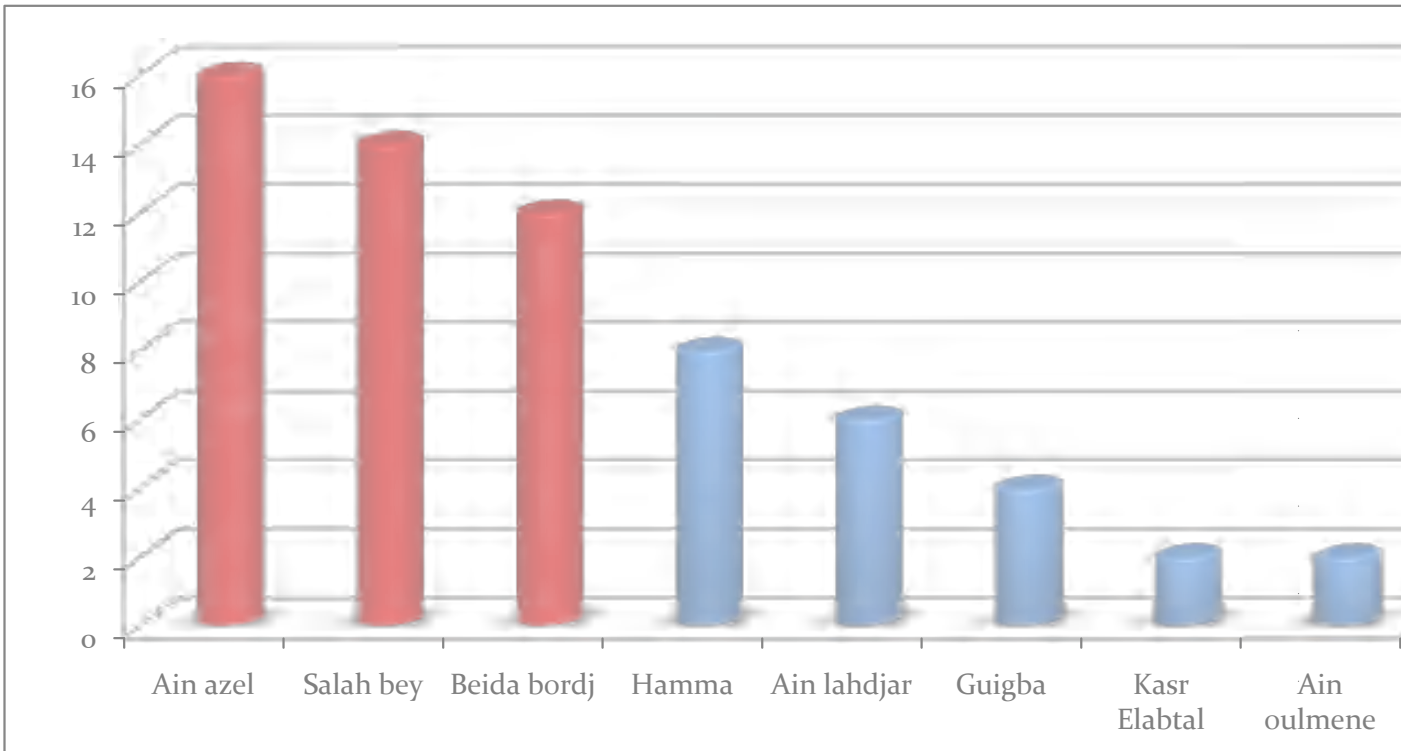

2-2-شروط اختيار العينة:

- ✓ حالات تتكون من أطفال من الجنسين؛
- ✓ يقل سن الحالات عن العشر سنوات ، تفاديا لتقلبات فترة ما قبل المراهقة والمراهقة، والخاصة تحديدا بصورة الجسم؛
- ✓ التعرّض للاستغلال الجنسي من قبل مراهق أو راشد، إقصاءً لإمكانية الخلط مع حالات اللعب الجنسي؛
- ✓ درجة الاستغلال الجنسي غير محددة، لأن كل ما يمس بجنسية الطفل هو صدمي, فهي ما لا يمتلك الطفل عنه تصورا رغم بساطته؛
- ✓ المدة التي مرّت على الإعتداء غير محددة ، رغم أن الحظ حالفنا بالتدخل في وقت مبكر من زمن الإعتداء حيث لم يتجاوز شهرا على حدوثه.

و قد حالفنا الحظ بحالتين جد متقاربتين من حيث:

- الجنس (ذكرين)؛
- السن (6 سنوات، 7سنوات)؛
- درجة الاستغلال (اعتداء متكرِّر مع مرور إلى الفعل الجنسي)؛
- المعتدي (مراهقان، في كلتا الحالتين يبلغ المعتدي من العمر 16 سنة، شخص مقرّب هو جار للضحية مما عمَّق التوظيف العاطفي للرابط).

2-3-الإطار المكاني والزمني للدراسة:

2-3-1-الإطار المكاني:

نظرا للظروف المحيطة بالدراسة، وكيفية التوصل إلى الحالتين, فقد تمت المقابلات مع الحالة الأولى مباشرة في منزل الضحية، بينما الحالة الثانية فقد تم لقاؤها في مصلحة الطب الشرعي بالمؤسسة العمومية الاستشفائية بدائرة عين آزال، ولاية سطيف، لذلك تمت المقابلات في أحد مكاتب المصلحة.

2-3-2-الإطار الزماني:

انطلقت المقابلات مع الحالة الأولى في أكتوبر 2009 واستمرت إلى شهر جوان 2010، أما الحالة الثانية فقد انطلقت معها الدراسة في منتصف شهر فيفري 2010 واستمرت الى شهر أوت 2010.

ولا يمكن القول أنها ستتوقف عندها و إلا فلن نكون سوى نفعيين في تعاملنا مع الحالات ، بل سنستمر في متابعة الحالات تحت تأطير وتوجيهات المشرف على الدراسة والمتخصصين في المجال.

3-أدوات الدراسة:

3-1-الملاحظة:

3-1-1-مفهوم الملاحظة:

الملاحظة تعني الانتباه الذهني المقصود، المنظَّم ومضبوط الأبعاد والأهداف لظاهرة – حدث أو سلوك- ما بغية اكتشاف أسبابها وقوانينها، وبما أن الباحث يهتم خلالها بدراسة الوضع الحالي، فهي مورد خصب للحصول على المعلومات والبيانات. (**حامد عبد السلام زهران، 1977، ص. 29**).

3-1-2-أنواع الملاحظة: سنلتزم بعرض ما قد صادف أو قُصِد استعماله بما يتناسب مع طبيعة ومقتضيات البحث، وارتأينا إلى إدراجها حسب:

3-1-2-1- التخطيط للملاحظة:

الملاحظة العرضية العفوية:

وهي مشاهدة بعض جوانب السلوك بصورة غير قصدية ودون تحديد مسبق، هي بسيطة ولا تخضع للضبط العلمي وقد تتم من خلال المشاركة أو بدونها. (**مصطفى حسين باهي، منى أحمد الأزهري، 2000، ص. 56**).

وقد لا تكون لها قيمة علمية كبيرة، لكنه ا تعتبر بداية للملاحظة العلمية، تُنبِّه الفكر وتستثير تساؤلات تحتاج إلى بحث وتدقيق من خلال ما تطرحه من فرضيات، ويكف ي أن موضوع دراستنا في مجمله قائم على ملاحظة.

الملاحظة غير المنظَّمة وغير المحضَّرة:

وينكب من خلالها الفاحص على تسجيل ملاحظاته حول سلوك المفحوص بكل أمانة ودقة، وهي غير منظَّمة لأن الفاحص لم يحضِّر لها من خلال شبكة ملاحظة مسبقة، وقد وظِّفت هذه الملاحظة في معظم- إن لم نقل جميع- المقابلات مع العملاء بالتحديد، نظرا للتداعيات الشحيحة للأطفال في مثل حالات الاستغلال الجنسي، مما جعلنا نترصد كل ما يصدر عنهم أو ما قد تثيره فيهم الأسئلة الموجهة، وجميع الوضعيات التفاعلية التي يتواجدون فيها سواء معنا أو مع المحيط العائلي.

الملاحظة المنظَّمة المحضَّرة:

هي الملاحظة العلمية بالمعنى الدقيق، مقصودة ومضبوطة ضمن ظروف يعدُّها الباحث إعدادا دقيقا، تُوجهها فرضية محدَّدة وتتم حينما يحدِّ د الباحث نوع النشاط الذي يريد أن يجمع عنه بيانات، ليدرسه ويتوقع حدوثه نتيجة مؤثرات معينة، وبالتالي الوصول إلى نتائج تثبت أو تنفي فرضيات البحث.

ونظرا لكوننا لم نتعامل من قبل مع حالات الاستغلال الجنسي سواء لدى الراشد أو الطفل، وتفاديا لتأثير أي رد فعل غير متوقَ ع من جانبنا تفاعلا مع الحالات، قد يؤدي إلى اختلاط أو ذهول أولي يقيِّد سيرورة

الملاحظة، فقد إرتأينا اعتماد ا على الرصيد المعرفي الأولي المستقى من القراءات الأولية المتخصصة، إلى تحديد وحدات عريضة أساسية لشبكة الملاحظة منذ المقابلة الأولى مع كل عميل، تتضمن كل واحدة مجموعة من النقاط الأساسية المتمايزة عن بعضها لتنظيم العمل وتسهيله، وهذه الشبكة الأولية أُعتمدت لتوج يه وتعميق الملاحظة على أدق التفاصيل التي قد لا تبدو مهمة للجميع في مظهر وسلوك الطفل، ومن جهة أخرى، هي سنَ د لنا في إثراء ملاحظاتنا ، واستثمار زمن المقابلة، والأهم هو التخفيض من الذاتية المتفاعِلة في اللقاء الأول والمباشر مع ضحية لمثل هذا الشكل من العنف.

3-1-2-2- دور الباحث:

ملاحظ بدون مشاركة:

يقوم الباحث فيها بدور المتفرج أو المراقب دون مشاركة، تستلزم مسافة من خلالها يتمكن الباحث من الملاحظة الإجمالية لسلوك العميل دون الخوض في تفاعل معه.

ملاحظ مشارك:

حيث يعيش الباحث الحدَث ويكون عضوا في الجماعة التي يلاحظه ا، فيحصل بهذا على معلومات غزيرة وإلماما بالظاهرة ومصداقية أكبر في المعلومات، لكن يعاب على هذه الملاحظة أن تَميُّز الباحث فيها ممكن في استخلاصه وجمعه للبيانات. (Tremblay, 1971, p. 129).

وقد تأرجحنا بين ملاحظة بدون مشاركة لسلوك العملاء، لتفاعلاتهم ضمن محيط ا لعائلة ومع كل واحد من أفرادها على حدى وردود أفعالهم على مختلف الوضعيات الاعتيادية أو الطارئة التي تمر، ملتزمين بهذا بحيادية المتفرج، والأخرى المشاركة، وهذا نظرا لكوننا عايشنا معهم مختلف الأحداث التي لحقت مباشرة بعد الكشف عن سر الاستغلال الجنسي، أفليس التفاعل كذلك مشاركة ؟

3-1-2-3- حسب ما يتطلبه البحث:

الملاحظة المباشرة(الملاحظة الميدانية):

وتُستخدم عندما تقتضي الدراسة الاتصال والحضور لملاحظة الظاهرة مباشرة، أين يشاهد الباحث ويسمع ويسجل المعطيات التي يتحصل عليها بطريقة مباشرة.(**سيد أحمد عثمان، فؤاد أبو حطب، 1982، ص. 339**)

وهذا ما دفعتنا إليه ظروف التحصل على عينة الدراسة (الحالة الأولى)، للانتقال إلى وسط الميدان، إلى منازل العائلات بحسِّها البيتوتي الثري بالملاحظات، فمن جهة كانت تلك الصعوبات في صالحنا لأنها حملتنا مباشرة إلى المصدر.

الملاحظة غير المباشرة:

والتي يستعان بها في حالة الاطلاع على المعلومات المتعلقة بموضوع الدراسة الموجودة في التقارير، السجلات والوثائق الرسمية، تهتم بالتسجيل الصوتي والصوري، مما يساعد الفاحص على الإلمام بجميع جوانب السلوك المراد دراسته.

وقد استعنا بالدفاتر المدرسية، سواء دفاتر الفروض المنزلية أو دفتر النتائج الدراسية لكل فصل قصد الاطلاع من جهة على النتائج الدراسية الدالة على الآثار المترتبة على هذا الجانب، ومن جهة أخرى ولصعوبة لقاء المعلمين ارتأينا على أقل تقدير الاطلاع على ملاحظاتهم المدوَّنة في مختلف هذه الدفاتر، كذلك استعن ا بالوالدين وباقي أفراد العائلة، خاصة الإخوة والأخوات الأكبر سنا والذين قد يتواجدون مع الأطفال خارج المنازل، بين جماعة الرفاق أو في المرافق العمومية، للحصول بشكل غير مباشر على ملاحظات تخص سلوكا ت الأطفال ضمن الوضعيات والزمن اللذين لا يمكننا التواجد فيهما.

3-1-2-4- من حيث عدد الملاحظين:

وهي أن تكون ملاحظة فردية أو جماعية ، ولكل منهما مقتضيات تفرضها طبيعة ومتطلبات البحث ووضعيات دراستنا استلزمت أحيانا ملاحظة العميل لوحده خاصة عند الانفراد به ضمن المقابلة أو أثناء انشغاله بنشاطاته اللعبية العفوية أو أثناء قيامه ب الرسم، أما وضعيات التفاعل والاتصال الأسري التي يُلتزم فيها دور المتفرج، فكانت تستدعي ملاحظة شاملة للعائلة ككل، قد لا تكون بالقدر المتساوي بين جميع أفراد العائلة لكنها بالانسجام والربط الذي يوحي ولو بشكل بسيط عن شكل نسق التواصل داخل الاسرة.

3-1-2-5- ميدان الملاحظة:

ملاحظة طبيعية: وتشتمل على ملاحظة سلوك المفحوص في مختلف مواقفه الحياتية، حيث يقوم الملاحِظ بذلك بحذر واختصار الرموز، حتى لا يحس الملاحَظ أنه مراقب، فيحاول تغيير سلوكه أو تعديله (بيئة العميل).

ملاحظة في العيادة : وتكون مقنَّنة بشكل أكبر، ترتبط بسير عملية الفحص وهي ملاحظة دقيقة للوضع الحالي للعميل (مصلحة الطب الشرعي).

وبهذا فقد قامت الدراسة ككل على ملاحظة، ثم أثريت بفضل الملاحظات المتعددة نوعا وكما، متداخلة ومتشابكة فيما ذُكر من أشكالها، مثمِّنة الدراسة بما فتحته من تساؤلات قيِّمة وبما وقفت عليه من نقاط حساسة هي نقاط تحوّل عديدة في مجرى تحليل الحالات.

3-2-المقابلـــة:

3-2-1- تعريف المقابلة:

محادثة Une conversation، مقابلة Un entretien، حوار Un dialogue أو تبادل Un échange هي واحدة من المصطلحا ت الأكثر استعمالا للدلالة على وضعية تفاعل بين شخصين، وقد عرَّفها كل من Bingham و Moore على أنها: "محادثة جدية تسعى نحو هدف محدد، غير الاستمتاع البسيط بالمحادثة".

يرى D.Lagache: "أن المقابلة هي تفاعل أساسا لفظي بين شخصين في اتصال مباشر، مع هدف محدد مسبقا"، وهدف المقابلة هو كذلك متغير أثناء المقابلة، فيمكنه أن يتطور، ويتغير وأن يُستبدَل على مر الطريق لأنه يتموضع ضمن العلاقة في حد ذاتها.

هناك شكل من العلاقة الذي لا يمكن تحديده إلا من الداخل، بمعنى بناء على الحوافز التي تتوضح شيئا فشيئا في المقابلة، لذا يمكننا الحديث عن البحث عن التواصل أو الإصغاء من طرف الآخر م هما يكن السند، لذلك فالهدف المسبق للمقابلة لا يقوم إلا بخلق اختلافا ت بين الوضعيات المتنوعة لها، بينما الهدف الداخلي فهو مشترك بين مختلف هذه الحالات ويسمح برؤية أوسع للمشكل.

والحوار الذي هو عنصر قاعدي وأساسي لكل علاقة بين فردين، سوف يكون إذً ا ما يميز الوضعيةِ متعددة الأشكال للمقابلة، وهذا فقط عندما يمر التعريف عبر الحافز أكثر منه عبر الهدف.

(Jacobson, 1976, pp.11-15)

3-2-2- زمن المقابلة:

يتراوح زمن المقابلة في معظم الحالات من 30 إلى 45 دقيقة، مع الاحتفاظ بالقدر الكافي من المرونة طبقا لمطالب الموقف المعين ، فمن غير المفيد أن تنته ي المقابلة لمجرد انتهاء وقتها و عند نقطة غير محددة، والإكلينيكي الماهر هو الذي يصل بالمقابلة إلى خاتمة يلخص فيها ما جرى من نقاش بقصد التأكد من تحقيق فهم مشترك بينه وبين العميل في موضوعات المناقشة.

وغالبا ما تكون الدقائق الأخيرة في ا لمقابلة لها قيمتها الكبرى، لأن العميل – ربما رغبة في إطالة المقابلة– قد يكشف في هذه اللحظات عن موضوع استجمع قواه للحديث عنه. (**لويس كامل مليكة، 1985، ص. 75**)

ويصعب تحديد زمن المقابلة خاصة في التعامل مع الأطفال لا سيما في حالات الاستغلال الجنسي، أين غالبا ما يسود المقابلة الصمت التام، ويصعب نظرا لخصوصية الحالة استثارة الع ميل بشكل قد يؤزِّم الوضعية أكثر وبقي زمن المقابلة لهذا مفتوحا، تحديده وقف على رؤية الأخصائي للحظة المناسبة لذلك , التي منها سيباشر عمله في المقابلة المقبلة.

3-2-3- أنواع المقابلة:

ارتأينا إلى الاكتفاء بطرح من أنواع المقابلة ما يميَّز من منطلق منظورين، مما عُمِل به في الدراسة وهي:

3-2-3-1- من حيث الهدف:

المقابلة العيادية في علم النفس العيادي تتموضع عموما ضمن إطار:

- التشخيص أو التقدير (التقييم) النفسي؛
- المساعدة أو التكفل النفسي؛
- البحث العيادي.

وهذه الرؤية حول التشخيص والعلاج هي ما يميز المقابلة العيادية في علم النفس العيادي عن المقابلة المرتبطة بالعلوم الاجتماعية أوغيرها من العلوم الإنسانية (Bénony, Chahraoui, 1999, p. 13). وقد جُسِّدت الدراسة من خلال هذا النموذج الشامل للمقابلة العيادية، فر غم أنها في الأصل مقابلة عيادية بحثية، إلا أنها وسِّمت تحت ضغط طبيعة موضوع الدراسة بطابعي التقدير والتكفل النفسي، فنظرا لحساسية الموضوع، كان من المستحيل أن نفتح لنا أبواب البحث على حساب الألم العميق المعاش من طرف الضحايا والعائلات، فمن يرضى أن يكرِّس طفله المصعوق كموضوع دراسة لمصلحة آخر ؟ ! لذا كانت أهداف الدراسة منذ بدايتها ترقى – إذا صح التعبير– على الفائدة العلمية النفعية.

ولحسن حظنا أننا قد حضينا بفترة لا بأس بها، دامت سنتين من العمل والتكوين في مصحة استشفائية للأمراض العقلية والاضطرابات النفسية، زوّدتنا ببعض الخبرة والإطار المهني الذي من خلاله –فقط– قُبلنا وسط هذه العائلات الممزَّقة، التي التمست فينا –بما نحمله من معطيات عن موضوع الاستغلال الجنسي للأطفال– المرآة التي من خلالها قد يجدون معنى وتفسير لما هم بصدد معايشته، وحتى يتمكنوا هم كذلك من تقديم المعنى لطفل يتعذب في صمت فيما هم عاجزون عن التخفيف عنه.

3-2-3-2- من حيث التقنين:

*مقابلة غير موجهة L'Entretien Non Directif:

يطرح العيادي هنا سؤالا، يقدم توجيها أو يحدِّد موضوعا، ثم ينمحي ليترك الكلمة للشخص، لأن ما يهم هو التداعيات الحرة لهذا الأخير، لذلك يح ترم لحظات صمته، وقفاته، انقطاعاته، عدم استمراره في الكلام وتداعياته، فالمهم حسب C. Chiland هو أن يقول الشخص ما لديه للقول، ما يريد وما يستطيع قوله.

* مقابلة نصف موجهة L'Entretien Semi-Directif:

هنا يمتلك العيادي دليلا للمقابلة Un guide d'entretien، مجموعة من الأسئلة التي تتناسب مع المواضيع التي عليها يقترح مباشرة استقصاءه، تُطرح هذه الأسئلة في وقت محدد، مع نهاية كل تداعي مثلا، ثم ينمحي العيادي ليترك الكلمة للشخص.

* مقابلة موجهة L'Entretien Directif:

شكل من المقابلة التي يمكن استعمالها في العلوم الاجت ماعية وعلم النفس العيادي من أجل تكملة الاستقصاءات، وهي مماثلة نوعا ما للإستمارة التي ضمنها الأسئلة منظمة.

(Bénony, Chahraoui, 1999, pp. 14-16)

وقد تميزت المقابلات الأولى مع العملاء بطابعها الموجَّ ه غير المباشر، بمعنى هي قليلة الأسئلة التي تقصد مباشرة ملمن الوجع وما يحيط به، ربما فقط تلميحات سطحية ترقبًا لإذن التقدم فيها وكثيرة هي التي تخص أمورا أخرى (كالمدرسة، جماعة الرفاق، الاهتمامات ما بعد المدرسة، الألعاب والبرامج المفضلة ...)، وقد هدفت هذه المقابلات إلى جمع المعلومات من جهة، لأن كل ما يتعلق بالحالة ه و مهم ضمن كليته مثلما هو كذلك ضمن تفصيله، ومن جهة أخرى زعزعة حائط الصد وتخفيف مقاومة الطفل الذي سريعا بعد الحدث ينغلق كليا على ذاته ويبدأ في تبني سياسة رفض الاتصال، والطفل يدرك أتم الإدراك أننا نريد التحدث عمّا يريد هو كتمه ونسيانه، لذلك غالبا ما تُستشعر بصخلات الأخصائي كتعديات حقيقية على ما تبقى له من حميمية.

والمقابلات موجهة كذلك في بدايتها مع الأهل قصد التحصل على بيانات حول بعض النقاط المحددة من تاريخ الحالة، ثم مع تطور سيرورة العلاقة العلاجية وتخفيف المقاومات، تنفتح المقابلات تدريجيا نحو النصف موجهة غالبا مع الأهل حتى المفتوحة مع العميل.

وكذلك كثيرة هي المقابلات التي ضمّت كل واحدة منها هذه الأشك ال الثلاثة وبالتحديد مع العملاء فرغم رابط الثقة والألفة الذي كان قد بـُنِي مع الوقت، إلا أننا لاحظنا أن العملاء في كل مرة، يستهلون المقابلة وكأننا لأول مرة نلتقيهم، بنفس التردد والتحفظ، فهل هذا يعني أنهم عايشوا نهاية كل المقابلة سابقة كإنقطاع في الرابط، الذي يجدون صعوبة في إعادة خلقه واسترجاعه مع بداية المقابلة اللاحقة ؟

ثم سريعا ما تتحرر المقابلة تدريجيا، لنجد العميل مع نهايتها – بعد زمن يفوق ذلك المتعلق بالراشد– يسترسل في تد اعياته، التي تبدو ظاهريا مبعثرة ولا رابط بينها ، لكنها كهدايا نهاية اللقاء تلتمس عودتنا المرة المقبلة، آملين في غيرها، فما الذي حرّك رغبة الطفل يا ترى، ليدعّ م حركية صورة جسمه الدينامية التي تسعى للارتباط بما تحمله من نزوات الحياة ؟.

ما الذي أُحْيِ فيه من خلال هذا التفاعل والحوار المتبادل مع الآخر ؟.

3-2-4- بعض النقاط حول خصوصية المقابلة مع الأطفال

إن تسيير المقابلة مع الطفل وعائلته بشكل خاص جد صعبة وتتطلب خبرة طويلة، ومعرفة معمقة بالسواء والمرضي لدى الطفل، وكذا خبرة متينة في وسائل التواصل معه التي هي مختلفة تماما عن تلك المستعملة مع الراشد، فمع الطفل، يكون تقديم المواضيع الوسيطية جد ضروري (اللعب، الرسم...) لكن مع حضور التبادل اللفظي بالتوجه إلى الطفل من خلال كلمات بسيطة، غالبا متكررة ومتناسبة مع عمره، وكلما كان الطفل صغيرا كلما زاد العيادي من استعماله للمواضيع الوسيطية.

إذًا المقابلة العيادية بتمركزها على الحالة الفردية، تسعى إلى فهم الطفل الذي يعاني، أولا ضمن وضعية تفاعلية واقعية مع آخر غريب عنه (العيادي)، وثانيا بمقابل وضعيات خيالية من خلال سيناريوهات لعبية التي تقترحها وضعية اللقاء مع الطفل، واله دف من هذا هو فهم معنى العرض، شحنته العاطفية ومكانته ضمن قصة الشخص.

كما يجب أن يؤخذ في عين الاعتبار أن طلب فحص الطفل يعاش بالنسبة لأغلبية الوالدين كفشل، يترجم من خلال الصعوبة التي يختبرونها في إدراك أن آخر غريب يستطيع مساعدة إبنهم في حين لا يعرفونه، رغم أن هذا الآخر هو مهني متخصص إلا أنهم يفضلون إنكار هذه الوضعية، فحسب منظورهم، هم آباء سيئون لأن أولادهم في حالة سيئة، كما أن هذه الوضعية تحيلهم إلى الصراعات التي عايشوها هم كذلك من قبلُ مع آبائهم.

ومن أجل كل هذا، يجب لقاء الطفل ووالديه بكثير من الاهتمام، وترك لكل واحد منهم الإمكانية للتعبير عمّا يود قوله، كذلك الاستقبال والإصغاء لانشغالاتهم وقلقهم لأن الوضعية قد تجاوزتهم.

(Bénony, Chahraoui, 1999, pp. 87, 88)

ومع ذلك لا يمكننا تقديم المقابلة النموذج L'Entretien Type حسب عمر الطفل، شخصيته والظروف المحدَّدة، فلكل في هذا مذهبه، لكن يجب التأكيد على ما رأى به Jean-Claude Arfouilloux (1975) في كون: "الطفل لا يحكي عن نفسه مباشرة مثلما يفعل الراشد، هو غير قادر على جمع ذكريات ماضيه القريب والبعيد وتقديمها في قصة متناسقة من أجل المستمع له، مهما كان سنه، فهو نادرا ما يظهر مستعدا للتعليق على أحداث حياته اليومية، بربطها مع أحداث ماضيه أو مع مشاريع مستقبلية، فهو لا يعرف عموما لماذا هو يتعذب، وحتى أنه لايدرك بأنه يعاني، لأن معاناته غالبا ما تُستشعر قبلا من طرف محيطه المباشر أكثر منه نفسه".

نحن مع الطفل ضمن وضعية مختلفة منها مع الراشد، ليس لأن الطفل لا يطلب شيئا، لكن لأنه يترجم ويعبر عن نفسه من خلال أشكال أخرى دون اللغة، ولأنه يستعمل الكلام بشكل مختلف، وكذلك لأننا لا نستطيع عزل الطفل عن محيطه.

أشكال الاتصال مع الطفل، ألعابه، إنتاجاته الخطية وكلامه، تقودنا شيئا فشيئا إلى امتلاك فكرة عن ذكائه عن اندماجه في الواقع، عن تقبله لجنسه، عن الطريقة التي بها يتخيل مستقبله، عن ثرائه التخيلي، عن أحلامه، عن قلقه، عن ألمه وعن عذابه، ورغم أن تبادل الكلمات هو ممكن وثمين جدا مع الطفل، لكن اللقاء معه غالبا ما لا ينحصر ويتحدد في مقابلة لفظية، وحتّى يجد تبادل الكلمات مكانا له، ضمن وساطة نشاط ملموس يتوافق مع اهتمامات الطفل التي خلفها يختمي ومن خلالها ينكشف، هو النشاط الذي يستخرج عالمه الداخلي، وجميع العياديين متفقون على أن المادة التي تكون في متناول الطفل، يجب أن تكون بسيطة وتساعده على التعبير .

بعض الأطفال يستحوذون تلقائيا على المادة التي تقدم لهم (أوراق، أقلام، عجينة للتشكيل، ألعاب)، أو ينظرون إليها دون قول شيء، ينتظرون دعوتنا لهم لاستعمالها من أجل التعبير، أو نحن من نجذب اهتمامهم جراء الإمكانية التي نمنحهم إياها للتعبير عن أنفسهم، وبهذا قد يقبل الطفل إراديا أو بحماس فاتر أو يرفض التواصل كما أنه حتى وإن بدأ في الرسم أو اللعب، فقد يستعمل هذا الوسيط كمقاومة أو كإتصال.

فهل يمكن مشاركة الطفل في هذه الوسائط قصد تحريضه على الاتصال ؟

وهنا كذلك ينقسم العياديون بين من يرى ضرورة هذه المشاركة، والبعض الآخر مثل E. James Anthony يفضل البقاء على كرسيه والتدخل من خلال الكلام (أسئلة، تعليقات، تأويلات).

يلعب الطفل في بعض الأحيان بألعابه أو بحقيبة أمه بينما نحن نتحدث إليها، يتدخل في الحوار والأم تقوم بترجمة خطابه الذي نحن فقط من نشفّره بشكل خاطئ، وهنا يجب التأكيد على أن لقاء غريب (موضوع سيء) يزرع الحيرة في نفس الطفل، يحرّك النزوات العدوانية ويهيئ للإنشطارات، ما يسمح للطفل بالمحافظة على الرابط مع موضوع داخلي جيد.

ومثلما لشخصية الطفل، والإطار النظري، والاختيارات التقنية من أهمية، فإن شخصية العيادي تلعب دورا حاسما إذ هناك من العياديين من يمهرون في العمل مع الأطفال بشكل خاص، وهناك من لا يتمكن من وضع الاتصال مع أي طفل، لكن الأخصائي العيادي عموما يمنح إمكانية للتواصل التي يستحوذ عليها الطفل، لأن العيادي لا يتهرب ويجيب على الأسئلة ضمن لغة بسيطة ومتلائمة مع سن الطفل، فيبذل قصارى جهده حتى لا يكون متطفلا ومعتديا، من خلال أسئلة غير ملائمة وصادمة أو من خلال تأويلات، الطفل غير مستعد لسماعها.

ويفضّل دائما مخاطبة الطفل بالكلمات التي تعوّد استعمالها والتي تستعمل داخل عائلته، وغالبا لا توجد في العائلة كلمات من أجل تحديد بعض الوظائف الطبيعية (التبرز) أو الأعضاء الجنسية وخاصة تلك المتعلقة بالفتاة وهذا ما شكّل –لزمن– عائقا كبيرا لنا سبّب ركودا في سيرورات التداعي وتقييد سير المقابلات عند حد يصعب تجاوزه، طارحا الاختلاف والتفاوت في اللغة بين الراشد والطفل فيما يتعلق – خاصة– بالجانب الجنسي، وكذلك على مستوى شكل اللغة، فما يُستدل عليه من جانب علمي جد مقبول من خلال اللغة الفرنسية (Le Pénis) يُبْلَع بصعوبة في اللغة العربية (القضيب)، لكن يستحيل الاستدلال عليه باللهجة الدارجة التي لا يملك الأطفال تقريبا غيرها.

وضمن ترتيب المقابلات، غالبا ما يُستحَب في البداية مقابلة الأهل ثم مقابلة الطفل، ثم مقابلتهم معا، لكن D. W. Winnicott كان يفضّل عدم رؤية الوالدين أولا بل الطفل، ثم يقابل الوالدين حتى بعد أسابيع من مقابلته مع الطفل، مهتما بجمع جميع المعلومات الممكنة حول ماضي الطفل، من أجل التأكد وتو ضيح ما قد اكتشفه وفهمه مع الطفل، وقد كان جد مهتم بمتابعة أطول ما يمكن لآثار ونتائج المقابلات وتطور الطفل، فكان يهاتف أو يراسل الوالدين، وهذه الطريقة عاكست الكثير من التحفظات المعتادة للعياديين الذين أكدوا على ضرورة ترك العملاء أحرارا في انقطاعهم عن العلاج، وبعدم الاحتفاظ بأي اتصال معهم.

وأكثر من ذلك، كان D. W. Winnicott لا يقابل الأهل مباشرة بعد المقابلة مع الطفل (بسبب الوقت التعب، الحاجة إلى معرفة ردود أفعال الطفل بعد المقابلة، رغبة في عدم تحطيم ما قد تم إنتاجه بترك الطفل ينتظر وحيدا)، كما كان يحدّث الوالدين عمّا حدث مع الطفل بسرد لهم إحدى مقابلاته معه (Chiland , 1989, pp. 86-99)، وهنا السر المهني الخاص بالمقابلة يأخذ بعدا آخر، بين ما يجب أن يُذْكر أولا يُذْكر للوالدين عن أسرار أطفالهم القصرَّ التي قد يبوحون بها أثناء المقابلة، في ظل تردد الوالدين وعدم ثقتهم في نتائج الفحص، التي

تُستشعر من طرف الطفل – في حال ثقته في هذا الآخر الغريب (العيادي)– كخيانة ثانية لوالديه، بعد الخزي الأول (الاستغلال الجنسي) الذي جلبه لهما.

وكل طفل يدرك أتم الإدراك في قرارة نفسه أن ما يقال في المقابلة سينقل لوالديه، وكأن العيادي ما هو إلا ممثل لهما، وإذا استمر هذا الإحساس فهو عن عدم كفاءة من العيادي الذي ما يلبث أن ينجرَّ للعب الدور الوالدي على الطفل الصغير، ماسحا لشخص هذا الطفل ووجوده المتمايز المتفرِّد، غير واثق في كلمته، متناسيا أن صاحب القصة هو هذا الطفل وما الوالدان أو غيرهما إلا عناصر مشاركة في القصة التي الطفل بطلها.

هذا التجاذب المؤلم الذي يعايشه الطفل بين الثقة واللاثقة، بين الارتباط واللاارتباط، بين الانبساط والالتفاف حول نفسه، هو ما يميِّز سيرورة التفاعلات ضمن المقابلة مع الأطفال خاصة في حالات التهديم والكسر النفسي لشبكة ا لروابط بسبب الاستغلال الجنسي، ولا سبيل لل بت فيه إلا بكسب صادق لثقة الطفل كشخص مستقل له كل الحق – بما أنه يُحمَّل كل الذنب – في إمتلاك كل لحظة في إعادة بناء قصته الشخصية ضمن العلاقة مع العيادي.

3-2-5- دلالات المقاومة في المقابلة الإكلينيكية

ارتأينا إلى إدراج هذا العنصر نظرا للصعوبات التي واجهتنا في تكييف نموذج للمقابلة العيادية مع الأطفال ضحايا الاستغلالات الجنسية.

3-2-5-1- مفهوم المقاومة:

مصطلح مقاومة Résistance مترجِم للمصطلح الألماني Widerstand، مشكَّل من Wider ـــcontre ـــ ضد و Stand بمعنى موقف رفض.

فالمقاومة (S. Freud) هي الدليل المؤكّد على وجود صراع، يتضمن قوة تحاول التعبير عن شيء ما، وقوة أخرى ترفض السماح بهذا التعبير، وهي في أغلبها لا شعورية وليست سوى تكرارات لمختلف الدفاعات المستعملة في الماضي من طرف الشخص.

3-2-5-2- أشكال المقاومة:

حسب René Laforgue (1894-1962)، المقاومات يمكن أن تصنف إلى ثلاث مجموعات:

– المقاومات التي تترجَم بشكل عنيف من خلال معارضة مباشرة، والأخصائي ليس لديه كاختيار سوى الصبر من أجل النجاح في تحديدها.

– المقاومات الماكرة المستترة التي تظهر عندما يكون العميل خاضعا ومتواضعا، باحثا عن فتن معالجه، مبعدا إياه عن موقفه الحيادي، وعلى الأخصائي أن يكون قادرا على تحديد هذه الحيل بهدف تجاهلها.

– المقاومات المقنَّعة التي تتوارى خلف العديد من الأعراض المرضية المصطنعة أو الواقعية، نفسية أو عضوية بهدف تضليل المعالج وبذلك يفشل العلاج، وهنا يجب على الأخصائي البحث أعمق للولوج إلى تصدعات العميل بهدف رفع مقاوماته.

3-2-5-3- تظاهرات المقاومة:

هي مجموعة من المواقف الكاشفة لوضعيات المقاومة وهي:

- الصمت (الحبسة العصابية) Le Mutisme: الشكل الأكثر تشاركا ووضوحا في المقاومة، العميل يرفض مشاركة أفكاره مع المحلّل بشكل واعي (العميل يعلم أن صمته يخبئ أفكاره) أو لاشعوري (يخال أنه ليس لديه شيء ليقوله)، وفي كلتا الحالتين، ينبغي فهم أسباب هذا الصمت بعد أجل معقول، وعلى الأخصائي، مهما كانت الأسباب، ألا يلعب لعبة مقاومة عميله، فشخص صامت أمام أخصائي صامت عن عمد لا يؤدي إ لا إلى تأزم الوضعية خاصة في التعامل مع الأطفال.

- غياب العواطف L'Absence d'Affects: يتيح تخمينا بأن العميل لا يحس بأنه مشترك عندما يسرد الأحداث المشحونة بالانفعالات، هذا الانفصال بين الخطاب والعاطفة أو بين الجزأين من نفس الشخص، اللّفظي والمحسوس، يشكّل عرَضا عصابيا، وهذا ما يلاحظ خاصة لدى الأطفال بفضل:

- هيئة الجسم الصلبة، حيث يحافظ جسد الشخص على نفس الوضعية خلال كل جلسة.
- التناقض بين وضعية الجسم والخطاب، عندما يصف العميل ببرودة حدثا وجسده هائج.
- بعض وضعيات الجسم تسمح بتحديد انكماش العميل والتفافه حول ذات ه، كاليدين المتشابكتين، تكتيف الذراعين حول الصدر، تثبيت الكعبتين الواحدة مقابل الأخرى.
- الخطاب المجرّد من الاهتمام: عندما لا يتحدث إلا عن الأمور السطحية وغير الدالة، إذ لا يعيد العميل التفكير فيما تلفظ به أثناء جلساته السابقة، يحس بالذنب ولا يجد شيئا ليقوله.
- هناك العديد من تظاهرات المقاومة الأخرى التي لا يمكن حصرها ولكن من الخطأ الجسيم تجاهلها مثل تأخر العميل، الجلسات المفوَّتة، غياب الحلم...وغيرها. (Abadie - Rosier, 2009, pp. 35-38)

3-3- الرسم لدى الأطفال ومراحل تطوره:

الرسم نشاط لعب وفي ذات الوقت لديه وظيفة التمثيل، يتموضع ضمن تبادل مع الآخر، فأن يرسم الطفل معناه خلق تصور خطي، تحسين تقنيته والتعبير عن لغته الداخلية، لذلك تطور الرسم يرافق التطور الفكري وهما مرتبطان بشكل خاص.

3-3-1- مراحل تطور الرسم:

يتطور الرسم ضمن مجموعة من المراحل المتعاقبة هي:

3-3-1-1- الخربشة Le Gribouillage:

مع نهاية السنة الأولى يبدأ الطفل في الخربشة، يحمل أي موضوع (الرمل، الأقلام الملونة، البراز) ويحدث أثرا على الورقة أو أي سطح آخر (حيطان الغرف مثلا)، ويرى Wallon بأن الرسم هو استمرار أثر هذه الحركة

وهذا الاستعمال للمواضيع يبدو في الوهلة الأولى فوضويا لكنه مقدمة لتطور النشاط الخطي، الذي يتحول في الشهر الثامن عشر ليبلغ خلق الخطوط الأفقية أو على الأقل المائلة.

فالطفل لا يريد أن يصوِّر في هذه السن، هو يلعب فقط على ترك الأثر، ونحو السنتين يحاول تقليد كتابة الراشدين، حيث يقوم برسم شكل حلزوني أو زوبعة (الصورة الدينامية اللاشعورية للجسم)، ومن خلال النضج الحركي وتحسن الإدراك والنمو الفكري تتطور الآثار، فيحس الطفل باللذة في الخربشة وفي استعمال و تحسين حركات اليد.

3-3-1-2- الواقعية العرضية Le Réalisme Fortuit:

حسب G.H. Luquet، أثناء هذه المرحلة وبعدها يحسِّن الطفل تقنيته التصويرية، لكنها ليست سوى محاولات كثيرا ما تفشل، لا وجود لأي تشابه بين الخربشة والحصان لكن الطفل يصنع تشابها بين آثاره والصورة التي كوّنها عن الحصان، فالرابط جد ذاتي، والاسم لم يُمنح إلا تبعا للرغبة التي لدى الطفل في إظهار هذا الموضوع أو ذلك الشخص، إنه تنظيمه العاطفي المسيطر في تلك اللحظة، ف إذا قام بتسمية شكله الأول حصانا فهذا لأنه يفكر في الحصان في هذه اللحظة المحدَّدة، كذلك نفس الرسم الذي أطلق عليه الآن اسم حصان، بعد ساعة من ذلك يمكن أن يطلق عليه اسم "بابا "، فحتى الثلاث سنوات تقريبا، الشكل لا يحمل أي قيمة دلالية في حد ذاتها، لذلك وحسب G.H. Luquet إنها مرحلة الواقعية الناقصة، هي جد متمركزة على الذات، حتى وإن كان الرسم معبراً أحسن فأحسن، فالعناصر التي تسمح بالتماهي مع رجل تبدو ضئيلة الدلالة.

3-3-1-3- الواقعية الفكرية Le Réalisme Intellectuel:

تُصوَّر الرسومات بدءا من السنة الرابعة من العمر بشكل يمكن تسميته، ومنتج ضمن ملامح مماثلة بشكل حساس، كل شكل مرتبط باسم لا يمكن أن يُصوَّر إلا بنفس الطريقة ، رسم الرجل لديه مثلا سيحمل مجموعة من الخصائص الثابتة، المنازل التي ير سمها تتشابه، وهذا المرور من الواقعية الناقصة إلى الواقعية الفكرية يتم بفضل حضور وفعل الراشد الذي ينتظر رسما يدل على مواضيع محددة، والطفل حتى يرضيه يحسِّن تقنيته بالطبع، وهذا التقدم يتأتى كذلك من مميزاته الخاصة ومن نموه الفكري، وبهذا يرسم الطفل عفويا ليس ما يراه باحثا عن نسخ الواقع، لكن ما يعلمه وما يدركه من الواقع الذي يحيط به.

فالموضوع المصوّر، منزل مثلا، هو مشكَّل من خلال مجموعة من التفا صيل، يضع داخل هذا المنزل الأثاث والشخصيات وكأن الجدران من زجاج، إنها الشفافية La Transparence، كل طفل يبدع حسب أسلوبه الخاص وشكله التصويري الخاص به، البعض يظهرون بخيلين في التواصل، خطوطهم تصبح صلبة، البعض الآخر يضعون ألوانا حية وحارة ويملؤون كل حيز في الورقة، ومراعاة للتمايز، يمكننا القول بأنه يوجد لدى كل طفل أسلوب في الكلام، أسلوب في اللعب، وأسلوب في الرسم الذي ينتمي إليه شخصيا، إنها وسائله من أجل التعبير عن كلامه الداخلي.

فالطفل لا يبحث عن الإبهار بخلق جمال مشكَّل، فجمال وفنية رسم الأطفال لا يأتي إلا بالصدفة، لأ ن همه الأول هو التعبير، يريي أن يعيد حاضرا وأن يسترجع موضوعا غائبا.

وضمن هذا السياق، قام كل من F. Voizot و D. Widlocher (1967) بدراسة حملت عنوان "Une étude du dessin de l'enfant sur le thème : dessine un maître ou une Maîtresse dans sa classe "، فلاحظا بعد قراءة و تحليل الرسومات التي قدِّمت لأطفال المدرسة، أن بعض الشخصيات هي مماثلة لوظيفة المعلم بفضل مؤشر خطي خاص،كخطوط دالة على المسطرة، رسم المئزر، رسم مربع يدل على المكتب، في حين إذا محوناها فلن يبق سوى رسم دال على رجل أو امرأة، وبعض الرسومات الأخرى، الشخصية في حد ذاتها لا تحمل أي عنصر يدل على وظيفتها، وإنما يُستدل عليها من خلال أثر السياق، الشخص محاط بمؤشرات خطية تمثل القسم مع طاولاته، السبورة، التلاميذ، و من هنا استخلصا أن رسم الطفل هو شكل للتعبير عن اللاشعور من خلال شكله La Forme (تنظيمة تمثيلية)، ومن خلال عمقه ومحتواه (ترجمة مشهد مهم مكبوت و يعاد إحياؤه في الرسم).

وتتبعا لمسار S. Freud في تنظيره للاشعور، ارتأى D. Widlocher إلى أنه يمكن تمثيل رسم الطفل بسرد الحلم.

– نحو السبع و العشر سنوات، الطفل يود تقليد ما يراه بشكل أحسن وبإعطاء نسخة صادقة، ليتطابق مع قواعد التمثيل التي تُفرض عليه من طرف عالم الراشدين، ومن خلال احترام الأبعاد وتمثيل المواضيع من خلال خطوط مسطّرة بالمسطرة، يشكّل الرسم الهندسي لقطعته أو يعيد خ لقها بشكل مطابق حسب قواعد الرسم مشكلا تصميما لعمل ما.(Voizot, 1977, pp. 157- 164)

وبهذا يجب مراعاة في قراءة وتأويل رسومات الأطفال هذا التسلسل الزمني التطوري للرسم حسب درجة نمو ونضج الطفل على جميع الأصعدة.

3-3-2- الوظيفة الرمزية للرسم:

M. Klein تخوفا من الترجمة السطحية ل لوسائل التعبيرية للأطفال (الرسم، اللعب)، أكدت أن السجل الرمزي للطفل يكون منطقيا ومفعما بالمعنى إذا قمنا بتأويله مثل الحلم، وقد أدرج S. Freud مجموعة من الرموز يمكن ترجمتها بشكل عالمي وبطريقة مشتركة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

– الملك والملكة يرمزان إلى الوالدين؛

– المداخل والمخارج تمثل فتحات الجسم؛

– أجزاء الجسم المولّدة للغلمة و بالتحديد الأعضاء التناسلية، تمثَّل من خلال عدد كبير من الرموز على الأغلب غير متوقعة، فالأسلحة الحادة (السكاكين، الخناجر ...) والمواضيع المستطيلة (العصي، جذوع الشجر المضلات...) تنوب عن الأعضاء التناسلية الذكرية، أما المواضيع المجوَّ فة كالخزائن، الصناديق، العلب، الأدراج الدواليب، المواقد، السيارات والسفن، فتنوب عن الجسم الأنثوي في الحلم؛ (Freud, 1988, p. 136)

– المترل يشكّل الرمز القاعدي، فهو يمثل الجسد ككل، وأجزاؤه تعود إلى أعضاء الجسم، وبهذا تمتلك كل من الأعضاء الجنسية الذكرية والأنثوية رمزها الخاص ، وحتى الإنارة والظلمة في المترل تشير إلى درجة وضوح أو التباس الأفكار والأحاسيس؛ (Anzieu, 1959, p. 38)

S.Freud أشار إلى أن الغرف في المنازل هي رمز النساء، وإذا كانت مفتوحة أو مغلقة فأمر يسهل فهمه في هذا السياق؛

– القفل يعدّ عضو التناسل لدى المرأة، وأيضا يرمز إلى فتحة الشرج؛

– المرتفعات والدرجات والسلالم، السير عليها سواء كان صعودا أو هبوطا، فهي صور ترمز للجماع؛

– الينابيع والنوافير تدل على خلل في المثانة. (**فرويد سيجموند، 1982، ص ص. 51،52، ص. 62**)

ورموز أخرى استنبطها S. Freud خلال عمله على تأويل الأحلام، يمكن الاستدلال عليها في رسومات الأطفال وتداعياتهم حول ما أنتجوه، إذا اقتنعنا أن الرسم ليس مجرّد نشاط للعب وإنما وظيفة للتمثيل، يتموضع ضمن تبادل مع الآخر.

3-3-3- صور الجسم ودلالاتها ضمن رسومات الأطفال: مصداقية المعيش النفسي الطفلي:

Sophie Morgenstern، أكدت أن الرسم، الألوان المزخرفة، والنماذج المشكّلة باستعمال العجينة اللينة، هي وسائل تلقائية للتعبير بالنسبة لأغلبية الأطفال، إنهم يحبون سرد ما تترجمه أيديهم عن هواماتهم، فهم يعبّرون بالكلام عما قاموا برسمه وتشكيله لمن يصغي لهم، أحيانا حتى بدون رابطة منطقية مع ما يعتقد الراشد رؤيته.

Françoise Dolto (1938) ومنذ بداية ممارستها للتحليل النفسي للأطفال، متبعة نصائح

كما أن أركان الجهاز النفسي للنظرية الفرويدية (الهو، الأنا والأنا الأعلى)، توجد معلّمة في كل عمل حر سواء تصويري (الرسم) أو تشكيلي (النحت)، ووسيط هذه الأركان النفسية ضمن هذه التمثيلا ت الرمزية التي يقدمها الطفل هو ما قصدت به F. Dolto صورة الجسم, فالطفل يبدو بادئ الأمر أنه بصدد رسم مشهد، لكن من خلال الطريقة التي يؤوّله بها، التي يتحدث بها عن رسمه، يؤكد بأنه من خلال هذا الإخراج الرسمي، يطرح بشكل غير مباشر نزوات جزئية من رغبته ليحارب بواسطة نزوات جزئية من رغبته على مستوى آخر، وهذه المستويات من النفس هي ما سمّاها S. Freud الأنا Moi، أنا مثالي Moi Ideal وأنا أعلى Sur Moi.

أما الطاقة التي توجد مستعملة في السيناريوهات التخيُّلية التي تتمثل في هذه الرسومات والنماذج، ليست شيئا آخر سوى الليبيدو الذي يترجم من خلال جسده، سواء سلبيا Passivement ضمن استقراره النفسي الجسدي (خموله) أو إيجابيا Activement ضمن علاقته مع الآخرين.

فالأطفال الذين لا يستطيعون الحديث مباشرة عن أحلامهم وعن هواماتهم مثل الراشدين في التداعيات الحرة، صورة الجسم هي وساطة La médiation من أجل قول ذلك، قولٌ لفك ترميزه، أين المحلّل أو الأخصائي لوحده لا يملك المفتاح، والطفل من خلال تداعياته يصل إلى إدراك نفسه كمكان للتناقضات المثبّطة بالنسبة لاستطاعته العقلية، العاطفية، الاجتماعية والجنسية حسب سنه.

فعندما ندرك جيدا، صورة الجسم ليست الصورة المرسومة على الورقة أو المشكّلة في النموذج، لكنها هنا للانكشاف من خلال الحوار مع الطفل، الذي بتداعياته الحرة يصل إلى تقديم عناصر التأويل النفسي.

وابتداءً من مرحلة المرآة، يبدأ الطفل في رسم الأشخاص مثلما يريد أن تعكس المرآة له صورة جسمه، أي مظهر يتوافق مع نرجسيته، فيعطي للصور الإنسانية خصائص يمكن التعرف عليها، وصفات رمزية ذكورية وأنثوية إذا كان فخورا بجنسه الخاص، أما إذا كان تعيسا في انتمائه إلى جنسه، فرسوماته سوف تترجم من خلال مراجع قديمة، شكل التربية الفمية والشرجية التي تلقاها فيما يخص تقبله لوجهه، لجسمه ولجنسه.

وعموما بعد مرحلة المرآة، الرسومات تشكّ ل جزءا كبير جدا، أكثر بكثير للصور اللاش عورية للجسم للتصورات حول زخارف الألبسة، المواضيع الجزئية والملحقات المرتبطة بشخصياتهم والمخصّصة من أجل منحهم قيمة، فيستقطون أنفسهم داخل هذه الشخصيات، وهذه الخصائص من الاستطاعة والدور الممنوح، مؤكدين أن الجنس يسبب لهم دائما مشكلا. (Dolto, 1984, pp. 07-16, p. 162)

لذلك شفافية الأطفال وعدم نضجهم النفسي العاطفي في التعامل مع الصدمات النفسية، تجعلهم يلجؤون إلى آلية انكماش التوظيف في تعاملهم مع المع اناة النفسية على جميع المستويات، مع العالم الخارجي وحتى مع أنفسهم وأجسامهم، فرسومات الأطفال الذين يعانون بشدة تُظهر بأن هناك تقليصا للتصور الجسدي، فالجسد يصوّر كعصى، كخط، والبطن يفقد شكله الدائري وسعته، إنه عودة إلى خفض الحجم ، فلا وجود بعد الآن للتنفس النفسي (الأخذ والعطاء) بين الخارج والداخل، الطفل متسطّح من المعاناة، هو لا يرفض العلاقة مع الآخر لأنه أساسا بحاجة إليها ، ولكنه لا يستطيع أبدا استقبال أي شيء، فكل ع لاقة ترهق بالمثيرات متعضي الطفل الألم الجسدي مثل الألم النفسي، يترك الطفل منهكا، فكل ذرة طاقة يجب أن تدخر من أجل البقاء.

(B. Robert - Ouvray, 2003, p. 136)

ونحن لا ندرك حق المعرفة ما يعيشه طفل صغير، أحاسيسه هي أثرى وأقوى بكثير من أحاسيسنا، هذه العذابات الجسدية والنفسية غير المرصنة، قد لا نجد سبيلا لإدراكها غير استيعاب اللغة التعبيرية للأطفال.

3-3-4-الرسم قراءة صادقة للاشعور الطفل حسب Sophie Morgenstern:

ترى Sophie Morgenstern (1938) أن المحتوى الظاهر جد بعيد عن المحتوى الواقعي، ووحدها معرفة الوضعية العاطفية للطفل، صراعاته الواقعية أو الخيالية، الرموز التي يستعملها للتعبير والترجمة تسمح بإعادة تشكيل الأحجية التي يزودنا بها في تظاهراته اللعبية أو الخطية.

فدراسة الأطفال الذين يعانون تضع بين أيدينا مجموعة من الرسو مات المحيِّرة، فريدة من خلال ترميزها المبتَكر، هذه الرسومات تبدو أنها تخفي وتستر في نفس الوقت الذي تكشف فيه أحاسيس جد معقدة التي تمارس فعلها وتؤثر في روح الطفل، ومن أجل فهم معناها المستتر المخبأ يجب أن نألَف العقلية الجد مميزة للطفل.

فالطفل منقاد ضمن نشا طه الفكري والنفعي (المرسوم) من خلال حياته العاطفية، ومن خلال اعتقاده وإيمانه بالقوى السحرية، وهذا ما يسمح له بتقديم ضمن تظاهراته الواحدة جنب الأخرى، أحداثا متناقضة أو

متباعدة عن بعضها، ومن أجل الولوج إلى هذا العالم الذي يحتفظ بقواعده لنفسه وبلغته السرية، م ن أجل أن نُقْبَل، يجب علينا معرفة كلمة السر.

إنها الثغرات في البنية المنطقية لانتاجاته هي التي تسمح للطفل بالتعبير عن أفكاره الأكثر كتمانا، أحاسيسه الأكثر حميمية، بتصوير صراعاته الأكثر ألما، إنه ضمن الرسم خاصة أين يعبِّر الطفل بسهولة أكبر عن شكاواه وتظلماتهالمكبوتة، عن اعتراضاته وعن كرهه.

وكل هذا لأن الرسم يسيل وينبع بشكل مباشر من اللاشعور، فيتوصل كذلك إلى إخفاء عن صاحبه محتواه الحقيقي، فالطفل يسمح لنفسه بأن يكون نفسه ضمن رسوماته، يغامر، يصبح جريئا، ويمثّل ويتصور الوضعيات الأكثر تعقيدا والأكثر خطورة من خلال الرموز نوعا ما الشفافة دون أن يرغب في ذلك، يخون أسراره ويتحصل –غالبا بفضل هذا العمل المحرِّر– على الشفاء من هذه الأعراض.(Morgenstern, 2003, pp. 139 -141)

3–4–اللعـب:

M. Klein (1959) في "La psychanalyse des enfants" ألحت على ضرورة النفاذ إلى ما وراء الظواهر قائلة: "كقاعدة عامة، الانطباع العام الذي يعطيه الطفل يفصح عن فشل تكيفه الداخلي، وعلى كل حال، فقط التحليل يمكنه أن يحدّد أهمية اضطراباته". (**مصطفي حجازي، 1993، ص. 28**)

واهتمت من أجل هذا بالوسائل التعبيرية لدى الطفل وعلى وجه التحديد باللعب (Ch. Bühler) الذي هو مرحلة من النمو الكلي للطفل والتي تتكون في حد ذاتها من فترات متتابعة، بدءا باللعب الوظيفي (حركات بسيطة كلمس الأطراف)، ألعاب التخيل (اللعب بالدمية وكأنها كائن حي)، ألعاب الإكتساب (لإدراك وفهم صورة، قصة أو أغنية) وألعاب الصنع. (Wallon, 1968, pp.57, 58)

وترى M. Klein أنه: "من خلال اللعب، يترجم الطفل بشكل رمزي ه واماته، رغباته وخبراته المعاشة " واعتبرته يحدث ضمن سجل مزدوج، فهو تعبير واتصال في آن معا، هو تعبير رمزي عن هوام لا شعوري، يحمل معنى في الاتصال الذي يحدث مع المحلّل.(Mazella, 1984, p. 280)

وضعت M. Klein (1919) تقنية اللعب منطلقة من مبدأ أن نشاطات اللعب تشكّل الوسائل التي يمتلكها الطفل من أجل التعبير عما يعبِّر عنه الراشد بطريقة مسيطرة باستعمال الكلمات، وسريعا ماعرّفت وسائل اللعب قائلة: "الألعاب يمكن أن تكون صغيرة، عددها وتنوعها يسمح للأطفال بتشكيلة واسعة من الهوامات والتجارب المعاشة، وبمجرد ما أن تستطيع الوسيلة كذلك أن تستحضر بشكل متزامن تشكيلة كاملة من الوضعيات الهوامية أو الواقعية، تقدِّم لنا أيضا إمكانية التوصل إلى جدول أكثر تناسقا لشكل التنظيم لنفسه"، وبشكل أعمق أشارت إلى أهم: "في ألعابهم، الأطفال يجسِّدون رمزيا هوامات، رغبات وخبرات " وأكدت أن هذا التصور الرمزي ليس سوى أبعاد تسمح بفهم ما تم التعبير عنه في الجلسة.

السجل الرمزي Le Registre Symbolique إذًا جد مهم، لأنه وحده ي سمح للطفل : "بتحويل على مواضيع أخرى غير الكائنات الإنسانية، ليس فقط اهتماماته وإنما كذلك هواماته، قلقه وأحاسيسه بالذنب".

فالرمز Le Symbole حسب M. Klein (1930) هو الرابط بين الهوام اللاشعوري، وهو نفسه تعبير عن الترة والواقع، ومن خلال الترميز ضمن كلمات أو ضمن اللعب، يعبر الطفل ويشكّل هوامه اللاشعوري لكن هذه التصورات المعبّر عنها ضمن الكلمات أو الألعاب من طرف الطفل لا تأخذ معنى إلا في الاتصال الذي يوجهه إلى المحلّل.(Giessmann, Houzel, 2003, pp. 09, 10)

3-5-الاختبار التعبيري الإسقاطي:

تهدف الأساليب الاسقاطية إلى استكشاف الشخصية الكلية من خلال مقابلة الشخص مع وضع ية أقل تنظيما، وبهذا يُسْقط الشخص من خلال استجاباته، معبرا عن أصالته والميول العميقة لشخصيته، ليسمح للفاحص من خلال ذلك بتكوين صورة نفسية وصفية عنه. (Delmont, Lucht, 1995, p. 356)

وتناسبا مع طبيعة الدراسة، ارتأينا إلى اعتماد اختبار رسم الرجل Le Test du dessin du Bonhomme بما يشتمل عليه من قيمة تعبيرية، قصصية وإسقاطية.

3-5-1-اختبار رسم الرجل:

صمِّم الاختبار على يد Florence Goodenough (1926) لقياس ذكاء الأطفال من خلال رسوماتهم و لم تتعد إشارات F. Goodenough إلى أهمية الرسم كوسيلة لدراسة الشخصية إدراج بعض الأمثلة.

Karen Machover (1949) أكدت على صلاحية الاختبار في تقدير الشخصية، مقترحة "اختبارا لرسم الشخص"، وقد استعانت Machover بتنظير Shilder حول صورة الجسم، ومفهوم رمزية الدوافع اللاشعورية واعتبرت الدراسات الحديثة آنذاك في حقل الطب السيكوسوماتي مؤيِّدة للإطار النظري لاختبارها الإسقاطي، إذ يعبِّر المفحوص لاشعوريا عن رمزية العضو المصاب في الرسم.

وقد وجد كل من Sidney Levy و Lawrence Abt، بعد تطبيق الاختبار على مجموعة من الجنود اللذين بُترت سيقانهم في الحرب العالمية الثانية، أن كثيرا من رسوماتهم تجنبت السيقان كلية.

(**مالك بدري، 2001، ص ص. 80-85**)

قدم Harris (1963) تعديلا شاملا للاختبار تحت اسم "اختبار الرسم لجودإنف وهاريس " "Goodenough-Harris Drawing Test"، حيث يُطلب من الطفل رسم شخص من الجنس الآخر غير الذي اختاره في البدء. (**سيد أحمد عثمان، فؤاد أبو حطب، 1982، ص.199**)

L. Rosenberg (1948) اقترح تعديلا للاختبار من خلال إعطاء المفحوص الحرية بتغيير رسم الشخص بعد إكماله، وذلك بإعطائه ورقتين، بينهما ورقة كربون، إذ يحتفظ الفاحص بعد انتهاء الرسم بالنسخة الثانية ويُطلب من المفحوص أن يعدّل النسخة الأصلية بالشكل الذي يرغب، لتتم مق ارنة النسختين واستنباط ما يمكن من الدلالات الإكلينيكية. (**مالك بدري، 2001، ص. 113**)

3-5-2- مراحل تطور اختبار رسم الرجل:

- **مرحلة الخربشة Le griffonnage**: من02 إلى 03 سنوات، وتقتصر على رد فعل حركي بسيط.
- **مرحلة الشرغوف Le Têtard**: من 03 إلى 05 سنوات، رأس كبير ذو شكل دائري، مع عينين أنف، فم، جذع، خطين من أجل الرجلين وآخرين من أجل الذراعين، ويمكن أن يمثّل الرأس والجذع بنفس الدائرة الفريدة.
- **مرحلة رسم الرجل كاملا**: من 06 سنوات إلى 10 سنوات، وفيها يتم رسم الأجزاء الرئيسية للجسم متناسقة فيما بينها، مع جميع ت فاصيل الرأس (الحاجبين، القبعة)، أصابع كالممشاط ومختلف التفاصيل الخاصة بالملابس.
- **مرحلة المظهر العام**: بعد العشر سنوات، يميل الطفل إلى رسم ما هو موجود أو ما يعرفه وليس ما هو مرئي. (Pasquasy, 1967, p. 17)

3-5-3- أدوات الاختبار:

كل طفل يتحصل على ورقة بيضاء تقدَّم له بشكل طولي، قلم رصاص أسود، علبة تحتوي على سبعة أقلام ملونة: الأزرق، الأحمر، الأخضر، الأصفر، البنفسجي، البني والأسود، ممحاة ومبراة، وهناك اتجاه آخر يتقيد باستعمال الورقة البيضاء وقلم الرصاص.

3-5-4- شروط تطبيقه:

- الاختبار يمكن أن يستعمل فرديا كما يمكن أن يطبق جماعيا؛
- تترك الحرية للأطفال ليرسموا على حريتهم، دون تقديم أي مساعدة لهم، ودون التعليق بانتقادا ت أو تقديرات أو اقتراحات، يمكن فقط تحريض المترددين بأن نقول لهم"جيد، حسنا، واصل..."؛
- إذا طرح الطفل أسئلة حول الطريقة التي يجب أن ينفذّ بها الرسم، نجيبه قائلين "قم به مثلما تريد، كل ما ستنجزه سيكون جيدا..."؛
- يُترك الأطفال أحرارا في اختيار مكان وضع الرسم، بُعده عنه، في استعما ل الورقة ضمن وضعية غير تلك التي قدِّمت فيها، جنس الشخص المرسوم، في الاستعما ل المقصود للمسطرة، في إضافة عناصر غير المضمون المطلوب وفي استعمال الألوان أو رفض استعمالها؛
- تدوين الوقت المستغرق في الرسم وتحركات الطفل أثناءه كملاحظات عيادية؛
- عدم نسي كتابة الاسم من طرف الطفل وسنه على الورقة (الجهة الخلفية). (Royer, 1977, p. 17)

3-5-5- تطبيق الاختبار:

يتلخص تطبيق الاختبار في إجلاس ا لم فحوص وتقديم أدوات الرسم له، ثم يُطلب منه أن يرسم شخصا دون تحديد جنسه.

وقد وضعت K. Machover جزأين اختياريين آخرين يمكن للفاحص أن يقوم بتطبيق أحدهما أو كليهما بأن يطلب من المفحوص أن ينجز رسما ثالثا لنفسه أو لطفل أو لشخصين، ويقوم الأطفال عادة برسم أسرهم، أو أن يطلب من المفحوص أن يؤلّف قصة عن كل شخص من الشخصين اللذين رسمهما (الرجل والمرأة)، ثم يجيب على ضوء هذه القصة على عدد الأسئلة، ميزت Machover فيها بين قائمة خاصة بالبالغين وأخرى خاصة بالأطفال:

قائمة أسئلة الاختبار الخاصة بالأطفال

1- ماذا يفعل هذا الشخص؟؛
2- كم عمره؟؛
3- هل هو متزوج؟؛
4- هل له أطفال؟؛ وهل أطفاله ذكور أم إناث؟؛
5- ما هو عمله؟؛
6- ما هو صفه في المدرسة؟؛
7- ما هي آماله؟؛
8- هل هو ذكي؟؛
9- هل هو صحيح الجسم؟؛
10- هل هو جميل؟؛
11- ما هو أجمل جزء في جسمه؟؛
12- ما هو أقبح "أسوأ" جزء في جسمه؟؛
13- هل هو سعيد؟؛
14- ما هي مشكلاته الأساسية؟؛
15- متى يحتد ويفقد صوابه؟؛
16- ما هي عاداته العصابية؟؛
17- ما هي أسوأ ثلاث عادات لديه؟؛
18- ماهي خصاله الحميدة؟؛
19- هل لديه أصدقاء كُثر؟؛ وهل هم أكبر أم أصغر منه سنا؟؛
20- ماذا يقول عنه الناس؟؛
21- هل يحب أسرته ويتمتع بالبقاء مع أفرادها؟؛ وإلى أي مدى؟؛
22- هل يحب مدرسته؟؛ وإلى أي مدى؟؛
23- هل يخرج كثيرا مع صديقاته؟؛

24- ما هي النشاطات التي يقضي فيها أمتع أوقاته؟؛

25- هل سيتزوج؟؛

26- في أي سن؟؛

27- أي نوع من الآنسات سيتزوج؟؛

28- ماهي أهم ثلاث رغبات يتمنى أن تتحقق له؟؛

29- بمن يذكرك؟؛

30- هل تحب أن تكون مثله؟؛

31- أي تعليقات أو إضافات أخرى؟.

ملاحظة: تغيَّ لهجة الأسئلة إلى صيغة المؤنث عندما تطرح حول رسم امرأة.

وبهذا نصل من خلال عرض وتحليل الحالتين إلى إثمار هذا الجهد المضني من البناء الفكري التحليلي -على عكس من لا يرون في الجانب النظري لأي دراسة غيرَ تحصيل حاصل لعملية حصد المعلومات- ، مترجمين بذلك كل ما ورد في الجانب النظري ميدانيا ، سواء بإسقاط المفاهيم التحليلية النفسية على السلوكات الملاحظة ، أو بالاستعلاء بالظواهر الإنسانية ضمن المعيش النفسي اليومي للعائلة الجزائرية البسيطة نحو ما يرمِّزها من مفاهيم تحليلية مثل التي جاءت بها F.Dolto، وبهذا فقط يمكننا القول بأننا نجحنا في عملية المقاربة العيادية ضمن الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري.

الفصل السادس

عرض وتحليـــل الحـــــالات

1- الحالة الأولى

1-1- تقديم العميل وعائلته:

صبي يبلغ من العمر ست سنوات، يدرس في السنة الأولى ابتدائي، تلميذ ذكي تبعا لملاحظة معلمته "تلميذ ذكي لديه قدرات، باستطاعته التحصل على نتائج أحسن، مركّز وهادئ"، أخ وسط بين أخ أكبر يبلغ من العمر اثنتي عشر سنة، يدرس في الأولى متوسط، وأخت صغرى تبلغ من العمر ستة أشهر.

من أبوين صغيرين في السن، الأ ب الذي يَكبر الأم بسنتين أو ثلاث، شخصية هادئة ومسالمة، ذو مس توى تعليمي جيد، يشغل مهنة محفوفة بالخطر، تجبره على الغياب المتواصل والعمل ليلا، أما الأم التي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، فهي ماكثة بالمنزل، بدأت الدراسة في عمر متأخر، لكنها توقفت في السنة الخامسة، شخصية حاضرة بقوة في المنزل، متقاسمة لمسؤوليته مع وا لدها ذو الشخصية القوية المسيطرة ، التحق بفرقة المسلحين أثناء العشرية السوداء التي عاشتها الجزائر، ثم انتقل بعدها خارج الولاية أين استقر لمدة طويلة.

الأم أخت لست بنات ورجلين، لا يوجد فارق زمني كبير بينهم ، وبحكم كونها البنت البكر، فهي تحتل مكانة خاصة لدى والدها، انتماؤها الكامل لأبيها حتى في حضور زوجها الذي لا تجمعها قرابة دموية معه ولكون النساء في هذه المنطقة ينمحين أمام عالم الرجال ليَحْكمن داخل البيوت، فإن زواجها كان عن وساطة والدها.

وضمن مستوى مادي فوق المتوسط، تقطن الأسرة منزلا بطابق أرضي قيد الإكمال، في منطقة ريفية جبلية تقع جنوب ولاية سطيف، اُعتبرت من بين مناطق الخطر الحمراء- كما قيل عنها- أثناء العشرية السوداء فالداخل إليها مفقود، لذلك أُجبر أهلها على المقاومة والصمود للبقاء أحياء، وصلوا إلى تجنيد ك ل فرد في العائلة قادر على حمل السلاح حتى النساء منهم، والأم - بنت أبيها- الذي علّمها الرمي بالسلاح وهي مراهقة، كانت - عندما يقوم والدها وزملاؤه رفقة الجيش بعمليات التمشيط في الجبال بحثا عن الإرهاب- ترتدي بزة عسكرية كان والدها قد أحضرها لها وتتولى الحراسة الليلية، وصادف أن تشابكت أكثر من مرة بالنيران مع جماعات إرهابية قامت بالهجوم عليهم ليلا.

تتميز الجماعة الإجتماعية في هذه المنطقة بروابطها المتينة، العائلة بطريقية في النسق، تحكمها النسوة من الداخل، ضمن نسيج أسري تتصدره العائلة الكبيرة، فتبقى بذلك استقلالية العائلة النواة شكلية، والمؤسسة الاجتماعية يسيِّرها قانون العرش، المشحون باللاشعور الجمعي السائد بما تتوارثه العائلة من عادات وتقاليد يَستحيل العزوف عنها أو الشك في مصداقيتها.

اتصلنا بالعائلة عن طريق وساطة الشخص الذي أعلمنا بالحالة، فحدّد لنا موعدا مع وال د الأم الذي كان في استقبالنا، تَتْبَعه الأم وبجانبها طفلها الأكبر، أمّا العميل فقد كان خلفها يترقب الحاضرين، بينما الأب فقد صادف حضورنا يوم عمله.

قوبلنا باستقبال حار دلّ على مدى تقبل العائلة لواقع الاستغلال الجنسي ومساندتها للضحية، وبهذا تمكنا من خلال الزيارة الاستطلاعية تكوين فكرة شاملة عن الحالة، ضمن تعاون كامل من العائلة، واكتفينا مع العميل بالتعارف الأول (سؤاله عن اسمه، سنه، دراسته وإخوته...).

كان هذا في المقابلة الأولى ، ثم تلاحقت وتواترت المقابلات أولا بمعدل مقابلة كل أسبوع، ثم مقابلة تقريبا كل نصف شهر نظرا لبعد المنطقة وصعوبة الوصول اليها وكذلك للظروف الأمنية غير المستقرة بها.

وخلال المقابلات الأولى اكتفينا بالعمل على بناء الرابط العلائقي مع طفل قد اُنتهكت ثقته في الآخ ر للتو وكان من الصعب جدا كسبها، إذ تميز العميل بالشك والتجنب طيلة أغلب المقابلات، ف لجأنا إلى الرسم لبناء الرابط مع العميل وكذلك كوسيلة تعبيرية.

1-2- كشف سر الاستغلال الجنسي حسب أقوال الأم:

اعتادت الأم أن تحمِّم أطفالها كل يوم أربعاء، خاصة وأنه بدخول فترة الصيف تكثر الأعراس والمناسبات العائلية، فتكون نهاية الأسبوع غالبا محجوزة للأعراس.

وبعد الانتهاء من تحميم الطفل الأكبر، انتقلت الأم إلى العميل، بدأت بسكب الماء على كامل جسمه وبفركه، لكنها لاحظت أنها عندما تلمس مناطقه الجنسية، يتزعج ويتهرب على غير عادته.

وتعودت الأم أثناء الاستحمام أن تجلسهم على مقاعد خشبية، لكنها لاحظت في ذلك اليوم أن العم يل أبى الجلوس على مقعده مفضلا الوقوف، وقد كان كثير الحركة.

وبعد الاستحمام وأثناء ارتداء الملابس، وبالتحديد عندما بدأت الأم بدهن جسم الرضيعة الصغيرة التي لم تتجاوز الستة أشهر بحليب الأطفال وبعض الكريمات المرطّبة، فوجئت بالعميل يطلب منها أن تضع له بعضا منها، وعندما سألته أين يرغب أن تضعها له، أشار بإصبعه إلى مِقعده، وعندما تفحَّصته، فُجِعت بالدماء تسيل من فتحة الشرج، لكنها – على حد قولها– لم يخطر لها مطلقا أن يكون صغيرها ضحية اعتداء جنسي، وعندما استفسرت منه عن الأمر، أنكر علمه بالسبب.

سارعت الأم مباشرة إلى و الده لتخبره، ولتطلب منه الاستفسار بدوره عن الأمر، وعندما سأل العميل عن سبب الدماء وعمَّا حدث له، آثر هذا الأخير الصمت و لم ينطق بكلمة غير إصراره على أنه لم يحدث معه شيء.

عندها تذكر الأخ الأكبر أن أصدقاءه في المدرسة، قد أخبروه صباح ذات اليوم أنهم رأوا صدفة أ خاه الأصغر (العميل) في وضعية مخجلة (يْسَب علِيه الدِينْ) مع فتى معروف في المنطقة هو ابن جارهم، لكنهم لم يتدخلوا و لم يستطيعوا منعه خوفا من أن يضربهم، إلاّ أنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد مستبعدا إياه، ظنا منه أنهم يكيدون له بعض الحقد لا غير.

فسارع إلى والدته مخبرا إياها بما قاله له أصدقاؤه، وهي بدورها لم تتوان عن إخبار زوجها، الذي اشتطَّ غضبا على العميل، وقام بضربه ضربا مبرحا مجبرا إياه على الاعتراف، لكن دون جدوى.

وفي صباح الغد الباكر، سارع الأب مباشرة إلى مركز الدرك الوطني الكائن بالمنطقة، للتبليغ عن الحادثة وتقديم شكوى رسمية في حق ابن الجيران مستندا على أقوال أصدقاء ابنه البِكر، لكنه نُصح من طرف أحد معارفه، بأن يأخذ العميل إلى الطبيب العام بالمركز الصحي الوحيد المتواجد بالمنطقة ليفحصه، ويؤكد له مدى صحة الاعتداء، وبعد نتيجة الفحص الطبي المؤكِدة لوجود اعتداء جنسي، تمّ تقديم شكوى رسمية بموجبها سُخِّر الطبيب الشرعي بالمؤسسة الإستشفائية بدائرة عين آزال – وتعتبر المنطقة من ضواحيها– لفحص الطفل وتقديم شهادة طبية تؤكّد أو تنفي صحة الاعتداء الجنسي، مع درجته وتكراريته في حال حدوثه.

وبعد عودة الأب بالشهادة الطبية المؤكّدة للاعتداء الجنسي، باشرت مصالح الدرك الوطني إجراءاتها وتُركت القضية بين يدي العدالة.

1–3– واقعة الاعتداء الجنسي حسب أقوال الأم:

الصمت الذي لازم العميل في المنزل حول حقيقة الاعتداء الجنسي، لم يكن له مكان في مقابلة الفحص والخبرة الطبية لدى الطبيب الشرعي أو جلسات المحكمة، إذ استرسل في سرد تفاصيل الاعتداء دون تردد وحسب أقوال الأم، مما استطاعت معرفته من والد العميل الذي حضر الجلسات، فإن الحادثة قد تمت في اليوم الذي سبق يوم الاستحمام (يوم الثلاثاء)، عندما كان العميل يلعب كعادته أمام المنزل بدراجته، حينها اقترب منه المعتدي وهو مراهق ابن أحد جيرانهم، من عائلة جد محافظة ومعروفة بالدين والعلم في المنطقة، الذي طلب منه مرافقته إلى مكان ليس ببعيد بحجة اصطياد الحمام، بدلا من بقائه أمام المنزل كالفتيات، وبعد زمن من الإغراء والترغيب، اقتاده إلى ملعب مهجور، مجاور لإحدى المزارع، أين قام بالاعتداء عليه.

1–4– التغيرات التي طرأت على العميل بعد الاعتداء الجنسي حسب أقوال الوالدين

- الامتناع عن الأكل، ولا يأكل إلا تحت ضغط الوالدين؛
- فقدان ملحوظ في الوزن؛
- اضطرابات في النوم (الأرق، الكوابيس...)؛
- الخوف الشديد من الظلام؛
- الخوف من البقاء وحيدا؛
- فكر شارد أغلب الأحيان؛
- الصمت الدائم؛
- الابتعاد عن الدراسة؛
- الامتناع عن اللعب مع بقية الأطفال، وحتى عن اللعب في المنزل؛
- اللامبالاة بالأمور التي كانت تهمه قبلا؛
- امتثال للأوامر المقدّمة من طرف الأهل دون أية معارضة.

وببساطة، حسب قول الأم:" ما بْقَاشْ كِيمَا بَكْرِي".

1-5-المعتدي:

ينتمي إلى نفس المنطقة بعاداتها وتقاليدها، هو ابن أحد جيرانهم، و لا يعُدهم كثيرا في السكن، مراهق يبلغ من العمر ستة عشر (16) سنة، يدرس في السنة الرابعة متوسط، معروف بانضباطه واعتزاله، إذ أنه ينتمي إلى عائلة معروفة أولا بالدين والتحفظ، وثانيا بالعلم، فمن إخوته من يشغل مناصب علمية مرتفعة خارج الولاية لذلك عُرف العائلة بسلطتها، وبتوسّع علاقاتها وصيتها في المنطقة، هو شخص بعيد كل البعد عن الظن السيئ.

1-6- شبكة الملاحظة الخاصة بالحالة الأولى:

جدول رقم (02): يوضح مجموعة من العناصر التي يمكن أن تُخضع للملاحظة بأشكالها

العناصر المراد ملاحظتها	التقدير
1- المظهر العام للحالة	
01- العمر الظاهري للحالة.	نفس عمره الحقيقي.
02- إذا كان يبدو عليها المرض أو الصحة.	المرض، اسوداد تحت العينين.
03- النمط الجسدي.	نحيف.
04- الطريقة التي بها يحيي الفاحص.	رجولية، مع بسط اليد.
05- نظافة جسده (نظيف جدا، غير نظيف).	نظافة معقولة.
06- نظافة هندامه.	نظيف.
07- مظهر وهندام معقول.	نعم.
08- غير مهندم بشكل مقبول.	لا.
09- اهتمام زائد باللباس.	لا.
10- طريقة لباسه غريبة.	لا.
11- ألوان اللباس (ذكرية، أنثوية).	ذكرية.
12- نوعية اللباس (رياضية، كلاسيكية).	كلاسيكية.
13- جدة الملابس من قدمها.	عادية.
14- تناسق ألوان الملابس من عدم تناسقها.	متناسقة.
15- لباس متعدد الألوان أم بلون واحد.	بلونين.
16- رائحة الجسد.	حسنة.
17- أظافر مقلّمة أو غير مقلّمة.	مقلّمة.
18- جسمه يحوي علامات غير عادية (ندبة، وشم).	لا.
19- تشوهات جسدية.	لا.
20- وضع الأقراط بالنسبة للصبي أو أي مستلزمات أنثوية.	لا.
21- حالة الشعر (مسرّح، غير مسرّح).	مسرّح.

22- تناسب تسريحة الشعر مع جنس الحالة من عدم تناسبها.	متناسبة.
2- أسلوب التعبير غير الكلامي	
23- يجلس في وضع مسترخي.	غير مسترخي.
24- يجلس وهو منحني الجسد.	لا.
25- يجلس وهو منتصب الجسد.	نعم.
26-يجلس على حافة الكرسي.	نعم.
27- يجلس في وضعية مقابلة للمتحدث إليه.	نعم.
28-يجلس بشكل جانبي بالنسبة للمتحدث إليه.	لا.
29- لا يستعمل يديه أو أي حركات جسدية أثناء الكلام.	أحيانا، الحديث مع الضغط على القضيب.
30-يقوم بتحريك يديه ورأسه كثيرا أثناء الكلام.	لا.
31-وجود اللّزمات من غيابها.	لا.
32-الإيماءات ودلالاتها (حزن، غيض...).	لامبالي، بارد.
33-تناسق حركات الجسم مع الموقف من عدم تناسقها.	غير متناسقة، وضع اليدين في الجيب أثناء المشي.
34-تحاشي النظر في عيني الآخر.	نعم، في حال النظر فليس مطولا.
35-تثبيت النظر في عيني الآخر.	لا.
36-التناسق بين محتوى الكلام والتعابير الوجهية.	غير متناسق.
37-التزام نفس مكان الجلوس بشكل هادئ.	عدم القدرة على الجلوس لمدة مطولة على المقعد.
38- التحرك كثيرا في نفس المكان.	عدم القدرة على الجلوس لمدة مطولة على المقعد.
39-تغيير مكان الجلوس الأول.	نعم وكثيرا.
3- المـــــــــــــــزاج	
40- حالة انفعالية مستقرة أم متقلبة.	على إيقاع واحد.
41-مزاج متفائل، عادي أو حزين.	عادي، غير مبالي.
42- التعبير عن الرغبة في الموت.	لا.
43- الحالة النفسية العامة (قلق، حزن، غضب).	لامبالاة.
44- الضحك/ البكاء.	لا هذا ولا ذاك.
4- أسلوب التعبير اللغوي	
45- يتحدث كثيرا أم قليلا أو لا يتحدث أبدا.	بايجاز، لكن مع ثراء لغوي وتنوع في استعمال الألفاظ.
46- إيقاع الكلام بين سريع، موسط أو بطئ.	متوسط.
47- محتوى الكلام(سوداوي، عادي، متفائل، متفائل جدا).	عادي جدا.
48- ما يستغرقه من وقت أثناء الحديث.	القليل.
49- نبرة الصوت بين عالية، متوسطة أو منخفضة.	متوسطة.
50- عدد مرات الصمت.	كثيرة جدا وطويلة، وكأنه في عالم آخر.
51- مواقع التوقف في الكلام.	الحديث عن الاعتداء الجنسي.
52- الوقت الذي يستغرقه من أجل الانتقال بين الأسئلة.	نسبي، عموما غير طويل.

53-التنقل في الكلام من موضوع إلى آخر.	كثيرا.
54- الحاجة إلى التحكم في الحديث وإقصاء الآخر.	واضحة جدا.
55- التردد في الكلام.	غير موجود نهائيا.
56-التكلم بثقة أو بعدم ثقة.	بثقة متزايدة.
57- على من يتحدث أكثر.	عن عائلته.
58-هل يعيد تأكيد ما يقوله عن الآخرين.	نهائيا.
59-هل يعيد قول نفس الأشياء.	أحيانا.
60- كلام مفهوم، واضح أو غامض.	واضح جدا.
61- يكثر من التفاصيل.	لا.
62-التكلم بحرية أو بحذر.	بحذر شديد.
63- أقوال متماسكة ومترابطة أم خليطة غير متصلة.	متماسكة إلى حد محير.
64- الطابع الدرامي أو الهزلي في الكلام.	هزلية غالبا.
5- ردود الفعـــــــل	
65- التعاون أثناء المقابلة وتطبيق الاختبار.	متعاون جدا خاصة في الرسم.
66- التردد في الاستسلام لسيرورة التفاعل.	نعم، مع التشكيك المتواصل.
67- مقاومة نفسية بمختلف أشكالها.	كبيرة وبجميع أشكالها.
6- التوظيـــــف العقـــلـــي	
68- الذاكرة (قوية، ضعيفة، قصيرة أو طويلة المدى).	قوية، طويلة المدى.
69-الاستذكار (بسرعة، ببطء، لا يتذكر).	بطيء.
70- مستوى الانتباه (جيد، مشتت، ضعيف).	أحيانا جيد، وغالبا مشتت.
71- مستوى التركيز.	ضعيف غالبا.
72- الحكم (سليم، غير سليم).	سليم إلى حد كبير.
73- القدرة على التمييز بين الخيال والأحداث الواقعية.	ضعيف فيما يتعلق بالصدمة، وجيد في غير ذلك.
74- إدراك أيام الأسبوع.	إدراك جيد.
75- إدراك تاريخ الأيام.	إدراك جيد.
76- التمييز بين الصباح والمساء.	تمييز جيد.
77-إدراك المكان المتواجد فيه.	إدراك جيد.
78- إدراك الأماكن التي تعرّض فيها لبعض الأحداث.	إدراك جيد.
79- إدراك الأشخاص والمتحدث معه.	إدراك جيد.
7- التركيـــز على الجســـم	
80- النظر إلى المرآة (قليلا، كثيرا، أبدا).	كثيرا وبشكل مميز.
81- الانشغال بالنظر باستغراب أو إلى أحد أجزاء الجسم	كثيرا وباستغراب كبير.
82- ملامسات متكررة لأحد أجزاء الجسم.	كثيرة خاصة لليدين.

8- النشـــــاط الجنـــــسي	
83- يمارس العادة السرية.	غير مؤكد.
84-يتجنب الموضوعات التي تمس الجانب الجنسي.	نهائيا، يصغي إلى كل ما يشير إليها.
85- يبحث عن فتح المواضيع التي تمس بالجانب الجنسي.	لا.
86- التعرض للاستغلال الجنسي.	نعم، في أقصى درجاته.
87- المبادرة في الحديث عن الممارسات المتعرض إليها.	لا، تجنب كامل لها.
88- الاستجابة للتلميحات فيتحدث عن الممارسات المتعرض إليها.	قليلا.
89- تفادي ما يشير إلى هذه الممارسات.	نعم، وبمقاومة شديدة.
90- سرد الأحداث المتعرض إليها بصيغة المتكلم.	لا.
91- سرد الأحداث المتعرض إليها ونسبها إلى الآخر.	انشطار كامل للأنا.
92- الختان والظروف المحيطة به.	لم يتم ختانه بعد.
9- الأكـــــــــــــل	
93- شهية مفتوحة للطعام.	لا.
94- شره في الأكل.	نهائيا.
95- ممتنع عن الأكل.	نعم.
96- يأكل فقط لأنه يجب أن يأكل.	نعم.
97- يحتاج إلى أن يدفع للأكل.	نعم، وإلا فلن يأكل.
98- يعاني من اضطرابات في الأكل.	نعم، قد تصل إلى الامتناع عن الأكل.
10- النـــــــــــــوم	
99- ينام بشكل جيد.	لا، أرق دائم.
100- نوم متقطع.	أحيانا.
101- ينام في النهار دون الليل.	لا.
102- ينام باستعمال الدواء.	لا.
103- يعاني من الأرق.	نعم.
104- ينام في سرير لوحده.	أحيانا.
105- ينام برفقة أحد الإخوة.	غالبا.
106-ينام إلى جانب الوالدين في غرفةواحدة.	أحيانا، ودائما في الشتاء.
107- لا ينام إلا ممسكا بموضوع انتقالي(دمية، غطاء...).	أحيانا.
108- يخاف من الظلام ولا ينام إلا منيرا الغرفة.	كثيرا، خاصة بعد الاعتداء الجنسي.

1-7- مقابلة 01 مارس 2010 :

كان قد مضى على زمن المقابلة التي سبقتها حوالي أسبوعين، و لم نحدد موعدها ضمن سابقتها نظرا لبعض التقلبات الأمنية (الإرهاب) في المنطقة أثناء تلك الفترة، وقد تم تحديد موعدها هاتفيا بعد التأكد من ملاءمته للجدول الدراسي للعميل وكذلك لظروف الأسرة.

تعودنا الوصول إلى المنزل كل مرة على الساعة التاسعة صباحا، وقد حرصنا على احترام هذا التوقيت لأسباب عديدة، أولها احترام خصوصية العائلة وثانيها لمقتضيات تتعلق بالسيرورة التحويلية وببناء العلاقة لتأخذ مكانا ضمن نسق العائلة.

فوجئنا ذلك اليوم بالعميل منتظرا إيانا لمدة نصف ساعة أو أكثر أمام باب المنزل، متحمسا ومهندما بشكل جيد، كان في استقبالنا وبمجرد نزولنا من السيارة، أسرع لإلقاء التحية علينا، سلام رجولي كعادته، ببسط اليد ومدها، مع وقفة منتصبة، لكنه هذه المرة قام بالضغط على يدنا، ثم أسرع إ لى داخل المنزل مفسحا لنا الطريق متجها إلى الغرفة التي فيها تعودنا القيام بالمقابلات (تقدم سيرورة النقلة).

بعد إلقاء التحية على باقي أفراد الأسرة، انفردنا به وباشرنا المقابلة، افتتحنا الحوار بسؤاله عن مناسبة عيد المولد النبوي الشريف، كيف أمضاها مع الأسرة، الأشياء التي قام بشرائها وعن كل ما قام به.

كان قليل الكلام على غير عادته معنا، نظراته خجولة، مبتعدا عنا في المجلس لمسافة تكفي لشخصين آخرين، جالسا على حافة السرير (غياب التمثيل اللاشعوري لصورة المقعد)، غير مستريح (قلق) وكأنه سيسقط في أي لحظة.

كنا قد جرَّ بنا معه في حصص سابقة أساليب عديدة غير مباشرة، علّها تمكننا من بلوغ مكمن الوجع خاصة وأنه قد مضى على اللقاء الأول زمن لا بأس به، لكن دون جدوى، ففي كل مرة كانت عيناه المغمورتان بالدموع وهيجان الحركي يَكُفُّنا ويمنعنا من الاستمرار في استثارته، وكان يجيب على جميع أسئلتنا إما بأجوبة منكِرة (لا أعرف) أو بالتجاهل لها، مثلا:

ψ: هل تعلم لماذا أزوركم في المنزل بين الحين والآخر؟؛

ع: صمت مطول، ثم يجيب لا أدري.

ψ: ألم يخبرك أحد في المنزل عن سبب زيارتي؟؛

ع: إيماءات تعبيرية برفع الحاجبين وخفض زاويتي الفم، بمعنى لا أدري.

وسريعا ما تتغير ملامح وجهه، وكأنه مدرك لمآل أسئلتنا هذه، فيقطّب وجهه، ويخفض رأسه ويلتزم الصمت (مقاومة شديدة).

هذه المرة وبعد اطلاعنا على تقرير الطبيب الشرعي الخاص بحالته، فوجئنا ببعض الحقائق الفارقية، التي حتى الوالدان لم يكونا على علم بها، فقد التصقا بالسرد الوحيد للعميل عندما أصر مرارا وتكرارا على أن الاعتداء لم

يحدث إلا مرة واحدة هي تلك المرة التي علموا بها، في حين كشف الفحص الطبي أن آثار الاعتداء توحي وتؤكد تكراره عدة مرات (رابط عاطفي وجنسي متين مع المعتدي).

فكانت محاولة جريئة من قبلنا على خوض هذه المواجهة مع الطفل، خوفا من انكماشه على حقا ئق مشوَّهة ضمن خياله الخصب، فيزيد الأمر صعوبة علينا، لذلك سألناه بعد تمهيدات عديدة :

ψ: هل تذكر الطبيب الذي أخذك والدك إليه ليفحصك في عين آزال؟؛

"تشفَى على الطبيب الليِ دَاك لِيه بابَاك باش يشوُفكَ في عين آزال؟ "؛

ع: صمت مطول، ثم إيماءة حركية برفع الكتفين وتحريك الرأس يمينا ثم يسارا، بمعنى لا أدري.

ψ: حسنا، هل أخذك والدك قبلا إلى الطبيب؟؛

"بالصح، دَاك بابَاك مَن قبلَ للطبيب؟"؛

ع: نعم، ولكن كان في سطيف؛

"إيه بالصحَ كان في سطيف"؛

ψ: حسنا، هل تذكر شكل الطبيب؟؛

فيتهرب من السؤال، يصمت قليلا، ثم يسترجع الحديث عن مناسبة المولد النبوي الشريف (التجنب).

ψ: يقال أن الأطباء جميعهم سُمر، فهل هذا صحيح؟؛

"يقولو الطُبَابكَامَل سوُمَر، كَايِنَّ مَهَا ؟"؛

فينظر إلينا بتمعن ويبتسم.

ψ: وكذلك هو الطبيب الذي أخذك إليه والدك ليفحصك بعد ما تعرضت إليه؟؛

"حتىَّ الطبيب الليِ دَاك لِيه بابَاك بلِش يشوُفكَ بعَد وَاش صرْالكَ؟ "؛

ع: ماذا!؟ ماتعرضت إليه!؟؛

"وشنَهِي !؟ وَاش صرْالي!؟"؛

ψ: هل تذكر الحادث؟؛

"تفَكَّر الأمر الليِ صرْالكَ؟ "؛

ع: لا، لا أذكره أبدا، ويبدأ في الضحك؛

"أوَّاه، مَا تفكَروش خْلاَص"؛

ψ: حسنا هل تعرف كيف هو شكل المحكمة؟؛

"تعَرَّف كِيفاَش مَخدُومَة المحكمة؟"؛

ع: نعم، نعم؛ "إيه، إيه"؛

ψ: هل ذهبت إليها من قبل؟؛

"رُحْت لِيها مَن قبل؟"؛

ع: نعم مع والدي؛

"إيه مْعَ بابَا"؛

ψ: هل تذكرها؟؛

"تشَفلَ عْلِيها؟"؛

ع: إنها مكان واسع يُحجز فيه المجرمون؛

"البلاَصةَ كبيرة بزَّاف، يدُكُو فيها الحرَاميَ"؛

ψ: هل تذكر الغرفة التي جلستم فيها؟؛

"تتفكر البلاَصةَ الليِ قعْدتُو فيها؟"؛

ع: نعم، صغيرة؛

"إيه صغَيْرة"؛

ψ: من كان فيها؟؛

"وشْكُون كان فيها؟"؛

ع: رجلان، واحد يكتب والآخر جالس فقط (القاضي)؛

"زوج رجَّالة، واحد قاعد يكتب والثاني قاعد برك"؛

ψ: هل تذكر الرجل الذي كان جالسا فقط؟؛

"تشَفلَعلَى الراجل الليِ كان قاَعَد بِرك؟"؛

ع: نعم، إنه صغير السن؛

"إيه صغَيَّر مرَّه"؛

ψ: من كان معكم كذلك في الغرفة؟؛

"وشْكُون كَان مْعَاكُم تانَي في البلاَصةَ"؛

ع: والدي؛

"بابا"؛

ψ: ومن الآخر؟؛

"وشْكُون تانَي؟"؛

صمِت مطولا ثم أخفض رأسه؛

ψ: هل كان جاركم هناك؟؛

"وجَاركُم، كان ثمَا ثاني؟"؛

ع: نعم، كان هناك؛

"إيه كان ثمَا"؛

ψ: ومن كذلك؛

"وشرْكُون ثاني؟"؛

ع: ووالده كذلك؛

"وباباه ثاني"؛

ψ: ماذا سألك القاضي؟؛

"واشْ سرقْسَاك القاضي؟"؛

ع: سألني إذا كان صحيح؛

"سرقْسَاني إذا كان صح"؛

ψ: ماذا؟؛

"وشَنْوِي؟"؛

ψ: هل مارس أمورا علي؛

"إذَا دَارْلي"؛

ψ: وأنت، ماذا أجبته؟؛

"وانت وَشْ قلْتوْ؟"؛

ع: نعم، قام بها؛

"إيه دارلي"؛

ψ: ومن ثمّ، مع من تحدث القاضي؟؛

"ومَنْ بعَ، معَ مَن هْدَر القاضي؟"؛

ع: معه؛

"معاه"؛

ψ: مع من؟؛

ع: مع من فعل بي تلك الأمور؛

"مْعَ الليِ دَارلي هكذاك"؛

ψ: هل تعرف اسمه؟؛

"تعْرَف اسمو؟"؛

ع: نعم، أعرفه؛

"إيه نَعْرَفو"؛

ψ: ما اسمه؛

"وشْ اسمو"؛

ع: قام بتسميته؛

ψ: ماذا قال له القاضي؟؛

"وش قالو القاضي؟"؛

ع:قال له: "لماذا فعلت معه هكذا؟"؛

"قلّلو لاه تدِيرلو هكذا؟"؛

ψ: وماذا أجابه؟؛

"وهو وَشْ قالو؟"؛

ع: قال له أنه لم يكن في وعيه؛

"قالو مَا كُنشَ عْلاَبلِي"؛

ψ: وأنت هل فعل معك كذلك؟؛

"وأنت، دارلك هكذاك؟"؛

أخفض عينيه والتزم الصمت، ثم بدأ في لفّ خيط معطفه حول رقبته، سحب كُميه إلى الأمام (الأنا-البشرة الحاوي)، وبدأ في التحرك على حافة السرير حتى سقط من عليه (إلغاء التصور اللاشعوري لمنطقة الشرج المخزِّنة للخبرة المخزية)، ثم عاد ونهض، واستمر في لفّ الخيط حول رقبته إلى أن احمر وجهه، وكأنه رغِب في حبس كلماته في حلقه (مقاومة).

برأس منحني، وعينين منخفضتين ودامعتين، ووجه مُحمر، بقي لزمن لا بأس به .

ثم طلبنا منه رفع رأسه والنظر إلينا قائلين له :"هناك أمور نخجل من ذكرها أمام المقربين منّا وحتى أمام أنفسنا، لذلك قد نظن أنها لا تحدث إلا معنا، لكنها في الحقيقة قد تحدث مع أشخاص آخرين، قد تجعلنا نحس بأمور غريبة في داخلنا، وإذا لم نتحدث عنها و لم نخرجها من داخلنا، فسوف تلازمنا هذه الأحاسيس إلى الأبد في حين يمكن أن تحكيها لشخص تثق فيه".

"كَايِنْ حْوَايجْ نحَشمُو نَقدرُوهُم قدَام النَاس اللِي نعَرفوهُم، وحَتى نحَشمُوا كِي نتفكرُوهُم وَ حَدنَا مع أرواحنا، عْلِيهَا نحَسوهَا بلِي ضرَرْ مْنَا غِير أحنا، بالصح هِي تقدَر تصَرا معَ أي وَاحَد، كي نفكْرُوهُم نحَسُوا بحوَايجْ دَخْلاَني مَا نفهَمُوهُمش، وْإذَا مَا دَرلهُمش لْعَد نقْدرُوه وقريب لِيلْ كِيمَا أمْنَا ولا بلبَالنَا، رَايحْ تبقَى دِيما لاصقَة فينِا ومَا تخْطِيلاَش خْلاَص، حتى وإذا مَا حَبيلاَش نتفكرُوهَا، تقدَر تحكِيلي وَاش تحَب، رَاح يبقَى سرْ بيني وبينك برك، ومَ ارَاحشْ نحكي حتى حاجة لحتى وَاحد، وخاصة والديك".

رمقنا بنظرات ملتمسة، وكأنه يستحلفنا با لله، بأن يكون كلامنا صادقا وليس فقط بغية استدراجه للحصول على ما نريد.

ثم أضفنا قائلين:

ψ: هل تعلم لماذا أنا هنا؟؛

"عليَ بلِيكْ غْلاَ جَال وَاه رَاني هنا؟"؛

ع: نعم، لتتحدثي معي؛

"إيه باشْ نشْايخِي معايا"؛

ψ: على ماذا؟؛

"عليَ واشْ نشْايخ مْعَاكْ"؛

ع: على ذلك الشخص (إنكار)؛

"على هَذَاكْ"؛

ψ: من؟؛

"وشْكُون"؛

ع: الذي يقوم بأفعال غير جيدة؛

"اللي يخْير حْوَايج مُشْ مْلاَح"؛

ψ: أي أفعال؟؛

"وشنَمَ حْوَايج"؛

ع: يمارس أمورا جنسية على الأطفال؛

"يخْير للأَولاد السرْقْلَة"؛

ψ: وأنت، هل فعل معك ذلك أيضا؟؛

"وأنت دَارْلَكْ تْلَفي؟"؛

ع: لا، لا، مع رفع حاجبيه وتحريك رأسه يمينا ويسار غير مبال؛

ψ: وكيف علمت بما يفعله لهم؟؛

"وكِيفاشْ عرَفتْ بلِيَ راه يدِيرَلهم هكذا؟"؛

ع: رأيته؛

"شَفتُو"؛

ψ: أين؟ أخبرني؛

"وِين؟ أَحكِيلِي"؛

ع: هناك ملعب ليس ببعيد من هنا، عندما أذهب إليه للعب أو لاصطياد الحمام، أراه؛

"كَايِنْ وَاحَد لملعَب بقَالنا، مَاهُوش بعيد علينا بزاف، كي نْرُوح هَكذا نلْعَب شْوَيَ، ولاَ نرُوح نصْرَايَ لحمَامْ، نشْرُوفوا"؛

ψ: وبما أن الملعب ليس ببعيد من هنا، ألن يشاهده الناس؟؛

"والمَلْعَب هَذَا، قُتلِي مَاهُوش بعِيدْ عْلِيَ هْكَ، مَارَاحَش يشْرُوفوهُ النَاس منَّا؟"؛

ع: لا، لا، هناك حائط في الملعب يُخفي لكُلَ شيء، لكَمَا أنَّ لاَ أَحدَ يذهب إلى هناك؛

"لا، لا، لَخاطر مَدَرَّق، كاين بحيْرَة (مزرعة) ثمَا، وواحد ما يروح ليه، وكاين صُور (حائط) يَدَرَّق حذاه باه واحد ما يشُوفوش"؛

ψ: وأنت كيف استطعت رؤيته؟؛

"وأنت كيفاش شَفتو؟"؛

ع: لقد كنت في الجهة المقابلة؛

"أنا كنت في الجهة اللي مَنْهيه"؛

ψ: من يأخذ إلى هناك؟؛

"وشكُونْ يِيَي ثمَا؟"؛

ع: يأخذ البنات والذكور، يأخذ فقط (خصاء تناسلي غير أوديي)؛

"يدي هكذا لبنات والذْرَاري، يدي برك"؛

ψ: وأنت من رأيت معه، طفلة أم طفل؟؛

"وأنت شَفْتُو دَا مْعَه طُفلَة ولا طْفلْ؟"؛

ع: يختلف كل مرة؛

"كل مرة كيفاش"؛

ψ: إذا رأيته أكثر من مرة؟؛

"مالا شَفْتُو قداش من مرة؟"؛

ع: نعم، وليس أنا فقط، جميع الأطفال الآخرين يرونه كذلك، صرنا نمر ونتركه؛

"إيه ومُشْ غِير أنَا الذراري أُكَلْ يشوفوه معايا، عُدْنَا نْفُوتوا ونخليوَه"؛

ψ: ألا يتكلم معه أحد؟؛

"واحد ما يهدر معاه؟"؛

ع: اعتادوا عليه، كما أن الجميع يخشاه، يفعل ما يحب (تبرير)؛

"والْفُوه، عادي، وثاني أَكَلْ يخافوا منو، يدير وش يحب"؛

ψ: هل رأيت ماذا يفعل لهم؟؛

"شَفْتُو واش يديرلهم؟"؛

ع: نعم، يرتدون تنانير حتى يَسْهُل عليهم الأمر، فيترعون ملابسهم بسرعة؛

"إيه، يلبسوا جْوَابن باش يْجِيهُم ساهل، يَتْعَراو ثَمْ ثَمْ"؛

ψ: والذكور أيضا يرتدون تنانير؟؛

"والذراري ثاني يلَبْسُو جوابن؟"؛

ع: لا، لا، أولئك يترع لهم سراويلهم؛

"لا، لا، هَاذُوك يهبَطْلهم السراول"؛

ψ: السراويل فقط؟؛

"السرَاوَل بَرك؟"؛

ع: لا ،لا، كل شيئ؛

"لا، لا، كلش"؛

ψ: وهل رأيت ماذا يفعل لهم؟؛

"وشَفْتهم كيفاش يْدِيرَلهم؟"؛

ع: لا، لا، كانوا على مسافة بعيدة عني، لكنني رأيت أحدهم مرة (انشطار الأنا)؛

"لا، لا، بعاد عليا، مَا نْشُوفْهُمش مليح، بالصح شَفْت واحد خَطرة"؛

ψ: هل تعرفه؟؛

"تعرفوا؟"؛

ع: لا، لا، لا أعرفه؛

"لا، لا، ما نَعرفوش"؛

ψ: كم عمره؟؛

"قداش يجي؟"؛

ع: صغير جدا؛

"صْغَير مره"؛

ψ: كم يكون عمره في رأيك؟؛

"قداش يكون في عمرو هكذاك؟"؛

ع: لا أدري، في عمري ربما أو أكبر مني قليلا؛

"ما نعرف، قَدِي هكذاك ولا أكثر مني شْوِيا"؛

ψ: وأنت، هل رأيت ماذا فعل له؟؛

"وأنت شَفْتو وش دَارلو؟"؛

ع: نعم، قام بترع سروال الطفل الصغير، ثم قام بإدخال قضيبه كاملا في مقعد الطفل الصغير، حتى أصبح لديه اثنان، وأنا عندما رأيته ظننت أن لدى الطفل الصغير قضيبان (تعزيز نرجسي مبالغ فيه للقضيب)؛

"إيه، هَبَطْلو السروال، ومن بعد دارلو 'نتاعو' كامل(...) حتَّى عَادو عَندو زُوج، أنا كي شَفْتو نَحسَبْ عَندو زوج"؛

ψ: ومن ثمَّ؟؛

ع: سال الماء، سال الماء، سال الماء كثيرا (النكوص إلى الحياة الرحمية أو المائية Thalassa)؛

"ساح الماء، ساح الماء، ساح الماء بزاف"؛

ψ: الماء فقط؟؛

"الماء برك؟"؛

ع: الماء فقط؛

"الماء برك"؛

ψ: ومن ثمّ؟؛

ع: هذا ما حدث فقط، ومن ثمّ قام بإخراج قضيبه وأعاد سرواله؛

"هذا ماكان، ومن بعد"نحاه" وطلّع سَروَالو"؛

ψ: وماذا عن الطفل الصغير، هل ألبس له كذلك سرواله؟؛

"والطفل الصغير، هو اللي طلَعْلُو ثاني سَروالو؟"؛

ع: لا، لَبسَه لوحده؛

"لا، لا، لَبْسُو وَحدو"؛

ψ: وعندما نزعه؟؛

"وكِي نحاه؟"؛

ع: الطفل الكبير هو الذي أنزله له؛

"الطفل الكبير هو اللي نَحاهلُو"؛

ψ: ماذا كان إحساس الطفل الصغير أثناءها؟؛

"وكيفاش كان يْحَسْ الطفل الصغير كي كان يْدِيرلُو هكذاك؟"؛

ع: لا أدري، وما أدراني أنا؟ ثم صمت؛

"ما نعرف، وأنا وِين عْلابالي؟"؛

ψ: قلت فقط، ربما ظهر على وجهه؛

"قُلْت بَرْك، إذا بَانْ عليه"؛

ع: بدا لي أن الأمر أعجبه، لم يكن يريد في البداية لكن الأمر أعجبه، إلا أنّه آلمه كثيرا؛

"تبَانلي عَجبُو الحال بزّاف، ماكانش حاب في الأول، بالصَحْ عَجبُو الحال، بالصَحْ وَجْعُو بزّاف"(ارتباط)؛

ψ: لماذا لم يوقفه عندما آلمه؟؛

"وكِي وَجْعُو، عْلاه مَا حَبْسُوش؟"؛

ع: لأنه أكبر منه، وخاف من أن يضربه (فشل الخصاء الأوديبي)؛

"لَخَاطر هو أكثَر مَنُو وخَاف يَضَربو"؛

ψ: هل يُحب الطفل الصغير هذا الطفل الكبير أم لا يحبه؟؛

"وهذا الطفل الصغير، يحب هذا الطفل الكبير ولا ما يحبوش؟"؛

ع: يحبه بالرغم مما فعله به (اجتياف الإحساس بالذنب الخاص بالمعتدي)؛

"يْحَبُو لاشْتَا دَارلُو هكذا"؛

ψ: لماذا يحبه؟؛

"علاه يْحَبُو؟"؛

ع: لأنه يقدم له الهدايا، وهو الوحيد الذي يمضي الوقت معه، يت حدث إليه ويأخذه معه أينما يذهب كذلك يدافع عنه ولا يتركه لوحده أبدا، دائما معه حتى يصبح كبيرا مثله (تماهي اجتيافي بالمعتدي)؛

"لَخَاطَر يْجِيبلُو لَحوايج، غير هو اللي يْرَيح معاه، يَدِّيه وِينْ يْرُوح، يْحَامِي عليه، وما يْخَلِيهَش خلا ص، دِيما هو وِيَاه، باش يْوَلِي كبير كِيفُو"؛

ψ: هل أخبر الطفل الصغير شخصا آخر بما يقوم به مع الطفل الكبير؟؛

"والطفل الصغير كَشْمَا قال لْوَاحَد أُوخَرْ وَشْ رَاه يْدِيرْ مع الطفل الكبير؟"؛

ع: لا يستطيع؛

"ما يَقْدَرش"؛

ψ: لماذا؟؛

ع: أخبره إذا تكلم سوف يقتله ويقتل عائلته كاملة، كذلك سيتركه ولن يصدقه أحد، وسوف يناديه الناس من الآن فصاعدا بالكذَّاب؛

"قالو ما تْقُولَش لحتى واحد، ولا نُقتْلَك ونُ قْتَلْ داركم أُكَل، كُنْ تْقُول، أنا نَخْطِيك وْوَاحَد ما يصدقك يعودوا يْعَيْطُولَك الكذّاب"(قلق الفقدان) ؛

ψ: إذا لأنه خائف منه لم يستطع إخبار أي أحد؟؛

"مَالا كي عاد خَايَفْ مَنُو، ما قْدَرش يقول لحتى واحد عليه؟ ؛

ع: وأيضا لأنه سيتركه، ولن يجد شخصا يجلس معه من الآن فصاعدا، لن يحبه أحد آخر من الآن فصاعدا ولن يهتم به أحد (الغياب الرمزي لراشد للتقمّص)؛

"ثاني يَخْطِيه، ومع مَنْ يْرَيح مَنَا وغَادي؟ يولي واحد مَا يْحَبو، وْوَاحد ما يَلْتَى بيه"؛

ψ: وهل يرغب في البقاء معه دائما على هذا الحال؟؛

"وهُوَ حَاب يَقْعُد مْعَاه دِيما هكذا؟"؛

ع: قام بتقطيب وجهه، عَقْد حاجبيه ثم قال :" لماذا يحب؟ لا أدري، دعينا منه ...ستأتين المرة المقبلة أم أنكِ ستطيلين المدة مثل هذه المرة؟؛

"لاه يْحَب؟ مَا نَعْرَفْ، خَلِينا مَنُو... يَخِي تْجِي المرة لْجَاية ولا تْطَولي كِيما هَاذ المرة؟"؛

ψ: هل هناك أمور تريد أن تحكيها لي المرة المقبلة؟؛

"كَشْمَا حاب تحكيلي حْوَايَج المرة الجاية؟"؛

ع: لا، قلت فقط؛

"أوَّاه، قلْت ربك"؛

ψ: وهذا الطفل الصغير، هل تلتقيه؟؛

"وهاذ الطفل الصغير، تَتْلاقَاه؟"؛

ع: بحركات إيمائية وتقطيب الحاجبين، لا، لا، لاه؟؛

ψ: حتى ترى إذا كان لا يزال يذهب مع الطفل الكبير أم لا؟؛

"باشْ تْشُوفو إذا مازال يْرُوح معاه، مع الطفل الكبير ولا لالا؟"؛

ع: لماذا؟ "لاه؟"؛

ψ: إذا لم يكن يريد الذهاب، وأراد، فسوف نساعده؛

"باشْ إذا كان مُشْ حَاب يروح ليه، وحَب نْعَاوْنُوه، نْعَاوْنُوه؟؛

ع: لقد اصطحبه أكثر من مرة، لن يتركه لحاله، كما أنك لن تستطيعي مواجهة الطفل الكبير، لديه سلطة كبيرة؛

"دَاهْ قَداه مَن مرة، ما يَخْطِيهَش منا وْغَادِي خْلاص، يُقْعد دِيمَ ا حْذَاه، وما تَقَدريش على هذاك ، عندو المعرفة"(استغلال السلطة)؛

ψ: الأمر بسيط، لكن فقط نحتاج إلى موافقة الطفل الصغير على مساعدتنا له حتى نبعده عنه؛

"سَاهَل مَرّه، بالصَح لازم الطفل هَاذا يْحَبْنَا نْعَاوْنوه، ويْخَلينا باش نْبَعْدُوه عليه مَره، هكذا برك نقدرو عليه"؛

ع: صح، زَعْمَا؟! بنظرات مستغربة؛

ψ: عندما تلاقي الطفل الصغير اسأله وفي المرة المقبلة أخبرني بجوابه؛

"كي تَلْقَاه سَقْسيه، والمرَّة الجاية قُولي وَش يْقُولك"؛

ع: إذًا ستأتين؟"؛

"مالا تجي؟"؛

ψ: أكيد، بإذنه تعالى.

ومن ثم بدأ في تغيير الموضوع مقفلا نهائيا باب الحديث عن الأمر، مما جعلنا ننهي المقابلة على هذا ا لقدر بعد الثناء عليه ا قائلين :"اليوم حْكِينَا مْلِيح مْعَ بَعضَانا "، ثم حددنا زمن المقابلة المقبلة معه بعد أسبوع من ذلك اليوم، سائلين إياه عن اليوم الذي يناسبه فأجاب :"أرْوَاحي كُل يوم، بَاشْ نَهَدْرُو وحَدْنَا"، فأجبناه شارحين سبب عجزنا عن الحضور يوميا، ثم نادينا والدته لتحديد تاريخ المقابلة المقبلة في حضوره ، وختمنا الجلسة قائلين:"الأسبوع المقبل بإذن الله"، فأشار برأسه بمعنى الموافقة.

1-8- تحليل الرسومات:

- ورقة التنقيط 01
- التحليل الكيفي للرسم (تقدير الشخصية) .
- الحالة: الأولى.
- السن: 06 سنوات.
- تاريخ أداء الرسم: أكتوبر 2009 .

التحليل	التأويل
I- ترتيب الرسوم	
ذكر(كتب اسمه ولقبه على الورقة).	- سلامة سيرورة التقمص والانتماء الجنسي.
II- السلوك أثناء التنفيذ	
- رسم متمم ببطء، اهتمام كبير، ورغبة في الرسم الرغبة في إرضاء الآخر من خلال النظر في عيني الفاحص بعد الانتهاء من الرسم .	- لطف، تكيف جيد، إ رادة قوية، دينامية نفسية ملحوظة البحث عن الموافقة والرضا الاجتماعي.
III- الأبعاد الشاملة للرسم	
1- تموضع الرسم	
- الرأس في الوسط العلوي من الورقة.	-سيطرة الحياة الخيالية، الاس تعلاء بالنزوات نحو النشاطات الفكرية والانفتاح العلائقي، الاجتماعية، بذل الجهد المتواصل من أجل التحصل على مستوى عالي من التحصيل.
- الجذع وباقي الأطراف في وسط الورقة تماما.	- سهولة التكيف مع الواقع من خلال ما هو حاضر ومتاح الاعتماد على النفس وإيثار الذات.
2- الأبعاد والتناسقات	
- رسم رجل صغير.	- انكماش الشخصية، الخجل، الخشية والشعور بالنقص.
- عدم تناسق جذع/ رأس، جذع/ ذراعان، جذع/ ساقان.	- صعوبات في الاتصال من نمط بدائي فمي مع عدم القدرة على تحقيق وتجسيد التطلعات الاجتماعية.
3- الخطوط	
- خطوط قوية ضاغطة.	-الشبقية، عدم الرضا والعدوانية.
- خطوط منكسرة على شكل زوايا بالنسبة للرجلين والذراعين، الأنف وأصابع اليد اليسرى.	- الحيوية والحاجة إلى الفعل، الطاقة والرغبة الملحّة من أجل بناء الروابط العلائقية، اهتمام قضيبي معزَّز نرجسيا من خلال الإحساس بالرجولة، الغيظ، الهيجان والعدوانية فيما يتعلق بأمور ماضية.
- الجذع والفم على شكل مستطيل، الأنف على شكل مثلث.	- حصر شديد يتعلق بالنزوات الجنسية والنمط العلائقي الفمي.

– خطوط دائرية بالنسبة للرأس، الأذنين، العينين وأصابع اليد اليمنى.	– الليونة، شيء من الخضوع، النرجسية، القدرة على التوفيق وقابلية للتكيف.
– إتجاه الخطوط نازل.	– التشاؤم ، الملل السريع والقابلية للاكتئاب.
– إبراز خط الخصر مع اتجاهه نحو الأعلى.	– شدة الحاجات العلائقية، الانطلاق والبحث عن الأحاسيس الحارة.
– تمثيل السّرة من خلال نقطة.	– يوحي بأم قلوقة وعصبية.
– مساحة بيضاء كبيرة متروكة في الورقة.	– اتساع مساحة المحرّمات المحيطة به.

4– الوضعية والتناسق

– محور الرأس لا يتماشى مع محوري الجذع والساقين كذلك الذراعان ليس لهما نفس الطول رغم أنهما مربوطتان بنفس الشكل، بينما الرجلان فلهما نفس الشكل ونفس الطول.	– توازن نسبي غير دائم لكنه مقبول اجتماعيا ويوحي بنوع من التكيف والصمود.

5– وضعية الجسم

– رسم رجل بالمقابل.	– التكيف والمواجهة.
– هيئة عامة عادية، توحي بشيء ممن البلادة.	– التعامل مع الأحداث الصدمية والمستغربة بشيء من البلادة واللامبالاة.
– رجلان غير متمركزتان بشكل جيد على الأرض ممثّلتان من خلال رؤوس زوايا حادة، كذلك الميل إلى الجانب الأيسر المستَدَل عليه في طول الذراع اليسرى.	– عدم الإحساس بالأمان، الحصر الشديد والقابلية للنكوص نحو أشكال علائقية بدائية مع الميل إلى التعبير الانفعالي.
– وضعية الذراعين (Λ) مبتعدة عن الجسم.	– التكيف الاجتماعي والبحث عن ربط العلاقات.
– وضعية الساقين متباعدة ، الرجلان ممثلتان من خلال رؤوس زوايا.	– تعطي الانطباع بالاستقرار النفسي حتى وإن كان مؤقتا وغير مؤسَّس، الاستعداد للحركة.

6–الحركـــــــة

– غياب تام للحركة.	– صراعات داخلية عميقة، فعالية الكبت ، مع إحساس بالتقييد والسلبية.

7– رمزية الألـــــوان

– غياب تام لاستعمال الألوان ما عدا اللون الأسود.	– الحصر، الغموض والا ختلاط، الاكتئاب، الإحساس بالذنب الإحساس بالتوسيخ، الحداد.

8–تحديـــد شخصيـــة الرســـــم

– **السن:** 06 سنوات "هذا أنـــا".	– تكيف، تعزيز نرجسي.
– **الجنس:** ذكر "هذا طفُلْ، هذا أنـــا".	– تماهي ذكري مع تعزيز نرجسي لجنسه.
– **الهوية:** غـــــير محـــــددة.	– الخوف من المستقبل، المادية وتقييد الخيال.

9- التعبير

أنا طفل صغير، ضعيف البنية، غير مهندم ولا أحب ارتداء الكثير من الملابس، أحب التعامل مع الناس، أن أتكلم معهم وأقولَ ما أريد، أحس بالقوة عندما أكون مع أسرتي، ويمكنني أن أكون عدوانيا إذا أخذ أحدٌ أشيائي.

الشعور بالضعف الجسدي ومحاولة تعويضه من خلال إبراز وتعزيز نرجسي للجسم، البحث عن التفاعل العلائقي خارج الأسرة ينم عن شيء من الانفتاح الاجتماعي المتكيِّف، علاقات وتواصلات من نمط بدائي واحتمالية التثبيت في المرحلة الفمية الإيجابية.

10- المحيط

- غائب تماما.

- انشغالات فمية، شبكة علائقية مقلّصة، مع الميل إلى الانعزال

IV- الأبعاد التحليلية للرسم

1- الرأس

- حجم الرأس صغير بالنسبة لحجم الورقة لكنَّه عادي بالنسبة لحجم الجسم وسن ا لمفحوص، والرأس ذو شكل دائري.

- التخلي عن التحكم الممارَس على الغرائز، لكن ضمن حدود تسمح بشكل من التكيف المقبول.

- العينان غير متساويتان، اليسرى كبيرة واليمنى على شكل نقطة، غير بارزة، مع غياب الرموش والحاجبين.

- الفضول، البصبصة، الانفتاح على العلاقات الحميمية والدافئة من نمط بدائي، مع تردد في تقبل المنبهات والمثيرات البصرية (المشاهد الصدمية مثلا)، غياب الإغراء وعدم القدرة على التحريض.

- أنف محدد بخيط سميك على شكل مثلث زاويته متجهة نحو الأعلى، ذو حجم ظاهر.

- مشاكل جنسية، استمناء، خوف من الخصاء مع انشغال قضيبي يسوده الحصر الشديد.

- فم كبير على شكل مستطيل، محدد من خلال خيط غليظ خشن، مفتوح جهة اليمين مع بروز الأسنان.

- الشراهة الفمية والعدوانية مع احتمال تثبيت في المرحلة الفمية الإيجابية النشِطة، يميزها الحصر.

- الذقن غائب.

- الإحساس بالنقص الاجتماعي أكثر منه جنسي.

- الأذنان غير متساويتان في الحجم، اليمنى محيطها كبير مقعّرة، مرسومة على خط مستوي مستقيم، بينما تضيق اليسرى في نقطة اتصالها بالرأس، محيطها الداخلي صغير وتتجه نحو الأعلى.

- الانشغال بالسمع وبالمعرفة، الحساسية، الت حسّس من النقد الفضول، الليونة وقدرة جيدة على الإصغاء، البحث عن الانطلاق والحياة والميل إلى تجاوز الماضي أو إلى توظيف الانشطار الزمني

- شعيرات موزّعة على محيط الرأس.

- حاجات شبقية وحيوية جنسية.

2- الجذع

- جذع ذو حجم كبير في غير تناسب.

- وجود عدد كبير من الرغبات غير المشبَعة، مع تخفيف الرقابة على حركية التروات على أشكالها، بحثا عن شيء من الإشباع واللّذة البدائية(على مستوى التغذية أو الجنس).

- غياب الرقبة.

- البحث عن الإشباع الملموس، المادية.

- كتفان غير عريضتين.

- ضعف البنية الجسدية، إعطاء قيمة للقدرات الفكرية

– الخصر محدد بخط سميك، صاعد في جهته اليسرى نحو الأعلى. – السرة ممثلة على شكل نقطة.	– استجابة عدوانية للصراعات النفسية مع استعداد للتسوية المتكيِّفة. – التبعية الوسواسية، الانشغال بفكرة المركز، الفضول فيما يتعلق بالولادة والرغبة في الحصول على الإحساس بالأمن من خلال النكوص إلى نمط علائقي بدائي.
3– الأطـــــراف	
– ذراعان غير متساويتين، اليسرى طويلة ولكنها ضعيفة اليمنى قصيرة، مع يدين غير محددتين إلا من خلال وجود الأصابع الحادة في اليد ا ليسرى والمستديرة في اليد اليمنى لكن غير المتساوية في عددها. – ساقان قصيرتان مع رجلين محددتين وبار زتين، ممثلتين من خلال رؤوس الزوايا على شكل نقطة.	– استحالة تحقيق الطموحات، الحاجة إلى التأييد من قبل الوسط إحساس بعدم الأمان يرافقه إحساس بالذنب متعلق بأحداث ماضية يرغب في تغييرها لكن ضعفه يحول دون ذلك، مما يجعل من تمثيل العدوانية مستبعَدا، مع التشبث بالط ابع الطفولي المسا لم تأملا في المستقبل. – السلبية والافتقار للدينامية، مع الإحساس بعدم الأمان، بالخوف وبالذنب، يولّدهم الوسط، قلق الخصاء والخوف من العقاب نتيجة انتهاك المحرّم.
4– المـــــلابس	
– غائبة	– التمركز حول الذات، الح اجة إلى تأكيد التفرد والاختلاف تعزيز النرجسية الجسدية ضمن انغلاق على الذات وانشغال بصورة الجسم الخاص.
V – ملاحظات خاصة	
– رسم صغير طفولي، بوجه محدّد، رجلين متساويتين لكن غير متموضعتين بشكل جيد على القاعدة، وذراعين مبسوطتين في الهواء، غير متسعتين وغير متساويتين، مع استعمال خطوط سميكة، معزَّزة، بزوايا حادة، ولون أسود فريد. أصابع اليدين ناقصة من الجهتين، قد تكون مقطوعة.	– عدم الإحساس بالأمان أو بالاستقرار النفسي المتمركز على قاعدة صلبة، يعود إلى حالة الحصر الداخلية جرّاء حركية الصراعات على المستوى اللاشعوري، مع عجز عن تمثيل الانفعالات بشكل واعٍ أو خلق روابط علائقية مستقرة ودائمة. تصور جسدي دون المتوسط يعزِّز نقص الثقة في النفس والإحساس بالدونية والترك من طرف الآخرين لأنه أسود كليا مما يثبِّت الإحساس بالخزي ويدفع الرغبة نحو التلاشي والاختباء أو العقاب كقطع الأطراف النشطة حركيا والمنتهكة للمحارم، أو لأنها عجزت عن رد الفعل الدفاعي. الانشغالات الجنسية وانتهاك المحرّم الجنسي ضمن ثراء الواقع النفسي للطفل، يجعله يجد أسبابا لا متناهية ليغرق في الإحساس بالذنب.

VI – الصورة النفسية العامة من خلال نتائج التأويل

طفل ضعيف البنية، لطيف، ودود ولحوح بنظرات متسائلة، يبحث عن الرضا الاجتماعي أو عن صورته في أعين الآخرين، تسيطر عليه الحياة الخيالية المثالية ظاهريا ، متساميا بتزواته نحو نشاطات فكرية والانفتاح العلائقي الاجتماعي، مما يخلق شكلا من التكيف من خلال الاعتماد على الذات.

الواقع النفسي مفعَم بالشبقية، العدوانية المستترة، الحيوية، الطاقة، الحاجة إلى الفعل والرغبة الملحة في بناء الروابط مع الآخرين، كذلك انشغالات جنسية وإحساس بالذنب نتيجة الميل لانتهاك المحرّم، تعزيز نرجسي للقضيب من خلال إحساس متزايد بالرجولة، وفعالية الكبت في تسوية الصراعات الداخلية.

شعور بالنقص دفين غير ظاهر، خجل مستتر وانكماش نسبي للشخصية، مع صعوبات في التواصل من نمط بدائي فمي، الشراهة الفمية واحتمال التثبيت في المرحلة الفمية النشطة، مع سلامة سيرورة التقمص والانتماء الجنسي.

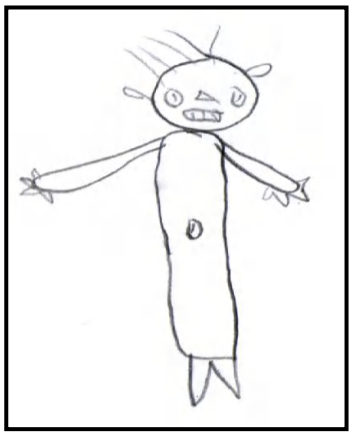

- ورقة التنقيط 02.
- التحليل الكيفي للرسم (تقدير الشخصية).
- الحالة: الأولى.
- السن: 06 سنوات.
- تاريخ أداء الرسم: ماي 2010.

التحليل	التأويل
I- ترتيب الرسوم	
ذكر(طفل).	- سلامة سيرورة التقمص والانتماء الجنسي
II- السلوك أثناء التنفيذ	
- رسم متمم ببطء، مع اهتمام متزايد، طلب الرسم كان من طرف المفحوص.	- لطف، تكيف جيد، إرادة معتبرة وعناية تدل على حركية الرغبة، تَقدم جيد في سيرورة النقلة من خلال محاولة إرضاء الفاحص، انخفاض ملحوظ في المقاومة.
III- الأبعاد الشاملة للرسم	
1- تموضع الرسم	
- قلب الورقة والرسم عليها بشكل أفقي.	- الحاجة إلى امتلاك مساحة حول الذات، نقص المثالية والروحانية مع معنى مادي متنامي، كذلك موقف مجابهة والحاجة إلى إظهار وتأكيد الذات.
- رسم متمركز في المنطقة الوسطى كاملة، ضمن أجزائها الثلاثة.	- التمسك بالحاضر والواقع بالارتكاز على قاعدة صلبة ، من خلال العودة إلى الأصل بحثا عن الهدوء والاستقرار قصد الحفاظ على شكل من التكيف، قائم على الاعتماد على النفس وإيثار الذات، كذلك بذل الجهد المتواصل للإبقاء على مستوى عالي من التحصيل دون الغرق في الخيال والمثالية المطلقة.
2- الأبعاد والتناسقات	
- رسم رجل كبير وضخم.	- يترجم الإحساس بالأمان ، الانفتاح والانبساط، غياب الكف ثقة متزايدة في النفس يقابل ها نقص أو غياب الثقة في الآخرين الإحساس بالضمان والقدرة على التحكم في الذات قد يزيد الميل إلى البروز كتعويض زائد.
- عدم تناسق جذع/ رأس، جذع/ ذراعان، وخاصة جذع ساقان.	- تكيف نسبي مؤقت غير قائم على إر صان الصراعات النفسية ربما قائم على توظيف مكثف لآلية الانشطار.

3- الخطوط

– خطوط قوية ضاغطة لكامل الجسم.	– الشبقية، عدم الرضا والعدوانية.
– خطوط معادة ومكررة.	– التردد والحس التدقيقي.
– خطوط منكسرة حادة على شكل زوايا من أجل الرجلين، الأنف وأصابع اليد اليسرى.	– الحيوية والحاجة إلى الفعل، الطاقة والرغبة الملحة من أجل بناء الروابط العلائقية، اهتمام قضيبي معزَّز نر جسيا من خلال الإحساس بالرجولة، الغيظ، الهيجان والعدوانية فيما يتعلق بأمور ماضية.
– خطوط منحنية دائرية من أجل باقي أجزاء الجسم.	– الليونة، القدرة على ا لتوفيق، الخضوع النسبي، النرجسية القابلية للتغيير والتكيف.
– رسم الجذع والفم على شكل مستطيل طويل والأنف على شكل مثلث.	– حصر شديد يتعلق بالنزوات الجنسية مع نمط علائقي فمي.
– مزيج بين الخطوط النازلة والصاعدة.	– التأرجح بين الملل، التشاؤم ، الاكتئاب والبحث عن الانطلاق عن الحياة، عن التفاعل والسرور.
– بعض الاختلافات في الضغط (الضغط في وسط الخط العمودي الأيسر المشكّل للجذع، على الدائرة المشكّلة للسرّة، على الخط الأيسر المشكّل للساق اليسرى، على قاعدة الكتفين).	– مناطق الصراع ا لنفسي، مشاكل على المستوى الجنسي نكوص إلى مراحل سابقة وأشكال قديمة للإشباع ضمن إحساس من عدم الأمان.
– مساحة بيضاء متروكة متساوية على الجهتين، لا تزال واسعة رغم حجم الرسم.	– الحفاظ على نوع من التوازن والاستقرار النفسي من خلال الحفاظ على مساحة أمن واسعة بينه و بين المحرّم وأي خطر ينجم عنه.

4- الوضعية والتناسق

– تناسق ممتاز بين محور الرأس، محور الجذع ومحور الساقين، مع تناسق عام بين جميع أطراف وملامح الجسم، رغم أن الجذع طويل جدا إلا أن شكله العام مقبول.	– مستوى متقدم من التكيف والاتزان النفسي الظاهر، تبطّنه ديناميةنزوية داخلية غالبة والعجز عن التحكم فيها.

5- وضعية الجسم

– رسم رجل بالمقابل.	– التكيف والمواجهة.
– هيئة عامة عادية لكن مقيّدة، الاحتكاك مع الأرض من خلال نقطة.	– الحصر والكف، توازن غير أكيد وغير مضمون.
– ذراعان متباعدتان ضمن وضعية (Λ).	– طبيعية ومتناسبة م ع العمر، توحي بالتكيف الاجتماعي الانفتاح العلائقي.
– الساقان متباعدتان عن بعضهما غير مثبتتان بشكل جيد على الأرض.	– ربما شيء من الحيوية، الاستقرار والثبات، لكن يبقى ذلك على قاعدة غير مؤكّدة.

6-الحركـــــة

– غياب تام للحركة.	– صراعات داخلية عميقة ، فعالية الكبت، مع إحساس بالتق يد والسلبية.

7- رمزية الألـــوان

- غياب تام لاستعمال الألوان ما عدا اللون الأسود.
- الحصر، الغموض والا ختلاط، الاكتئاب، الإحساس بالذنب الإحساس بالتوسيخ، الحداد.

8-تحديـد شخصيـة الرسـم

- **السن:** طفل.
- تكيف.
- **الجنس:** ذكر " طْفُل ".
- تماهي ذكري جيد.
- **الهوية:** غـير محـددة.
- الخوف من المستقبل وتشبث بالحاضر.

9- التعـــبير

مظهري ليس بجم يل، غير مهندم، لكنني بدأت أكبُر أستطيع الدفاع عن نفسي، أستطيع أن أكون عدوانيا حتى يخافني الآخرون، أحب أن أتعرف على الناس، أن يكون لي الكثير من الأصدقاء، لكن ا لحياة تفاجئني تخيفني، ولا أحس بالأمان إلا عندما أكون مع أسرتي.

- الإحساس بالترك، بالإهمال، مع تعزيز النرجسية الجسدية يعوِّض شيئا من الإحساس بالدونية، بوادر للتماهي مع عدوانية الآخر، واحتمالية التحول من السلبية نحو الإيجابية الدفاعية.

10- المحيـــط

- غائب تماما.
- انشغالات فمية، شبكة علائقية مقلّصة، مع الميل إلى الانعزال

IV- الأبعاد التحليلية للرسم

1- الـــرأس

- الرأس كبير ذو شكل دائري.
- النرجسية، تضخُّم الأنا، الغرور والتفاخر الفكري، تثبيت فمي محتمل بنمط علائقي بدائي، ضمن شكل متكيف.
- عينان كبيرتان، جاحظتان، العين اليمنى غير مكتملة الحلقة، مع غياب الرموش والحاجبين.
- الميل إلى الانفتاح، الفضول، البصبصة، مع غياب إمكانية التحريض.
- أنف محدد بخط سميك على شكل مثلث زاويته متجهة نحو الأعلى، حجمه صغير بالنسبة لحجم الفم والعينين.
- انخفاض في الانشغالات القضيبية عن خوف من الخصا ء أو تحقير للجانب الجنسي، عدوانية وحصر شديد فيما يتعلق بالجانب الجنسي، عدم فعالية القدرة القذفية كتصور معزِّز لقيمة القضيب
- فم كبير خشن على شكل مستطيل، مع بروز الأسنان بشكل واضح.
- الشراهة الفمية والعدوانية، مع إحتمال تثبيت في المرحلة الفمية الإيجابية النشطة، يميزها الحصر.
- الذقن غائب.
- الإحساس بالنقص الإجتماعي أكثر منه جنسي.
- -الأذنان صغيرتان غير متماثلتان (اليمنى أكبر من اليسرى)، اليسرى غير مكتملة في نقطة اتصالها السفل ية بالرأس.
- الانشغال بالسمع والمعرفة، الحساسية الزائدة، التحسّس من النقد، البحث عن الانطلاق، عن الحياة والميل إلى تجاوز الماضي أو إلى توظيف الانشطار الزمني.
- شعيرات موزعة على محيط الرأس.
- حاجات شبقية وحيوية جنسية.

2- الجـــــــذع

– جذع ذو حجم كبير.	– وجود عدد كبير من الرغبات غير المشبعة، سيطرة للدفعات التروية، فشل الخصاء الرمزي فيما يتعلق بالتحريم الجنسي، البحث عن إشباع الرغبة ضمن لذة بدائية والعجز عن التأجيل.
– غياب الرقبة.	– البحث عن الإشباع الملموس، المادية.
– كتفان صغيران.	– ضعف البنية الجسدية.
– السرّة ممثّلة على شكل دائرة داخلها نقطة.	– التبعية، الانشغال بفكرة المركز، الفضول فيما يتعلق بالولادة الرغبة في الحصول على الأمن من خلال النكوص إلى نمط علائقي بدائي.
– الخصر محدد بخط سميك، يزيد طوله على طول قاعدة الساقين من الجهة اليسرى.	– استجابة عدوانية للصراعات النفسية مع الإحساس بالكف والتقييد.

3- الأطـــــــراف

– ذراعان غير متساويتان، اليسرى طويلة ومتسعة، بينما اليمنى قصيرة وكذلك متسعة، مع يدين محددتين من خلال انفتاح في موضعهما، مزودتين بأصابع حادة في الجهة اليسرى واليد اليمنى تتضمن إصبعين حادين وآخرين على شكل دائري.	– الحاجة الملحة إلى تحقيق ال رغبات وتجسيدها واقعيا، الحيوية العدوانية، التشبث اللاإراد ي بالماضي (تناذر التكرار الصدمي) صعوبة في التخلص من الأنماط العلائقية القديمة، مما يصعّ ب بناء روابط جديدة.
– ساقان قصيرتان غير متساويتين، مع رجلين محددتين وبارزتين، ممثّلتين من خلال رؤوس الزوايا على شكل نقطة.	– السلبية والافتقار للدينامية، مع الإحساس بعدم الأمان، بالخوف وبالذنب، يولّدهم الوسط، قلق الخصاء والخوف من العقاب نتيجة انتهاك المحرّم.

4- المـــــــــلابس

– غائبـــــــــة	– التمركز حول الذات، الح اجة إلى تأكيد التفرد والإختلاف تعزيز النرج سية الجسدية ضمن انغلاق على الذات وانشغال بصورة الجسم الخاص.

V – ملاحظـــــــات خاصـــــة

– رسم رجل كبير الح جم، بذراعين منبسطتين في الهواء لكن غير متساويتين ، ورجلين غير متساويتين وغير متموضعتين بشكل جيد على القاعدة ، محدّد من خلال خطوط مترددة، معززة ومكررة، وزوايا حادة، مستعملا اللون الأسود فقط.	– استقرار نفسي غير مؤسّس على قاعدة متينة، يطبعه الإحساس بعدم الأمان، رغم السعي المتواصل للحصول عليه من خلال الانفتاح على بناء الروابط العلائقية.
	خطوات مترددة نحو المستقبل يميزها الإحساس بالنقص، نقص الثقة في النفس والإحساس بالدونية رغم محاولات التعويض المستمرة.
– أصابع اليدين غير مكتملة العدد.	– تصور جسدي دون المتوسط، صورة جسم مُسوَدة، خطّاءة لأنها انتهكت محرّم الج نس، إحساس بالذنب للعجز عن الرد اختلاط بين ما هو جيد وما هو سيء، والخوف من الترك من طرف الآخرين يدفع إلى التشبث بأي روابط علائقية موجودة ضمن قلق من الخزي والخوف من الانهيار.

VI – الصورة النفسية العامة من خلال نتائج التأويل

ازدياد في حجم البنية يدل على النمو، على حركية الرغبة نحو الأمام والحاجة إلى امتلاك مساحة حول الذات، البحث عن المواجهة والحاجة إلى إظهار وتأكيد الذات مع انخفاض في المثالية والخيالية.

تمسك بالحاضر وبالواقع قصد الحفاظ على شكل من التكيف قائم على الاعتماد على النفس وإيثار الذات وبذل الجهد، مع غياب نسبي للكف يرافقه الانبساط والبحث عن وصل روابط علائقية اجتماعية، لكن يرافقه الشك ونقص الثقة في الآخرين.

في المقابل، الواقع النفسي مُفعَم بالشبقية، العدوانية، الحيوية، الطاقة، الانشغال القضيبي، الحصر، مع نمط علائقي فمي واحتمالية التثبيت في المرحلة الفمية النشطة.

إذاً دينامية نزوية ضاغطة مع العجز عن التحكم فيها، مما يدفع إلى الإحساس بالذنب بسبب الميل على انتهاك محرّم الجنس.

الإحساس بالترك، بالإهمال والميل إلى الانكماش، والحفاظ على مساحة أمن محدودة، لكن التعزيز النرجسي للقضيب يخفضّ شيئا من الإحساس بالدونية.

بوادر للتماهي مع المعتدي بالتحول من السلبية إلى الإيجابية الدفاعية، مع سلامة التقمص والانتماء الجنسي.

1-9- تحليل المحتوى في ضوء الملاحظة والمقابلة ونتائج الاختبار الاسقاطي:

مرّ العميل بشكل عام بنمو نفسي طبيعي ضمن شبكة من الروابط معزِّزة لنرجسيته، بدءا باستقباله بعد ولادته (ولادة طبيعية على غير شقيقه) كحامل لمعنى الحياة والمستقبل والتغيير الإيجابي ضمن استقرار الصحة النفسية والجسدية للأم، وإمكانية عيشه بما يحمله من زيادة لنرجسية الوالدين.

وبترميز الخصاء السري من خلال وقع اسمه الذي أُختير عن رغبة واتفاق والديه، والخصاء الخيالي لوالديه بنتائج تَفُوق توقعاتهما (توقع الولادة القيصرية)، أرسى التصور الدينامي اللاشعوري المتعلق بنرجسية الوالدين النرجسية الجوهرية للمولود الجديد.

مرورا بفطام مؤنّس "أنا أولادي هَكْذا، مَا يْقَلْقُونِيشْ خْلاَص، وَحَدْهُم وَحَدْهُم يْحَبْسُو ا الرْضَاعَة"، مسند بمواضيع انتقالية لفظية سمحت طبيعة الأم الاجتماعية بخلقها، مما سمح بترميز الخصاء الفمي الممهِّد لخصاء شرجي مكتمل في جزء منه من خلال تشجيع الأم للاستقلالية الحركية ضمن فضاء أمان واسع (اصطحاب أولادها معها إلى أيِّ مكان تذهب إليه)، مليء بنماذج للتماهي معها، محدِّدَة في ذات الوقت لمعنى الملكية الخاصة التي يقابلها احترام ملكية الآخر، لكنها لم تسمح بالاستقلالية الجسدية (التزامها بتحميم أطفالها وتغيير ملابسهم إلى عمرهم الحالي).

علاقته بالمرآة يميزها غياب البعد العلائقي الرمزي المشبع لخبرة المرآة، والمترجَم من خلال النداءات المتعددة للطفل والمقدمة لأمه " يْحَبْنِي نُوقَفْ مْعَاهْ دِيمَا قُدَام لَمْرِي"، رغم ثراء التواصل اللغوي اللفظي بالتحديد داخل الأسرة، لكن مع الغياب النمطي للوالدين.

خبرة المرآة وضعت الطفل أمام حقيقة أن الصورة اللاشعورية التي كوَّنها عن جسمه غير كافية لتُؤكد انتماءه إلى هذا الآخر الذي يراه في الصورة المرآوية، وبالتالي ستمُس بواقع إحساسه بالوجود ضمن هذا الجسم الواقعي وليس فقط الجسم الخيالي.

ثراء الروابط العاطفية المشبَعة بالمعنى والمجنَّدة بمواضيع لغوية انتقالية متعددة، سمح بتحرير الليبيدو وتحريك دينامية الرغبة نحو الحياة، نحو بناء ترابطات جديدة، نحو الآخر، م نطلقا من قاعدة ارتباط قوية (النمط العلائقي الأسري)، لكن حضوره أمام المرآة وحيدا يخصي كل هذه المعاني البنائية، ليعيده إلى حالة الاختلاط، إلى خلفية غير مرمَّزة بشكل جيد، إنه تصوره الجسدي الذي لم ينجح في الارتباط مع صورة جسمه اللاشعورية الغنية بالمعاني، بفضاء أمان واسع يُقيَّد بمجرد ظهوره أمام المرآة، لتصبح الصورة المرآوية لديه البديل اللاشعوري لصورة الجسم عندما تصاب (البحث عن تحديد ملامحه في المرآة)، تدفعه للبحث عن صورته في عيني الآخر، ليصبح هذا الآخر هو الراشد الذي تُتاح له فرصة تقديم الخصاء في مراحل لاحقة.

فماذا إذا كان هذا الآخر هو المعتدي، محاولا خلق رابط تبعية مع الطفل، هاجما على تكامله النرجسي رابطا حب الذات والثقة بالنفس وكل تقدير ذاتي للضحية بمدى امتثالها له، مجرِّدا إياها من كل رابط آخر "يَخَافْ يَخْطِيه، وْمْعَ مَنْ يْرَيَح مَنَا وغَادِي، يْوَلِي وَاحَد مَا يْحَبُو وواحد مَا يَلْتَى بِيه".

الدفع التروي للمراهق المعتدي في ظل نسق أسري مقيِّد وقامع، جعله يغتنم غياب الرقابة الوالدية على الضحية، والاستقلالية التي مُنحت لها سواء كانت أو لم تكن متناسبة مع سنها "دِيمَا يُخْرُج في الليل، نْدَزُو لَلْحَانُوت يَقْضِيلِي، مَا يْخَاف مَنْ الظَلْمة مَا وَالُو، كِي الرَّاجَل، كِي يْعُود عندي عَرْس ولا حَاجة نُخْرُج ونْخليهم وَحَدهُم في الدَار، عْلا بَالي بَلِي يَعرفوا صْلاَحْهُم"، ليوظفها كمكان لتفريغ الإثارة المتزايدة لا غير.

واختياره للضحية لا يعززه اشتهاؤها للمعاناة، بل لأنها مكتَسَحة من خلال حركية الرغبة في داخلها وبحثها عن التنوع، عن الإشباع وعن الارتباط، لذلك تحتاج إلى راشد لِيقدِّم لها الخصاء الرمزي المؤنِّس، الضابط لترواتها الجنسية والموضِّح لمفاهيم القرابة والجنسية حتى لا تُحصَر في شكل الفعل الحيواني البحت (فشل الخصاء الأوديبي) وإلا فسوف تتخذ شكلا بدائيا منحرفا في إشباع لذتها حسب نوعية الراشد المقدِّم للخصاء.

اختلاط في اللغة بين الطفل الذي يبحث عن صورة لِذَاته في عيني الآخر، عن راشد متاح للتقمص معه في ظل نموه السريع السابق لسنه، عن الاهتمام الذي في ظنه أنه فقده بعد ولادة أخته الصغيرة، عن تقديم معنى، عن التفاعل والارتباط، ليجيب عليه المعتدي بلغة الشهوة الجنسية المستترة تحت غطاء القدوة والاحتواء، ضمن هوامات منحرفة تبحث عن الإشباع.

بُنِي الارتباط بينهما على أساس إحساس خادع بالأمان، عزَّزه الحضور الدائم والمتاح للمع تدي الموثوق فيه (ابن الجيران)، والمغري للتقمص معه (ابن عائلة متديِّنة، ذات سلطة وصيت)، فقدانه يعني فقدان كل ما قد تم اكتسابه في وجوده، أما الاحتفاظ برابط العلاقة معه- ولو هواميا- يعني التمزق الداخلي (الانشطار) بسبب العجز عن إرصان الصراع النفسي القائم على اللّذة المعاشة ضمن تجاذب غير محتمل، بين الحب والعنف المتحمَّل من طرف الكائن المحبوب، ما قد يؤدي إلى التماهي به "لاَهْ رَاحْ نُقْعُد صْغِير، يجِي نْهَار اللِي نَكْبَر".

ونظرا لكون التنظيمة الجسدية النفسية للطفل لا تحمل تصورات سابقة عن الفعل الجنسي، وبالتالي تفوق نزوات الموت التي هي في الأصل بدون تصور على نزوات الحياة، فتعجز بذلك الصورة الدينامية عن أداء مهمة الربط بين المركبات الثلاث لصورة الجسم اللاشعورية، بسبب افتقارها لترو ات الحياة جرَّاء الصدمة الجنسية فيبقى الجسم ضمن كليته – الجسم في الهوام والجسم في الواقع- المسرح الوحيد لاختبار وترجمة الألم المعاش.

2-الحالة الثانية

2-1- تقديم العميل وعائلته:

صبي يبلغ من العمر سبع سنوات، يدرس في السنة الثانية ابتدائي، مستواه الدراسي جيد، ينتمي إلى أسرة بسيطة، مكوّنة من الأب، عامل يومي بسيط، ذو شخصية متديِّرة وجد مسالمة، وكما تصفه زوجته، فهو أضعف حلقات السلسلة بين إخوته، والأم التي تعدَّت الأربعينات من عمرها، عاشت طفولة مؤلمة وصادمة "كُنَّا نَطَايْشُو، هَ امْلِين"، فقد فقدت والدتها وهي لم تتجاوز الثلاث سنوات، لتترعرع عند إحدى زوجتي والدها (تزوج مرتين بعد وفاة أمها)، تمدرست في الزاوية القرآنية لسنتين لا غير، مما جعلها تتزوج وهي لم تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها من قريبها، للتخلص من الظروف التي فرضت عليها "مَلِي زَوَجْت خْلاَصْ، كُلْ حَاجَة في قَلْبِي، بَاشْ نَنْسَى اللِي صْرَالِي مُسْتَحِيلْ"، ماكثة بالمنزل، ولكنها تقوم ببعض الأعمال (الخياطة) لتساهم في دخل البيت.

العميل أصغر إخوته، الأكبر يبلغ من العمر تسعة عشر سنة، يدرس بالمرحلة الثانوية، الفتاة التي بعده تصغره بسنة وهي معاقة ذهنيا، لذلك لم تتجاوز في دراستها الطور الابتدائي، أما التي تليها فتبلغ من العمر أربعة عشر سنة وتدرس في الطور المتوسط.

عائلة تعيش في منزل جد متواضع، بدخل جد بسيط ومستوى اقتصادي عام أقل من المتوسط، تُميزها أم متماسكة، قوية إلى حد ما مقارنة بزوجها، الذي تلومه باستمرار على طيبته الزائدة وخضوعه، وقد تمت دراسة الحالة كاملة في مصلحة الطب الشرعي.

2-2- كشف سر الاستغلال الجنسي حسب أقوال الأم:

كان العميل يلعب مع أولاد أعمامه أمام باب المنزل بالكرة، وعندما انتهوا من اللعب، دخلوا جميعا إلاّ هو وعندما سألتهم الأم عن مكانه، ذكروا بأنهم قد تركوه مع ابن جيرانهم، مراهق معروف بسلوكاته السيئة في الحي.

ارتابت الأم وسارعت خارج المنزل للبحث عنه مع ابنها البِكر، فانقسما حيث أرسلت ابنها نحو إتجاه بينما انطلقت هي مباشرة نحو المعتدي الذي أنكر وجود الضحية معه، مؤكّدا بأنه لم يَلمَحه إلا عندما مر من هنا -مشيرا إلى أحد الاتجاهات- للبحث عن كرته التي ضاعت منه.

وحسب أقوال العميل الذي كان محتجزا داخل مرآب منزل المعتدي، والذي سمع الحديث الذي دار بين المعتدي وبين والدته، و لم يستطع الصراخ لأن فمه كان مغلقا بقطعة قماش وعيناه معصومتان، فعندما ذهبت الأم للبحث عنه في ذلك الاتجاه، اغتنم المعتدي الفرصة وأطلق سراحه مهدِّدا إياه بالقتل إذا باح بشيء.

عندها سارع العميل إلى المنزل والتراب يغطيه وقطعة القماش في فمه، وعندما سُئِل عن المكان الذي كان فيه، وعمّا إذا كان ابن الجيران هو من آذاه، التزم الصمت، حينها قام أخوه الذي فُزِع برؤيته والتراب يغطيه بتهديده بالضرب بالحزام إذا لم يقل الصدق، فخرّ العميل باكيا معترفا بما حدث معه.

ثمّ خرج أخوه بحثا عن المعتدي، ملتقيا إياه أمام باب منزله، ليقوم عراك عنيف بينهما، عندها لحق العميل بأخيه، حيث كان يجري باكيا، حاملا لكرته التي بها قام بضرب المعتدي مرارا.

أسرعت أم العميل إلى أم المعتدي لتخبرها بفِعْلة ابنها، فالباب ملتصق بالباب، وطلبت منها معاقبته وكفّ أذاه عنهم، لكنها أنكرت إمكانية إقدام ابنها على أمر مماثل، واتهمتها بالإدعاء عليه وتلفيق التهم له، ثم قامت بسبها وشتمها محاولة هي وبناتها ضربها.

ولأن زوجها كا ن غائبا عن المنزل بسبب عمله، تقدمت إلى مركز ال شرطة الكائن بالمنطقة رفقة ابنها الذي حثها على تقديم شكوى رسمية، بموجبها سُخِّر الطبيب الشرعي ب المؤسسة الإستشفائية بدائرة عين آزال لفحص الضحية، وتقديم شهادة طبية تؤكّد أو تنفي صحة الاعتداء الجنسي، مع درجته وتكراريته في حال حدوثه.

وبعد الحصول على الشهادة الطبية المؤكّدة للاعتداء الجنسي، باشرت عناصر الشرطة إجراءاتها، وتُركت القضية بين يدي العدالة.

2-3- واقعة الاعتداء الجنسي حسب أقوال العميل:

ذكر العميل بأنه بينما كان يلعب بالكرة أمام باب منزلهم مع أبناء أعمامه، إذا بابن جارهم وهو مراهق معروف بتطفله ووقاحته في الحي، يقوم بالجري وراء بقية الأطفال وتخويفهم، فهربوا إلى المنزل، حينها أخذ الكرة التي كانوا يلعبون بها، وطلب من العميل - بالتحديد- أن يأتي لأخذها، عندها استدرجه إلى أمام منزله وأرغمه على الدخول إلى مرآبهم بالقوة، أين عصَّب له عينيه، ووضع قطعة قماش في فمه، وقيد له يديه من الخلف ثم اعتدى عليه.

2-4- التغيرات التي طرأت على العميل بعد الاعتداء الجنسي حسب أقوال الوالدين

- نحافة الجسم وضعف البنية؛
- اللامبالاة بالمواضيع التي كانت تهمه قبلا؛
- مُنقاد وخاضع بشكل كبير؛
- يغلب عليه الصمت ويصعب حَثُه على الكلام؛
- انعدام الثقة في النفس؛
- التكلم بخوف كبير؛
- سرعة التأثر مع البكاء الدائم؛

- يعاني من اضطرابات في الأكل قد تصل إلى الامتناع عن الأكل؛
- يأكل فقط لأنه يجب أن يأكل، ولأن أمه تدفعه إلى ذلك؛
- نوم متقطع، ويعاني من الأرق؛
- غالبا ما ينام مع أمه، أو برفقة أحد الإخوة؛
- ينام إلى جانب الوالدين في غرفة واحدة؛
- غالبا ما لا ينام إلا ممسكا بموضوع انتقالي (دمية، غطاء...) ؛
- يخاف من الظلام ولا ينام إلا منيرا الغرفة؛
- قلق الانفصال مع سلوك التعلق؛
- رهاب الوضعيات التي تعود إلى الصدمة؛
- مواقف من الانكماش مع الحزن؛
- وعدم التكيف مع المدرسة.

2-5-المعتدي:

مراهق يبلغ من العمر ستة عشر (16) سنة، هو ابن الجيران، يدرس في السنة الرابعة متوسط، معروف بسلوكه الجانح والمنحرف، ينتمي إلى عائلة مفكّ كة، معروفة بسوء طباعها في المنطقة "مَعْرُوفِين، وَاحَد مَا يخَالَطْهُم".

2-6-شبكة الملاحظة الخاصة بالحالة

جدول رقم (03): يوضح مجموعة من العناصر التي يمكن أن تُخضع للملاحظة بأشكالها

العناصر المراد ملاحظتها	التقدير
1- المظهر العام للحالة	
01- العمر الظاهري للحالة.	يبدو أصغر بكثير من سنه الحقيقي.
02- إذا كان يبدو عليها المرض أو الصحة.	يبدو عليه المرض.
03- النمط الجسدي.	نحيف الجسم وضعيف البنية.
04- الطريقة التي بها يجي الفاحص.	جد خجولة وبتحفظ كبير.
05- نظافة جسده (نظيف جدا، غير نظيف).	نظافة معقولة.
06- نظافة هندامه.	نظيف.
07- مظهر وهندام معقول.	نعم.
08- غير مهندم بشكل مقبول.	لا.
09- اهتمام زائد باللباس.	لا.
10- طريقة لباسه غريبة.	لا.
11- ألوان اللباس(ذكرية، أنثوية).	لباس ذكري.

12- نوعية اللباس (رياضية، كلاسيكية).	رياضية.
13- جدة الملابس من قدمها.	عادية.
14- تناسق ألوان الملابس من عدم تناسقها.	متناسقة.
15- لباس متعدد الألوان أم بلون واحد.	بلون أو لونين.
16- رائحة الجسد.	حسنة.
17- أظافر مقلّمة أو غير مقلّمة.	مقلّمة.
18- جسمه يحوي علامات غير عادية (ندبة، وشم).	لا.
19- تشوهات جسدية.	لا.
20- وضع الأقراط بالنسبة للصبي أو أي مستلزمات أنثوية.	لا.
21- حالة الشعر (مسرّح، غير مسرّح).	مسرّح.
22- تناسب تسريحة الشعر مع جنس الحالة من عدم تناسبها.	متناسبة.
2- أســـــلوب التعـــبير غير الكـــلامي	
23- يجلس في وضع مسترخي.	لا.
24- يجلس وهو منحني الجسد.	نعم، وبشكل دائم.
25- يجلس وهو منتصب الجسد.	لا، نهائيا.
26-يجلس على حافة الكرسي.	كثيرا.
27- يجلس في وضعية مقابلة للمتحدث إليه.	أحيانا.
28-يجلس بشكل جانبي بالنسبة للمتحدث إليه.	غالبا.
29- لا يستعمل يديه أو أي حركات جسدية أثناء الكلام.	نعم، وبشكل دائم.
30-يقوم بتحريك يديه ورأسه كثيرا أثناء الكلام.	لا.
31-وجود اللّزمات من غيابها.	غائبة.
32-الإيماءات ودلالاتها (حزن، غيض...).	حزن غالب.
33-تناسق حركات الجسم مع الموقف من عدم تناسقها.	متناسقة.
34-تحاشي النظر في عيني الآخر.	دائما، ماعدا عيني والدته.
35-تثبيت النظر في عيني الآخر.	لا، نظرات مترددة، باهتة، بدون معنى.
36-التناسق بين محتوى الكلام والتعابير الوجهية.	متناسق نوعا ما.
37-التزام نفس مكان الجلوس بشكل هادئ.	غالبا، دون تحرك منه.
38- التحرك كثيرا في نفس المكان.	لا، ماعدا في حال حضور الأم.
39-تغيير مكان الجلوس الأول.	لا، إلا إذا طلب منه ذلك.
3- المـــــــــــــــــزاج	
40- حالة انفعالية مستقرة أم متقلبة.	مستقرة ومنكمشة.
41-مزاج متفائل، عادي أو حزين.	حزين جدا.
42- التعبير عن الرغبة في الموت.	لا.

43- الحالة النفسية العامة (قلق، حزن، غضب، لامبالاة). كآبة، وصمت غالب.

44- الضحك/ البكاء. لا هذا ولا ذاك.

4- أسلوب التعبير اللغوي

45- يتحدث كثيرا أم قليلا أو لا يتحدث أبدا. شحيح الكلام.

46- إيقاع الكلام بين سريع، متوسط أو بطئ. بطيء جدا.

47- محتوى الكلام (سوداوي، عادي، متفائل، متفائل جدا). محتوى كامن، يبدو لامباليا.

48- ما يستغرقه من وقت أثناء الحديث. الكثير من الوقت.

49- نبرة الصوت بين عالية، متوسطة أو منخفضة. منخفضة جدا.

50- عدد مرات الصمت. أغلب حضوره صامت.

51- مواقع التوقف في الكلام. كثيرة جدا، لا تعد.

52- الوقت الذي يستغرق من أجل الانتقال بين الأسئلة. الكثير من الوقت، يصعب معه دمجه في موضوع جديد.

53-التنقل في الكلام من موضوع إلى آخر. لا، يبدو عديم الاهتمام بأي موضوع.

54- الحاجة إلى التحكم في الحديث وإقصاء الآخر. لا، مُنقاد بشكل كبير.

55- التردد في الكلام. كثيرا، يصعب حَثُه على الكلام.

56-التكلم بثقة أو بعدم ثقة. انعدام الثقة.

57- على من يتحدث أكثر. على عائلته.

58-هل يعيد تأكيد ما يقوله عن الآخرين. لا، يكتفي بالإجابة المختصرة.

59-هل يعيد قول نفس الأشياء. لا.

60- كلام مفهوم، واضح أو غامض. غامض وغير مفهوم.

61- يكثر من التفاصيل. لا.

62-التكلم بحرية أو بحذر. التكلم بخوف كبير.

63- أقوال متماسكة ومترابطة أم خليطة غير متصلة. أقوال مترابطة لكنها مختَلطة.

64- الطابع الدرامي أو الهزلي في الكلام. طابع درامي غالب.

5- ردود الفعل

65- التعاون أثناء المقابلة وتطبيق الاختبار. متعاون جدا.

66- التردد في الاستسلام لسيرورة التفاعل. يحتاج إلى الكثير من التحريض.

67- مقاومة نفسية بمختلف أشكالها. نعم.

6- التوظيف العقلي

68- الذاكرة (قوية، ضعيفة، قصيرة أو طويلة المدى). قصيرة المدى، وقوية فيما يتعلق بالأماكن.

69-الاستذكار (بسرعة، ببطء، لا يتذكر). يستذكر بسرعة الأحداث القريبة.

70- مستوى الانتباه (جيد، مشتت، ضعيف). مشتت وضعيف بشكل عام.

71- مستوى التركيز.	ضعيف.
72- الحكم (سليم، غير سليم).	حكم مختلط.
73- القدرة على التمييز بين الخيال والأحداث الواقعية.	قدرة لا بأس بها.
74- إدراك أيام الأسبوع.	خلط في تحديد الزمن.
75- إدراك تاريخ الأيام.	خلط في تحديد الزمن.
76- التمييز بين الصباح والمساء.	تمييز جيد.
77-إدراك المكان المتواجد فيه.	إدراك جيد.
78- إدراك الأماكن التي تعرّض فيها لبعض الأحداث.	إدراك جيد واستذكار قوي لتفاصيل المكان.
79- إدراك الأشخاص والمتحدث معه.	إدراك جيد.

7- التركيـــــز على الجـــــســـــم

80- النظر إلى المرآة (قليلا، كثيرا، أبدا).	بشكل عادي.
81- الانشغال بالنظر باستغراب إلى أحد أجزاء الجسم.	بشكل عادي.
82- ملامسات متكررة، مطَمئنة، لليدين أو أحد أجزاء الجسم	أحيانا.

8- النشـــــاط الجنـــــسي

83- يمارس العادة السرية.	غير مؤكد.
84-يتجنب الموضوعات التي تمس الجانب الجنسي.	كثيرا.
85- يبحث عن فتح المواضيع التي تمس بالجانب الجنسي.	نهائيا.
86- التعرض للاستغلال الجنسي.	نعم، في أقصى درجاته من العنف.
87- المبادرة في الحديث عن الممارسات المتعرض إليها.	لا.
88- الاستجابة للتلميحات فيتحدث عن الممارسات المتعرض إليها.	نعم، بعد شيء من التحريض.
89- تفادي ما يشير إلى هذه الممارسات.	كثيرا وبشكل قوي.
90- سرد الأحداث المتعرض إليها بصيغة المتكلم.	نعم، وبشكل تأكيدي.
91- سرد الأحداث المتعرض إليها ونسبها إلى الآخر.	لا.
92- الختان والظروف المحيطة به.	لم يتم بعد.

9- الأكـــــــــــــل

93- شهية مفتوحة للطعام.	لا، لا يأكل بشكل جيد.
94- شره في الأكل.	لا.
95- ممتنع عن الأكل.	لا.
96- يأكل فقط لأنه يجب أن يأكل.	نعم، ولأن أمه تدفعه إلى ذلك.
97- يحتاج إلى أن يدفع للأكل.	كثيرا، خاصة من طرف أمه.
98- يعاني من اضطرابات في الأكل.	نعم.

10- النـــــــــــوم

99- ينام بشكل جيد.	أحيانا.
100- نوم متقطع.	نعم.
101- ينام في النهار دون الليل.	ليس بالضرورة.
102- ينام باستعمال الدواء.	لا.
103- يعاني من الأرق.	أحيانا.
104- ينام في سرير لوحده.	لا، مع أمه غالبا.
105- ينام برفقة أحد الإخوة.	نعم.
106-ينام إلى جانب الوالدين في غرفة واحدة.	نعم.
107- لا ينام إلا ممسكا بموضوع انتقالي (دمية، غطاء...).	غالبا.
108- يخاف من الظلام ولا ينام إلا منيرا الغرفة.	نعم.

2-7- مقابلة 11 أفريل 2010 :

دخل العميل مكتب الفحص بخطوات يُثقِلُها التردد والخجل ، وكعادته احتاج إلى دفع والدته له بيديها إلى الأمام، حتى يتقدمها ويدخل إلى المكتب لأنه عادة يختبئ وراءها ملتصقا بثيابها (تعلق بالأم).

بادرنا –عن قصد– بإلقاء التحية عليه، لكنه كعا دته يبتسم دون رد، محمرا خجلا ومتشبثا بثياب أمه، ثم يختبئ وراءها ويرمقنا بنظرات محتشمة منتظرا إذنها وتعليماتها حتى يتكلم (ضآلة فضاء الأمن).

فسألناه: كيف الحال؟؛

"وَاشْ رَاك؟"؛

لكننا لم نتلق أي إجابة.

الأم: تكَلم معها، قل لها بأنك بخير، تكلم؛

"أَهْدَرْ معَاَ ا، قلُهَا رَاني لبَاس، أَهْدَر"(نقص المواضيع الوسيطية اللغوية)؛

العميل: أنا بخير؛

"رَاني لبَاس".

وهذا هو الحال غالبا، كانت الأم الوسيط بيننا وبين العميل في جميع المقابلات التي سبقت والتي كانت في حضور الأم، رغبة من العميل في حضورها وكذلك عن تقدير منا لعدم بلوغنا إلى الوقت والموقف المناسبين للفصل بينهما، خاصة وأن العميل كان شحيح الكلمات، مكفوفا بخج ل كبير، فتغيب عنه الكلمات بمجرد غياب أمه عن ناظريه (فشل الخصاء الفمي).

كنَّا قد طلبنا م ن الأم في المقابلة السابقة، أن تلتزم الصمت قدر الإمكان خلال هذه المقابلة، وأن تكون تعليقاتها وجيزة عابرة حتى وإن وَ جّه لها العميل كعادته الكلام، وحتى وإ ن كان كلامه غير م فهوم من قِبلنا أكدنا عليها أن تتجاهله بالرغم من إلحاحه وهذا لصالحه، فيكفي فقط حضورها .

بدأنا في توجيه الأسئلة للعميل، التي قوبلت باحمرار الوجه والابتسامة الخجولة المعتادة، والنظر إلى أمه بين الحين والآخر حتى يُسَّط كلامه، لكنها التزمت بإرشاداتنا متجاهلة نظراته العطوفة المتوسلة، مركِّزة في حديثنا.

وكان يرد على أسئلتنا بإغماض عينيه وخفض رأسه، ابتسامة خجولة يتبعها بوضع يديه على فمه، ليتهرب من جديد بنظراته نحو أمه، مرتميا بين ذراعيها، كما كان يفعل دائما عندما نوجّه له أي سؤال، لكن الأم هذه المرة طلبت منه أن يجلس على كرسيه ويجيب على أسئلتنا، فعاد إلى مكانه بنظرات خائبة، محبطة (تثبيت فمي).

عندها اغتنمنا الفرصة وتوجَّهنا إليه قائلين:

ψ: هناك أمور نريد التحدث عليها معك، فهل يمكننا الحديث على انفراد؟ وستبقى أمك أمام باب المكتب، متى أردتها يمكنك مناداتها؛

"كَايَنْ حْوَايَجْ حَابقَنحكِي فيهُم مْ لَك، نقَدرو نَحكِيو أنَا وياَّكْ وَحَدنَا؟ ومُك ضرُرْك تقعُد عَند البلبَ، وَقتْ مَا احْتَمقَا عَيطَلها "؛

ع: نظر إلى أمه منتظرا إجابتها؛

الأم: نعم اجلس وتكلم معها، وأنا سأكون أمام الباب، لا يزال لدينا وقت طويل فتكلم على ر احتك إياك ألاّ تتكلم معها؛ (فشل الخصاء العلائقي للأم)

"إيه أُقعُدْ، بالصَحْ أَهْدَرْ مْعَاهَا وأنَا رَانِي هْنَا عَند الباب، مازلنا قَاعْدِين، أَهْدَر فِي عَقْلَك، أَهْدَر مْعَاهَا عَنْدَك"؛

ψ: هل تبقى لتتكلم وحدنا؟؛

"تريَّح نَهَدْرو وحدنا؟"؛

ع: نعم؛

"إيه"؛

كان العميل يرتدي ملابس جديدة (ملابس رياضية عليها صور للفريق الوطني لكرة القدم)، وكانت الأم قد أخبرتنا بأن الأب اشتراها له عندما اصطحبه إلى المحكمة، فسألناه قائلين:

ψ: هل لباسك جديد؟؛

"لَبْسَة نْتَاعَك جديدة؟"؛

ع: برأس منحني وابتسامة خجولة، إيه؛

ψ: من اشتراه لك؟؛

"وشْكُون شْرَاهَلك؟"؛

ع: أبي؛

"بابا"؛

ψ: من أين؟؛

"منين؟"؛

ع: من سطيف؛

ψ: هل كنت معه عندما اشتراه لك؟؛

"أنتَ كُنت مْعَاه كِي شْرَاهَالك؟"؛

ع: نعم؛

"إيه"؛

ψ: هل ذهبتم فقط من أجل شرائه؟؛

"رُحتو برك باش تَشريوها؟"؛

ع:لا، لا؛

ψ: لماذا ذهبتم إذا؟؛

"لاه رُحْتُو مَالا؟"؛

ع: ذهبنا إلى المحكمة؛

"رُحْنا للمحكمة"؛

ψ: لماذا؟؛

"عْلاه؟"؛

ع: حتى يسألونني؛

"باشْ يسَقْسِيوني"؛

ψ: على ماذا يسألونك؟؛

"على واشْ يَسَقسِيوك؟"؛

ع: على ما حدث معي، وحتى يقوموا بإدخال الحرامي إلى السجن؛

"على واش صرْالي، وباشَ يدْخلُوا لحرَامِي للسجَنْ"؛

ψ: من هو هذا الحرامي؟؛

"وشْكُون هَاذ الحرَامِي؟"؛

ع: إنه من قام باستغلالي جنسيا؛

"هذا اللِي دَارلي السْفَاهَة"؛

ψ: هل هذا هو الشيء الذي حدث لك؟؛

"هذا هو الشيء اللِي صرْالك؟"؛

عبست ملامحه واحمر وجهه، ثم التزم الصمت (مقاومة).

ψ: من كان في المحكمة؟ وبمن التقيت هناك؟؛

"وشْكُون كان في المحكمة؟ وشْكُون لْقيت ثَما؟"؛

ع: لقد كنت هناك مع أمي وأبي وأخي الكبير؛

"كنت أنا ومَا وبابا وخويا لكبير"؛

ψ: فقط، من الآخر؟؛

"بَرْك، وَشْكون ثاني؟"؛

ع: الحَرَامي ووالده؛

"الحَرامي وبُويُو"؛

ψ: أين كنت جالسا؟؛

"وأنت وِين كُنت قَاعَد؟"؛

ع: كنت جالسا إلى جانب أمي؛

"كُنْت قَاعد تْوَال مَا"؛

ψ: هل دخلتم جميعا مع بعضكم إلى القاعة؟؛

"دَخَلْتُوا كُل مْعَ بعْظَاكم؟"؛

ع: لا، دخلت أنا وأمي وأبي وأخي، ثم دخل والد الحرامي، فبدأ الرجل (القاضي) في سؤاله وقام هو بالإجابة عليه.

"لا لا، دخلت أنا ومَا، وبابا وخويا، ومَن بَعَّد بُويْ الحرامي، قْعَد الرَاجل يَسَقْسِي فيه، وهو قْعَد يَحكيلو"؛

ψ: ماذا حدث بعد ذلك؟؛

"ومَن بَعَّد؟"؛

ع: دخل الحرامي؛

ψ: ماذا حدث؟؛

"واشْ صْرَا؟"؛

ع: سأله الرجل وقال له :"ماذا فعلت له؟"؛

"سَقْسَاه الرَاجل، وقالو وش درتلو؟"؛

ψ: ماذا أجاب؟؛

"وشْ قال هو؟"؛

ع: أجاب قائلا بأنه لم يفعل شيئا"؛

"قَالُو مَادَرتلو وَالو"؛

ψ: ومن ثمّ ماذا حدث؟؛

ع: قال له الرجل:"هل هو في سنك حتى تفعل معه هكذا؟"؛

"قالو الراجل لاه هذا نْتِيجَك بَاشْ تديرْلُو هكذا، لاه هذا نْتِيجَك بَاشْ تديرْلُو هكذا؟"؛

وكان العميل يعيد هذه الجملة ويصرُّ على تكرارها، بصوت مرتفع نسبيا عن مستوى صوته المعتاد، ونبرة حادة إلى أن صمت لوحده (الحاجة إلى تمثيل الإثارة)؛

ψ: ماذا حدث حينئذ؟؛

"وشْ صْرَا كَسَّع؟"؛

ع: عندما قال له هكذا، لم أعد أحس بالخوف مطلقا، بالرغم من أنني عندما دخلت إلى المكتب في البداية كنت خائفا جدا (غياب الأب الرمزي)؛

"تْنَحَالي الخوف مرّه كي قالو هكذا، في الأول كي دخلت للمكتب كنت خَايفَ"؛

ψ: لماذا؟؛

"وعلاه؟"؛

ع: من أن يؤذيني، لكن الرجل وأمي أخبروني بألاّ أخاف، كذلك الشرطي، الذي شجّعني على الكلام والاتصال به في حال أقدم الحرامي على أذيتي"(عدم الإحساس بالأمان)؛

"كشْمَا يْديرْلي ثمَا، بالصَحْ الراجل ومَا قالولي أَهْدَر وما تخافش، والبوليسي ثاني قالي أَهْدَر وكَشْما يديرلك رَاني هنا"؛

ψ: ومن بعد ذلك، ماذا حدث؟؛

"وشْ صْرا مَنْ بَعَّد؟"؛

ع: عدنا إلى المترل؛

"روَّحْنا"؛

ψ: مع من؟؛

"مع من روّحتو للدار؟"؛

ع: عدنا وحدنا؛

"روَحنا وحَدْنا"؛

ψ: ماذا عن الحرامي ووالده؟ ألم يكونو معكم في نفس الحافلة؟؛

"وهُومَا مَا كَانُوش معاكم في نفس الكَار؟"؛

ع: لا، لكننا عندما وصلنا إلى المترل، التقينا به أمام باب مترلهم، وكان يرمقني بنظرات مهدِّدة (إحساس بالإضطهاد)؛

"لا، لا بصَّح كي لْحَقنا للدار لْقِيت الحرامي، ثْلاقِينا ثمَا قُدام باب دارهم، وقْعد يَتْخَترَر فيا"؛

ψ: لماذا في رأيك؟؛

"لاهْ في رايك؟"؛

ع: لأنني تَكَلَمت، بينما هو حذّرني من الكلام؛

"لخاطر هْدَرت وهو قالي مَا تَهْدَرش"؛

ψ: متى حذرك من الكلام؟؛

"وكْتَاش قالك مَا تَهْدَرْش؟"؛

ع: عندما كان يصطحبني معه؛

"كي كان يَدِيني معاه"؛

ψ: كم مرة اصطحبك معه؟؛

" قَدَاش مَن مَرة دَّاك معاه؟"؛

ع: ثلاث أو أربع مرات؛

ψ: إلى أين كان يصحبك معه؟؛

"وِين كان يَديك معاه؟"؛

ع: كان يأخذني إلى مترل غير مكتمل البناء، أمامه الكثير من مواد البناء ومتواجد في مكان معزول .

"كانْ يَدِيني ثْوَالَ وَاحد النُومرو مَش مبني، توَالو الرمَل نِيَف وْجَاي في بلاَصة خَالِيَة"؛

ψ: هل هو بعيد عن مترلكم؟؛

"بْعِيد علَى دَارِكُم؟"؛

ع: نوعا ما؛

"شْوِية"؛

ψ: ألا يوجد في منطقة سكنية؟؛

"ماكَانَش ثْوالو الغَاشِي ولا السُكْنَة؟"؛

ع: لا يوجد أي سكان هناك، ما عدا مواد البناء؛

"مَكَانش حتَّ وَاحَد سرَاكَن ثمَا، غِير السَلعة نْتَاع البَنية بَرك"؛

ψ: كم مرة اصحبك إلى هناك؟؛

"قدَّاه من خَطْرَة دَاك ثمَا؟"؛

ع: مرات عديدة؛

"بزَّاف"؛

ψ: هل تذكر المرة الأولى التي أخذك فيها إلى هناك؟؛

"كِيفَاشْ حَتَان داك المَرة الأولى ثمَا، مَتْفَكرهاش؟"؛

ع: نعم كانت في رمضان؛

ψ: رمضان الذي مضى، عندما كنا صائمين؟؛

"رمْضَان اللي فات، كِيما كُنَّا صَايمين؟"؛

ع: نعم؛

"إيه"؛

ψ: متى أخذك؟؛

"وكْتَاشْ داك؟"؛

ع: أخذني في الليل؛

"دَاني في الليل"؛

ψ: هل اعتدت الخروج ليلا في رمضان؟؛

"مْوَالَف تُخْرُج في الليل في رمضان؟"؛

ع: كنت ألعب بالكرة مع أولاد أعمامي أمام المنزل، كان ذلك بعد الإفطار، عندما تق دم منا وسرق الكرة، ثم هدَّدني بتمزيقها إذا لم أذهب أنا لإحضارها؛

"كنتْ نَلْعَب قُدَام الدار بِالبَالو مع وْلاد عَمِي، بعد الفطور، ومن بعد هو جَا وسْرَقَلنا البَالُو وقَالي ضُرك نْقَطْعُو كُن ما تجيش"؛

ψ: وأنت ماذا فعلت؟؛

"وأنت وشْ دَرْت؟"؛

ع: صرخت في وجهه أن يعطيني الكرة لكنه أبى، وتبعته حتى يعيدها لي؛

"قْعَدت نْعَيَط عليه أَعْطِيني البَالو بالصَح هو ما حَبَش، قعْدت نتَبَع فيه بَاش يَعطيهْلي"؛

ψ" ماذا عن أولاد عمك؟؛

"وأولاد عمَّك، واش دَارو؟"؛

ع: خافوا منه فهربوا؛

"غْصَبْهُم، هَرْبو، خَافوُ مَنُو"؛

ψ: ومن بعد؟؛

ع: عندما وصلت تقريبا خَلف مترلهم، أمسكني بقوة وأراد اصطحابي معه، رفضت الذهاب معه لكنه هدَّدني بتمزيق الكرة؛

"كي لحْقت حْذَا دَارهم، لَضْلِي على يَدي وقالي تْرُوحْ معايا هنا بَرْكْ، ضُرْك نْمَدُولك، قُتْلُو ما نْرُوحَش قالي تْرُوح ولا نْقَطعو"؛

ψ:ومن ثمّ ماذا حدث؟؛

"ومَن بعَّد وَشْ صْرا؟"؛

ع: أخذني إلى مكان فيه الرمال، أين فعل بي هكذا؛

"دَاني ثْوَال الرْمَل وثمّ دَارْلي هكذاك"؛

ψ: ماذا فعل بك؟؛

"وشْ دَارلك؟"؛

ع: مارس عليّ الجنس؛

"دَارلي السْفَاهة"؛

ψ: كيف فعل ذلك؟؛

"كِيفَاش دارلك"؛

ع: نزع لي السروال، ومن ثم وضع لي الماء (النكوص إلى الحياة الرحمية أو المائية Thalassa)؛

"نَحَالي السروال ومن بعَّد دَارلي الماء"؛

ψ:كيف ذلك؟؛

"كِيفَاش دَارلك الماء؟"؛

ع: بدأ بحك قضيبه بين ساقي؛

"دارْلِي'نتاعو' بين رَجْليا(...)"؛

ψ: ومن ثمّ ماذا حدث؟؛

"ومَن بعَّد وَشْ صْرا؟"؛

ع: تركني؛

"طْلَقْنِي نْرَوَح"؛

ψ: وعندما عدت إلى المنزل، هل أخبرت أحدًا بما حدث؟؛

"وكي روَّحت، كَشْمَا لَمن قُلت؟"؛

ع: هدَّدَني، إذا أخبرت أحدا فإنّه سيقتلني؛

"قالي كُنْ تْقُول نُقَتْلك"؛

ψ: وهل أعاد الكرَّة مرّة أخرى؟؛

"وزَادْ دَاكْ خَطْرة أخرى؟"؛

ع: نعم، مرة؛

"إيه، مرّة"؛

ψ: متى كَان ذلك؟؛

"وكْتاش هذا؟"؛

ع: بعد مدة طويلة؛

ψ: هل أخذك في الليل مثل المرة السابقة؟؛

"دَاكْ في الليل كِيما المرّة اللي فَاتت؟"؛

ع: لا، في النهار؛

ψ: كيف أخذك؟؛

"كِيفَاشْ حتَّان داك؟"؛

ع: أخذني بالقوة، وهدّدني بأن يخبر أمي بأن الجميع يفعلون بي مثلما فعل هو (قلق الانفصال عن الأم).

"دَاني بالسيف، قَالي كُن ما ثْروحشن ضُرك نقول لُك بَلِي الذَّر أكُل رَ اهُم يْدِيرُولك هكذا، وهو خاطي"؛

ψ: إلى أين أخذك؟؛

" وشْ مَن بْلاصة داك؟"؛

ع: نفس المكان؛

"نفس البلاَصةَ"؛

ψ:ماذا فعلَ بك؟؛

"واشْ دَارْلك؟"؛

ع: مثل المرة التي سبقتها، الماء فقط؛

"كيمَا المرّة اللي فاتت، دَارلي الماء برك"؛

ψ: وفعل كل هذا في الخلاء؟؛

"ودارْلَك هَكْذا برَّا؟"؛

ع: لا، لا، حفر حفرة كبيرة في الرمل، وضعني داخلها ودخل معي، ثم وضع فوقها قطعة قصديرية كبيرة حتى لا يراه أحد(فضاء جديد صادم)؛

"لا، لا لْقِيتُو حْفَر حُفْرة كْبيرة في الرمل، كان مْخَبي قصدير كْبير شْويا ثَما، دَكْني في الحفرة ودْخَل معايا وغطى بالقصدير باش واحد ما يْشُوفُو"؛

ψ: ومن بعد؟؛

ع: انزعج من ضيق الحفرة، فتركني سريعا؛

"بصَّح جَاتُو الحفْرَة ضيِّقَة، ثَمْ ثَمْ طلقني، هْرَبْت"؛

ψ: وعندما عدت إلى المنزل؟؛

"وكي روّحت؟"؛

ع: لا شيئ، خفت من التكلم، كان يترصَّد بي كلما خرجت، يرمقني بنظرات مخيفة، يسُبني ويبزق في وجهي، دائما أهرب منه وإلاّ لأخذني كل يوم معه (الإحساس بالتوسيخ، بالخزي)؛

"والو خُفْت نَهْدَر، وهو كل يوم يْعَسْني، يُقْعَد يْدَنَّق فِيا، يْسَبني ويَدْفَل عْليا، ديما نهرَبلو ونَدَرقلو، وهو ديما يَجري عقابي باش يَدِيني دِيما"؛

ψ: وهل أخذك مرة أخرى؟؛

"وزَادْ دَاك حْذَى المرّة هَاذِي؟"؛

ع: نعم، هذه المرة الأخيرة؛

"إيه، هَاذْ المرّة لَخْرَة"؛

ψ: كيف حدث الأمر؟؛

"كيفَاش صْرَات؟"؛

ع: كنت ألعب مع أبناء أعمامي أمام المنزل، بينما كان هو يترصد بي، يستفزني بالكلام ويضحك علي، ثم سرق كرتنا، وعندما طلبت منه أن يعيدها، أجابني بالرفض؛

"كُنْت نَلْعَب مْعَ وْلاد عَمي قُدَّام الدار بِالبَالُو، و هو قَاعد يْعَسْ فينا، وقَاعَد يْلُوحْلي في الهَدْرة، ويَضْحَك عليَّا، ومن بعّد سرَ قلّلّ البالو اللِي كُنَّا نلَعْبُو بيه، قُتْلُو أَعْطيهْلِي بالصّح مَا حَبَش، وقالي أَرواح تَديه كي عُدْت فْحَل، كنا غير توال دارهم"؛

ψ: ومن بعد؟؛

ع: ذهبت لإحضاره، كنا أم ام مترلهم وأمام مترلنا، وعندما وصل ت إلى باب المرآب، أدخلني بالقوة ووضع قطعة قماش في فمي، وربط يديا بحبل من الخلف؛

"رُحْت نْجيبُو، كنَّا قُدَام دَارْهُم وقُدَام دَارْنا، كي لحَقْت تْوَال القَراجْ، دَخَّلني بالسِيف، ودَارْلي كتَّانة في فُمِي وكتَّفلِي يَدَيَّا من الوراء"؛

ψ: والمرآب، ماذا كان فيه؟؛

"والقراج، واش كان فيه؟"؛

ع: غير مكتمل البناء، يحتوي على الكثير من مواد البناء؛

"مُشْ مَبْني، سِيمَا برك، فيه السيمة والرْمل بَزَّاف"؛

ψ: وأهله، هل كانوا في المترل؟ ألم يسمعو شيئا؟؛

"ودَارهم كَانوا ثَمَا، ما حَسُّوش، ما فاقُوشْ بيه؟"؛

ع: كانوا في المترل، لكنّه أغلق الباب من الداخل؛

"إيه كانوا ثَمَا بالصَحْ سَكَّر الباب دَخلاني"؛

ψ: ومن ثم ماذا حدث؟؛

"ومن بعد وَشْ صرا؟"؛

صمت رهيب، احمر وجهه، امتلأت عيناه بالدموع، انكمش وأخفض رأسه على ركبتيه وبدأ في البكاء صمتا، دموع تحرق وجنتيه دون صوت صادر عنه (الإحساس بالحزي) ؛

ψ: ماذا حدث؟ مثل المرة السابقة؟؛

"وشْ صْرا، كِيمَا المرّة اللي فاتت؟"؛

ع: لا لا، أكثر؛

"لا لا، دَارْلي السْفاهة بزَّاف"؛

ψ: ماذا فعل لك؟؛

"وش دَارلَك؟"؛

التزم الصمت، ووضع إصبعه في فمه وضغط عليه (نكوص صدمي إلى صورة فمية قديمة).

ψ: لا بأس، يمكنك أن تحكي لي؛

"مَعْلِيش، تَقْدر تحكيلي وَشْ صرا"؛

ع: نزع عني ملابسي، ووضعني فوق التراب على بطني ويديا مقيدتان من الخلف، ومن ثمّ قام بإدخال قضيبه بالقوة؛

"نَحَالي قَشِي، ورَقَّدْني على التراب ومن بَعَّد دارلي 'نتاعو' (...) بالسِيف"؛

ψ: هل آلمك؟؛

"وَجْعَك"؛

ع: نعم، كثيرا؛

"إيه بزاف"؛

ثم بدأت دموعه تسيل على وجنتيه في صمت؛

ψ: ثم ماذا حدث؟؛

"ومن بعَّد وشَ صْرَا؟"؛

ع: عندما لم يستطع إدخاله، بدأ في البصق في فتحة شرجي (إستي)، وكان مُصِرا على إدخاله بالقوة؛

"كي مَاقْدَرش يْدَخْلُو، بدا يَدْفَل عَليا، ومن بعّد دَارْلي 'نتاعو' بالسِيف" (إحساس بالخزي وتحقير الذات)؛

وعندما سمع الصياح في الخارج، سمع أمي تناديني، خرج، فسمعته يتحدث إليها وهي تسأله عني، لكنني لم أستطع الصراخ لأنه كان يضع قطعة قماش في فمي؛

"وكي سْمَع لَعْيَاطْ برَّا، سْمَع مَا تْعَيط عْلِيا، خرج، وأنا سْ مَ عْت مَا كِ ي كانت تْسَقْسِي فيه، بالصَح ما قدَرْتَش نْعَيط لَخَاطَر كان مْسَكَرْ لِي فُمي بالكَتَانَة"؛

ψ: ثم ماذا حدث؟؛

"ومن بعَّد وَشْ صْرَا؟"؛

ع: بمجرد ما أن ذهبت أمي، عاد وفك وِثَاقِي، وألبسني سروالي، و بمجرد ما أن فتح باب المرآب حتّى هربت؛

"خاف لَوَقِيلا، هيَّ رَاحَت مَا بَرك وهُو حَل لَحْبل، طَلَعْلِي سَروالي، ومْعَ حَل باب القَرَاج، هْرَبْت، رحت نَجري لْدَارْنا"؛

ψ: وماذا أخبرت أسرتك التي كانت تبحث عنك؟؛

"وشْ قُلتَلهُم في الدار، كي ما لْقَاوَكْش؟"؛

ع: لم أعلم ماذا أقول لهم، كنْتُ خائفا جدًا من أن يَقْتُلَني، سألوني ماذا حدث، ومن ثمّ هدَدَني أخي بالضرب بالحزام إذا لم أتحدث، فأخبرتهم أنّني كنت في مرآب الجيران، وأن ابنهم أخذني بالقوة واعتدى علي .

"مَا عْرَفْتَش وَاشْ نْقُولَلْهُمْ، كُنْت خَايُف بَزاف يْ لا يُقْتُلُني، قَالُولِي وشْ صْرَ ا، ومَنْ بَعْد كي مَا هْدَرتَش قالي خويا كُنْ مَا تْقُولَش الصَح نُضْرُبك بالسْبْتة، ونْجَاها من السروال، وَلِيتْ قُلْتَلْهُم كُنْت معاه في قَرَاجْهُم، دَانِي بَالسِيف ودَارْلي السْفاهة"؛

ψ: هل كنت تعلم ماهي؟؛

"وأنت كُنت عْلَى بَالَك بَلِي سْفَاهة؟"؛

ع: لا، كنت أظن أنها طبيعية؛

"لا لا، كُنْت حَاسب رَانِي نَمشي هكذا، أنا نَمشي وهو يْدِري في السْفَاهَة"(غياب التصور الجنسي)؛

ψ: هل تعلم إذا كانت شيئا غير جيد؟؛

"وأنت عْلَى بَالَك إذا كانت حاجة مُشْ مْلِيحَة؟؛

ع: لا، لا؛

ψ: إذا جيد؟؛

"مْلِيحَة؟"؛

ع: لا، لا؛

"لا لا، نَحْسَبها هكذا بَرْك"(الإفتقار إلى المعاني)؛

وعندما كنت أطرح عليه أسئلتي هذه، كان يدخل إصبعه في فمه ويخرجه، يعود ليثني إصبعه ويدخله بالقوة في فمه الصغير ويضغط عليه بأسنانه، عندها يُجحِظ عيني ه الممتلئتين بالدموع، ويثبتهما في الفراغ ضمن نظرة مفْزَعَة (هوامات وصور صدمية عن الحدث تنادي صورة فمية لاشعورية مطمئِنة).

وكل مرة، في كل لحظة تَوَقُف، كان يصر على أنه هو الضحية "مَاعْلاَبَالِيش"، "قَالي تُقُتْلك كُن تَهدر " ومن ثمّ يلتزم الصمت.

سألناه إن كان يريد منّا أن ننادي أمه، فرفع كتفيه لامباليا (بمعنى مثلما تريدين) (إحباط)، فطلبنا من والدته الدخول، وقبل ذلك أكدنا له قائلين أن كل ما أطْلَعَنا عليه سيكون محفوظا في مأمن، وسيبقى سرا بيننا "كُلْ كَلْمَة قُلْتهَا لي، رَاحْ تَبْقَى سَر بِيني وبينك، هذا وَعْد"؛

فرفع رأسه وثبت نظراته في أعيننا ملتمسا التأكد من صحة أقوالنا.

وعندما دخلت الأم سألَته مباشرة: هل تكلمت معها؟ "هْدَرْت مْعَاهَا؟"؛

فابتسم وطأطأ رأسه (الخوف من الانفتاح العلائقي).

ثم سألتنا قائلة: هل تكلم معك؟ "يَخِي هْدَرْ مْعَاك؟"؛

فأجبناها أن تسأله هو، عندها نظر إلينا مبتسما، مؤكدا بأن ما خَجِل به يستطيع استئماننا عليه.

عندها قام العميل بضرب أمه على فخَذيها (النكوص إلى الصورة الرحمية والمسالك التناسلية)، وأماء لها بعدم الإكثار من الكلام معنا.

وقد أُنهيت المقابلة على هذا القدر، ثم اتفقنا على موعد المقابلة المقبلة بما يتناسب مع ظروف الطرفين، ومن ثم أثنينا على هذه المقابلة قائلين :"منذ اليوم، أصبحت قادرا على قول كل ما تريده ولمن تريد " " مَنْ اليُوم وَليتْ قَادَر تْقُول وَشْ تَحَب وْلَمَنْ تْحَب"، كذلك:" أنتظرك المرة المقبلة" "رَاني نَسْتَنَاك المرة الجاية".

2-8- تحليل الرسومات:

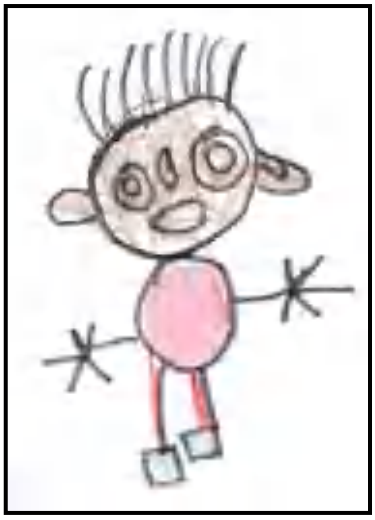

- ورقة التنقيط 01
- التحليل الكيفي للرسم (تقدير الشخصية)
- الحالة: الثانية.
- السن: 07 سنوات.
- تاريخ أداء الرسم: فيفري 2010.

التحليـــــــل	التأويـــــــل
I- ترتيب الرسوم	
- ذكر (كتب اسمه خلف الورقة قائلا هذا أنا)	- سلامة سيرورة التقمص والانتماء الجنسي.
II- السلوك أثناء التنفيذ	
- استغراق زمن طويل في الرسم، مع إرادة جيدة اهتمام ملحوظ ورغبة في إرضاء الآخر.	- تكيف جيد، لطف، مرونة وقابلية للانقياد والامتثال.
- وضع القلم في الفم قبل بدء الرسم وخلال باقي مراحله.	- اضطرابات في الاتصال من نمط فمي.
III- الأبعاد الشاملة للرسم	
1- تموضع الرسم	
الوسط العلوي من الورقة، مع ميل إلى الجهة اليسرى.	خيال خصب، مستوى عالي م ن التحصيل يَطبعه الجهد المتواصل مع شخصية يطبعها الخجل.
2- الأبعاد والتناسقات	
- رسم رجل بحجم صغير.	- انكماش الشخصية، الخجل، الخشية والشعور بالنقص.
- عدم تناسق جذع/ رأس، مع تناسق نسبي جذع / ذراعان، جذع/ ساقان.	- تعويض محتمل للشعور بالنقص من خلال تضخيم حجم الرأس ترافقه صعوبات في تحقيق الانفتاح الاجتماعي.
3- الخطـــــــــوط	
- خطوط غليظة وضاغطة.	-الشبقية، عدوانية مستقرة.
- خطوط معادة.	- التردد، الحس الحِرفي.
- خطوط منحنية، دائرية.	- الليونة، القدرة على التوفيق، الخضوع، النرجسية.
- رسم الرجلين على شكل مربع.	- المعاناة من الحصر.
- خطوط نازلة في اتجاه الرسم.	- التشاؤم، الاكتئاب، الملل.
- مساحة بيضاء كبيرة متروكة في الورقة.	- كثرة الممنوعات والمحرّمات في المحيط.

4- الوضعيـــــــة والتناســـــق

- تناسق جيد بين محور الرأس، محور الجذع ومحور الساقين، الذراعان ملتصقتان على نفس المستوى وبنفس الشكل، مع عدم تساوي طول الساقين.
- القدرة على الصمود وخلق نوع من التكيف المؤقت، ضمن شكل للبقاء غير مؤسّس.

5- وضعيـــــــة الجســـــم

- رسم الرجل بالمقابل.
- هيئة عامة عادية توحي بشيء من الجمود والبلادة.
- ذراعان ضمن وضعية أفقية.
- ساقان متقاربتان، غير متساويتين، ورجلان غير متمركزتين بشكل جيد.
- تقبُّل الوضعية المعاشة حتى وإن كانت مؤلمة.
- الكف والحصر المحرّمان لإطلاق النزوة العدوانية.
- الضغط نحو المحيط والحاجة إلى الفعل.
- التخوف، عدم الإحساس بالأمان والميل إلى الانتكاس.

6- الحركـــــــــة

- الجمود.
- صراعات داخلية عميقة مكبوتة، الإحساس بالتقييد والسلبية.

7- رمزية الألـوان

- الأحمر من أجل الجذع و الساقين، دون ضغط على القلم.
- الحرارة، الاثارات الغريزية القوية، الانفعال الداخلي الضاغط الغضب المتستتر والحاجة إلى النشاط، إلى التفاعل وتمثيل الانفعالات والإثارات الجنسية.
- الأزرق من أجل الرجلين.
- اللطف، المودة، الهدوء، الحاجة إلى الإحساس بالحنان من خلال الاتصال بالأصل، البرودة والعقلنة في التعامل مع الأحداث خشية تعكير صفاء الحياة النفسية المؤقت.
- البني من أجل الرأس مع الضغط على القلم
- المزاج الكئيب، الأفكار المقيَّدة المكفوفة، كف التبادلات مع الآخر، إكراه "الأنا"على بعض التسويات الحتمية.

8- تحديد شخصية الرسم

- السن: 07 سنوات "طفُل صغِير".
- الجنس: ذكر "هذا أنا ".
- الهوية: غير محددة "أنا برك".
- نكوص زمني إلى مراحل سابقة مع خطر التثبيت.
- تماهي ذكري مستقر، مع تعزيز نرجسي لجنسه.
- تقبل ذاتي، الميل إلى كف الرغبات خوفا من مصائرها والتخوف من الإثارات الداخلية، خمول الرغبات وتفوق نزوات الموت.

9- التعبـــــــير

أنا طفل صغير، ضعيف جسديا وغير قادر على الدفاع عن نفسي، متروك ولا يهتمون بي، لا أحد يفهمني ولا أحد يريد الإصغاء إلي، لكنني ألاحظ وأسجل كل شيء، إلا أنني لا أفهم لماذا يتصرف الكبار على هذا النحو، الوضع لا يعجبني وقد أكون عدوانيا في أي لحظة.

نوع من الاستبصار الذاتي يوحي بتقدم في مراحل الإحساس بالخزي، حركية في السيرورات النفسية الداخلية مستندة على قدرات الطفل الخيالية، وقابلية للتغيير سلبيا أو إيجابيا على حسب شكل التمثيلات المتاحة(تمثيل العدوانية).

10- المحيـــــــط

- غائب تماما.	- الإحساس بالوحدة، بالتوك، بالرفض وبالانشطار عن العالم كذلك يترجم الاكتفاء الذاتي والانغلاق على النفس مع انشغالات فمية.

IV - الأبعاد التحليلية للرسم

1- الـــــــرأس

- رأس كبير.	- نرجسية، تضخم الأنا، تثبيت فمي، شبقية، علاقات اجتماعية مع نمط بدائي.
- شكل الرأس دائري.	- طبيعي ومتكيف.
- عينان كبيرتان، جاحظتان، بدون رموش أو حاجبين، مع تمثيل كرة العين على شكل دائرة.	- الميل إلى الانفتاح، الفضول، البصبصة، غياب التحريض والإغراء مع لغة إيمائية طفلية.
- محيط الأنف محدَّد ومظلَّل في جانبه الأيسر.	- مشاكل على المستوى الجنسي، استمناء، خوف من الخصاء مع انشغال قضيبي زائد.
- فم دائري مقعّر، ذو حجم كبير مع غياب الأسنان.	- الطفالة، الشراهة الفمية، التبعية، السلبية والخضوع، احتمال تثبيت في المرحلة الفمية السلبية.
- غياب الذقن.	- الإحساس بالنقص الاجتماعي أكثر منه جنسيا.
- أذنان غير متماثلتان، اليمنى أضيفت لها دائرة داخلية كشيء من التفصيل.	- الانشغال بالسمع والمعرفة، الحساسية، التحسُّس من النقد، الميل إلى نسيان الماضي المؤلم.
- الشعر عبارة عن خطوط متجهة نحو الأعلى.	- حاجات شبقية وحيوية جنسية، البحث عن الدفء، عن الارتباط والأحاسيس الحارة.

2- الجـــــــذع

- جذع ذو حجم صغير دائري.	- إنكار للرغبات الجنسية، الشعور بالنقص.
- غياب الرقبة.	- نوع من المادية والتمسك بالملموس، الإشباع الفوري.
- غياب الكتفين.	- الإحساس بالضعف الجسدي.
- غياب السرّة.	- التوقف عن البحث عن الإجابات المتعلقة بالولادة.
- خصر غير محدد.	- الكف والتقييد النفسي.

3-الأطـــــــراف

- ذراعان قصيرتان وضعيفتان، ممثلتان من خلال خطين.	- غياب الثقة في النفس، الشعور بعدم الأمان، العدوانية المكفوفة والعجز عن تمثيلهما.
- يدان محددتان من خلال أصابع عبارة عن خطوط تمثل العدد كاملا لأصابع كل يد.	- العدوانية نحو المحيط، صعوبة في تحقيق الاحتكاكات الاجتماعية.
- ساقان قصيرتان على شكل خط.	- السلبية، نقص الدينامية، نوع من الجمود والتصلب بالنسبة للمشي قد يعود إلى الإحساس بعدم الأمان وتحريم التجول.

– الرجلان على شكل مربع، محددتان بشكل بارز.	– الشعور بالحصر وعدم الثبات بسبب الإحساس بعدم الأمان الخوف من الخصاء والعقاب بسبب انتهاك المحرّمات.
4– الملابس	
غائبة تماما، فقط رسم الرجلين على شكل مربع قد ينوب عن الحذاء.	– تأكيد على النرجسية الجسدية، الانغلاق على الذات، الانشغال بالجسم ورفض المنطق الجمعي.
V– ملاحظات خاصة	
– رسم ذو حجم صغير ، برأس كبير، وذراعين مبسوطتين بشكل أفقي، غير متسعتين، مع استعمال خطوط سميكة وبعض التسويد على الجهة اليسرى من محيط الرأس، وتحديد الأصابع على شكل ممساك.	– الإحساس بالتوك، ا لإحساس بالدونية والإحساس بالذنب تتضمنهم عدوانية مستترة، انشغال خفي بالمشاكل الجنسية وإحساس قوي بالحصر.
– كرة العين الممثّلة من خلال دائرة دون عمق أو معنى.	– مشاهدة صدمية ملازِمة، غير مرصَنة مع العجز عن نسيانها أو إعطائها معنى.

VI– الصورة النفسية العامة من خلال نتائج التأويل

طفل ضعيف البنية، لطيف، ه ادئ ومطيع إلى حد كبير يوحي بالسلبية والقابلية للخضوع، في بحث عن الحنان، عن الدفء والارتباط من خلال صوته الخافت وإيماءاته الطفولية.

شخصية خجولة جدا، مترددة ومنكمشة على نفسها بسبب الإحساس بعدم الأمان، طابع اكتئابي متشائم يترجِم الإحساس بالنقص، الإحساس بالدونية والإحساس بالترك وبالرفض من طرف الآخرين، يقابله الإحساس بالخزي والرغبة في التلاشي، تعزِّزه اضطرابات في الاتصال وصعوبات في خلق الروابط العلائقية.

الواقع النفسي الداخلي المشبَع بالشبقية، العدوانية المستترة، حصر كبير، صراعات نفسية عميقة على مستوى اللاشعور وانشغالات جنسية تدفع إلى الإحساس بالذنب.

الانغلاق على الذات ضمن نرجسية وخيال خصب، يخلق اضطرابات في الاتصال من نمط فمي، مع احتمال التثبيت في المرحلة الفمية السلبية وتوظيف متزايد لآلية النكوص، يجعله يتعامل مع المثيرات من خلال التجنب واللامبالاة، لذلك غالبا ما يتَرجَم فضوله المعرفي في التعلم عن طريق التقمص البصري وليس من خلال الفعل والتجريب.

سلامة سيرورة التقمص والانتماء الجنسي من خلال جنس الرسم المماثل لجنس الطفل، لكنها قد تطرح إشكالات على مستوى علائقي آخر تعود إلى الارتباط المفرط والتبعية للأم، في ظل الغياب ا لجسدي والنفسي للأب.

ورقة التنقيط 02

التحليل الكيفي للرسم (تقدير الشخصية) .

- الحالة: الثانية.
- السن: 07 سنوات.
- تاريخ أداء الرسم: جوان 2010 .

التحليل	التأويل
I- ترتيب الرسوم	
- ذكر (هذا أنا).	- سلامة سيرورة التقمص والانتماء الجنسي.
II- السلوك أثناء التنفيذ	
- استغراق زمن طويل في الرسم، تأهب للرسم واهتمام ملحوظ. - وضع القلم أو الإصبع في الفم أثناء الرسم، جذب الشاربين باستمرار، مص الإصبع.	- تكيف جيد، دينامية مع حركة الرغبة توحي بشيء من التغيير يعود إلى نجاح إرساء النقلة. - اضطرابات في الاتصال م ن نمط فمي، عدم الإشباع العلائقي القلق بفعل فشل الكبت وخروج الصراع النفسي من دائرة الصمت.
III- الأبعاد الشاملة للرسم **1- توضع الرسم**	
- الرسم بشكل أفقي. - الجزء الأيمن العلوي (الرأس، الجذع والذراعان في الجزء الأيمن العلوي، الساقان والرجلان في الجزء الأيمن الوسطي).	- البحث عن الإشباع البدائي للّذة ضمن عالم خيالي. - الخروج نوعا ما من الخيالية المطلقة، الحاجة إلى امتلاك مساحة حول الذات، مع الحاجة إلى تأكيد الشخصية.
2- الأبعـــــــاد والتناسقات	
- رسم رجل صغير. - تناسق ممتاز جذع/رأس، جذع/ ذراعان، جذع/ ساقان.	- الميل إلى التخيل، الهرب إلى اللاواقع، شيء من اللامبالاة والسلبية في التعامل مع الأمور، مع رغبة في التفاعل مع العالم من أجل الإبقاء على شكل من التكيف بالسعي وراء تحقيق بعض الآمال. - انكماش الشخصية، الخجل، الخشية والشعور بالنقص.
3- الخطـــــــوط	
- خطوط سميكة غليظة لكامل الجسم (هذا جسمو كامل).	- حضور شكل من ا لتكيف النفسي والتوافق الاجتماعي الشبقية، عدوانية قد تكون نحو الذات، الانشغال بصورة الجسم والحاجة إلى تأكيد حدوده وملامحه، ربما اضطرابات على مستوى وظيفة الأنا- البشرة كحاوي.

– خطوط خفيفة للشعر فقط.	– نقص الثقة في النفس والحاجة إلى تأكيد الانتماء الجنسي
	مشاكل متصلة بالتفكير والخيال، التردد والخجل والحساسية.
– خطوط معادة.	– التردد، الحس الحِرفي.
– خطوط منحنية، دائرية.	– الليونة، القدرة على التوفيق، الخضوع، النرجسية.
– رسم الرجلين على شكل مربع.	– المعاناة من الحصر.
– تظليل وتسويد اليدين والساقين.	– الضغط الداخلي، عدم الأمان، الخوف، الإحساس بالذنب
	الرجلان كمنطقة صراع لأنها تأخذ إلى المكان المحرّم، كذلك
	اليدان كمرتكبة للممنوعات أو لأنها عجزت عن حماية الذات.
–خطوط صاعدة تدل عليها الزوائد من الخطوط إلى	– البحث عن الأحاسيس الحارة وعن التفاعل.
الأعلى.	
– إبراز خط مركزي عمودي من السرّة حتى الفم.	– المجهود من أجل الحفاظ على التوازن العاطفي المزعزَع.
– أجزاء بيضاء كبيرة متروكة في الجهة اليسرى من الورقة	– الممنوعات المتعلقة بالماضي.

4– الوضعـــــــية والتناسق

– تناسق مقبول بين محور الرأس، محور الجذع ومحور	– الإبقاء على شيء من التكيف والانسجام النفسي ضمن توافق
الساقين، مع رسم الأطراف العلوية والسفلية متساوية وعلى	اجتماعي مقبول، يعزّز هذا النمط من الاستقرار.
نفس المستوى وبنفس الشكل.	

5– وضعـــــــــية الجسم

– رسم الوجل بالمقابل.	– تقبل الوضعية المعاشة حتى وإن كانت مؤلمة.
– هيئة عامة عادية توحي بشيء من البلادة والاستغراب.	– الكف والحصر المحرِّمان لإطلاق النزوة العدوانية المستترة
	والهروب والتجنب كرد فعل على الأحداث المزعجة.
– وضعية أفقية للذراعين.	– الضغط نحو المحيط والحاجة إلى الفعل.
– ساقان متساويتان ومتباعدتان عن بعضهما مع ارتكاز	– الاستقرار، شيء من الإحساس بالأمان حتى وإن كان ضمن
مقبول للرجلين على الأرض.	علاقات ناكصة، إستدخال وتقبل لجزء من الواقع.

6– الحـــــــــــركة

– غائبة.	– صراعات داخلية عميقة، الإحساس بالتقييد والسلبية.

7– رمزية الألـــــــــــوان

– الأسود من أجل اليدين والساقين.	– الحصر، الغموض، الإحساس بالذنب جراء القيام بفعل محرّم
	(العادة السرية مثلا)، منطقة صراع، الإحساس بالخزي جرّاء
	الفعل الممنوع.
– الأحمر من أجل الخط العمودي الوسطي (الحبل السري	– البحث عن الحرارة والدفء، عن الحب الأمومي، نمط التغذية
هذا مُصْرَان).	الجنيني والعنف في مص دماء الأم، التغذية كناقل عاطفي على
	مستوى العلاقة طفل/ أم، البحث عن الإثارة، عن الانفعال وعن
	الارتباط بالعودة إلى مراحل سابقة للولادة.
– الأزرق من أجل الرجلين.	– اللطف، المودة، الهدوء، الحاجة إلى الإحساس بالأمان من

خلال العودة إلى الأصل، البرودة واللامبالاة والعقلنة في التعامل مع الأحداث خشية تعكير صفاء الحياة النفسية المؤقت.

8- تحديد شخصية الرسم

- السن: 07 سنوات.
- الجنس: ذكر "هذا أنا".
- الهوية: غير محددة.
- الاتصال بالواقع واستدراك للمعيش النفسي المفوَّت.
- تماهي ذكري مستقر، مع تعزيز نرجسي لجنسه.
- التردد، الخوف من المستقبل والبحث عن الاستقرار النفسي خمول الرغبات وتفوق نسبي لنزوات الموت.

9- التعبـــــــــــــــــير

أنا طفل صغير، لكنني في طور النمو، أحاول الاعتماد على نفسي، أحمل سخطا كبيرا على كل من قام بإيذائي كذلك أنا غاضب من نفسي لأنني لم أتمكن من المواجهة لكنني كنت صغيرا جدا، أحس بضغط كبير داخلي، أحتاج إلى الحركة، الشيء الوحيد الذي يهدئني هو عندما أكون مع أمي.

انفتاح على المستقبل مع قابلية للتغيير، تدفعهما حركية ال رغبة المنشِّطة لنزوات الحياة، وفي المقابل انجذاب قوي نحو نمط علائقي بدائي وأشكال قديمة للإشباع، مراحل أولى ضمن سيرورة التماهي بالمعتدي بين كره الذات أو كره الآخر، كمعبَر حتمي في المعيش النفسي، قد يُحسم بشكل إيجابي في ظل السند الوالدي.

10- المحيـــــــط

- غائب تماما.
- الإحساس بالوحدة، الاكتفاء الذاتي، الانغلاق على النفس مع انشغالات فمية وقبل فمية.

IV - الأبعاد التحليلية للرسم

1- الـــــــــــرأس

- رأس كبير بالنسبة لحجم الجذع.
- نرجسية، تضخم الأنا، تثبيت فمي، شبقية، علاقات اجتماعية من نمط بدائي.
- شكل الرأس بيضوي عمودي.
- طبيعي، نوع من التكيف والقابلية للتغيير.
- عينان كبيرتان مع حذف لكرة العين، ووجود الرموش والحاجبين.
- الميل إلى الانفتا ح العلائقي، لكن بشكل سطحي ضمن نمط علائقي يميِّزه التمركز حول الذات والقابلية للتحريض.
- أنف طويل مرسوم من الأعلى نحو الأسفل.
- انشغال قضيبي زائد، مشاكل جنسية يطبعها الإحساس بالتشاؤم، الاكتئاب والرغبة في الموت.
- فم كبير، مقعّر ودائري، مع غياب الأسنان.
- الطفالة، الشراهة الفمية، التبعية، السلبية والخ ضوع، احتمال تثبيت في المرحلة الفمية السلبية.
- غياب الذقن.
- الإحساس بالنقص وعدم التقدير الاجتماعي.
- أذنان غير متموضعتين على مستوى واحد.
- الانشغال بالسمع والم عرفة، الحساسية، التحسس من النقد الميل إلى نسيان الماضي المؤلم.
- شعيرات متجهة نحو الأعلى.
- حاجات شبقية وحيوية جنسية، البحث عن الدفء، الارتباط والأحاسيس الحارة.

2- الجـــــــذع

- حجم صغير ذو شكل بيضوي.
- غياب الرقبة.
- غياب الكتفين.
- غياب الثديين.
- السرّة المستدل عليها من خلال بداية الخط العمودي الممثّل للحبل السري.
- خصر غير محدد.
- إنكار للرغبات الجنسية، الشعور بالنقص.
- نوع من المادية والتمسك بالملموس، الإشباع الفوري.
- الإحساس بالضعف الجسدي.
- التجاذب الوجداني ضمن العلاقة الفمية مع الأم.
- التبعية، الانشغال بفكرة المركز، الفضول فيما يتعلق بالولادة والبحث عن العودة إلى الحياة الجنينية.
- الكف والتقييد النفسي.

3-الأطـــــــــراف

- ذراعان قصيرتان وضعيفتان ممثّلتان من خلال خطين.
- يدان كبيرتان، مزودتان بأصابع مستديرة.
- ساقان قصيرتان، متسعتان قليلا، ملونتان بالأسود.
- الرجلان بارزتان على شكل مربع.
- عدم الثقة في النفس، الشعور بعدم الأمان، العدوانية المكفوفة وعدم القدرة على الفعل.
- الطابع الطفولي المسالم، الحاجة إلى الفعل.
- السلبية والافتقار للدينامية، مع القابلية للتحريض وإمكانية التغيير، اكتساب نوع من الاستقرار والتوازن المؤقت يطبعه الإحساس بالذنب وتحقير الذات جرّاء انتهاك المحرّم.
- الشعور بالحصر وعدم الإحساس بالأمان، مع الخوف من الخصاء والعقاب بسبب انتهاك المحرّمات.

4- الملابـــــس

- غائبة تماما، فقط رسم الرجلين على شكل مربع قد ينوب عن الحذاء.
- تأكيد على النرجسية الجسدية، الانغلاق على الذات الانشغال بالجسم ورفض المنطق الجمعي.

V- ملاحظات خاصة

- رسم ذو حجم صغير، كبير مقارنة بالرسم الأول بذراعين مبسوطتين بشكل أفقي، ويدين كبيرتين ، مزودة بأصابع دائرية، رجلين غير متساويتين في الحجم لكن متمركزتين بشكل مقبول على الأرض.
- استعمال الخطوط الضاغطة، التسويد، مع غياب استغلال الزوايا الحادة، فقط اللون الأحمر على مستوى الحبل السري.
- البحث عن الاتصال والتفاعل مع الآخر، ضمن مساحة أمن مدرَكَة (الأسرة)، يسمح ببسط الواقع النفسي الداخلي ضمن إحساس بالأمان – فقط في حدود هذا الحيز– وهذا ما يخفف الإحساس بالترك ويحقق نوعا من الاستقرار.
- توظيب نفسي علائقي كامل للطاقة النفسية على مستوى علاقات من نمط بدائي، تختار صورا لاشعورية قديمة للجسم كمراكز للصراع (على مستوى التغذية مثلا)، مع إحساس رهيب بالذنب اتجاه أفراد حيز الأمن هذا، وإحساس بالخزي (التسويد) جرّاء انتهاك المحرّم، يزيد من قابلية الطفل للامتثال والسلبية، مع خطر خروجها عن حيز الأمن لتتحول إلى امتثال وتبعية لكل راشد حامي.

VI- الصورة النفسية العامة من خلال نتائج التأويل:

طفل ذو طابع طفولي مسالم، ليّن، لطيف، ودود ومطيع إلى حد كبير يوحي بالخضوع، مع بعض المبادرات الإرادية التي تنم عن تغيير مُحدَث.

شخصية خجولة، مترددة، حسّاسة، منكمشة على نفسها، بسبب الإحساس بعدم الأمان، يميزه ا نقص الثقة في النفس، الشعور بالنقص، الإحساس بالترك وبالرفض نتيجة الإحساس بالخزي بسبب انتهاك المحرّم.

واقع نفسي داخلي مُشبَع بالشبقية، العدوانية المكفوفة وعدم القدرة على الفعل، حصر شديد ناتج عن صراعات نفسية عميقة في ظل الإحساس بالتقييد والسلبية، انشغالات جنسية تدفع إلى الإحساس بالذنب.

انشغال ملحوظ بصورة الجسم والحاجة إلى تأكيد معالمها قد يترجم اضطرابات على مستوى الوظيفة الحاوية للأنا- البشرة.

الخروج نوعا ما من الخيالية المطلقة، مع الحاجة إلى امتلاك مساحة حول الذات من أجل تأكيد الشخصية والإبقاء على شكل من التكيف تَسوده اللامبالاة السلبية والتجنب في التعامل مع الأمور.

البحث عن الإحساس بالأمان والهدوء النفسي في الحب الأمومي ونمط التغذية الجنيني، ليصبح الغذاء ناقلا عاطفيا تترجَم على مستواه الصراعات النفسية، ضمن نمط علائقي بدائي وأشكال قديمة للإشباع، مع احتمال تبقيت فمي سلبي تميِّزه الشراهة الفمية، التبعية والخضوع.

ويُستلمح عموما انفتاح علائقي نسبي يوحي بشيء من التغيير وتقبل الواقع يسمح بالانتقال إلى مستوى آخر من العلاقة التحويلية.

2-8- تحليل المحتوى في ضوء الملاحظة والمقابلة ونتائج الاختبار الاسقاطي:

مرَّ العميل –حسب أقوال الأم– بنمو نفسي طبيعي، مؤكّدة أن ولادته، ورضاعته، وفيما بعد فطامه، جميعها مرَّت بشكل طبيعي، كما أكدت كذلك على شدة تعلقه بها.

طفل ضعيف البنية مقارنة بسنه، مرتخي الكتفين، خجول، متثاقل الخطوات وشديد التشبث بثياب والدته ، كل هذا يوحي باضطرابات عميقة على مستوى آلية الارتباط، اعتماده الكلي على الأم في توسيط علاقته بالآخرين يترجم نموذجا علائقيا بدائيا من نمط فمي، مع احتمال التثبيت في المرحلة الفمية السلبية، وفشل الخصاء الفمي الذي قد لا يعود إلى فطام صدمي متوحِّش، ولكن على الأغلب إلى فطام غير مرمَّز.

الأم بشخصيتها الهادئة والمسالمة إلى درجة الخضوع، متقوقعة على نفسها ضمن معيش صدمي متراكِم الأحداث (الشبح النفسي)، وأشكال الحداد غير المتمَّمة (فقدت والدتها في عمر الثلاث سنوات)، لتبقى حبيسة ذكرياتها الصدمية التي دفعتها إلى الإصابة بالاكتئاب.

نسق أسري تميِّزه التنشئة الدينية المحافظة، والطبع العائلي المسالم إلى درجة الخضوع، فالأب هادئ كزوجته حاضر جسديا لكنه غائب رمزيا، يعاني من الإحساس بالرفض والترك من طرف والديه وإخوته، يستند على الدين في تبرير سلوكاتهم المتعدِّية عليه وعلى أسرته (كِي رُحْت شْكِيتْ عْلَى اللِي صْرَا لإبني، خَاوَتْ رَاجْلِي قَالُولِي مَاكِيشْ مْرَا، ومَا عَنْدَكْش أَصْل، كِيفَاش تْجَرْأْتِي وْرُحْتِي)، مُقصيا لانفعالات الخاصة، مفضِّلا ردم كل معيش مؤلم في صمت، ممتثلا بذلك لهم.

من خلال علاقته بهم، بأب خاضع وأم تعجز عن تمثيل عدوانيتها، غير مميِّزة بين عنف التدمير وعنف الدفاع عن الذات وعن الحميمية، اجتاف العميل لا شعوريا الأنا الأعلى المازوشي الهيبوكوندري الخاص بالأب، الذي يرضى بالاعتداء ويمنع أي رد فعل مزاجي (رد فعل عدواني مثلا)، والأنا الأعلى المازوشي للأم، التي قد لا ترضى بالاعتداء، لكنَّها مازوشية ضمن علاقتها مع الآخر، ليصبح ذلك الطفل الوديع، المسالم والعاجز عن الدفاع عن نفسه.

فشل الخصاء الفمي تُترجمه كذلك سلوكات الأم التي لا تستطيع منع نفسها من التهام طفلها بالقبل حتى أثناء المقابلات (نْحَضْنُو بَزَّاف، دِيمَا عَنْدي) وإثقاله بالمداعبات، هي تلك الأم التي بسبب اكتئابها وثقل المسؤوليات على كتفيها، لا بد وأنها لم تُرْفِق عنايتها به بالكلمات، تَشِحّ لديها المواضيع الانتقالية اللغوية، أو قد تبدو لامبالية.

ربما هي الأخرى فُطِمَت بشكل صدمي ضمن علاقتها مع والدتها (توفيت والدتها في عمر موافق لسن الفطام والخصاء الشرجي)، تَضرُّرها من علاقتها مع أمها يجعلها تحاول شفاء نفسها منها (خلل البناء القاعدي في العلاقة) بتثبيت تيمي على طفلها تحت ظل حب أمومي، ليتحول طفلها بالنسبة لها الموضوع التَيمي للثدي الأمومي القديم، لذلك تمنعه لاشعوريا من الفردنة، ليصبح رفيقها الأليف الملازم، والممتَثِل لها، فتُعيِّنه بذلك دون قصد منها كضحية مستقبلية للاستغلال الجنسي.

ضحية لمراهق لم يتحصل على الخصاء الأوديبي المرمَّز، بقي على فك رة الاختيار النرجسي- قصرا- للموضوع، من أجل أن يُخضِعه تحت الترهيب والعنف لأوامره.

الإقصاء الدفاعي للعواطف من قبل الأب، جَعل الطفل يجرِّ ب ملأ الفراغات ضمن علاقته مع والديه "دِيمَا نقول لبَاباه أَهْدَر مْعَاه، حَضْرُو، وَهُو كَلِي مَا هُوشْ هْنا"، محاولا الاعتناء بهما بذهن لا شعوري، خانقا كل رغبة لديه في التمرّد، كل طلب وكل عدوانية داخله خوفا عليهما، على أمل أن يصبحوا بدورهم أكثر اعتناء به (بداية تَكَوُّن شبح نفسي لدى الطفل).

فعندما يتقدم إليه هذا الذكر المسيطر، بما يحمله من معاني جديدة، ومع غياب أي تصور مسبق عن الفعل الجنسي أو أي رصيد معرفي سابق عن الجنسية، سيحرِّك لديه آلية الارتباط ليتذوق كل العواطف المقدَّمة دون أن يميِّز الحيوية، التفاعل والحب عن الإثارة الجنسية والعنف التدميري، ولأنَّه لم يَعْتَد تمثيل مثل هذه العواطف، فكيف يميِّز بين ما ليس لديه عنه تصورا، و لم يختبر له أي معنى من قبل "كُنْت حَاسَب أنَا نَمْشِي وهُو يْدِيرْلِي في السْفاهة، نَحْسَب أُكُل هَكذا).

فغياب كل تصور مسبق عن الفعل الجنسي يسمح بتفوق سريع وكامل لنزوات الموت، ممزِّقة بهذا للروابط التي تسعى الصورة الدينامية لخلقها بين المركبات الثلاث للصورة اللاشعورية للجسم، معيدة العميل بذلك إلى صورة قديمة تشعره بشيء من الأمان، بالنكوص الصدمي من الصورة الشرجية (فتحة الشرج) نحو صورة فمية (أثناء حديثه عن الفعل الجنسي يقوم بإدخال إصبعه في فمه، ويضغط عليه ممثّلا لصورة الفعل الجنسي)، ليصبح الجسم بهذا المسرح الوحيد لتمثيل مثل هذه الصراعات غير المتصوَّرة.

3- التحقق من الفرضيات:

وفي ضوء ما خلص إليه تحليل المحتوى الكامن والدلالات الإكلينيكية لكل من شبكة الملاحظة، مردود المقابلات العيادية ونتائج تأويل الاختبار الإسقاطي لدى الحالتين، نؤكد ما يلي:

- ✓ تحقق الفرضية العامة الأولى والقائلة أن هلع الصدمة الجنسية يفكّك الروابط بين المركّبات الثلاث لصورة الجسم، من خلال ظهور اضطرابات وأمراض نفسوجسدية موافقة لصورة الجسم المصابة.
- ✓ تحقق الفرضية العامة الثانية والقائلة أن هلع الصدمة الجنسية يمسُّ بالنرجسية الجوهرية لصور الجسم، من خلال حضور الإحساس بالخزي الذي يهدِّد الإحساس بالوجود.
- ✓ تحقق الفرضية العامة الثالثة والقائلة أن انقطاع الرابط العاطفي الموظَّف جنسيا مع المعتدي يؤدي إلى النكوص الصدمي نحو صورة جسم قديمة، من خلال ظهور أشكال بدائية للتواصل غير موافقة للتصور الجسدي الحالي.

خلاصـــــــة

اليوم ضمن نسق من الحرمان التواصلي، الأطفال هم من يعانون أولا، والكثير منهم ليس لديهم للانفتاح على الخارج غير شاشات التلفاز، يحمِلون صدمات خفية متراكمة، تمارس فعلها بالتكاثف والتقادم في غياب الحوار، مؤسِّسة لبنية هشة تُقلّص حظوظهم في تطوي ر الجلد عندما يُنتهكون بعنف جرّاء صدمات غير قابلة للتصور، مشكّلة لما يماثل الشبح النفسي، والشبح هو ذلك الميت الذي لم يدفن، لذلك يبقى ملتصقا بنا ، وحتى نرث الشيء ويصبح لنا يجب أن يكون هناك عملية إماتة.

والإرث الناجم عن عملية الإماتة هذه، يُدمج ضمن حدود الملـ كية الخاصة بالفرد، بمعنى أنه يدخل ضمن معالم الهوية القاعدية والانتماء الروحي للسلف، لذلك نطرح مدى إمكانية توظيف العلاجات التقليدية ضمن منظور الثنائية المتزامنة النفس/ الثقافة في التكفل بضحايا الصدمات العنيفة أومن تُلازمهم هذه الأشباح النفسية.

والمعنى الذي يُمنح للرابط المرمَّز ضمن تفاعلات علائقية حميمية مع الآخر، هو ما يحدِّد إلى حد كبير إمكانية تطوير الجلد، وفي غياب الخلفيات المنرجسَة، في ظل التعاقب الزمني الصدمي المعاش من طرف الأسرة الجزائرية تنوب ذاكرة الجسد عن الحوار والفعل في الرد على الصدمة النفسية، ومنها يُختار العضو الأضعف للجسدنة تُغتال كذلك الطفولة لأنها أضعف حلقات السلسلة.

وعلى ضوء ماخلُصت إليه الدراسة من نتائج مؤكّدة للفرضيات التي منها انطلقت، نوصي بضرورة تشكيل خلايا للإصغاء من الباحثين النشطين في علم النفس، ليس بغية التكفل النفسي وإنما بغية ت كوين رؤية صادقة وشاملة عن المعيش النفسي الغالب للأسرة الجزائرية البسيطة، الممثّلة فعلا لباطن المجتمع الجزائري، وعلى ضوئها تحدَّد نفعية المعرفة النفسية المقدَّمة في الجامعة.

ويبقى الجلَد في أن نقنع بأننا أقوياء لكوننا نناضل ونكافح، خير من أن نستسلم لفكرة أ ننا نناضل لأننا أقوياء.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب باللغة العربية

1- آدلر ألفرد، برغسون هنري، فرويد سيجمند (1976)، علم النفس و النظريات الحديثة، ترجمة: فارس متري ضاهر، بيروت، دار القلم.

2- برونر جوزيف، فرويد سيغمند (1986)، الهستيريا "دراسة سيكولوجية في علم النفس"، ترجمة: فارس متري ضاهر، الجزء الأول، بيروت، دار ومكتبة الهلال.

3- بسلّم عاطف المهتار (2008)، استغلال الأطفال (تحديات وحلول)، بيروت، منشورات الجلي الحقوقية.

4- بوتفنوشت مصطفى (1984)، العائلة الجزائرية: التطور والخصائص الحديثة، ترجمة: دمري أحمد، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

5-بوسقيعة أحسن (2007)، الوجيز في القانون الجزائي الخاص : الجرائم ضد الأشخاص والجرائم ضد الأموال ، الجزء الأول، الطبعة السابعة، الجزائر، دار هومة.

6-ج.ب. جيلفورد و آخرون، ميادين علم النفس "النظرية و التطبيقية"، ترجمة : يوسف مراد و آخرون، المجلد الأول "الميادين النظرية"، مصر، دار المعارف.

7- حامد عبد السلام زهران (1977)، علم نفس النمو"الطفولة والمراهقة"، الطبعة الرابعة، القاهرة، عالم الكتب.

8- حسين علي فايد (2006)، إساءة وإهمال الطفل، سلسلة علم النفس، القاهرة، طيبة للنشر والتوزيع.

9- س. بلوم جيرالد (1995)، الديناميات النفسية- علم القوى النفسية اللاّشعورية، ترجمة: رزق سند إبراهيم ليلة، بيروت، دار النهضة العربية.

10- سامية القطان، صلاح مخيمر (1983)، كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية ، الجزء الثاني ، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية.

11- سلمان قعفراني (2001)، التحليل النفسي الفرويدي (4): الهستيريا وخطاب الجسد ، بيروت، دار الفكر اللبناني.

12- سيد أحمد عثمان، فؤاد أبو حطب (1982)، التقويم النفسي، الطبعة الرابعة، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية.

13- عشوي مصطفى (1988)، مدخل إلى علم النفس، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

14 - فرويد آلاّ (1987)، الأنا وإواليات الدفاع، ترجمة: باسمة المنلا، بيروت، دار قابس.

15- فرويد سيجمند (1967)، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي ، ترجمة: أحمد عزت راجح، الطبعة الثالثة ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

16- فرويد سيجموند (1982)، تفسير الأحلام، ترجمة:خليل حلاّ دريس ، مصر، دار الكتب المصرية.

17- فرويد سيجمند (1986)، معالم التحليل النفسي، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، الطبعة الخامسة ، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

18- فرويد سيجمند (1989)، الكف والعرض والقلق، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، الطبعة الرابعة ، القاهرة، دار الشروق.

19- فرويد سيجمند (1998)، الأنا والهو، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، الطبعة الرابعة ، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

20- فيصل عباس (1994)، التحليل النفسي للشخصية، بيروت، دار الفكر اللبناني.

21- لويس كامل مليكة (1985)، علم النفس الإكلينيكي: التشخيص والتنبؤ في الطريقة الإكلينيكية، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

22- مانع علي (1996)، جنوح الأحداث والتغير الاجتماعي في الجزائر المعاصرة : دراسة في علم الإجرام المقارن، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

23- مانع علي (2002)، عوامل جنوح الأحداث في الجزائر : نتائج دراسة ميدانية ، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

24- محمد أحمد النابلسي وآخرون (1991)، الصدمة النفسية- علم نفس الحروب و الكوارث- ، سلسلة الثقافة النفسية، رقم05، بيروت، دار النهضة العربية.

25- محمد رشاد متولي (1989)، جرائم الاعتداء على العرض في القانون الجزائري و المقارن، سلسلة دروس العلوم القانونية، الطبعة الثانية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

26- مصطفى حجازي (1993)، الفحص النفسي : مبادئ الممارسة النفسية، تقنياتها، خطواتها و إشكالا تها، بيروت، دار الفكر اللبناني.

27- مصطفى حسين باهي، منى أحمد الأزهري (2000)، أصول البحث العلمي في البحوث التربوية والنفسية والاجتماعية والرياضية، القاهرة، مركز الكتاب للنشر.

28- مصطفى غالب (1983)، في سبيل موسوعة نفسية (الشذوذ النفسي)، بيروت، دار ومكتبة الهلال.

29- مصطفى غالب (1985)، في سبيل موسوعة نفسية (السلوك، الشخصية الناجحة، الإرادة، الإدراك)، بيروت، دار ومكتبة الهلال.

30- مصطفى غالب (1995)، في سبيل موسوعة نفسية (الجنس عند فرويد)، بيروت، دار ومكتبة الهلال.

القواميس والموسوعات باللغة العربية

31- بونتاليس.ج.ب، لابلانش جان (1985)، معجم مصطلحات التحليل النفسي ، ترجمة: مصطفى حجازي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

32-سُهَيل إدريس (1999)، المنهل: قاموس فرنسي- عربي، الطبعة الخامسة والعشرون، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع.

– Livres en français :

33- Abadie-Rosier Steve (2009). Les processus psychiques. Paris : Les Neurones moteurs.

34- Ansermet François et autres (2002). Sens et non-sens de la violence. Le fil rouge. Paris : Puf.

35- Anzieu Didier (1959). L'auto-analyse de Freud et la découverte de la psychanalyse. Collection Idéa. Tunisie : Cérès. 1995.

36- Anzieu Didier (1995). Le moi – peau. Paris : Dunod.

37- Aouattach Ali et autres (2004). Maltraitance et cultures. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

38- B. Clément Catherine et autres (1976). La psychanalyse : « Encyclopoche Larousse » 2. Paris : Librairie Larousse.

39- B.Robert - Ouvray Suzanne (2003). Enfant abusé, Enfant médusé. Collection Reconnaissances. Paris : Desclée de Brouwer.

40- Beaud Michel (2005). L'art de la thèse : Comment préparer et rédiger une thèse de doctorat, de magister ou un mémoire de fin de licence. Algérie : Casbah éditions.

41- Bénony Hervé, Chahraoui Khadija (1999). L'entretien clinique. Collection les Topos. Paris : Dunod.

42- Berclaz Michel (2002). Agressivité, Hostilité et Violence : à l'usage des intervenants, service de formations spécialisées, HUG. Paris : Bibliothèque Nationale de France.

43- Berger Maurice, Bonneville Emmanuelle (2007). Protection de l'enfance : l'enfant oublié. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

44- Bergeret Jean et autres (1995). Psychologie pathologique. 6 éditions. Paris : Masson.

45- Boudarene Mahmoud (2005). Le Stress : entre bien être et souffrance. Alger : Berti.

46- Cartuyvels Yves et autres (2005). Engagement, décision et acte : dans le travail avec les familles. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

47- Chiland Colette (1983). L'entretien clinique. Paris : Presses universitaires de France.

48- Chorfi Mohamed Séghir, Mezhoud Nouredine (2005-2006). Types de réaction post-traumatique suite à une catastrophe naturelle chez les adolescents scolarisés « cas du séisme de Boumardes du 21 mai 2003 Algérie ». Constantine : Edition de l'université Mentouri.

49- Ciavaldini André et autres (2005). Le délinquant sexuel : enjeux cliniques et sociétaux. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

50- Collart Pierre (2005). Les abuseurs sexuels d'enfants et la norme sociale.Collection Intellection-1-. Belgique : Academia - Bruylant.

51- Collart Pierre, Sosson Jehanne (2007). La place de la parole de l'enfant : Entre vérités et responsabilités. Collection Famille, Couple, Sexualité. N° 29. Belgique : Academia - Bruylant.

52- Debout Michel, Durigon Michel (1994). Médecine légale clinique : Médecine et violences. Paris : Ellipses Marketing.

53- Delion Pierre (2005). L'enfant hyperactif, son développement et la prédiction de la délinquance : qu'en penser aujourd'hui ?. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

54- Delion Pierre (2007). La fonction parentale. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

55- Delmont .J, Lucht .F (1995). Guide pratique de psychiatrie. Alger : Berti.

56- Dolto Françoise (1984). L'image inconsciente du corps. Collection Points - Essais. N°251. Paris : Seuil.

57- Dolto Françoise (1986). Enfances. Collection Points. N P600. Paris : Le seuil.

58- Dolto Françoise (1988). Quand les parents se séparent. Collection Points - Essais. N°587. Paris : Seuil.

59- Dolto Françoise (1989). Autoportrait d'une psychanalyste (1934_1988). Collection Points. N° P863. Paris : Le seuil.

60- Dumas Jean (2005). L'enfant anxieux : comprendre la peur de la peur et redonner courage. Paris : De boeck, Berti.

61- Epstein Danièle (2007). Pour une éthique clinique dans le cadre judiciaire. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

62- Favord Charles-Henri (1975). La psychanalyse "Encyclopédie du monde actuel". Paris.

63- Forget Jean-Marie (2007). Les violences des adolescents sont les symptômes de la logique du monde actuel. Collection Temps d'arrêt, Bruxelles : Yapaka.

64- Freud Sigmund (1962). Trois essais sur la théorie de la sexualité. Paris : Idées / Gallimard.

65- Freud Sigmund (1966). Cinq leçons sur la psychanalyse. Paris : Payot.

66- Freud Sigmund (1968). Métapsychologie. Collection Folio - Essais. N°30. Paris : Gallimard.

67- Freud Sigmund (1988). Sur le rêve. Collection Folio - Essais. N°12. Paris : Gallimard.

68- Freud Sigmund (2001). Essais de psychanalyse. Paris : Payot et Rivages.2.

69- Gabel Marceline et autres (1998). Les enfants victimes d'abus sexuels. Collection Monographies de la psychiatrie de l'enfant. Paris : Puf.

70- Gauchet Marcel (2008). L'impossible entré dans la vie. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

71- Gayda Martine et autres (2007). « ZiZi sexuel », sexe des anges… : parler sexe avec les enfants ?. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

72- Geissmann Claudine, Houzel Didier (2003). L'enfant, ses parents et le psychanalyste. Paris : Bayard Compact.

73- Godard Marie-Odile (2003). Rêves et traumatismes « Ou la langue nuit des rescapés ». Collection des travaux et des jours. Paris : Erès.

74- Golse Bernard (2001). Du corps à la pensée. 2e Edition. Le fil rouge. Paris : Puf.

75- Golse Bernard (2002). Le développement affectif et intellectuel de l'enfant. 3e édition. Collection Médecine et psychothérapie. Paris : Masson.

76- Goodman Susan (1980). Votre enfant : de la naissance a l'adolescence. Paris : Robert Laffont.

77- Hirigoyen Marie-France (1998). Le harcèlement moral : la violence perverse au quotidien. Paris : La découverte et Syros.

78- Hirigoyen Marie-France (2001). Le harcèlement moral dans la vie professionnelle «Démêler le vrai du faux ». Paris : La découverte et Syros.

79- Jacobson Victor (1976). Entretiens et dialogue : Rôle du dialogue dans le travail psychologique, social et éducatif. Collection - Mésopé - bibliothèque de l'action social. France : Edouard Privat éditeur.

80- Lebigot François (2006). Le traumatisme psychique. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

81- Lebrun Jean-Pierre (2002). Avatars et désarrois de l'enfant-roi. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

82- Lebrun Jean-Pierre (2006). L'avenir de la haine. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

83- Lecourt Edith (2006). Découvrir la psychanalyse de Freud à aujourd'hui. Paris : Eyrolles-Pratique.

84- Lévy-Soussan Pierre (1994). Psychiatrie. collection Med-Line, Paris.

85- Linden Reine- Vander et autres (2007). Prévenir les troubles de la relation autour de la naissance. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

86- Marinopoulos Sophie (2007). Le déni de grossesse. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

87- Marneffe Catherine (2004). Malaise dans la protection de l'enfance : la violence des intervenants. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

88- Marson Pascale (2004). 25Mots clés de la psychologie et de la psychanalyse. Collection Mots clés. France : Maxi-Connaissance.

89- Mazella Suzanne (1984). La dynamique d'une consultation de psychologie pour enfants à Alger : Contribution à l'étude du problème du changement. Alger : Office des publications universitaires.

90- Mertens de Wilmars.Ch (1983). Psychologie médicale. Bruxelles : A. Deboeck.

91- Monnoye Geneviève et autres (2005). Le professionnel, Les parents et l'enfant, face au remue-ménage de la séparation conjugale. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

92- Morgenstern Sophie (2003). Articles et contributions à la revue française de psychanalyse. Tome 3. Paris : Claude Tchou pour la bibliothèque des Introuvables.

93- Mucchielli Roger, Vincent Rose (1974). Comment connaître votre enfant ?. Paris : Le livre de poche.

94- Nachin Claude (2007). À l'écoute des fantômes. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

95- Nathan Tobie (1986). La folie des autres : Traité d'ethnopsychiatrie clinique. Collection Psychismes. Paris : Dunod.

96- Pasquasy .R (1967). Le test du dessin d'un Bonhomme de FI.Goodenough : Manuel d'interprétation. Bruxelles : Editest.

97- Perron Roger, Perron-Borelli Michèle (1997). Fantasme, Action, Pensée : Aux origines de la vie psychique. Collection Semailles. Alger : SARP.

98- Politzer Georges (1969). Ecrit 2 « Les fondements de la psychologie ». Paris : Editions Sociales.

99- Ponnier Jacques (2003). Narcissisme et séduction : pour une critique métapsychologique du concept d'idéalisation. Collection Psychanalyse et Pratique sociales. Paris : Economica (Anthropos).

100- Puyuelo Rémy (2002). L'enfant du jour, l'enfant de la nuit- la rencontre analytique. Paris : Delachaux et Niestlé.

101- Quentel Jean-Claude (2008). L'enfant n'est pas « une personne », collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

102– Royer Jacqueline (1977). La personnalité de l'enfant à travers le dessin du Bonhomme. Bruxelles : Editest.

103– Tisseron Serge (2004). Ces désirs qui nous font honte : désirer, souhaiter, agir : le risque de la confusion. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

104– Tisseron Serge (2006). Voyage à travers la honte. Collection Temps d'arrêt. Bruxelles : Yapaka.

105– Tremblay Diane (1971), Soins psychiatriques. Canada : éditions du Renouveau Pédagogique.

106– Tusques Jean (1976). Initiation à la psychologie médicale. 2e édition. Paris : Librairie Maloine S.A éditeur.

107– Voizot Bernard (1977). Le développement de l'intelligence chez l'enfant. Paris : U prisme.

108– Wallon Henri (1968). L'Evolution psychologique de l'enfant. Paris : Librairie Armand Colin.

– Revues :

109– Boyer J.P et autres (1983). Neuropsychiatrie de l'adolescence : situations de crise en psychopathologie. 31e année. N° 1. Paris : Expansion scientifique française.

110–Diatkine Gilbert (1995–1996). L'identification avec l'agresseur. Psychologie « Identité–Différence, Développement, Psychopathologie, Tests et méthode ». N° 5–6. Alger : SARP.

111– Bouatta Chérifa (2001). Psychologie « événements traumatiques et santé mentale– résultats d'une recherche épidémiologique. N°09. Alger : SARP.

112– Chabanier Jacques (1990). Du siècle de l'enfant à l'enfant dans notre siècle. Actes séminaire international « Pour que s'épanouisse l'enfant .Réalités actuelles et perspectives ». Alger 08 et 09 décembre 1990. Alger : SNFPS.

113– Cloarec.Ch et autres (Septembre 2007). Le passage à l'acte pédophile. Nervure – journal de psychiatrie–. Tome XX. N°6. Paris : Maxmed.

114– Gorot. J (Décembre 2001–Janvier 2002). Premier apprentissage alimentaire. Nervure –Journal de psychiatrie–. Tome XIV. N° 9. Paris : Maxmed.

115– Hachet Pascal (07 juin 2006). Les secrets de la famille nuisent à la capacité des enfants de témoigner de leurs propres expériences. Actes de psychiatrie et médecine légale « Témoignage de l'enfant au tribunal ». Algérie : Chiko édition.

116– Hafed Hamou (2000). Initiatives prises par le ministère de la santé et de la population dans la prise en charge psychologique des victimes de violence. Actes du

1er séminaire national, 21-22 juin 2000. Alger : Croissant- Rouge Algérien. Sarl Thala éditions.

117- Hassoun Jacques, Spielmann Claude (1995). Psychanalyse : cent ans de divan. Panoramiques. 4e trimestre. N° 22. Paris : Arléa /Corlet.

118- Ross. J (1993). Les modes d'intervention en AEMN. Actes du deuxième séminaire international « Au-delà de l'enfance, Inadaptation sociale : famille et prévention ». 07,08 Décembre 1991. Alger : CNFPS.

119- Kerbouche Abdelhamid (2001). Incidence et fréquence du phénomène de la maltraitance en Algérie (Les sévices corporels). Revue Sciences Humains. N°16. Décembre2001. Constantine : Université Mentouri. pp.27-35.

120- Mekideche Tchirine (septembre 2003). Présentation de l'enquête « La maltraitance des enfants en Algérie ». Actes de la rencontre relative à la diffusion des résultats des enquêtes prospectives portant sur la maltraitance des enfants et la violence domestique en Algérie. Alger : Rouïba - ANEP.

121- Vibert Sarah (Mars 2007). Anorexie mentale et féminité : Impasses identificatoires à l'adolescence. Nervure - journal de psychiatrie -. Tome XX. N°2. Paris : Maxmed.

122- Vincent. D (2004). Anxiété, anxiolytiques et troubles cognitifs. Revue Annales Médico-Psychologiques. Vol.162, N°07. Paris : Elsevier SAS.

- Dictionnaires :

123- American Psychiatric Association-DSM-IV-TR (2003). Manuel Diagnostique et Statistique des Troubles Mentaux. Traduction : Guelfi Julien Daniel et autres. 4eme édition. Paris : Masson.

124- Sillamy Norbert (1982). Dictionnaire de la psychologie. Collection Larousse. Paris : Librairie Larousse.

125- Sillamy Norbert (2004). Dictionnaire de psychologie. Paris : In Extenso.

الملاحـــــق

نمـــوذج دراســـة حـــالة

I- البيانات المميزة للحالة

- الاسم:.....
- الجنس:.....
- تاريخ الميلاد(العمر):.....
- المستوى الدراسي:.....
- المؤسسة(المكان) التي أجريت فيها دراسة الحالة:.....
- المصلحة التي تم فيها الفحص:.....
- سبب الفحص(الشكوى):.....
- التشخيص:.....

II- وصف عام للعميل أثناء دراسة الحالة:

- ملخص عام لمختلف الملاحظات المتحصل عليها حول الحالة:.....

.....

III- التاريخ الشخصي للعميل:

1- الحمل:

- مدى تقبل الأم للحمل:.....
- حمل خاطئ مُسبَق:.....
- العلاقة العامة للأم مع الزوج ومع المحيط العائلي أثناء الحمل:.....
- الحالة النفسية العامة للأم أثناء الحمل:.....
- احتمال إصابة الأم باضطرابات نفسية أو أمراض جسدية أثناء الحمل:.....
- أحداث صدمية (انفصالات، حداد...) تعرضت لها الأم أثناء الحمل:.....
- طفل مرغوب أو غير مرغوب:.....
- اختيار اسم المولود(من طرف من؟ ما يمثّله الاسم بالنسبة للوالدين؟ هل تم الاتفاق عليه؟):.....

2- الولادة:

- الظروف المحيطة بالولادة:.....
- تاريخ الولادة(مبكرة- في وقتها- متأخرة):.....

- شكل الولادة(طبيعية- قيصرية):.....
- مدة استشفاء الأم والرضيع:.....
- الصحة النفسية والجسدية للأم أثناء وبعد الولادة:
  - إصابة بتريف محتمل.....
  - إصابة أو خطأ أثناء الولادة.....
  - إصابات أو أمراض أخرى.....
- الصحة الجسدية للطفل أثناء وبعد الولادة:
  - التكامل الجسدي للمولود.....
  - مدى تناسب حجم المولود.....
  - الإصابة بأي أمراض محتملة.....
  - أخطاء أو إصابات محتملة أثناء عملية التوليد.....
  - مشاكل تتعلق بقطع الحبل السري ثم ربطه.....
  - انعكاسات سلبية أخرى.....
- مدى تقبل جنس المولود ومظهره من طرف الأم:.....
- مدى تناسب جنس المولود مع توقعات الوالدين والوسط العائلي:.....
- رد فعل الأم في حال كانت الولادة صعبة أو قيصرية:.....
- رد فعل الأب والوسط العائلي على شكل الولادة والخطر المحتمل على الأم:.....
- الاتصال الأول للأم مع رضيعها:.....
- ملاحظات أخرى:.....

3-التغذية:

- احتواء ثدي الأم على الحليب أو عدم احتوائه، ورد فعل الأم على ذلك:.....
- الرضاعة من الثدي:.....
- الرضاعة الاصطناعية:.....
- المرضِعة البديلة:.....
- سن بداية الأكل:.....

4-الفطام:

- ممهَّد /مفاجئ:.....
- مبكر/في زمن مناسب/ متأخر:.....

- مدى تقبل الطفل للفطام عن جسم الأم:.....
- مدى تقبل الأم للفطام العلائقي:.....
- ظاهرة مص الأصبع(هل استقرت طويلا-كانت عابرة):.....
- ظهور الأسنان(مبكر- متأخر- في وقته):.....

5-النموالنفسي الحركي:

- عمر الجلوس:.....
- عمر الوقوف:.....
- عمر المشي على أربع:.....
- عمر بداية المشي:.....
- سن اكتساب النظافة:.....
  - مبكر/ متأخر.....
  - تلقائي/ إجباري.....
- دخول المرحاض (مستحب- غير مستحب):.....
- تلسب الاستقلالية على مستوى الأكل مع عمر الطفل:.....
- تناسب الاستقلالية على مستوى النوم مع عمر الطفل:.....
- مدى الحرية الحركية اللمسرية:.....
- بداية الكلام(مبكر، متأخر):.....
- سلامة اللغة وثراؤها:.....
- اضطرابات على مستوى النطق:.....
- التناسق الحركي العام:.....
- النشاط (مفرط النشاط- قليل النشاط):.....
- اللعب:.....
  - الاهتمام بالألعاب القذفية الذكورية.....
  - امتلاك ألعاب خاصة من عدم امتلاكها، ودرجة احترام الأهل لذلك.....
- مخاط الأنف(استمراره، هل يقوم الطفل بأكله):.....
- اضطرابات سلوكية:.....
  - قضم الأظافر.....
  - لزمات(أطراف علوية أو سفلية، الملامح، الجذع).....

- نوبات الغضب.....

- اضطرابات نفسوجسدية:

- اضطرابات هضمية(إسهال، إمساك، قيئ متكرر).....
- سلس البول.....
- سلس البراز.....
- اضطرابات في الأكل(الامتناع العقلي عن الأكل، الشره المرضي).....
- اضطرابات أخرى.....

- اضطرابات النوم(الخوف من الظلام، الأرق...):.....

6-العناية الجسدية:

- مدى استقلالية الطفل فيما يخص العنايات الجسدية(الغسل بعد التبرز، التحميم، تمشيط الشعر ...)

7-علاقة العميل بالمرآة (بصورته):

- مدى تعلقه بالنظر في المرآة:.....
- تفاديه النظر في المرآة:.....
- طلب مشاركة الآخرين له في هذه التجربة:.....
- طلب رأي الآخرين فيما يراه في المرآة:.....

8-علاقة العميل بالجنس الآخر من نفس سنه

- مدى الاهتمام بالفرق بين الجنسين:.....
- مدى تقبله لجنسه واعتزازه بعضوه الجنسي:.....
- طبيعة الاستجابات المقدمة من طرف الراشد على تساؤلاته حول الأمور الجنسية:.....

9-التاريخ الطبي:

- سوابق مرضية شخصية:

- اضطرابات سلوكية سابقة.....
- اضطرابات نفسية وجسدية سابقة.....
- أمراض عامة.....
- استشفاء سابق(المصلحة، المدة، السن، طبيعة المرض).....

- سوابق مرضية عائلية:.....

- الصحة الجسدية والنفسية للأم.....

- الصحة الجسدية والنفسية للأب.....
- الصحة الجسدية والنفسية للإخوة والأخوات.....
- وجود اضطرابات نفسية أو أمراض عقلية في سلسلة العائلة.....

10-التاريخ المدرسي:

- الروضة (سن الدخول، المدة التي بقي فيها):.....
- سن دخول المدرسة:.....
- النتائج الدراسية ومستوى التحصيل:.....
- الصداقة المدرسية (منعدمة، محدودة، كثيرة):.....
- الاشتراك في النشاطات داخل المدرسة:.....
- الميول والهوايات:.....
- المواد المفضلة والمواد المكروهة:.....
- العلاقات مع المدرسين:.....
- السلوك العام داخل المدرسة:.....

IV-التاريخ العائلي:

1-بيئة العميل

- البيئة الجغرافية، الاجتماعية، الثقافية والاقتصادية:.....
- تغيرات هامة في تاريخ الأسرة (الانتقال، الهجرة...):.....

2-النسق الأسري:

- تقديم الوالدين (العمر، الوظيفة، المستوى التعليمي، الخلفية العائلية، السمات المميزة لكل منهما).
- الوضعية العائلية (تعدد الزوجات، الطلاق):.....
- عدد أفراد العائلة (الإخوة والأخوات):.....
- السمات المميزة للإخوة والأخوات حسب الترتيب:.....
- ترتيب العميل بين إخوته:.....
- علاقة العميل بباقي الإخوة (الأخ المقرب، الأخ المنافس):.....
- علاقة العميل بوالديه:.....
- نمط التنشئة السائد داخل الأسرة (التربية الدينية، نمط مسيطر، نمط متحرر):.....
- الخصوصية الثقافية للأسرة:.....

V- واقعة الاستغلال الجنسي:

- كشف سر الاستغلال الجنسي (كيف تم، بعد أي مدة):.....

- موقف الوالدين والوسط المقرّب من واقعة الاستغلال الجنسي:.....

- واقعة الاستغلال الجنسي حسب أقوال الوالدين:.....

- سيرورة الاستغلال الجنسي حسب أقوال العميل:.....

- أحداث صدمية سابقة مماثلة:.....

- مقارنة بين الخصائص المزاجية والسلوكية قبل وبعد الاستغلال الجنسي حسب أقوال الوالدين والمقربين:.....

- طبيعة علاقة الطفل مع المعتدي:.....

- رد فعل الطفل بعد انكشاف السر على ضوء ما تم سرده من طرف الوالدين وملاحظات الفاحص:.....

- التدخل النفسي المتخصص بعد الكشف عن السر:.....

- المعيش النفسي للأسرة ضمن الظروف المحيطة بالكشف عن السر(الإجراءات القانونية، المجتمع):.....

VI- تحليل المحتوى في ضوء الملاحظة المقابلة ونتائج الاختبار الاسقاطي.....

VII-الخلاصة العامة.

شبكة الملاحظة التجريبية الأولى

أ-على مستوى الحالة:

1- العمر الظاهري مقارنة بالعمر الحقيقي للحالة.

2-الطريقة التي بها يستقبل الطفل الفاحص:

- هل يكون في استقباله مع العائلة؟؛
- هل يختبئ وراء أفراد العائلة؟؛
- هل يختبئ في غرف المترل؟.

3- الطريقة التي بها يحيي الفاحص:

- هل يحيي الفاحص مباشرة مثل باقي أفراد العائلة؟؛
- هل ينتظر المبادرة من طرف الفاحص؟؛
- هل يُدفع إلى ذلك من طرف أحد أفراد العائلة؟.

4- نظراته:

- هل هي فرِحة بالزائر الجديد، لامبالية، متسائلة، مشكّكة، متخوفة، حائرة أو حزينة؟؛
- هل يبحث عن الإجابة في عيني الفاحص؟؛
- هل ينظر في عيني الفاحص فقط على حسب سياق الموقف؟؛
- هل يتحاشى أي اتصال بصري مع الفاحص؟؛
- على ماذا تكون نظراته مركّزة بشكل أكبر؟.

5- الحالة النفسية العامة (حزن، لامبالاة، تفاؤل...).

6- طريقة الجلوس:

- هل يملأ بجلوسه المقعد؟؛
- هل يجلس على حافة الكرسي؟؛
-هل يجلس مباشرة على الكرسي؟؛
- هل يفضل الجلوس في حجر أمه أو أبيه أو أحد أفراد العائلة؟؛
- هل يُسنِد ظهره على الكرسي؟؛
- هل يتركه منحنيا؟؛
- هل يجلس منتصب الظهر، مرفوع الرأس؟؛
- هل يطأطئ رأسه في الجلوس ويخفض عينيه؟؛
- هل يجلس بشكل مقابل للفاحص؟؛

- هل يجلس بشكل جانبي بالنسبة للفاحص؟؛
- هل يدير ظهره للفاحص؟؛
- هل يضم رجليه في الجلوس؟؛
- هل يفتح رجليه في الجلوس؟؛
- هل يضع رجلا على رجل؟.

7- الانضمام إلى الجالسين:

- هل ينضم مباشرة إلى الجالسين؟؛
- هل ينتظر دعوة الحاضرين(الفاحص أو أحد الوالدين) للجلوس؟.

8- مكان وضع يديه أثناء الجلوس:

- هل يضم يديه أو يشبكهما؟؛
- هل يتركهما منبسطتين؟؛
- هل يضعهما في جيبه؟؛
- أي حركة أخرى(فوق رأسه، تحت مقعده...).

9- الزمن المستغرق في الجلوس:

- هل يجلس مطولا في نفس المكان؟؛
- هل يغير مكان الجلوس بين الحين والآخر؟.

10- طريقة المشي:

- هل يمشي مسرعا؟؛
- هل يمشي بخطوات متثاقلة؟.

11- اللغة اللفظية والحركية:

-هل يلتزم الصمت؟؛
- هل يتحدث كثيرا؟؛
- هل هو ثري لغويا؟؛
- هل يستهلك نفس المفردات والألفاظ؟؛
- هل يفتقر للرصيد اللغوي للتعبير عما يريد؟؛
- هل يعاني من اضطرابات في النطق (التأتأة مثلا)؟؛
- هل هو طليق اللسان؟؛
- هل نبرة صوته منخفضة أو مرتفعة؟؛
- هل يتكلم بثقة أو بعدم ثقة؟؛

- هل أسلوب كلامه يتناسب مع خصوصية المنطقة التي ينتمي إليها؟؛
- هل يتحدث لهجة واحدة أو أكثر من لهجة؟؛
- على من يتحدث أكثر، عن نفسه، عن عائلته، عن أصدقائه أم عن المعتدي؟؛
- إلى من يوجه الحديث بشكل أساسي؟؛
- ماذا عن اللّزمات اللغوية (الصوتية)؟؛
- ماذا عن التناسب بين محتوى الكلام والحالة الانفعالية؟؛
- ما هي المواضيع التي يركز عليها في الحديث ؟؛
- هل يبادر بفتح مواضيع جديدة للحديث عنها؟؛
- هل يلتزم بنفس السرد للأحداث؟؛
- هل يغير أقواله بين الحين والآخر؟؛
- هل يلتزم فقط بالإجابة عن الأسئلة؟؛
- هل يتهرب من الإجابة عن الأسئلة؟؛
- هل هو فقير الحركات الجسدية والإيماءات أثناء الحديث؟؛
- ماذا عن اللّزمات الحركية في حالة الصمت أو التكلم؟.

12- حالة الجسم:

- هل جسمه نظيف؟؛
- هل أظافره مقلّمة أو غير مقلّمة؟؛
- هل شعره مسرّح أو غير مسرّح؟؛
- هل تسريحة شعره تتناسب مع جنسه؟؛
- هل يحمل جسمه أي علامات جسدية غير عادية حديثة أو قديمة (ندبات، تشوهات، أوشام)؟؛
- هل يحمل جسمه أي علامات لسوء المعاملة (آثار ضرب، علامات زرقاء...)؟.

13- حالة الهندام:

- هل هندامه نظيف؟؛
- هل ملابسه متناسقة فيما بينها؟؛
- هل ملابسه ملائمة لجنسه؟؛
- هل ألوان ملابسه ملائمة لجنسه؟
- هل ينشغل بتسوية ملابسه أثناء الحديث؟؛
- أي ملاحظات أخرى.

14- التوظيف العقلي:

- هل يدرك أيام الأسبوع وتاريخ اليوم؟؛
- هل يدرك المكان الذي هو متواجد فيه؟؛
- هل يميز بين الأماكن(مركز الدرك الوطني أو الشرطة، المستشفى، المحكمة) التي قد أُخذ إليها؟؛
- هل يدرك عمل الأشخاص الذين تعامل معهم(عناصر الأمن، طبيب، قاضي الأحداث)؟؛
- هل يدرك سبب ذهابه إلى هذه الأماكن وتعامله مع هؤلاء الأشخاص؟؛
- هل يدرك مكان الاعتداء(مألوف، غير مألوف)؟؛
- هل يميز زمن الاعتداء(صباح، مساء، أي يوم)؟؛
- سلامة الحكم من عدمه(مذنب، برئ)؟؛
- سلامة التمييز من عدمه(ما وقع له أمر سيئ، أمر جيد ومستحب)؟؛
- هل يدرك أصلا أنه قد تعرض للاستغلال الجنسي؟؛
-هل يدرك لماذا نحن هنا وماذا نريد؟؛
- هل سرده للأحداث متسلسل أو غير متسلسل؟؛
- هل يسرد الأحداث الواقعية كما هي أم يضيف عليها تعديلات من صنع خياله؟؛
- هل يخلط بين الواقع والخيال، بين ما حدث له فعلا وبين ما شاهده في التلفاز؟؛
- هل يركز في الكلام أم يتيه ويسرح إلى عالم آخر؟.

15- الجانب الجنسي:

- هل يتجنب المواضيع التي تشير إلى الجانب الجنسي؟؛
- هل يفتح تعليقات للحديث عن مثل هذه المواضيع؟؛
- هل يتحدث عن الممارسات التي تعرض لها بصيغة المتكلم؟؛
- هل يسردها بصيغة الغائب أو ينسبها إلى شخص آخر؟؛
- هل يبادر مباشرة في الحديث عنها؟؛
- هل يستجيب لتلميحاتنا فيتحدث مباشرة عنها؟؛
- هل يتفادى أي شيء يدل أو يشير إليها؟؛
- الختان إن تم والظروف المحيطة به؟.

2-المستوى العائلي:

16- ما هو النسق العلائقي الظاهر والغالب في الأسرة(تعاملات خفية، واضحة...)؟؛

17- وجود الحوار من عدمه داخل العائلة؟؛

18- هل يُستعمل التعنيف اللفظي من طرف الوالدين من أجل فرض أقوالهما؟؛

19- هل يُستعمل التعنيف الجسدي من طرف الوالدين من أجل حمل الطفل على الامتثال لأوامرهما ؟؛

20- هل يمتثل الطفل مباشرة لأقوال والديه؟؛

21- هل يراوغهما قبل الامتثال أو عدم الامتثال لأقوالهما؟؛

22- هل يرفض كل ما يصدر كأمر من طرفهما؟؛

23- هل هو ملتصق بوالديه؟؛

24- هل هو مستقل عن وجودهما؟؛

25-هل يبحث عن الانفراد في الحديث مع والديه(أمه أو أبيه) بمعزل عن الفاحص؟؛

26- هل يُعقّب على أحاديث والديه؟؛

27- هل كثيرا ما يقاطع كلامهما متدخلا في الموضوع؟؛

28- هل يلتزم وضعية المستمع دون تدخل؟؛

29- هل يغتنم فرصة غيابهما ليبادر في فتح المواضيع؟؛

30-هل يُكثر النظر إليهما أثناء حديثهما؟؛

31- هل يتفادى النظر إليهما أو الاستماع إلى كلامهما؟؛

32- هل يستعمل الوالدين اسم الطفل كثيرا لمناداته؟؛

33- هل يستبدلان اسمه بألفاظ أخرى (أسمع، أنت، عيطولو...)؟.

34- مكانته بين إخوته(محبب، محل إزعاج...).

35- مكانته داخل العائلة:

- طفل مفضّل؛

- طباعه مزعجة؛

- مثل مكانة بقية الأطفال.

36- التنافس الأخوي:

- مشارك في التنافس الأخوي؛

- ملتزم الحياد ووضعية المتفرج.

37- الأخ المفضل له؛

38- الأخ غير المرغوب لديه؛

39- عائلة نواة أو عائلة كبيرة؛

40-مكانة السلف(الجدين) في تسيير العائلة؛

41- ما مدى طغيان الطابع الديني على تصورات وأحكام العائلة؟؛

42-ما مدى تحكم العادات والتقاليد في اللاشعور الجمعي للعائلة؟.

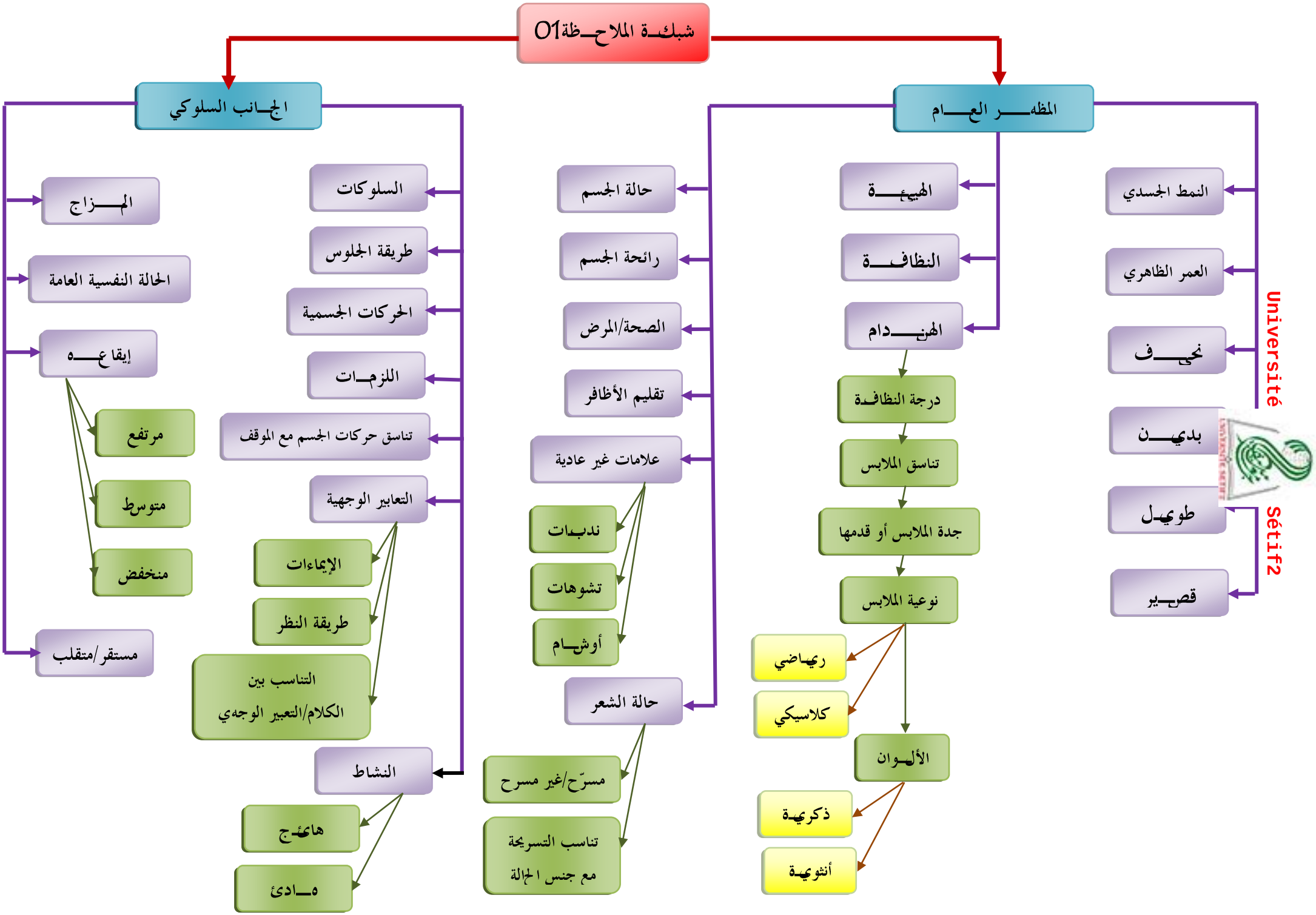
شبكـة الملاحـظة01
الجـانب السلوكي
المظهـــر العـــام
المـــزاج
الحالة النفسية العامة
إيقاعـــه
مرتفع
متوسط
منخفض
مستقر/متقلب
السلوكات
طريقة الجلوس
الحركات الجسمية
اللزمـات
تناسق حركات الجسم مع الموقف
التعابير الوجهية
الإيماءات
طريقة النظر
التناسب بين الكلام/التعبير الوجهي
النشاط
هائـج
هـادئ
حالة الجسم
رائحة الجسم
الصحة/المرض
تقليم الأظافر
علامات غير عادية
ندبـات
تشوهات
أوشـام
حالة الشعر
مسرّح/غير مسرح
تناسب التسريحة مع جنس الحالة
الهيئـــة
النظافـــة
الهنـــدام
درجة النظافـة
تناسق الملابس
جدة الملابس أو قدمها
نوعية الملابس
ريـاضي
كلاسيكي
الألـوان
ذكريـة
أنثويـة
النمط الجسدي
العمر الظاهري
نحيـــف
بديـــن
طويـل
قصـير
Université
Sétif2

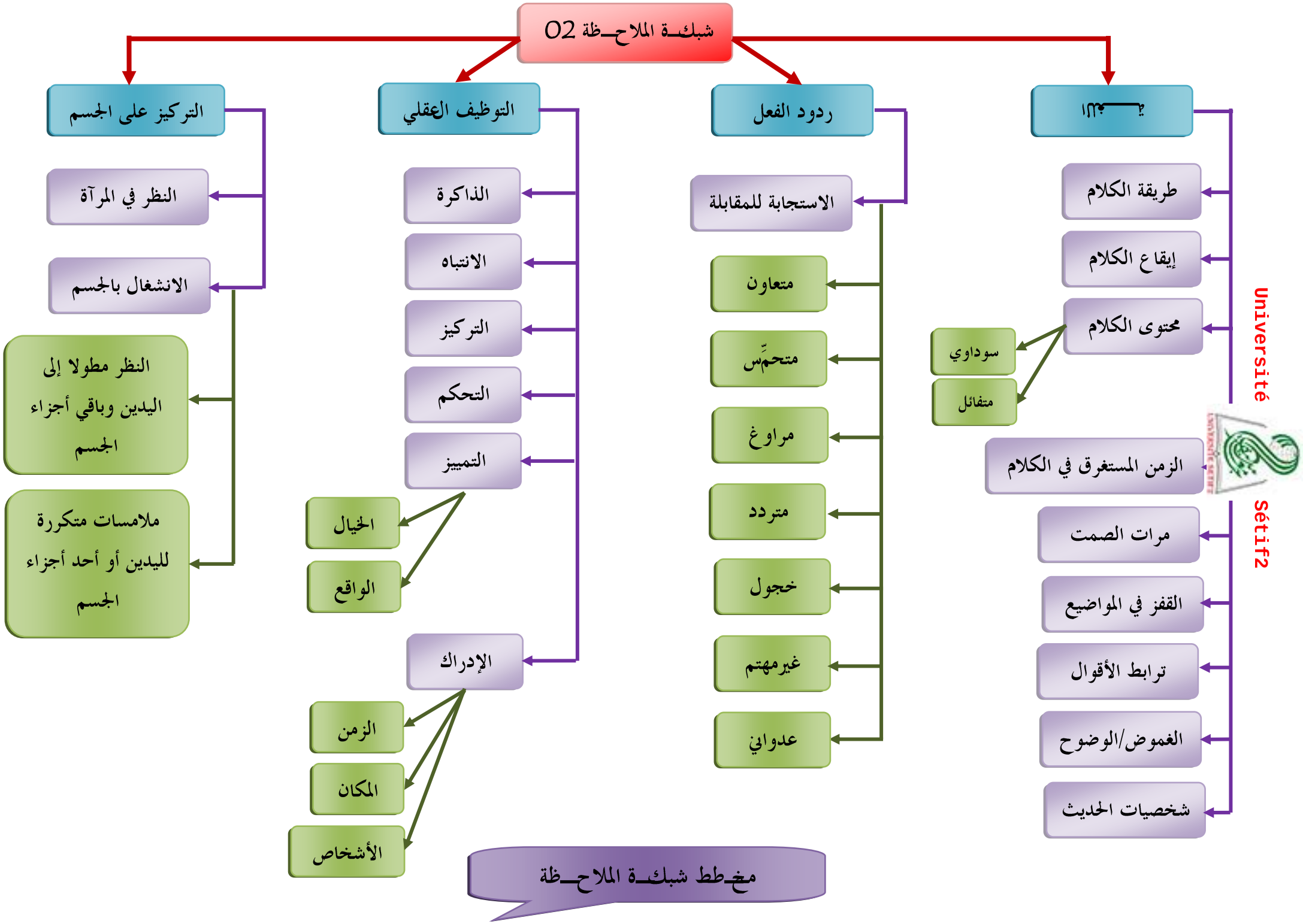
شبكـة الملاحـظة 02
التركيز على الجسم
النظر في المرآة
الانشغال بالجسم
النظر مطولا إلى اليدين وباقي أجزاء الجسم
ملامسات متكررة لليدين أو أحد أجزاء الجسم
التوظيف العقلي
الذاكرة
الانتباه
التركيز
التحكم
التمييز
الخيال
الواقع
الإدراك
الزمن
المكان
الأشخاص
ردود الفعل
الاستجابة للمقابلة
متعاون
متحمِّس
مراوغ
متردد
خجول
غيرمهتم
عدواني
طريقة الكلام
إيقاع الكلام
محتوى الكلام
سوداوي
متفائل
الزمن المستغرق في الكلام
مرات الصمت
القفز في المواضيع
ترابط الأقوال
الغموض/الوضوح
شخصيات الحديث
Université Sétif2
مخـطط شبكـة الملاحـظة

Université Sétif2

La Feuille de Notation /ورقة التنقيط

التحليل الكيفي للرسم "تقدير الشخصية"

التحليـــل ..... **التأويـــل**

I- ترتيب الرسوم.

II- السلوك أثناء التنفيذ.

III- الأبعاد الشاملة للرسم.

1- تموضع الرسم.

2- الأبعاد والتناسقات.

3- الخطوط.

4- الوضعية والتناسق.

5- وضعية الجسم.

6- الحركة.

7- رمزية الألوان.

8- تحديد شخصية الرسم.

- السن.
- الجنس.
- الهوية.

9- التعبير.

10- المحيط.

IV- الأبعاد التحليلية للرسم.

1- الرأس.

2- الجذع.

3- الأطراف.

- الذراعان.
- الساقان.

4- الملابس.

V- ملاحظات خاصة.

VI- الصورة النفسية العامة من خلال نتائج التأويل.

VII- دراسة حالة من خلال السوابق المرضية ونتائج الاختبار النفسي.

VIII- خلاصة.

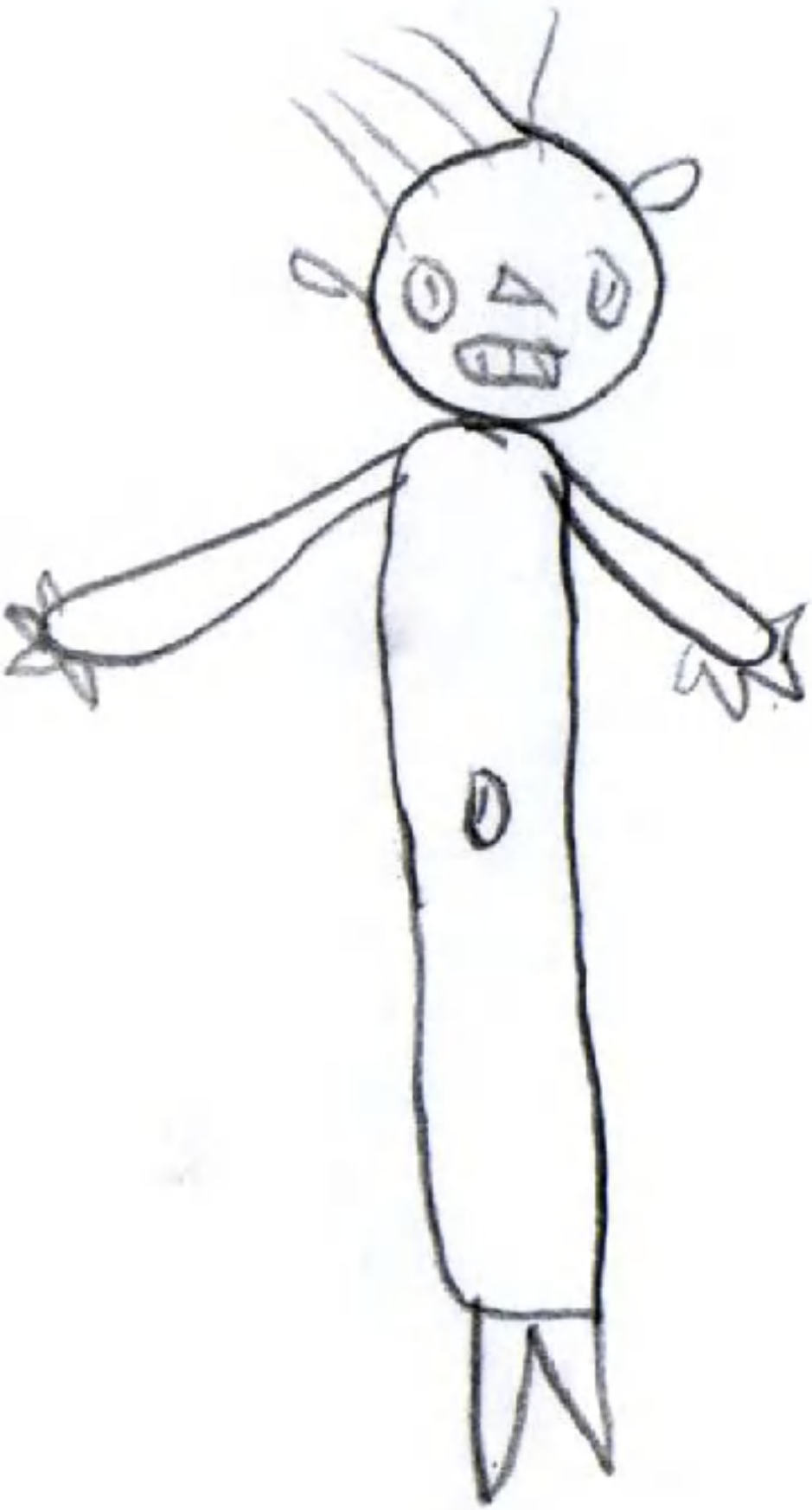

الحـــالة الأولى

الحـــالة الأولى

الحـــالة الأولى

الحـــالة الثانية

الحـــالة الثانية

الحـــالة الثانية

تمثيل لمكان الاعتداء

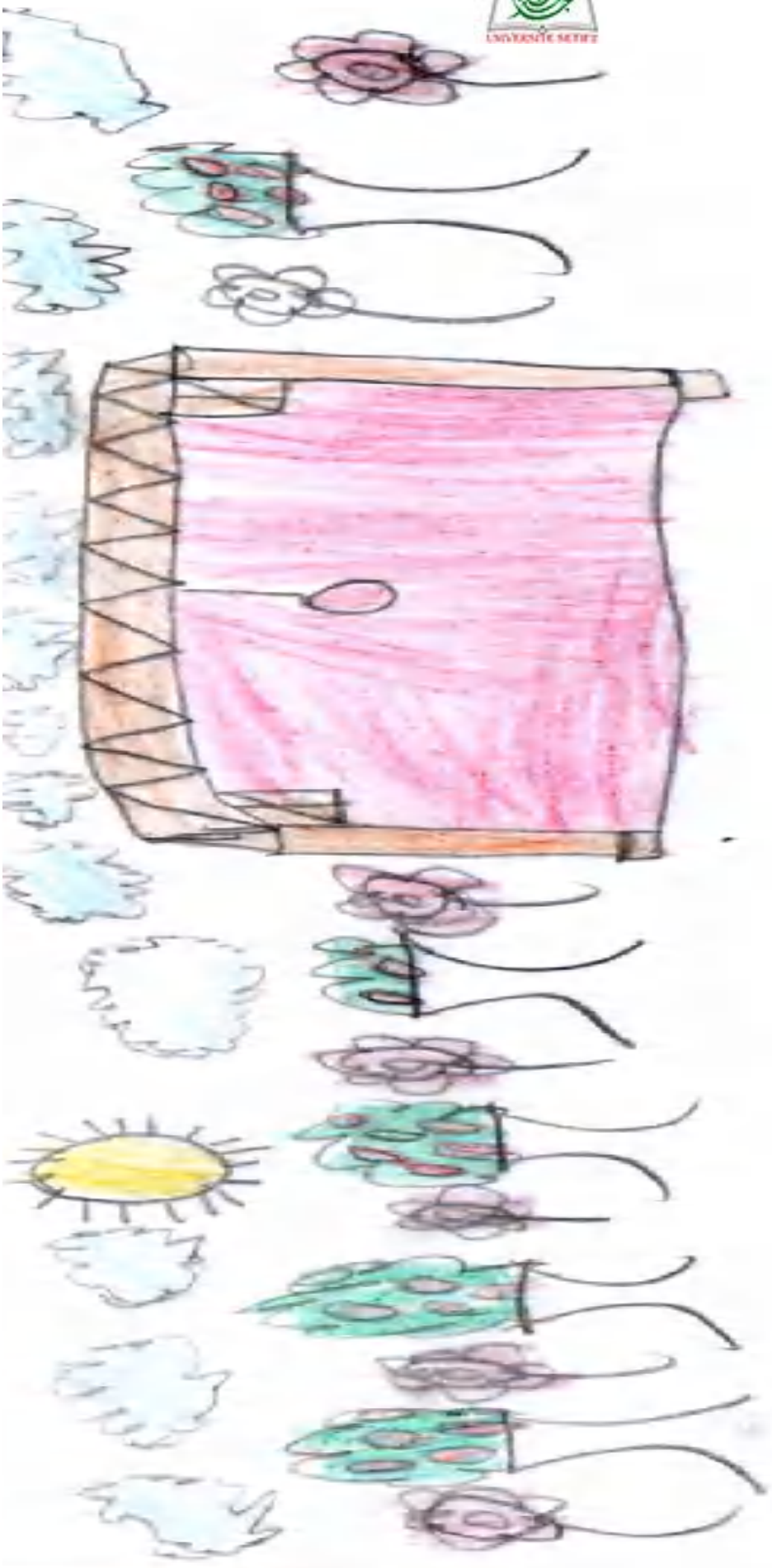

الحـــالة الثانية

الصورة موريّة للجسم

تنبني صورة الجسم وتتطور من خلال التواصل بين الاشخاص وبفضل الخبرات العلائقية المرمّزة والروابط المشبعة بالمعنى

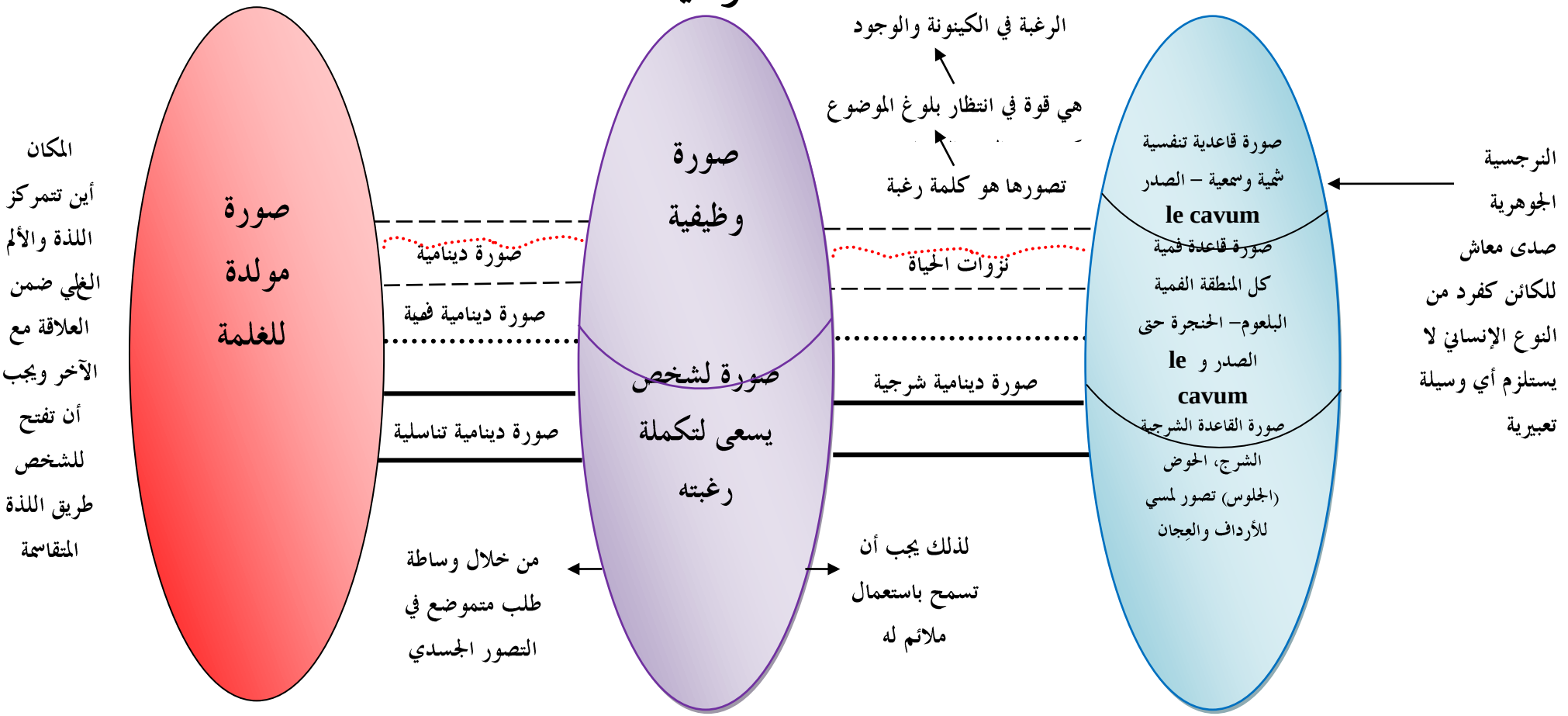

كيف تتفاعل الصورة اللاشعورية للجسم في حالة الصدمة؟

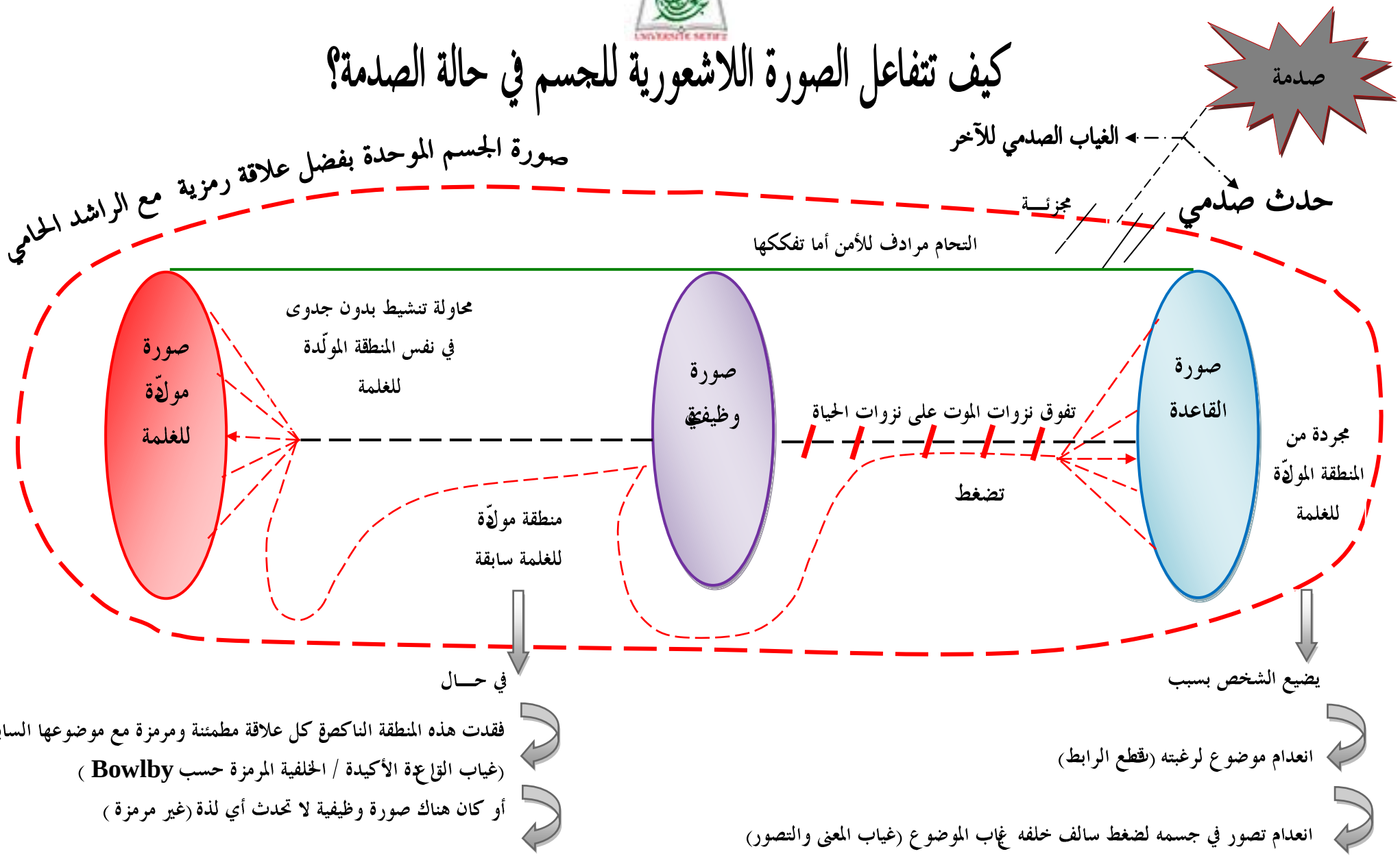

مما يؤدي إلى ظهور اضطرابات وأمراض نفسية وجسدية حسب صورة الجسم المصابة تبعا للحظة الصدمية المختبرة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

Université Sétif2